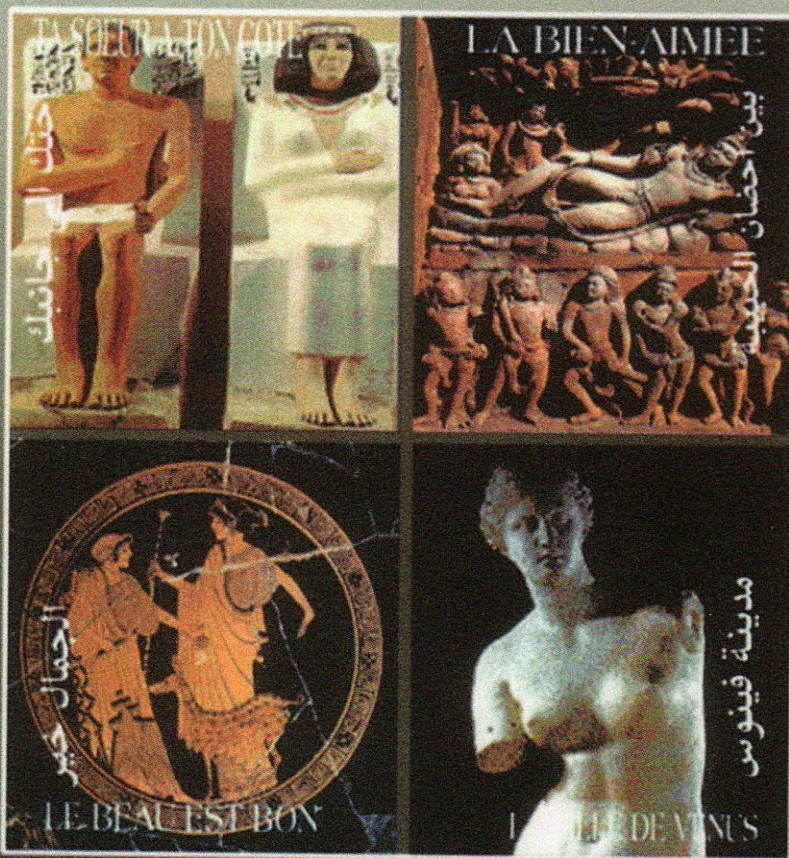


الجنس في العالم القديم



ترجمة: فائق دحدوح

تأليف: بول فريشاور



للتعويه أذكر أن الطبعة الأولى للجزء الأول من
هذا الكتاب (الجنس في الحضارات الشرقية) صدرت
(عام ١٩٨٨) باتفاق تم بين المترجم وإحدى دور
النشر، وقبيل انتهاء السنوات الخمس المتفق عليها،
أي (عام ١٩٩٣).

صدرت الطبعة الثانية للجزء الأول دون علم
المترجم وما زالت تصدر حتى الآن مع تكرار تاريخ
الإصدار الثاني نفسه (١٩٩٣) والنسخ البالغ عددها
١٠٠٠ لما تنفذ بعد؟؟؟؟

بول فريشاور

الجنس في العالم القديم

ترجمة

فائق محمود

جميع الحقوق محفوظة للمترجم
الطبعة الأولى ١٩٩٩

٢٠٠٠ / نسخة
طبع في مطابع جوهر الشام
التضيد الضوئي والإخراج : دار نينوى

الجنس في العالم القديم

الجزء الأول

المضاربات الشرقية

تصدير. المتوجم

للجزء الأول

«يلعب هو دور الذكر، وتلعب هي دور الأنثى، وهو يلعب دور الذكر لأنها تلعب دور الأنثى، وهي تلعب دور الأنثى لأنه يلعب دور الذكر، وهو يقوم بدور ذلك النوع من الرجل الذي تعتقد هي أن نوع المرأة، الذي تقوم بلعب دوره، لا بد أن تعجب به، وهي تقوم بدور ذلك النوع من المرأة، الذي يعتقد هو أن الرجل الذي يلعب دوره، لا بد أن يرغب فيه، ولو لم يكن يلعب دور الذكر، لكان على الأمر جح أشد منها أنوثة. اللهم إلا في الحالات التي تكون فيها مسرفة في لعبة الأنوثة، ولو لم تكن تلعب دور الأنثى لكانت على الأمر جح أشد منه ذكورة إلا في الحالات التي يكون فيها مسرفاً في لعبة الذكورة.

وهكذا يزداد لعبه شدة، ويزداد لعبها نعومة»

(*) عن الكاتبين بيبي وتيودور روزاك - ذكورة وأنوثة - ترجمة الدكتورين: عبد الوهاب محمد المسيري وهدى عبد السميع حجازي.

«ليست كل أفعالنا تميل نحو الجنس ميلاً واعياً أو غير واع، كما يظن فرويد، لكن مدار الأمر هو أننا نلقى حياتنا الجنسية وقد أثرت في معظم أفعالنا..»

«الحياة الجنسية تريد أن نبلوها ونعرفها تمام المعرفة، لأنها إحدى السبل التي منها يتخطى الإنسان الإنسان، على أن يكون قد وافاه واتصل به والتأم فيه*».

في هذا الكتاب يعرض الكاتب، باختصار، للعلاقة الوشيحة القائمة ما بين الرجل والمرأة - الذكر والأنثى - عبر مسيرة الإنسان الطويلة المديدة، منذ نشأته حتى استيطانه إنساناً حضارياً في مدنيات عالية التطور بعد أن تهيأت أسبابها: الجغرافية والجيولوجية والاقتصادية والبيولوجية والثقافية... فخرج المؤلف على الإنسان البدائي لينتقل بنا، بعد ذلك إلى بلاد الرافدين ومن ثم إلى مصر فالهند وأخيراً إلى بني إسرائيل.. متطرقاً إلى الحياة الجنسية في تلك المجتمعات من خلال سياقها التاريخي - الحضاري، ليشكل مع الأسطورة والثقافة والبنية الاجتماعية لحمة متماسكة.

أحسست، إذ قرأت الكتاب، للمرة الأولى، وكأني بمسافر في قطار سريع يلتزم برنامجاً صارماً، لا يتوقف إلا في الأماكن التي رسمها لنا المؤلف، فما أن يبدأ في الكشف عما تخفيه تلك العين الساحرة: الماضي، من قصص وأحداث ومشاهد، حتى يجذبنا إلى موضع آخر جديد وفي النفس، لما نزل بعد، رغبة في معرفة المزيد.. مما حدا بي، بين الحين والآخر، إلى أن أستوقف المؤلف واستمهله لأضيف إلى الترجمة، كلمة أو جملة أو بضع أبيات لتكتمل الفكرة وتغلو لوحة يرضى بها بل ويرتاح لها القارئ العربي.

وهذه الدعوة إلى استلهام الماضي، بتقصي أساطيره وبنيته الثقافية وما خلفه من آثار، ليست وليدة الحاضر، فقد دعا إليها، منذ زمن، نخبة وافرة من علماء

(*) رينه حبشي: بدايات الخليقة، ترجمة خليل رامز سر كيس.

الانثروبولوجيا، والأثنولوجيا، والاجتماع، والفلاسفة، والباحثين والمثقفين.. تتنازعهم ميول شتى تختلف باختلاف مشاربهم ومضاربهم - للأسف لم يترجم إلى العربية، حتى الآن، إلا النزر اليسير مما قدمه ذوو الاختصاص في تلك الميادين - فخلص البعض إلى أن: «العقل الإنساني، على الرغم من الفروقات الثقافية بين مختلف أجزاء البشرية، هو ذاته هنا وهناك، وأنه يمتلك الطاقات ذاتها*»، و«نادى البعض الآخر باستلهم الماضي للخروج من حضارة الحاضر - حضارة المأزق والأزمات - التي جرّت الإنسانية إلى هوة حتفها بأن وضعت كوكبنا الأرضي تحت رحمة ذرة لا تُرى ولا تقع تحت الحواس»، ودعا فريق ثالث الأوروبيين للخروج من قوقعتهم والتخلي عن التغيي. بملحمة الرجل الأبيض وأسطورة رجالهم اللامعين... حتى إن السوربون لا يخن على الفكر الهندي إلا من أجل التذكير بأولوية الفكر الغربي الوحيد المقدر له أن يبدد هذا الليل حيث جميع الأبقار سوداء»، ويستطرد غايتان ليكون يتحدث بلسان قطاع كبير من مفكري الغرب:

«إن التاريخ لم يعد تاريخنا، نحن، والفن لم يعد فننا نحن، والكتب لم تعد كتبنا نحن، والتفكير لم يعد تفكيرنا نحن. إن عالمنا أضجى ضوءاً خافتاً، مرتعشاً، تعصف به رياح الشيء المقدس، والخرافي، والأقدار الغريبة، وهو يعلم بأنه لم يعد مقياس العالم، لقد أدرك مكانه».

ونحن، إذ ندعو القارئ إلى الإلمام بالماضي، بماضيه خاصة، إلاماً يشمل أقصى منحرجاته، فإننا ندعوه، في الوقت نفسه إلى أن ينفذ منه إلى اليوم الذي هو فيه.. «فالأصالة لا تستخف بالماضي، ولا تنكر المستقبل، وهي تيقظ لغنى اليوم الحاضر*».

.فاتق دحدوح.

(*) كلود ليفي شراوس.

(**) رينه حيشي: المرجع السابق.



الفصل الأول

الإنسان البدائي

تسلسل زمني

منذ ٣ مليارات من الأعوام أقدم دلائل الحياة.	
منذ ٣ ملايين من الأعوام دخول البشرية مرحلة الانتقال ما بين الحيوان والإنسان.	
صنع الأدوات الأولى (إنسان أستراليا وإفريقية القديم).	قبل ٢,٨ مليونين من الأعوام
الأرض في عهدها الرابع (الحقبة الجليدية).	منذ ٢,٥ (؟) مليونين من الأعوام
استعمال النار (إنسان بكين وهنغاريا).	قبل ٤٠٠ ألف عام
ظهور إنسان نياندرتال.	قبل ١٠٠ ألف عام
ظهور الإنسان العاقل مع أشباهه النموذجيين (بعض الأشكال البدائية الأقدم من إنسان نياندرتال)	قبل ٤٠ ألف عام
العصر الحجري المشذب (الباليوليتي)	قبل ٢٥ ألف إلى ١٠ آلاف عام قبل الميلاد
رسوم منقوشة - تماثيل فينوس صغيرة - رسوم جدارية.	

الاحتتم بالحياة

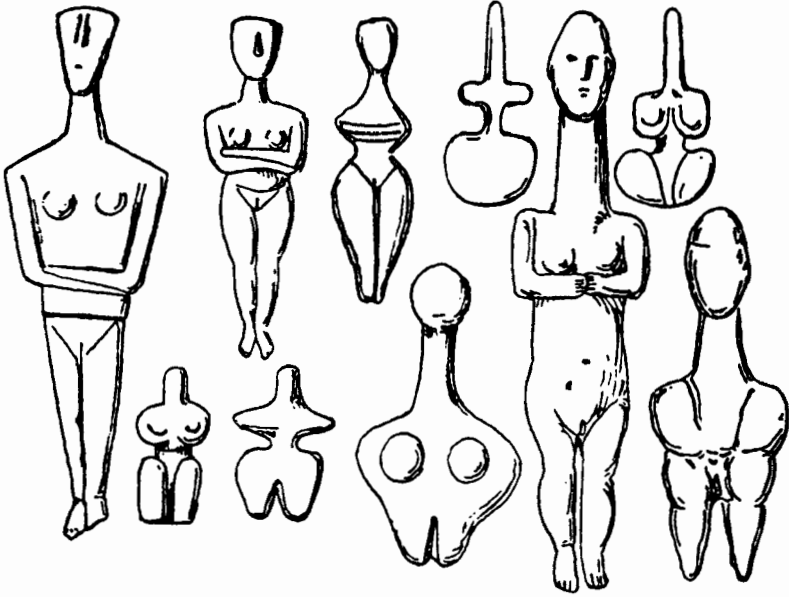
- نحو ١٠ آلاف عام ق.م نهاية العصر الجليدي في أوروبا الوسطى.
- نحو ٨٠٠٠ عام ق.م العصر النيوليتي، عصر الحجر المصقول - المدن الأولى في الشرق الأدنى - تدجين الكلاب والماعز بدايات الزراعة في الشرق الأدنى.
- من ٦٥٠٠ إلى ٥٥٠٠ عام قبل الميلاد اختراع السيراميك في الشرق الأدنى - أحداث المدن الكبرى في جنوب آسيا الصغرى.
- نحو ٥٥٠٠ عام ق.م بداية عصر النحاس (آسيا الصغرى وإيران)
- نحو ٣٥٠٠ عام ق.م بداية عصر البرونز، الكتابة الرمزية الأولى فيما بين النهرين.
- نحو ٣٠٠٠ عام ق.م بداية التاريخ المدون في سومر ومصر، وبداية الحضارة الماجلانية في أوروبا الغربية (منيهير).

«التمتع بالحياة»

لم يبدأ تاريخ أخلاق الإنسان وعاداته في الفردوس:

فآدم لم يكن الرجل الأول، وحواء لم تكن المرأة الأولى، ذلك أن العلوم الطبيعية تعلمنا اليوم أن الله لم يخلق الإنسان كما جاء في التوراة. فالإنسان بالنسبة للعالم لم يأت، بأي حال من الأحوال، تويجاً للخلق: فهو وان تحلى، بالطبع، بمزايا خاصة ومتمردة إلا أنه الحصلة النهائية والراهنة لتطور طويل الأمد تم عبر العصور. بمقدورنا تمثيل هذا التطور بشجرة الأنساب، تلك الشجرة التي تمتد جذورها في الماضي البعيد إلى ما قبل مئات الملايين من السنين، حين ظهرت الحياة في المحيطات الشاسعة في الكائنات الوحيدة الخلايا التي تحتل مكانها، وهذا أمر شاذ وغريب، «ما بين النبات والحيوان». وقد وُلدت هذه الكائنات الأصلية بانشطارها والتحامها وانقسامها واتحادها أشكالاً أخرى جديدة. ومن خلال تحولات لا تنتهي للبنية الوراثية، تلك التحولات التي سمحت، على الدوام، بظهور تكيفات جديدة تتواءم وتبدلات العالم المحيط، تشكلت كل مظاهر الحياة على كوكبنا، فظهرت كل أنواع الحيوان والنبات، الأرضية منها والبحرية، في سلسلة متتالية من الأجيال، إذ كانت كل حلقة منها تنحدر من سابقتها لأن

حب الحياة كان يدفع بها، وبقوة لا يحيد عنها، نحو حياة جديدة أبداً، وقد أدت إحدى هذه التغيرات التي طرأت على شجرة أنساب الحياة إلى ظهور الحيوانات الفقرية مع الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات. وإلى جماعة الثدييات ينتسب الإنسان المنحدر من القرد على نحو غير مباشر: الإنسان العاقل الذي بدد غموض أصله*. ذلك هو رأي علماء الحياة الذين يرون في مبدأ النشوء والارتقاء المتواصل في كل كائن عقيدة وقانوناً. لكن الإنسان في تطوره قد أخذ عن الحيوانات أسلافه حب الحياة والتمتع بالإنجاب والاستمرار فطور ذلك وارتقى به.



مخططات نقوش وتماثيل صغيرة تعود إلى الألف الأول أو الثاني قبل الميلاد،

اكتشفت حديثاً في جزيرة كريت

(*) يطلعنا المؤلف في هذه الفقرة «بتجرد» على رأي علماء الحياة المنتمين إلى نظرية داروين في النشوء

الرجال البدائيون

يتبنى مبدأ التطور الآن كل العلماء، ومن بينهم علماء اللاهوت، حتى ان رجل الدين المثقف لم يرفض نظرية التطور المتواصل لكل ما هو كائن، على اعتبار أنها نظرية متتهكة للحرمان ومدنسة للمقدسات، بل هو، على العكس من ذلك، لا يرى فيها ما يناقض الدين والإيمان بالله الكلي القدرة والوجود، خالق السموات والأرض وواهب العالمين والإنسان، ضمناً، «الكينونة»، و«الصيرورة».

لما يتجاوز بعد عمر نظرية التطور، بوصفها مذهباً علمياً، قرناً من الزمان. كما أن علم تاريخ الأخلاق الأكثر حداثة والذي يطبق على الإنسان دراسته لسلوك الحيوان لم يكتف وعلماء الحيوان بالتثبت من أن الفروق التشريحية بين الإنسان وأجيال الأسلاف المشتركة في مملكة الحيوان هي فروق طفيفة ليس لها كبير أهمية. فقد شرع علماء تاريخ الأخلاق بدراسة سلوك الحيوان والإنسان دراسة أساسها الملاحظة الدقيقة والمراقبة الاختبارية. وعليه فقد غدا بمقدورهم تقديم عدد هائل من الأمثلة والأدلة التي تعزز وتؤكد ان الغرائز الأساسية واحدة عند كل من الإنسان والحيوان: وكما هو الحال عند الحيوان فإن وجود الإنسان يعتمد على غريزة البقاء وان رغبته في الحياة ترتكز على الغريزة الجنسية. وكما هو الحال عند الإنسان فإن العديد من أنواع الفقرات والتدنيات تؤلف عائلات وجماعات وتحديث مستويات اجتماعية داخل هذه الجماعات وتحليل العلاقات الجنسية بين الذكر والأنثى إلى «شعائر وطقوس»، حتى إن ضروباً من السلوك النمطية، المتكررة بين الجنسين بطريقة مقبولة تماماً وتبعاً لمخطط مرسوم بدقة، تسبق كل اتحاد جنسي.

إن لدى كل من الحيوان والإنسان أفعالاً تتكرر بانتظام أو تتعاقب وفق مخطط ثابت وذلك تبعاً لدرجة تطوره وحساسية جملتهم العصبية وأعضائهم الخاضعة لتأثير الهرمونات. والأمر هنا يتعلق ببعض أنماط السلوك وبعض عادات الحياة والأعراض التي يمكن أن نطلق عليها، بثقة «الأخلاق»، بل ان علم تاريخ

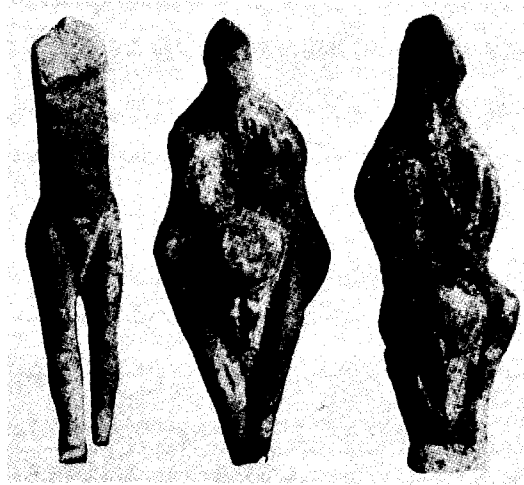
الأخلاق قد استمدت تسميته من الكلمة اللاتينية «Ethos» التي تعني: العادة، العرف، الممارسات الخ... ويمكن لهذه الأخلاق أن تتغير وتتعدد عند النوع الواحد من أنواع الحيوان، كما أن أخلاق الإنسان، بالطريقة ذاتها، تتغير وتتنوع تبعاً للمناطق التي يعيش فيها ووفقاً للشروط الحياتية. وقد أظهر علماء تاريخ الأخلاق، من خلال أبحاثهم، إن الغريزة، ذلك الميل الفطري، المكتسبة بالوراثة والخاضعة لتحريصات الجملة العصبية وتأثير الهرمونات التي تدفع بالكائن إلى أفعال جوهرية بالنسبة للحياة والبقاء، هي صاحبة السيادة التي توجه جميع الفقريات والثدييات. والإنسان بدوره خاضع إلى قوانين «الأخلاق» الكبرى للطبيعة، وهي قوانين محتومة تتحكم بها الغريزة، فالإنسان بالنسبة لعلماء الأخلاق «المختصين بالسلوك» قد اكتسب أخلاقه الأساسية من الحيوانات ومعها قبل أن يتغير والقرود أقرب أقربائه بفضل وضعية المشي واقفاً وحركية رأسه الخاصة واستخدامه ليديه ونمو مخه وكماله، وبخاصة بفضل دماغه، أي قبل أن يبدأ في التفكير، فبقدر ما اتسع صندوق جمجمة الإنسان ورقت عظام فكليه وقويت عضلات ساقيه وتنامت مهارة يديه، تطورت عبر آلاف السنين ملكاته العقلية الخاصة به، تلك الملكات التي أطلق عليها هؤلاء الباحثون اسم «الروح» «الفكر» (وحول هذه النقطة يجمع ذوو الاختصاص في التطور والسلوك)، كما ربطوا تطور الوعي المتعاضم عند «الرئيسات»⁽¹⁾ حصراً بهذا الاختلاف المتعاضم للجملة العصبية المركزية ونمو المخ.

إن علم السلوك المقارن يجتهد في إثبات ان الثدييات العليا، بخاصة، تمتلك على الأقل مبادئ الروح «الفكر» ودرجتها الأولية.

(1) الرئيسات أو المقدمات «PREHOMINIEN» اسم الكائنات الشبيهة بالإنسان والتي سبقت الإنسان «الفعلي».

الرجال البدائيون

ترى ماهي الظروف وما هي التأثيرات الخارجية التي استطاعت دفع الإنسان الأول «للتفكير» وحملته بقوة على استخدام أدواته وعدده، وعلمته تحويل ما يصدر عن حلقه من أصوات إلى لغة يتكلمها، وان يكيف كل سلوك غريزي مع فعل مدرك وواع؟



تماثيل صغيرة من قبل التاريخ، لا بد من أنها، ودونما أدنى شك، تماثيل للخشب
محفظة في متحف سان جرمان آن - ليل

لم تستطع الأبحاث البيولوجية، حتى في أيامنا هذه، تقديم الإجابة الوافية على هذا السؤال، إلا ان هناك شيئاً مؤكداً في جميع الحالات: ان السيرورة (عملية التطور والتقدم) قد بدأت في هذه المرحلة من مراحل التطور التي ندعوها بـ«مرحلة الانتقال ما بين الحيوان والإنسان» ففي فترة من الفترات المحددة لم تملك البشريات الأولى القدرة على الجماع والإنجاب بالاتصال مع أسلافها الشبيهة بالإنسان، فطرات تبدلات جوهرية في الأساس الوراثي نتج عنها تحولات في مركب نظفة الذكر وفي طبيعة البيضة المؤنثة القابلة للتلقيح، أضف إلى ذلك ما

طراً من تحولات في السلوك لا تقل عنها أهمية مما حدد الإنجاب عند نوع البشريات التي انفصلت عن «أسلافها» فسلكت دربها الخاص بها. إن عنصراً ذا طابع تشريحي قد لعب دوراً حاسماً: تغير وضع الأعضاء الجنسية الذي حدث على الأرجح الغالب بعد الوقفة العمودية. إن أنثى «الرئيسات» تتميز عن أنثى القرد بواقع أنها لا تقوم قط بالعمل الجنسي «على نحو أعمى» إلى حد ما، إذ أصبح باستطاعتها، من الآن فصاعداً، أن تشعر باللذة وأن تتمتع «بالمشاهدة» فلم تعد المرأة - مثلها في ذلك مثل الرجل - «عمياء» تخضع «آلياً» للغريزة الجنسية.

حاول، في أيامنا هذه، عدد من علماء الحياة ومختصي علم الجنس وعلماء النفس، وبنجاح مؤكد، ملاحظة السلوك الجنسي ومقارنته وتحليله عند كل من الإنسان والحيوان، وهكذا فقد أصبح بالإمكان البرهنة على أن الكائنات الإنسانية لا تخضع للهرمونات الجنسية خضوع بقية الحيوانات اللبونة حتى أكثرها تطوراً. إن قشرة الدماغ عند الإنسان قادرة على الاضطلاع بتوجيه سلوكه العام وبخاصة سلوكه الجنسي.

إن المداعبة العشقية قبل العملية الجنسية هي عند الإنسان أكثر ثراء وتنوعاً وابتكاراً منها عند الحيوان بمداعباته وحركات تقربه من أنثاه، فقد ابتكر الإنسان مختلف الأوضاع الجنسية ليزيد في متعته الجسدية، واستفاد، ليس فقط، من قدرة المرأة على التمدد على ظهرها بعد أن استقامت قامتها - إذ يستحيل هذا الأمر على أنثى الحيوان - ولكنه استطاع ان يتبنى أيضاً الوضع الطبيعي لأسلافه، باستناده على أطرافه الأربعة، دون تعداد للأوضاع الأخرى التي ابتكرها وهي لا تحصى.

يبرز من خلال المقارنة بين الحياة الجنسية للحيوان وحياة الإنسان الجنسية اختلاف جوهري: لا يستطيع ذكر الحيوان، البتة، أن يُكره أنثاه على السفاد، وبناء على ذلك، فإن لها الحرية الكاملة في الرفض أو القبول، ولهذا السبب يلجأ الذكر إلى خطب ود الشريكة التي اختارها واختارته بالغزل والتودد، وإلى هذا

الرجال البدائيون

الواقع تعود المحاملات الفطرية والغريزية للرجال حيال النساء، وهي محاملات ورثناها عن أسلافنا. بمقدور كل رجل أن يغتصب المرأة التي يشتهي سواء بشل وسائل دفاعها أو بضربها أو بتهديدها وترويعها وهكذا يستطيع الرجل بتحطيمه مقاومة المرأة وشل قوتها أن يصبح السيد الأمر.

وعلى أثر التربية وما يتمتع به الإنسان من سجايا واستعدادات طبيعية غدا هذا السلوك مستهجناً وغير ممكن عند الأغلبية العظمى من الرجال. ومن الممكن أن نستشف في أقدم قواعد الإنسان الخلقية العقاب الصارم ينزل بكل من يجرؤ على انتهاك العادات التي يراعيها عالم الحيوان ويخضع لها.

إن مرحلة التطور التي يطلق عليها الطبيعيون اسم «الفترة الانتقالية ما بين الحيوان والإنسان» والتي، بدءاً منها، لم يقترن الكائن الإنساني إلا بأمثاله، قد وردت بحد في بعض تأويلات التوراة النقدية.. وعليه فإن هذه التأويلات تنطلق من فكرة انه إذا كان العهد القديم كله لم يصف صراحة مراحل التطور في الكون فإنه، مع ذلك، قد تضمنها جميعاً تحت أشكال من الصور والرموز. ويوضح هؤلاء انه بالإمكان، إن صح القول، ان نكتشف فيما بين سطور الفصل الثاني من التكوين العصر والظروف التي لم تستطع فيها الرئيسات من القروود ان تتلاقى ثانية لكي تتزوج وتنجب على الرغم من عظيم شبهها بالإنسان.

إن مشهد خلق الإنسان مألوف عند جميع أولئك الذين يعرفون العهد القديم. ففي جنة عدن حيث كان الإنسان الأول يتمتع بكامل ما في الطبيعة الفردوسية وفي محيط وارف زاهر بالنبات وحيث كانت «جميع أنواع الحيوان فوق الأرض وكل أنواع الطير في السماء، وكان الإنسان يتميز عن الحيوانات بمشيته على القدمين وقدرته على النطق، وأعطي كل الخليفة باستثناء واحد منها: فقد حظر عليه أن يأكل من «شجرة معرفة الخير والشر» كانت الجنة توفر له كل شيء. ومع ذلك فقد كان الإنسان يفتقد شيئاً ما: إذ كان وحيداً». حينئذ

قال الرب: «لا يحسن أن يكون الإنسان وحده، فلأصنعن له عوناً يناسبه»، ولم يقرر الإله ذلك إلا بعد أن زود الإنسان بكل أنواع الحيوانات الحية. «وأما الإنسان فلم يجد لنفسه عوناً يناسبه». من ذلك نرى ان الإنسان الأول قد ألحق به المرأة الأولى باعتبارها عوناً له. ولكن في أي شيء كان لابد للمرأة أن تكون عوناً للرجل؟ وأي أعمال هي، والرب لم يحكم عليه بعد بأن «يأكل خبزه بعرق جبينه» بل كان يستطيع، على العكس من ذلك، ان يأكل وفق هواه من كل أشجار الجنة باستثناء «شجرة معرفة الخير والشر» ترى هل يشير هذا المقطع من العهد القديم إلى إن الإنسان الذي خلق مع كافة غرائزه الفطرية لم يصبح كائناً إنسانياً حقاً إلا بعد أن أصبح بمقدوره إشباع رغبته «الحيوانية» باتصاله بامرأة من نوعه بالذات؟ أم ان هذا التمهيد للمأساة المثقلة بالنتائج والعبر لابد انه يعني ان القوانين الأخلاقية السائدة في عهد تدوين العهد القديم كانت تدين كل فعل جنسي مع الحيوانات، باعتباره فعلاً شائناً منافياً للطبيعة، فرأت هذه القوانين في وجود عون للرجل أمراً يحسن ويطيب عند الرب الإله؟ لعل هذه القصة المنسجمة «ومفاهيم ذلك العصر» تريد أن تحدد منذ البدء المكانة الاجتماعية للمرأة التي هي «عون» للرجل أي هي كائن إنساني من الدرجة الثانية ملحق به بل تابع خاضع للرجل؟

إن الإجابة على هذا الفرض الأخير بالإيجاب يعني ان مكانة المرأة في أصغر تجمع إنساني، أي في الحياة الحميمة لأول الزوجين، قد حددها العهد القديم مع أخذه بالاعتبار أولاً وأخيراً للفروق بين الجنسين.

وعليه فقد كان من المحظر على أول زوجين أن يدركا الفارق الجنسي بينهما أو أن «يتعارفا» «يتعاشرا» بالتبادل على الرغم من حتمية أن يصيرا «جسداً واحداً»، اننا لم نلاحظ في أية قصة أخرى تدور حول الخلق ما نلاحظه في التوراة، تسمية للكائنات الإنسانية الأولى بأسمائها، ففي جميع الديانات

الرجال البدائيون

الأخرى لم نجد تعداداً للبشر الذين خلقتهم الآلهة وأقامتهم على الأرض، كما أنها لم تقل لنا إن كانت البشرية تعود إلى رجل واحد وإلى امرأة واحدة أو أنها كانت تضم، بخلاف ذلك، العديد من الأزواج. إذ بقي هذا مبهماً. لكننا نعرف فقط أنهم قد خلقوا، ونعرف غالباً ظروف خلقهم، وبالمقابل فقد كان لآدم وحواء مصير شخصي لا بد أن يصلح مثلاً وعبرة للإنسانية وان يمثل تحذيراً لها، أنهما شخصيتان مأساويتان، فقد أصبحا مذنبين لأنهما ارتكبا وانجزا أول عمل من تلقاء ذاتهما، عمل كان لا بد من أن يقوموا به بالضرورة مادام مقدراً عليهما أن يصبحا «جسداً واحداً».

ان عدم احترامهما لقانون لم يدركا عمق مغزاه أوجب عليهما عقاباً لا بد من ان تكون له قيمة بوصفه عبرة لجميع البشر الذين لا يمثلون لأحكام الرب وأوامره. ومع آدم وحواء ظهر في العالم مفهوم «خطيئة الجسد» واستمر عبر الزمن مقيماً في ضمير كل البشر الذين تربوا وترعرعوا على تقاليد التوراة.

لم يكن الرجل البدائي في اعتراف الخطيئة بل المرأة هي التي أغوته. لقد كانت المحرّض. فبتشجيع منها فقد الرجل براءته واضطره ذلك، في الوقت نفسه، إلى التخلي عن نعيم إقامته ومستراح بطالته وعما كانت عليه الحال في فردوسه. لقد سحرته فتوجب عليه أن يتحمل أعباء المسؤولية ليس عنه فقط بل عنها أيضاً. وفي مقابل ذلك بات على حواء أن تدعن لخدمته وتخضع لرغباته في أي وقت يشاء.

هذه القصة تنسجم «ومفاهيم ذلك العصر». ان الشعب - الذي كرس له العهد القديم وجمع من أجله جملة بعد جملة ليضع على أساسه روحانياته ويدعم بواسطته أخلاقياته - كان، في أصله، شعباً رعوياً ممعن التمسك بأعراف الحياة

(*) على عكس ما يورد مؤلف الكتاب هنا، فإن أكثر من نص بابلي قديم يشير إلى الزوجين البشريين الأولين. راجع بهذا الخصوص كتاب مغامرة العقل الأولى لمؤلفه فراس سواح فصل التكوين البابلي - المترجم.

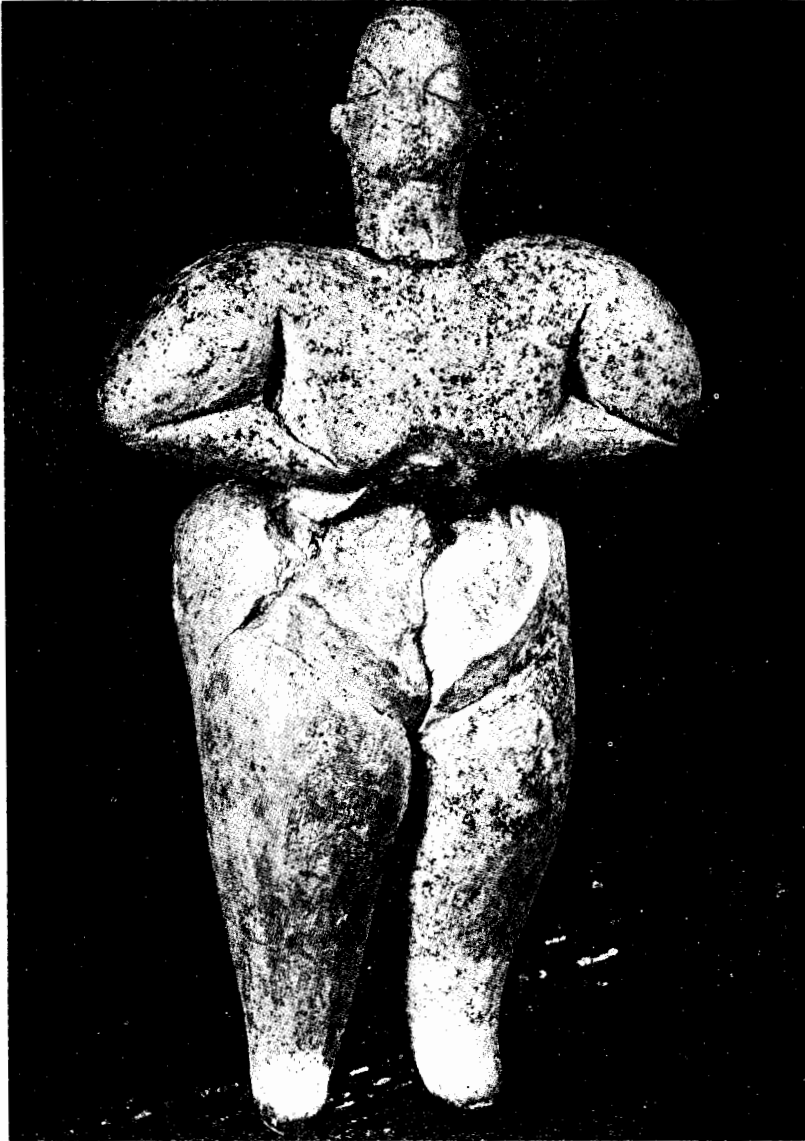
الرغوية وعاداتها وتقاليدها، على الرغم من تنقله المستمر بحثاً عن شروط حياتية أفضل، وخضوعه في مراحل حياته للمنفي أو الأسر، إنما الرجل في الحياة البدوية كان أبداً سيد أسرته الأعلى. ولكي يصبح من الممكن المستطاع تقديم علو المقام هذا وكأنه أمر فطري ولقطع دابر كل جدل يثار حول ذلك، حافظ الرجال على تفوقهم وصالونه بشرائع دينية تؤكد دونما منازع حقوقهم في الحكم والسيطرة على أسرهم، لكن الأمر لم يكن ليطم دائماً وفي كل مكان على هذا المنوال. ففي أزمان ما قبل التاريخ وارتقاء البشرية نجد حضارات تمنح الأمهات - أي النساء - مكانة استثنائية، وبخاصة أكبر الأمهات سنّاً في القبيلة، فقد كان لصوتهن أهمية كبرى في اختيار رئيس العشيرة الأسرية وفي المساهمة بجميع القرارات المتعلقة بالأحداث السعيدة، أو الأليمة للجماعة. وكانت تبارك هذه «الأمومية» كافة السلوكيات التي يمكن تخيلها عن أقوام الهلال الخصيب، ومنها «البلاد الواقعة بين النهرين» التي انبثقت عنها، كما تقول التوراة، أسلاف «بني إسرائيل». وقد أنشأ كهنة السومريين، أقدم شعوب الأرض، أسطورة عن الخلق كيلا ينسى الرجال ما يمكن أن يجده عند النساء في أحسن الحالات وأفضلها، ولكي تجدد النساء في المعتقدات الدينية أيضاً سبباً للمكانة التي مُنحها من الآلهة. ومن ثم فقد تناول الكهنة البابليون هذه الأسطورة وتوسعوا فيها وأكملوها وانتقلت عنهم إلى اليهود في زمن الأسر البابلي لهم.

في «ألواح الخلق السبعة» التي هي اليوم من أقدم الكتابات الدينية في منطقة ما بين النهرين، نجد انه كانت توجد في أصل العالم كائنات ذات قامات خرافية. وقد دل عليها بأسمائها لتصبح قريبة من مخيلة المؤمنين - على اعتبار أنها أشخاص - مما يعزز، بالتالي، وجودها الحقيقي، وكما ان كل حي لا بد من أن يكون حصيلة اتحاد ما فالعالم بدوره لا بد أن يكون، هو أيضاً، ثمرة اقتران وتزاوج وهكذا فإن تيامات (تعامه) أو الجوهر الأول كان الأم البدء أو الأصل في حين أن آبسو، المادة، كان الأب الأصل أيضاً. ومن اتحادهما ولد ممو...

وبواسطته لم يكن كل من تيامات وآبسو إلا كتلة لا شكل لها، العماء، الذي كان «الظلمات والمياه»، عندما ظهر النور المحب (ممو) الآلهة والشياطين (المردة) الذين شرعوا بتشكيل عالم لا شكل له لسخطهم على العماء الهادئ الساكن السعيد، فعكروا صفو تيامات بصحبهم الأبدى.. فعزم آبسو على استخدام القوة ضد هؤلاء المشاغبين، لكن الأم لم ترغب في فناء الآلهة والشياطين. وفي الوقت ذاته عزم ممو على تنفيذ ما اتواه آبسو. وعلى الرغم من السرية التي أحاط بها استعداداته علم الآلهة والشياطين بمخطط الإبادة. اغرق إيا (إله الحكمة) آبسو في سبات عميق، لا عودة منه، وبزت أعضاء ممو الذكرية فأصبح محروماً من النور: العماء ولم يعد له وجود قط. إلا أن تيامات أرادت أن تتألم موت آبسو وخصاء ممو فاتحدت بكنجو إله الشر فأنجبا معاً نجوم السماء الشبحية التي حكمها كنجو بصفته «حارس ألواح القدر» فقالت له تيامات: «فليتم كل ما تنطق به شفتاك».

لم يجرؤ أي من الآلهة على الوقوف في وجه تيامات وكنجو. باستثناء مردوخ، إله بابل فيما بعد، الذي نادى بقدرته على التمرد والتحدي، واشترط أن تلتزم بقية الآلهة بالاعتراف به إلهاً مطلقاً إن هو استطاع أن يجرّد تيامات من قدرتها على الضرر والأذية، وأثبت مردوخ تفوق سلطانه.. كان يحتفي تارة ويعود للظهور تارة أخرى... كانت ذراعاه البرق والرياح، وبها تغلب على تيامات وقسمها نصفين كما الصدفة، من نصفها الأول صنع السماء ووضع فيها الشمس والقمر وكوكبة النجوم، وسنّ للكواكب والنجوم قوانين تلتزم بها ولا تحيد عنها، ومن نصفها الثاني خلق الأرض.

وبقيت تيامات بعد تقسيمها، حية في أذهان المؤمنين في حضرة وحش ذي مظهر مروع شنيع، مزود بقرون وأجنحة ومخالب، وأصبحت تعبر الأسماء بقادر على كافة التحولات، ومن أكثر هذه التحولات خطراً هو التحول إلى إنسان يتخذ فيه مظهر أفعى منتصبه ومتصلبة مقلدة، شكلاً ووضعاً، عضو الذكور في حالة الانتصاب إذ أن نظرة واحدة إليه تدفع بالإنسان إلى الرذيلة والتهتك.



تمثال صغير للام الإلهة يعود إلى ما بين ٥٧٠٠-٥٦٠٠ ق.م

الرجال البدائيون

إن الأم الأصل قد سقطت، بعد ان جردت من قدرتها وسلطانها، إلى مستوى غاوية مضللة وشريرة منحرفة، لقد أصبحت امرأة منذورة للدعارة. تتظاهر بالبراءة وتتخفى على شكل أفعى تتربص بضحيتها خلف شجرة الحياة «التي تحمل ثمار الخير والشر» السماوية الأرضية. وبقدر ما كانت تيامات خليقة بالإغواء دون سائر الكائنات الحية كانت تحتاج إلى إرواء نزعة الشر فيها، فأخذ الملل يدب فيها كما دب في بقية الآلهة الذين أتوا مردوخ يرفعون إليه شكواهم، إذ لم يوجد بعد - حسب ما جاء في «ألواح الخلق السبعة» - أي متعبد يقدم لهم الأضحيات والقرابين. عند ذلك قرر مردوخ، وكان في اتخاذه مثل هذا القرار خطة «ماكرة»: «سأخلق بني البشر» فانهم سيكونون عوناً ونفعاً للآلهة وراحة لهم. فقتل مردوخ، بناء على نصيحة إيا (إله الحكمة) كنجو الشرير وبواسطة من دمه ومن «عظم الأرض خلق بني البشر، الذين تسري في عروقهم دماء كنجو الشيطانية التي تنفث فيهم الرغبة في الشر وتزرع في النساء أيضاً الرغبة الشبقية الفطرية».

إن الأم الأصلية الشريرة تيامات المتحولة إلى أفعى والموصوفة في «ألواح الخلق السبعة» بالغاوية المضللة التي لا يمكن صلاحها هي تلك الأفعى التي دفعت المرأة الأولى في العهد القديم إلى إغواء الرجل الأول. فقد مجدت الأفعى وامتدحت بكثير من الإقناع ما في الثمرة المحرمة من متعة ولذة مما حمل المرأة الجاهلة الطائشة على الرضوخ.

كان لا بد للخطيئة الإنسانية تماماً - التي اقترفتها حواء - ان تكون المثال الأول للغواية والضلال. جاء في التوراة عن أول زوجين من البشر: انهما كانا عريانين، الرجل وامرأته، وهما لا ينجحلان. ولم يصبحا كذلك إلا بعد أن أكلا، على الرغم من النهي، من ثمرة تلك الشجرة التي قالت عنها الأفعى الماكرة انها «شجرة شهية لذيدة» وغدا الرجل والمرأة بسببها نافذي البصيرة ومدنين.



ليليث أو ليلاه، الإلهة الشيطانية إلهة الليل والموت،
نحت بارز من سومر (الألف الثانية ق.م)

وبواسطة هذا الخجل، ذلك الشعور الذي كان يجهله حتى الآن كل من
آدم وحواء، أو جدوا أول درجة «زي» أقرتها التوراة، الغاية منها ستر الأعضاء
الجنسية كيلا تدفعهما رؤيتهما إلى تكرار العمل المحرم.

الرجال البدائيون

ووفقاً لكافة تأويلات العهد القديم اللاهوتية والفلسفية فإن واقعة تذوق الثمرة المشتهاة رمز لقيام الرجل والمرأة بالعملية الجنسية، وقد مارسها بوعي وبقصد الحصول على المتعة. وبما أن الرب قد حذر على الإنسان تذوق الثمرة المشتهاة فإن الاتحاد الجسدي لآدم وحواء قد أدانته العقائد القائمة على العهد القديم: انه «الخطيئة الأصلية» و«الزلة»، فالمرأة وقد دفعها الأفعى هي الساقطة الأولى، أما الرجل فهو ضحية إغراء المرأة وإغوائها^(١).

إن للموروث الديني نفوذاً، ليس فقط، على مكانة المرأة الاجتماعية بل وعلى السلوك الأخلاقي لكلا الجنسين أحدهما تجاه الآخر: ان حذر الجنس الذكر واحتراسه من الجنس المؤنث تعبير عن خشية الرجل من حساسيته الخاصة ومن عواقب الإغواء، والمرأة من جهتها تشعر بضرورة اغواء الرجل دونما أي تردد وباللجوء إلى كافة الوسائل التي يمكن تخيلها، بغية جذبته ودفعه إلى ممارسة العمل الجنسي.

لكنها تريد أن تظهر بمظهر المغرر بها - إن لم يكن من الرجل فعلى أقل تقدير من الأفعى التي تمثل، ليس فقط في «مفاهيم ذلك العصر» بل أيضاً في رأي ذوي الاختصاص بعلم الإنسان في وقتنا الراهن، رمزاً قضيبياً، صورة لعضو الذكورة في حالة انتصابه.

وعليه فقد وصفت أول عملية جنسية بأنها مخالفة لأمر الإله فهي بالتالي خطيئة لا تغتفر. وقد ساد هذا المفهوم ورجحت كفته عبر الأجيال حتى أيامنا هذه، ذلك ان الخطيئة الأصلية قد ارتبطت مباشرة، في العهد القديم، بمعرفة الخير والشر وأدينت قبل أية خطيئة أخرى، ولم تظهر الوصية: «لا تقتل» إلا بعد «الزلة» وطرد آدم وحواء من الفردوس ومقتل هايبيل على يد أخيه قابيل.

^(١) لقد كان لخطيئة حواء، كما جاءت في التوراة، أثر كبير في ذاكرة بني البشر، يشهد على ذلك ما دونه رجال الدين والمفكرون والفلاسفة والأدباء، وما ألفه الموسيقيون ورسمه الفنانون.. - المترجم -.

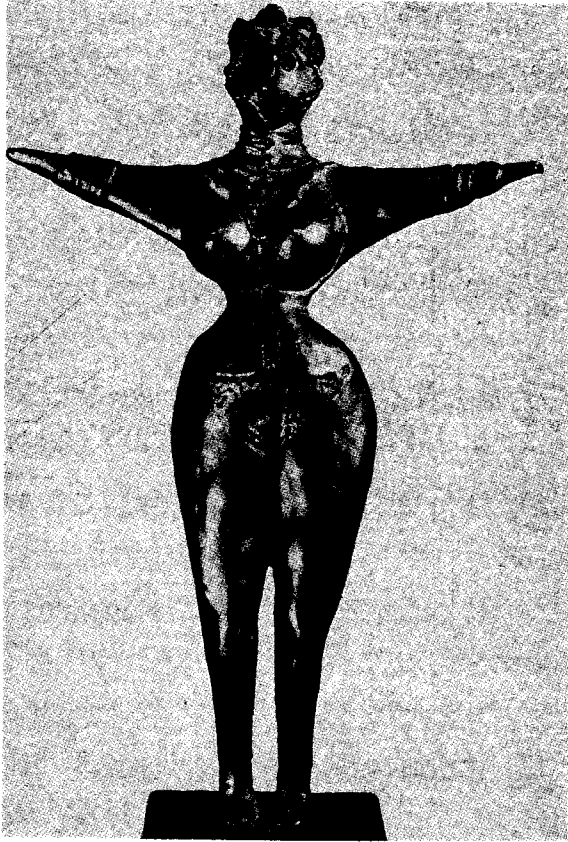
ويرى اللاهوتيون في عملية خلق الرجل الأول الذي صنعه الرب من حفنة من تراب ونفخ في أنفه نسمة الحياة تمثيلاً رمزياً: ان على هذه الصورة ان تجعل المؤمنين يدركون ان الرجل، المخلوق المختار، قد تلقى روحه من الله، وبناء على ذلك فقد غدا «آدم» الذي يعني في لغة التوراة «الرجل» أي الرجل الذي حباه الله بقدرات روحانية، «الإنسان العاقل» «الذكي» «الذي منح قدرة السيادة على الأسماك في البحر والطير في السماء وعلى جميع الحيوانات التي تدب على الأرض».

أما فيما يتعلق بـ«تشكيل» المرأة الأولى من أضلاع الرجل، فإن علم اللاهوت لا يعرض علينا أي تفسير رمزي. ففي قصة التوراة نقرأ مايلي: «فأوقع الرب الإله على الرجل سباتاً عميقاً فنام. فأخذ إحدى أضلعه وسد مكانها بلحم، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من الإنسان امرأة فأتى بها الإنسان. «إن المرأة الأولى التي أطلق عليها آدم، بعد السقوط، اسم حواء» لتكون أم جميع الأحياء»، لم ينجبها أب ولم تلدها أم بل كانت حصيلة «فصل».

ترى ما هو المغزى الرمزي الذي يتضمنه «صنع» المرأة من ضلع الرجل ان رأينا في هذه العملية علاقة مع «مفاهيم ذاك العصر»؟ هل القصة التوراتية مبنية على احتمال، أو بالأحرى على يقين ان البذيرة الحية، التي تحمل بها المرأة بالعملية الجنسية بعد قذف المنى المذكر في رحم الأم، تحتوي على عناصر مذكرة ومؤنثة معاً، وإن الجنس الذي ينتمي إليه الطفل بعد الولادة لا يتحدد إلا من خلال فترة نموه في الرحم؟ وعليه فهل هم على علم ان كل كائن إنساني، رجلاً كان أو امرأة، يمتلك، في تكوينه، من الجنس الآخر صفات طبيعية غير متطورة (جسدية ونفسية)؟ وهكذا فقد تبين من خلال التنقيبات الأثرية ان فكرة الكائن الإنساني الثنائي الجنس كانت معروفة عند السومريين. وبخصوص هذه الظاهرة البيولوجية، التي أثرت في السلوك الأخلاقي وفي القواعد الناظمة للحياة واحترام هذه القواعد حتى وقتنا الراهن – ليس فقط خارج وجهة

الرجال البدائيون

النظر الجنسية – نجد وصفاً لأنواع «شاذة» من المخلوقات ذات صفات إنسانية كانت موجودة قبل أن يخلق الإنسان.



والتي يحتفى بها بالقرب من هذا التمثال الصغير المصنوع من الطين المشوي، والتمثال محفوظ في متحف الآثار الإيراني، ويسمى «الإلهة ذات الثلثات المتيرة».

حسب علماء الأجناس الإيرانيين (دراسة الإنسان ككائن ثقافي) إن «ليلسة الخطيئة» ما هي إلا امتداد مشوه لشعيرة خصب تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد،

إن هذه القصة التي تعود إلى أزمان ما قبل التوراة مدينون بها إلى كاهن بابلي هو بيروسوس الذي نشر باللغة اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد مؤلفات تاريخية وتأملات في فترة ما قبل التاريخ. ان بيروسوس هذا بعد تفصيله للتاريخ السومري القديم وأحداثه، قد اكتشف أساطير مغرقة في قدمها، وصادف موروثات مثبتة خطأً تتحدث عن «كائنات نادرة وشاذة وذات أشكال غريبة» عاشت قبل أن يخلق بنو البشر، كما جاء في «ألواح الخلق السبعة». ويعرض بيروسوس علينا مايلي: «... وقد ظهر رجال مزودون بجناحين.. كان لبعضهم أربعة أحنحة ووجهان ولل بعض الآخر جسد واحد ورأسان، رأس امرأة ورأس رجل، وأعضاء جنسية ثنائية مذكرة ومؤنثة في آن معاً.. وهناك أيضاً رجال آخرون لهم قوائم وقرون ماعز أحياناً وحوافر خيل أحياناً أخرى.. بعضهم على شكل إنسان في مقدمته وعلى شكل حصان في مؤخرته، وكذلك كنت ترى ثيراناً برؤوس إنسانية وكلاباً بأربعة أجساد، لمؤخرتها ذيول أسماك.. كما يوجد أسماك وزواحف وأفاع ومخلوقات أخرى غريبة لها أشكال متبادلة فيما بينها..».

هذه الكائنات الهجينة والمختثة في أزمان ما قبل التاريخ الذي ذكرها بيروسوس كانت، على الأرجح، ثمرة مخيلة أو مبالغات تجاوزت الحدود في وصفها لمسوخ تثير العجب، من المحتمل أن يكون لها وجود حقيقي، ومع ذلك فإن وجود مثل هذه المسوخ في زمن بيروسوس لا يمكن أن يكون مثيراً للشك فقد حاكها كهنة بابل واليونان والفنانون في الكلم وفي أعمالهم الفنية بوصفها أشكالاً أسطورية إن لم تكن أسلافاً لبني الإنسان.

كانت جميع هذه «الكائنات الإنسانية العجيبة والغريبة مزودة بجنس ثنائي، مذكر ومؤنث في الآن نفسه»، إذ يحدثنا بيروسوس عنها باعتدال وكأنه ينقل إلينا إشاعة استمع إليها، فهو لم يتعرف عليها من طريق الكتابات الموروثة فحسب بل وبواسطة مشاهداته العيانية أيضاً: في الغابات المقدسة المحيطة بمعابد بابل واليونان وهياكلها كانت تعرض على الملأ تماثيل الخنثاء HERMAPHRODITES وأشكال

الرجال البدائيون

الخنثى ANDROGYNES المنحوتة بمهارة والمزودة بصفات جسدية لكلا الجنسين المذكر والمؤنث.

وكانت هذه الكائنات تعد مخلوقات كاملة تامة. وكانت هذه التماثيل في عصر الإغريق هذا، العصر الذي لم تك فيه المتعة الجنسية تعرف العيب والحرام بعد، تجسد الرغبة (التي تدركها الأغلبية العظمى من الإغريق و بدرجات قد تزيد أو تنقص) في تمتع الرجال والنساء بالعملية الجنسية على حد سواء.

ليس ثمة شك في أن جنسية الكائن الإنساني الثنائية ومبدأ انفصاله إلى رجل وامرأة لم يكن بالأمر الغريب والبعيد عن «مفاهيم ذاك العصر» الذي دُوّن فيه العهد القديم. إن لم تكن هذه المفاهيم قد تأثرت بمعرفة تطور الأجنحة الجنسي في رحم الأم فمن الممكن أنها قد تأثرت، على أقل تقدير، بمراى تماثيل الخنثا. يمكن أن نستنتج من ذلك ان هذه المعرفة للخنوثة قد عبرت عنها رمزياً قصة «صنع» المرأة من ضلع الرجل، أضيف إلى ذلك ان لهذه الرمزية مقصداً أخلاقياً: كان لابد من تثبيت وترسيخ «الثنائية» الفطرية لكل من الرجل والمرأة بواسطة الرمز فعلى كل مؤمن أن يحس في ذاته ما عبر عنه الرجل الأول عند رؤيته المرأة الأولى: «هذه المرأة هي عظم من عظامي ولحم من لحمي هذه تسمى امرأة (في اللاتينية VIRAGO) لأنها من امرئ (في اللاتينية VIR) أخذت».

كان انتماء أحدهما للآخر (الرجل والمرأة يكمل أحدهما الآخر وبالتبادل) المبدأ الأساسي في كل رابطة زوجية استجابة لمفاهيم ذلك العصر الأخلاقية. نقرأ في العهد القديم: «ولذلك سيرتك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً». وهكذا نرى ان الاتحاد الجسدي للرجل والمرأة أمر يطيب للرب الإله. ولكن لابد من أن نتساءل: هل كانت تلك هي حال الاتحاد الجسدي حقاً في حين ان الله قد طرد آدم وحواء من الفردوس بعد «الزلة»؟

ما كان ممنوعاً في جنة عدن كان مسموحاً به خارجها. وبالفعل فان آدم لم يستطع ان يصير أباً للإنسانية جمعاء، إلا لأن آدم قد «عرف» حصراً، امرأته حواء.

إن التلمود، الذي أبدى رأيه بتسامح حكيم في الغرائز الدفينة للطبيعة الإنسانية في رغباتها غير المباح بها، (في نطاق ان القوانين الأخلاقية لم تخطر لها قطعياً) قد غفر للأوائل «الخطيئة الأصلية» مبرراً ذلك ان لا وجود للخير بدون وجود الشر. وعلى الرغم من ان الرغبة الجنسية تستوجب اللوم في حد ذاتها فإن الإنسان بدونها عاجز عن الإنجاب والتكاثر: «من واجبنا الاعتراف بجميل أسلافنا فنحن لولا خطيئتهم ما وجدنا».

نقرأ في العهد القديم ان آدم قد «عرف» امرأته. هذا التعبير لا يحل غالباً محل الكلمات المستعملة عادة والمألوفة أكثر منها مثل: «نام» «نام مع» أو «سكن مع». فليست هذه الكلمة كناية للتعبير عن الاتحاد الجسدي السابق لحمل حواء ولإنجابها للطفل. إن كلمة «عرف» ليست رمزاً؟ فهي تعني حقاً ما ترغب في قوله وتدل على انعطاف حاسم في تطور أخلاق الإنسانية: إن «معرفة» المرأة التي اقترن بها الرجل جنسياً تدل على الاعتراف للأُم بالطفل الذي حملت به من جراء هذا الاقتران. فإن م يكن آدم الأب «البيولوجي» الحق لجميع البشر فإنه، على الأقل، أول من «عرف» امرأته حواء». وعليه فإنه إذن أول رجل في التاريخ الدين يستحق الاعتراف به أباً. كانت شعوب ما قبل التاريخ تجهل فكرة «الأب». إذ كانت تعتقد بالاتحاد الولود للسماء والأرض حتى قبل «معرفة» أن تزوجهم بالذات ينجب حياة جديدة. في قصة صينية عن الخلق نقرأ: «كان الرجال الأولون كالحيوانات يلبسون الجلود ويقنطون باللحوم النيئة، وكانوا يجهلون آباءهم على الرغم من معرفتهم لأمهاتهم».

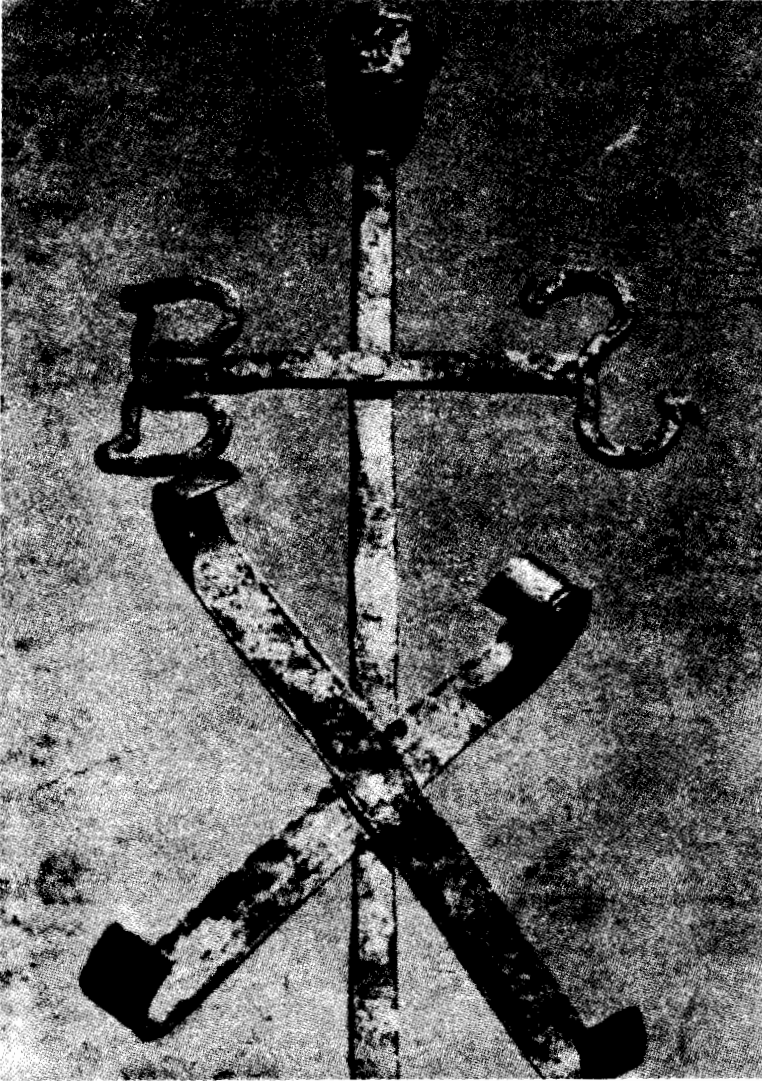
أثبت بعض المبشرين وعدد من ذوي الاختصاص بعلم الإنسان ان بعض الشعوب البدائية، مازالت حتى يومنا هذا، لا ترى أية علاقة بين العملية الجنسية والحمل بحياة جديدة: يتساكن الرجل مع النساء في قبيلتهم بهدف الحصول على المتعة الخالصة من الاتحاد الجنسي وتشعر النساء بالمتعة الجنسية دون أن يربطن إشباع غرائزهن بحملهن الذي يلي ذلك.

الرجال البدائيون

تعدّ المرأة البدائية من بين أكثر الحيوانات التي تتكاثر جنسياً في الحالة الأصلية. في «طوطمهم» من قبيلة «الطوطم» في غرب إفريقيا، حيث توجد نسبة عالية من الممكن أن يكون الطوطم حيواناً حنوناً، وعلى الرغم من ذلك، فإنها ليست نباتاً أو ظاهرة فوطييعية نادرة وفريدة أو متكررة. فالمرأة في هذه القبيلة لا تلد نتيجة لاقترانها بالرجل بل الطوطم هو الذي يمنحها ذريتها. وعندما فإن اعتقادهم هذا يعني أن جميع أفراد القبيلة مدينون بولادتهم للطوطم الذي يتمثلون معه على نحو غامض، حتى ان الرجال والنساء جميعاً متحدون برابطة فوطييعية، تتجاوز المحسوس، فيحسبون ان رابطة القربى تجمع فيما بينهم.

إن جهل نتائج عملية النمو البيولوجي الذي يتوالد بواسطته الإنسان والحيوان يعبر عن علاقة الرجل حيال المرأة عند الإنسان الأول: وبما انه لا يدرك أن الجنين في رحم الأم قد يكون ثمرة لنطفته التي لقحت المرأة خلال الاتحاد الجسدي فانه يرى في هذا المولود الجديد ابناً للقبيلة وليس ابناً له، ولا يعد نفسه أباً حتى لو تكرر حادث الولادة العجيب مرات عدة خلال العمل الجنسي الممتد على سنوات طوال مع امرأة بعينها. وبقدر ما يندر أن يطأ الرجل امرأة واحدة على نحو دائم ومنتظم بقدر ما هو استثنائي أيضاً اقتران المرأة على الدوام برجل واحد بعينه.

وقد خلص العديد من المتخصصين بعلم الإنسان إلى ان أولى الكائنات الإنسانية لم تعش أزواجاً أزواجاً بل عاش بعضها إلى جانب بعضها الآخر وأنها كانت تتزواج دون أن تعترضها منغصات ما. إن هذا الاختلاط وهذه اللقاءات بين الجنسين التي كانت تمارس دونما اختيار وفي أي وقت كان وفي كل مرة يخضعون فيها لمطالب الغريزة هي الشكل الأصل للالعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة. إن كل امرأة ملك اكل الرجال والعكس صحيح. صحيح انه يمكن للمرأة ان تشور وتتمرد على واقع امتلاكها بالقوة، لكن موقفها هذا لا ينسجم والممارسات السائدة في القبيلة التي لا تسمح للمرأة ان تتجبح وأن تمتنع، دون سبب مقبول، عن الرضوخ لغزو الرجل الذي يشتهيها... فقد كانت الضحية المملوكة سواء أرادت ذلك أم لم ترد.



طوطم بارون - صامدي، إله الموت.

كان يحضى بشعيرته في المقابر

الرجال البدائيون

ان القابلية الجسدية والتكوين والتشريحي للأنتى في عالم الحيوان تحيل سفاذ الذكر لها أمراً صعباً أو مستحيلاً بتغيير جلستها في حين ان المرأة قد حرمت هذا الإمكان (القابلية) لتكوينها الجسدي المختلف. ان استلقاء المرأة على ظهرها يجعل فرجها مستباحاً بلا حماية وعليها ان تتقبل العضو المذكر وتشبع رغبات الرجل عندما تستوجب العادة ذلك.

إن فترة الحيض دون غيرها هي التي كانت تحمي المرأة وتصونها. إذ كان الرجل يتراجع أمام هذه الظاهرة الغريبة والثابتة والتي لا يفهم كنهها ويخشأها. وبدا له ان قدرة المرأة على فقدان جزء من دمها أمر يثير القلق بل كان يحسب هذا التنزيف أمراً فوطييعي يكبح شهواته ويسيطر عليها.

لا يمكن لـ«إعادة تشكيل» ممارسات الإنسان الأول وسلوكه، بالاعتماد على المقارنة مع التجمعات البدائية، ان يكون معقولاً إلا بقبوله بالفرضية التالية: إن سلوك الإنسان الأول وتعليلاته تطابق مع الملكات الذهنية المماثلة أو القريبة من القدرات الذهنية التي تسود وتُسير، في أيامنا الراهنة، أفعال وممارسات الرجال والنساء الذين يعيشون في سافانات افريقيا وغابات الأمازون العذراء، وسهب أستراليا الصحراوية حتى لو كان بينهما فارق زمني يقدر بعشرة آلاف سنة. ولكننا وان قبلنا بهذا التشابه بين «المتوحشين» والإنسان الأول فان هذا التشابه لا يمكن أن يتطابق إلا مع المرحلة الانتقالية للتطور الإنساني، أي مع فسحة قصيرة نسبياً بمقارنتها مع سيرورة تمتد إلى ملايين السنين. وقد كانت هذه السيرورة غاية في البطء ان نحن فكرنا: انه على امتداد ٨٠٠ ألف جيل تغطي، على وجه التقريب وفق رأي العلماء، كل مرحلة التطور من القرود إلى الإنسان، في حين أن الأجيال الأربعمائة الأخيرة وحدها تتكون من المزارعين المقيمين.

إن رجال اللاهوت الذين يرون في ممارسات الإنسان وعاداته «إرثاً قادمًا من الثدييات» على يقين بان الإنسان الأول لم يعيش في الأصل في قبائل أو في إباحية جنسية مطلقة. لكنهم يرون، على العكس من ذلك، ان الإنسان عاش منفصلاً،

واعتصم في أسر منطوية على ذاتها. كما يعتقدون بأن الشامبانزي والغوريلا (الشديدة الشبه بالإنسان والتي تجتمع في جماعات صغيرة تضم ذكراً وأنثى وصغيراً واحداً أو عدة صغار) ليست فقط أساس علاقة الرجل - المرأة خصيصة الحياة الزوجية، بل هي أيضاً أساس الخلية الأسرية. أما عند الفقريات والثدييات العليا الأخرى فاننا لا نجد في الأصل أيضاً إلا شكلين اثنين من أشكال الحياة الجنسية المشتركة: شكلاً يتبع نظام الزوج الواحد وشكلاً يتبع نظام تعدد الزوجات، ولا تكف هذه القواعد عن سيطرتها على العلاقات الجنسية إلا عندما يتزوج العليل من الأزواج لتكوين قطع كبير فتظهر حينئذ علاقات جنسية مفتوحة أمام الجميع وغير قاصرة على واحد منها دون غيره.

إن هذا التصور لا يرفضه المختصون بعلم الإنسان كلياً، ومع ذلك، فهم يوضحون لنا إن الإنسان البدائي الذي لم تتوفر له أسلحة طبيعية ليدافع بها عن نفسه ضد عالم محيط معادٍ لم يستطع أن يصون نفسه إن هو توزع في أسر معزولة. في حين انه لو تجتمع على شكل قبائل لاستطاع الذود عن نفسه ضد الوحوش الكاسرة ولتمكن من حماية نسائه وأطفاله. فبفضل تكاتف القوى وتوحيدها وبفضل العمل الجماعي استطاع الإنسان القديم البقاء حياً والاصطياد بنجاح وصيانة ما يغنمه. فمن المتعذر المستحيل تخيل أزواج معزولين يتحدثون بشكل من أشكال الرابطة الزوجية في كنف قبيلة، حيث يضاجع جميع الرجال جميع النساء ويأخذون على عاتقهم الأطفال والنساء معاً أو أن تعتنى النساء بالرجال والأطفال معاً ان اقتضت الضرورة ذلك. وقد حافظت القبائل البدائية على هذه العادة الوافدة من الأزمان الغابرة.

ولسنا هنا بصدد البت بهذا الرأي أو ذاك. فنحن لا نستطيع إلا أن نؤكد ان مختلف مكتسبات العلوم المقارنة التي تركز على أمثلة من مملكة الحيوان ومعاينة القبائل البدائية - لم تقدم لنا نتائج قاطعة حول ممارسات الإنسان القديم وعاداته. كما ان دراسة البقايا الإنسانية، التي كشف عنها الاحيائيون (المختصون بعلم المستحاثات) والتي حددت تاريخها الفيزياء الذرية، لم تسمح إلا بافتراضات واقترحات.

الرجال البدائيون

ومع ذلك فقد استطاع ذوو الاختصاص البرهنة على ان مدة التقدم الإنساني، فيما يتعلق بتطور المهارة اليدوية وبعض المبتكرات، تمتد إلى مئات الآلات من السنين. لكن الأدوات المكتشفة، التي تعود إلى أقدم العصور، لا تدلنا على شروط حياة الإنسان الذي صنعها إلا بإبهام شديد. ولا نجد، بخاصة، دليلاً واحداً يسمح لنا بتخيل طبيعة العلاقات بين الجنسين.

إن السكاكين والديبايس ورؤوس النبال أو الرماح التي اكتشفت مطمورة بجانب هياكل الحيوانات العظمية المتحجرة تؤكد، بالطبع، ان الرجال الذين استخدموا هذه الأسلحة كانوا يوفرون لوازم بقائهم بالصيد والقتل. ولكن هل الرجال وحدهم هم الذين يحملون تلك الأسلحة في صراعهم القاسي الذي لا بد منه لضمان استمرارهم في الفترة الجليدية؟ لا شيء يثبت ان المرأة لم تسهم بدورها في الصيد، وليس ثمة ما يؤكد أن الرجال أيضاً قد استعملوا (كما النساء) هذه الأبر المصنوعة من العظام أو القرون أو العاج التي صنعتها الإنسانية بعد بضع آلاف من السنين لتخيط بواسطتها ثياباً من جلود الحيوانات.

إن أولى الأدوات الخشبية المكتشفة (إذا استثنينا الرماح الخشبية التي تقسى رؤوسها بالنار) هي أوتاد الحفر، أي تلك القطع الخشبية الحادة التي يستخرجون بواسطتها من باطن التربة الجنور أو العساquil (ساق نبات صالح للأكل)، إضافة إلى القضبان الخشبية التي يحصلون بواسطتها على النار. إن المتخصصين بعلم الإنسان ينسبون هذه الأدوات إلى النساء باعتبارها أدوات يستعملنها يومياً، مما يدعو إلى الافتراض بوجود توزيع للعمل بين الرجل والمرأة: فبينما ينهك الرجال بتأمين اللحوم تجمع النساء الخضار ويطهونها.

يفرض الشكل الأول هذا من أشكال اقتصاد الصيد والالتقاط (القطاف) نمطاً من أنماط حياة التنقل عبر مناطق واسعة. فإن لم يكفهم ما يصطادونه من الطرائد أو يجنونه من الجنور والعنبيات والفطور - (سواء لأن النباتات لم تحمل الكفاية من الثمار بسبب تقلبات الطقس، أو لأن الحيوانات قد بدلت مكان إقامتها)، اضطروا للترحال

والتنقل. كان الهدف من هجرتهم السعي للحصول على الطريدة. وهذه الطريدة التي يسعون لاقتناصها تقوم مقام دليل يشجعهم على هجر مناطق غدت غير مضيافة، ليضعوا عصا الترحال في أرض خصيبة ذات شروط مناخية أفضل. في أشهر القيظ كان الرجال والنساء والأطفال يبيتون تحت سقف صخرة مائلة تؤمن لهم الحماية، وفي الشتاء القارس يلجؤون إلى الكهوف بعد أن يجعلوها صالحة للسكن ويفرشوها بالقش وأوراق الشجر والأغصان.

هل كان الرجال في أماكن إقامتهم تلك ينفصلون عن النساء والأطفال أم أنهم كانوا يتمتعون باستراحاتهم الليلية في معاشرات رقيقة حنون؟ ان مراقبتنا لممارسات القبائل البدائية وعاداتها قد أظهرت لنا ان الرجال الذين يعيشون مرحلة اقتصاد القطاف (الالتقاط) والصيد يفضلون النوم بمعزل عن النساء حتى وإن كانت تربطهم بهن علاقات جنسية. ينفرد الرجال مع الرجال والنساء مع النساء. فالعملية الجنسية ألد وأشهى إن كانت العيون مفتوحة والحواس متيقظة. فالعتمة تحدد من شدة اللذة ومتعتها، والقمر مشاهد خطر يخشاه الرجال والنساء معاً.

أثبت العلم، باعتماده على أساس من حسابات فيزياء الأرض الفلكية وتقديراتها، إنه قد مضى تقريباً ٩٨٪ من للزمن الذي سادت فيه العصور الجليدية لكي يستخدم الإنسان الأول النار ويصنع الأدوات، تلك العصور التي كانت تجتاحها بين الحين والآخر فواصل زمنية حارة نسبياً. إن الحيز الحيوي للتدييات والإنسان، الأقرباء في النوع، قد حددته في كل من أوروبا وآسيا الكتل الثلجية الزاحفة والوافدة من الشمال والمرتفعات الجبلية. إن الكشف عن مخلفات سكانية وأدوات بشرية، يعود تاريخها إلى العصور الجليدية التي قدمت العديد من الأدلة حول تطور الإنسان العاقل، لم تسمح لنا هنا أيضاً إلا بمزيد من الافتراضات والتخمينات حول علاقات النساء والرجال الذين عاشوا طيلة هذه الألفوف المؤلفة من السنين.

إن اكتشاف متحجرات إنسان النياندرتال، الذي عاش قرابة مائة ألف سنة في كل من أوروبا وآسيا وأفريقيا، قد قدم أول دليل على وجود اختلاف محتمل في نمط

الرجال الهمايون

حياة النساء والرجال. وقد أظهر الكشف عن عظام هذا الإنسان من الرئيسات ذي الجبهة المسطحة (وهو بالطبع ليس السلف الحقيقي للإنسان العاقل الذي حل محله أو بالأحرى أباده) إن طول قامة الرجال والبالغة ٦٠, ١م أطول من قامة النساء بـ٦سم تقريباً. وإن الذراعين والساقين أيضاً أطول وأنحن، والكتفين أوسع. كما ان تعابير الوجه، على ما يبدو، أشد قسوة (في الحدود التي تمكننا من استنتاج ملامح الوجه من خلال شكل الجمجمة). وليست الاختلافات الجسدية في القامة وفي ضخامة الصدر بين الرجل والمرأة الأدلة الوحيدة التي تساعدنا على معرفة عادات إنسان النياندرتال وتقاليده. نحن على علم بأنه كان يعيش في الكهوف وأنه لا يقتل الحيوانات فحسب بل يقتل أقرانه أيضاً. ترى هل كان يأكل مخ أولئك الذين يقتلهم لاعتقاده بأنه لا بد حاصل على قوتهم إن هو فعل ذلك؟

ظهر الإنسان العاقل إبان الحقبة الجليدية الأخيرة (التي انتهت فيما بين الألف الخامس عشر والعاشر قبل الميلاد) أي منذ ٤٠-٥٠ ألف سنة تقريباً، وكان الإنسان العاقل بدوره صياداً: كان يصطاد الرنة (الأيل) والماموث والحصان الوحشي والثور البري والبيزون والدب.. وكان يقيم سكنه تحت صخور مائلة أو في الكهوف والمغاور ولكن لم تكن تلك حاله دائماً: فنحن نعرف انه كان ينصب الخيام صيفاً ويبنى الأكواخ المتواضعة شتاء بل والبيوت الصلبة والمتينة.

تستخدم العظام وحجر الصوان دائماً لصنع الأسلحة والأدوات. لكننا نجد الآن، إضافة إلى ما ذكرناه، ابراً من العظام للخياطة مزودة بثقب، وحجارة من الجيري جُوفت على شكل إناء لتستخدم مهنياً لسحق مختلف غلال الحبوب أو قناديل تغذي هبيها شحوم الحيوانات. بمقدورنا أن نتصور كيف عاش هذا الإنسان الحقيقي، وكيف كان يذراً عن نفسه برد الشتاء وأي شيء كان يلبس وأين كان يقيم، إن نحن فكرنا بسكان الأسكيمو في البراري الجليدية القطبية في أمريكا الشمالية حيث مازالت تسود تلك المناطق شروط الحياة القاسية نفسها التي سادت فيما مضى أوروبا الوسطى في العصر الجليدي.



إلى الحماظة وقناديل وأجسيران
وكل أنواع الخيل المصنوعة من الخار
والودع، والكهرمان والعاج وأسنان
الحيوانات على شكل سلاسل،
قلائد وزخارف على الثياب - نحن
نجل إن كانت النساء تنفذ هذه المهام
المنزلية المرتبطة بهذه الأشياء أم
الرجال. إن إنسان الكهوف الذي

كان يزين جدران المغاور برسوم
فائقة التعبير وبتصاوير رائعة لم يمثل
النساء إلا بوصفها كائنات متميزة

جمجمة بشرية مصنوعة من الجص بعيون من الخار
عثر عليها في الجليل وتعود إلى الألف السابعة أو
السادسة ق.م، (متحف عمان - الأردن)

بعضها الجنسي. فهل كانت النساء شريكات للرجال جنسياً فقط في هذه الكهوف
حيث يقمن؟ أم أنهن مجرد أمهات لأطفال يستطعن إنجابهم من أي رجل كان؟ أم
أنهن قد عُرفن «فيما مضى بصفتهن أمهات يملكهن رجل واحد دون غيره»؟ إن
مشهداً محفوراً على عظم حيوان - قد تم اكتشافه في إحدى المغاور في الغرب من
فرنسا - يسمح لنا بأن نفترض ان النساء اللواتي يتقاسمن المأوى مع إنسان الكهوف
لسي ملكاً لجميع الرجال. إذ تظهر لنا هذه الصورة، بالفعل، رجلاً يرفع يديه ويتطلع
متضرعاً إلى امرأة عارية، موضوع رغبته الجنسية، عائمة فوقه.

بمقدورنا أن نستخلص من هذا الرسم ان رجال هذه الحقبة كانوا يتشوقون
غداً في النساء ولا أمل لهم بامتلاكهن لكن من المحتمل أيضاً أن يكون الرجل، الذي
رسم هذه المرأة ورسم نفسه بوضع الضارع المتوسل، غريباً عن القرية التي تنتمي إليها
هذه المرأة، بل لعله يأمل، بفضل هذه الصورة السحرية، أن يتمكن من جذبها إليه
ومن امتلاكها فهو من طريقها يستطيع أن يتسلل إلى القبيلة وينتمي إليها.

الرجال البدائيون

وعالمًا ما وجد في أماكن إقامة صيادي الماموث منحوتات لنساء عاريات تعبر
بوضوح إلى تلك الحقبة.



المرأة ذات المثلثات - تمثال من الطين المشوي -
من سومر (الألف الرابع ق.م) - متحف اللوفر، باريس

إن هذه الأعمال المنقوشة على أسنان الحيوانات أو عظامها وهذه التماثيل الصغيرة المكتشفة في أماكن التنقيب الأخرى، المشكلة من صلصال سلس أو المنحوتة من مادة الفخار المسامية، محاكاة للواقع أو تجسيد لرغبة الإنسان الجنسية. إن كل هذه الأعمال لا وجه لها في حين أن الرؤوس محفورة أو معجونة ببساطة على شكل كرات. من الواضح ان هؤلاء الفنانين البدائيين كانوا يكتفون بتمثيل العلامات المميزة للجنس المؤنث وقد يغالون أحياناً في إبرازها: كانوا يجسدون النساء بأنداء ضخمة وأوراك عريضة للغاية وبطنون منتفخة وأرداف مفرطة البروز غير شكلها وشوها الشحم. وقد عد علماء الآثار والانتروبولوجيا المثلث «المثير للجدل» مكان اللذة الذي تحدده وترسم خطوطه حنية البطن وأخدودا الأريبتين^(١) رمزاً سحرياً محتملاً للمرأة التي يهفو إليها ويحلم بها، أو رمزاً لامرأة استسلمت له فعلاً.

ففي مخيلة هؤلاء الرجال الذين أبدعوا هذه الأعمال التشكيلية تحيا هؤلاء النسوة اللواتي شكلن على هذا النحو وكأنهن نساء حقيقيات من لحم ودم. فعدت الصورة واقعاً وعلينا ألا نبتسم ساخرين عندما يعرض علينا المختصون بما قبل التاريخ هذه التماثيل بوصفها صورة لفينوس: إن رجل العصر الحجري كان يرى فيها فينوسه.

هل كل لمقدرة الإنسان البدائي على صنع أشكال تتطابق ومخيلته تأثير في مفاهيم الرجال الدينية الذين حلوا بعده؟ وهل يمكننا، على هذا الأساس، تفسير إيماننا بالعناية الإلهية الفائقة القدرة التي شكلت الإنسان الأول من الطين وقد نفخت فيه من روحها لتهبه الحياة، مثلما عاشت أيضاً بطريقة سحرية هذه النساء المجبولات من الطين بأيدي ماهرة، والقادرات على إثارة رغبات أولئك الذين يتأملونهن على الرغم من عدم وجودهن الفعلي؟

(١) الأرية: أصل الفخذ مما يلي البطن.

الرجال البدائيون

إن نقوش النساء العاريات ورسومها على الصخور، والتماثيل الصغيرة المزودة بمخصائص جنسية أنثوية بالغة الضخامة لتقدم لنا أولى الأدلة الموضوعية حول علاقات الرجال والنساء في المجتمع البدائي، إذ نستخلص منها ان الرجال قبيل انتهاء الحقبة الجليدية كانوا يغازلون النساء كما «تغازل» أغلبية الذكور في مملكة الحيوان إناثها.

ومما يعزز هذا الافتراض اننا لم نجد، بالفعل، في حقول التنقيبات رموزاً قضيبية يكون لها في تخيلة النساء ما لأشكال جنس الإناث من قيمة عند الرجال. فإن كانت النساء يرغبن في نقل ما للذكورة من خصائص وسمات فبمقدورهن القيام بذلك بأن يجبلن ويشكلن بالعجان الطينية المتوفرة الأشكال والمواضيع التي تنسجم ورغباتهن. فالنساء إذن هن اللواتي يبهن وهن اللواتي يستسلمن. في حين ان الرجال، على العكس من ذلك، يأخذون، وعليهم ان يجهدوا لينالوا حظوة النساء وان يتحلوا باللطف والطيبة إن هم أرادوا كسب ودهن، فهم يحصلون على المتعة الجسدية وكأنها مغنم أو ثمرة لا يفوزون بها إلا بالقنص والصيد. ومع ذلك علينا أن نذكر أنهم كانوا يربطون، رمزياً، ما بين العملية الجنسية والصيد وانهم كانوا يمارسون الجنس قبل خروجهم للصيد بوصفه فعلاً سحرياً يعود عليهم بالريح الوفير ان هم مارسوه قبيل سعيهم وراء الطريدة.

ولا بجانب الصواب في استنتاجنا، بعد ان كشفت معاول علماء الإنسان القديم أشكالاً قضيبية في بعض حقول التنقيب التي تعود إلى نهاية العصر الحجري، أن هذه الأعمال أيضاً من صنع الرجال لا النساء لكننا نجهد ما إذا كانت مظهراً من مظاهر متعة العيش وأن القضيب في هذه الفترة، يمثل رمز القدرة المنجبة، أو أن نرى في ذلك، كما يؤكد بعض الاختصاصيين، موضوعاً غنياً بصورة واستعاراته لا تربطه أي علاقة بالسلوك الجنسي بل يلعب دوراً عدوانياً ومهدداً. ونحن نعرف ان من الشائع عند القرود الذكور، التي تحرس حدود ممتلكات تجمعها، أن تحول دون دخول أي عنصر أجنبي إلى ممتلكاتها بالتلويح بقضيبها المنتصب دليل تهديد ووعيد. وأخيراً

إن هذه الأعمال المنقوشة على أسنان الحيوانات أو عظامها وهذه التماثيل الصغيرة المكتشفة في أماكن التنقيب الأخرى، المشكلة من صلصال سلس أو المنحوتة من مادة الفخار المسامية، محاكاة للواقع أو تجسيد لرغبة الإنسان الجنسية. إن كل هذه الأعمال لا وجه لها في حين أن الرؤوس محفورة أو معجونة ببساطة على شكل كرات. من الواضح ان هؤلاء الفنانين البدائيين كانوا يكتفون بتمثيل العلامات المميزة للجنس المؤنث وقد يغالون أحياناً في إبرازها: كانوا يجسدون النساء بأثداء ضخمة وأوراك عريضة للغاية وبطنون منتفخة وأرداف مفرطة البروز غير شكلها وشوها الشحم. وقد عد علماء الآثار والانتروبولوجيا المثلث «المثير للجدل» مكان اللذة الذي تحدده وترسم خطوطه حنية البطن وأخدودا الأريبتين⁽¹⁾ رمزاً سحرياً محتملاً للمرأة التي يهفو إليها ويحلم بها، أو رمزاً لامرأة استسلمت له فعلاً.

ففي مخيلة هؤلاء الرجال الذين أبدعوا هذه الأعمال التشكيلية تحيا هؤلاء النسوة اللواتي شكلن على هذا النحو وكأنهن نساء حقيقيات من لحم ودم. فعدت الصورة واقعاً وعلينا ألا نبتسم ساخرين عندما يعرض علينا المختصون بما قبل التاريخ هذه التماثيل بوصفها صورة لفينوس: إن رجل العصر الحجري كان يرى فيها فينوسه.

هل كل لمقدرة الإنسان البدائي على صنع أشكال تتطابق ومخيلته تأثير في مفاهيم الرجال الدينية الذين حلوا بعده؟ وهل يمكننا، على هذا الأساس، تفسير إيماننا بالعناية الإلهية الفائقة القدرة التي شكلت الإنسان الأول من الطين وقد نفخت فيه من روحها لتهبه الحياة، مثلما عاشت أيضاً بطريقة سحرية هذه النساء المحبولات من الطين بأيدي ماهرة، والقادرات على إثارة رغبات أولئك الذين يتأملونهن على الرغم من عدم وجودهن الفعلي؟

(1) الأريبة: أصل الفخذ مما يلي البطن.

الرجال البدائيون

إن نقوش النساء العاريات ورسومها على الصخور، والتماثيل الصغيرة المزودة بخصائص جنسية أنثوية بالغة الضخامة لتقدم لنا أولى الأدلة الموضوعية حول علاقات الرجال والنساء في المجتمع البدائي، إذ نستخلص منها ان الرجال قبيل انتهاء الحقبة الجليدية كانوا يغازلون النساء كما «تغازل» أغلبية الذكور في مملكة الحيوان إنائها.

ومما يعزز هذا الافتراض اننا لم نجد، بالفعل، في حقول التنقيبات رموزاً قضيبية يكون لها في مخيلة النساء ما لأشكال جنس الإناث من قيمة عند الرجال. فإن كانت النساء يرغبن في نقل ما للذكورة من خصائص وسمات فبمقدورهن القيام بذلك بأن يجبلن ويشكلن بالعجان الطينية المتوفرة الأشكال والمواضيع التي تنسجم ورغباتهن. فالنساء إذن هن اللواتي يهين وهن اللواتي يستسلمن. في حين ان الرجال، على العكس من ذلك، يأخذون، وعليهم ان يجهدوا لينالوا حظوة النساء وان يتحلوا باللطف والطيبة إن هم أرادوا كسب ودهن، فهم يحصلون على المتعة الجسدية وكأنها مغنم أو ثمرة لا يفوزون بها إلا بالقنص والصيد. ومع ذلك علينا أن نذكر أنهم كانوا يربطون، رمزياً، ما بين العملية الجنسية والصيد وانهم كانوا يمارسون الجنس قبل خروجهم للصيد بوصفه فعلاً سحرياً يعود عليهم بالربح الوفير ان هم مارسوه قبيل سعيهم وراء الطريدة.

ولا نجانب الصواب في استنتاجنا، بعد ان كشفت معاول علماء الإنسان القديم أشكالاً قضيبية في بعض حقول التنقيب التي تعود إلى نهاية العصر الحجري، أن هذه الأعمال أيضاً من صنع الرجال لا النساء لكننا نجهد ما إذا كانت مظهراً من مظاهر متعة العيش وأن القضيب في هذه الفترة، يمثل رمز القدرة المنجبة، أو أن نرى في ذلك، كما يؤكد بعض الاختصاصيين، موضوعاً غنياً بصورة واستعاراته لا تربطه أي علاقة بالسلوك الجنسي بل يلعب دوراً عدوانياً ومهدداً. ونحن نعرف ان من الشائع عند القرود الذكور، التي تحرس حدود ممتلكات تجمعها، أن تحول دون دخول أي عنصر أجنبي إلى ممتلكاتها بالتلويح بقضيبيها المنتصب دليل تهديد ووعيد. وأخيراً

فإننا لا نعرف ان كان من المحتمل أن يمثل القضيب دليل سيطرة وتفوق اجتماعي داخل الجماعة، إننا نجعل تماماً ولا نستطيع إلا التكهن بالدوافع التي جبلت هذه الوفرة الوفيرة من التماثيل الصغيرة «لفينوس»، لتشكيل بوضوح صارخ رموزاً ثنائية الجنس: القسم العلوي يستنتج شكل المرأة العلوي فقط، بينما يمثل القسم السفلي، بردفيه المنتفخين كما الركبتين و«الساقين» الملتحمتين كما المغزل، عضو الذكر الجنسي. إن هذه الكائنات الثنائية الجنس، التي حدثنا عنها بيروسوس في معرض حديثه عن السومريين، تعود، في الواقع، إلى رجال العصر الحجري في الحقبة الجليدية. كما يعتقد بعض الاختصاصيين، وربما كانوا على حق تماماً، ان هذه الفينوسات - القضيب VENUS- PHALLUS الثنائية الجنس كانت تستخدم للافتضاض الشعائري لبكارة الفتيات البالغات.

إن تماثيل فينوس والنقوش على العظام، التي تبرز المرأة المشتهاة وأعضاء ذكورة الرجل، والتماثيل الثنائية الجنس المتميزة، تعكس لنا على أي حال، مايلي: إن هؤلاء الرجال البدائيين قد تأثروا بالمتعة الجنسية أبلغ التأثير ورأوا فيها إحدى ألد مافي الحياة من مباحج ومتع، فسحروا بها وسيطرت، كلياً، على عقولهم، كما تبرز لنا هذه الوفرة في تمثيلات النساء مدى انجذاب الرجال إلى المرأة واستقطابها لأفكارهم (ومن ضمن ذلك، بالطبع، طقوسهم وشعائرتهم). هل كانت المتعة الجنسية، المجسدة في المرأة، أول معبود يتوسل إليه الرجل البدائي ويستهل؟ أم أنهم كانوا يعبدون الخصوبة، إذ كانت المرأة نموذجاً لها لجلها كما الأرض في حملها وغناء نباتاتها؟

أم ان هذه الأشكال الأثوية تتجاوز في تجسيدها خصوبة الأمهات؟ أو لم تكن هذه النساء إلهات للحيوانات التي تحدد كل عام تقدمتها لصيد الرجال وطرائدهم؟ أم ان الموضوع يتعلق بالأم الكبرى، الأم البدء، أصل الأحياء كافة وسلف القبيلة؟ أو ليست هذه المرأة، التي صنعها ونحتها الرجال، تجسيدا مسبقاً لرموز إلهية خلقها الرجال لاحقاً؟



فينوس وندورف (تيلور)
فينوس مينتون (مغارة غريمالدي).
ليسبورج من العاج (بالقرب من سان غودانس)

إن كافة المحاولات العلمية للكشف عن أصل العقائد الإنسانية قد حملت على الاعتقاد بأن الانطباعات السحرية، التي بعثتها، في الإنسان، الظواهر الطبيعية لدى معاينته لها، قد أدت إلى ظهور بعض الأفكار المحددة في وجدانه. وقد غدت مراقبة الطبيعة في أشكالها الأساسية واختبار الحياة اليومية منهلاً للعقائد. إن الحيوانات والنبات والأشجار والشمس والقمر والنجوم والسواقي والأنهار والجبال والسحب والضباب، كل ما يراه الإنسان وكل ما يؤثر فيه ولا يراه، قد دفعه إلى التعجب والعجب وإلى العبادة والتعبد بشعور المهابة والحاجة إلى الحماية.

قال الشاعر اللاتيني لوكريوس:
إن القلق⁽¹⁾ «أم الآلهة».

يبد أن هذا القلق لم يكن، على الأرجح، قلقاً على الحياة بقدر ما كان قلقاً من الموت أيضاً، إذ



تمثال صغير من قبل التاريخ في وادي النيل، قبل الأسرة الفرعونية الأولى - من الخشب -

(1) القلق في اللاتينية والفرنسية إسم - مؤنث - المترجم.

الرجال البدائيون

كان لابد من أن يدرك الإنسان الخوف والهلوع بعد أن عاين ولمس لمس الواقع إن الأموات لا يختفون إلى الأبد حتى ولو لم يعيشوا، البتة، جسدياً، فالأموات يستمرون في العيش في أذهان الأحياء - أي في ذاكرتهم، لأن كل ما يدركه الإنسان (أو الحيوان) بحواسه يختزنه في دماغه، والذي كان موجوداً ذات مرة، الذاكرة تحتجزه والحلم يمنحه الحياة. لأن ما كان (موجوداً) لم يمض ولن يموت بالنسبة لعيون الفكر. ان ظهور أشخاص قد توفوا جسدياً كان يلغع بالإنسان البدائي إلى أن يلوذ بالفرار هلعاً أو إلى تجيل الأموات، سواء حدث هذا الظهور في الحلم أو في حالات اليقظة بفعل وهم الحواس وخداعها، فقد يكون هؤلاء الموتى أشباحاً تملأ القلوب خوفاً وهلعاً، فمن الملائم أن يسعى الإنسان إلى تهدئتها لكي يمنعها من التسبب بالمصائب، وقد تكون أرواحاً خيرة مازالت أعمالها الميمونة تفعل فعلها بعد رحيلهم. لذلك فإننا نرى الأموات يُهجرون، تارة، ليخلوا بأنفسهم وينعموا بسلام ما بعد الموت. ويقوموا بأود أنفسهم، ونراهم، تارة أخرى، قد دُفِنوا مع كل ما كانوا يستخدمونه عادة دون نسيان أي شيء أو نقصانه. وبذلك يكون الأموات قد دُفِنوا مع أدواتهم الضرورية التي يحتاجون إليها إن هم عادوا أدراجهم إلى المكان الذي كانوا قد ماتوا فيه. كان الإنسان الأول يزود أمواته بمؤونة الطريق للسفر إلى عالم المجهول الذي شرعوا بارتياحه. وقد رأينا إنسان النياندرتال يسلك السلوك نفسه حيال أمواته الذين كان يواريهم التراب بتكريم خاص.

إن الفزع من العائدين والخوف من الفوطيعي ومن الذي لا يدرك ومن كل ما يبدو حاضراً دون التمكن من لمسه، قد أدت جميعها إلى ولادة عبادة الموتى التي كان لها تأثير حاسم في العقائد البشرية وفي عاداتهم وممارساتهم وأخلاقهم. إن الأرماس (الحدود) والانصباب وكتل الحجرارة المنتصبة نحو السماء وأكداش الحجرارة الدائرية والمسلات والشواهد الثقيلة المكدسة كما الموائد. كل هذه الأوابد المنتشرة في أكثر بقاع الأرض تنوعاً. في انكلترا كما في آسيا الوسطى، إن هي إلا أطلال قبور أو مذابح أو أماكن لممارسة الطقوس، لكننا، في الواقع، نفتقد دليلاً على ما يمكن أن

يساعدنا في معرفة العقيدة أو الطقوس التي انصرف إليها هؤلاء الرجال المجتمعون في هذه الأماكن.

كانت الأرض بالنسبة للأغلبية العظمى من الشعوب البدائية الأم الكبرى، ولعلها تلك التي صادفناها في هذه التماثيل الصغيرة ذات الأشكال البارزة التي تعود إلى العصر الحجري، كما كانت الشمس القوة المولدة لكل مظاهر الحياة على الأرض، أما السماء، التي تهب المطر وتحتجزه، فقد كانت مكان إقامة الآلهة جمعاء، بل إن النجوم نفسها كانت كائنات لها نفوذ فوطيبي. والنار لم تفقد سحرها على الرغم من استئناس الإنسان لها فكانت ابناً للشمس، هذه الكرة المضيئة التي تشرق كل صباح فتهب الدفء والضوء لتترك، من ثم، مكانها للقمر الذي يكون هلالاً تارة وبدرًا تارة أخرى. وقد تخيل الإنسان القديم القمر فاتناً يغوي النساء ويضاجعهن أثناء ليالي فترة حيضهن. كما ان النساء أنفسهن يتمنعن آتخذن عن كل علاقة جنسية. كانت النساء يحترمن القمر ويكرمنه بصفته إلهة تدافع عنهن وتحميهن من الرجال في أوقات منتظمة ومحددة من كل شهر.

وكانت هذه العقيدة، التي يدين، وفقها، جميع الرجال والنساء بحياتهم إلى قدرة غامضة فوطيبيية، تشكل المبدأ الأساسي لتجمعهم. إلا إننا نجد إلى جانب الطوطم، محط الاحترام والتبجيل، الذي تورثه الأم لأولادها والذي يبقى حياً في ذاكرة الأجيال المتعاقبة كما الروح الراعية، قوى الطبيعة التي تؤثر في الإنسان في كل زمان ومكان في الليل كما في النهار، والتي تبعث على الفرح أو تزرع الرعب والمصائب. وفي سبيل فهمها وكسب ودها «أنسن» الإنسان قوى الخير والشر هذه وجهاً بمزايها إنسانية متطورة فوطيبيية: وارتقى بقوى الطبيعة إلى مصاف الآلهة. إن الممارسات الجماعية داخل القبيلة، هذه الممارسات المتصلة في جوهرها بعادات الحياة عند قطيع اللبونات قد أصابها، من جراء ذلك. تحول حاسم. فلم تعد أنماط السلوك وعادات الإنسان منذئذ طوعاً لارتكاسات عقلية أو غريزية وفورية لمعطيات طبيعية ملموسة للعالم المحيط. فمن الآن وصاعداً أخذ الإنسان في اعتباره القوى فوطيبيية وحشبي فقدانها.

الرجال البدائيون

إذ اعتقد ان سعادة العائلة أو القبيلة وسوء طالعهما وان الرفاه أو البلية منوطه جميعها بحظوة القوى الإلهية أو فقدان حظوتها.

إن العودة من تجارب مشؤومة أو ميمونة علمت الرجال والنساء كيفية التصرف للفوز بحظوة الآلهة وكيفية تجنب سخطها وغيظها. وعلى تلك الخبرات بنى الإنسان عاداته وتقاليده وممارساته. وكما هو الحال عند الذئاب، إذ يقود القطيع واحد منهم، كذلك الحال في القبيلة إذ يفوز أحد الرجال بامتياز قيادته للآخرين. فليس عليه أن يكون أقواهم وأفطنهم في الصيد والقتال فحسب، بل عليه أيضاً أن يعرف تمام المعرفة أماكن الإقامة، وأن يبدي الرأي السديد في حسن الموقع وصلاحيته، وعليه أن يسعى جهده كيلا يتعد الرجال والنساء عن الطريق ويضلوا.. وعليه ألا يكشف عن مكانه دونما جدوى، كيلا يتعرض ويعرض من معه لهجوم الحيوانات المفترسة وإغارة القبائل الغريبة، وعليه أن يجمع، بصفته القائد، خاصته ليلمس عون الآلهة التي ابتكروها أو يدرأ أذاها. انه الناطق بلسان حال قبيلته أمام الآلهة يُسمعها ويستمع إليها.

وعلى مقدار هذه الوفرة من المسؤوليات التي يضطلع بها الزعيم يتمتع بعلو المقام الذي لا ينكره رجال القبيلة الآخرون إذ كان عليه أن يرهن على جدارته وتفوقه قبل أن يفوز بمكانته المتميزة التي هو أهل للدفاع عنها، فيستخدم قوته ويمارس سلطته في القبيلة على الرجال والنساء معاً. وباعتباره الأقوى بين الرجال والمدافع الذي يذود عن أطفالهن تجهد النساء ويعتمدن الفوز برفقته واكتساب مودته، فيستسلمن لمداعباته بسرور بالغ ليغمن فائدة المتعة التي يهبها له. فليست إذن، والحال هذه متأثر زعيم القبيلة الجنسية هي التي تدفع النساء إلى تفضيله على غيره من الرجال، ومع ذلك لم تفكر أية امرأة منهن في رفض مضاجعة رجال آخرين. بيد ان الامتيازات التي يمكن أن تحصل عليها هي وأطفالها كانت تدفع بها، تلقائياً، إلى السعي للحصول على رعاية أوسع الرجال نفوذاً وعلى حظوتهم، فكانت النساء، في هذا المجتمع الخالي من الأب، يتبنى، حيال أطفالهن، الموقف نفسه الذي يتبناه زعيم القبيلة حيال أفرادها. إذ

يرتبط الصبية والبنات بالأمهات اللواتي ولدنهم وأرضعنهم وربينهم إلى أن يستطيعوا سد احتياجاتهم بأنفسهم، فالأم ترضع أطفالها كما توزع عليهم ما حصلت عليه من نبات وخضار. وتقتطع نصيباً مما أصابها من غنائم الصيد التي جلبها الرجال إليها لتوزعه على أولادها. وهكذا نرى أن تبعية الأطفال ودفع الحماية التي يتمتعون بها قد حُلقت أولى الأسر التي لا يُقبل الرجل فيها إلا بعد انضوائه في دائرة مغلقة تتألف من الأمهات والأبناء.

وقد حد تعاضم نفوذ الأمهات من الإباحية الجنسية كما أن أشد القرابات قرباً لا تقف عائقاً دون الاتحاد الجنسي - (بين الأم وأبنائها مثلاً أو بين الأخوة والأخوات) - فما ان يشعر الإنسان بغرائزه ويموله الفطرية حتى يسارع إلى إروائها دونما أي عائق، لكن الرجل الذي لا ينتسب إلى أسرة يرغب في مضاجعة الأم فيها أو إحدى بناتها، رغماً عنهما، سوف يقف ضده الأبناء والأخوة المراهقون أو البالغون الذين يقاومون بعنف وغيرة كل دخيل غير مرغوب فيه في أسرته.

ويندرج أيضاً في قائمة التحتم العائلي للأطفال المولودين من إحدى الأمهات الأحفاد وذرائعهم. في البدء اتحدت الجماعات العائلية، التي توسعت على هذا النحو، على شكل عشائر تعيش في وسط القبيلة وتبجل الطوطم نفسه، ثم شكلت هذه العشائر قبائل مستقلة غدت بدورها طوائف و«سلالات» وعندما تنفصل العائلات عن بعضها بود وسلام تحافظ على أواصر الصداقة فيما بينها وتبادل الرجال والنساء، كما هو شائع، حالياً، في أوساط الشعوب البدائية: تقترن مجموعة من الرجال، تحت شكل من اشكال «الزواج» بنساء ينتمين إلى جماعة أخرى، فإذا ما تم الاتفاق يضاعف كل رجل، بانتظام، كل امرأة من المجموعة الأخرى، وبذلك يكونون قد نفذوا بنود «الاتفاق» المعتمد من الطرفين.

لا يعني رجحان مكانة المرأة في أولى المجتمعات الإنسانية ان لها حق القيادة على أفراد العائلة الذكور: صحيح اننا لا نستطيع انكار ما للمرأة من نفوذ لكن الرجال لا يخضعون للأمهات، فهم متكافئون. وتقر الأمهات باستقلالية الرجال في الصيد

الرجال البدائيون

وفي التصدي لغارات القبائل المعادية. ان عادات الطفولة تطبع الرجال على احترام الأم وعلى التعلق بها حتى في الوقت الذي لم تستطع فيه، إطلاقاً، ممارسة سلطان أمومتها الحنون.

ويرى علماء الأجناس البشرية والمختصون بعلم الإنسان (الانثروبولوجيون) سيادة مرحلتين متالتين على أولى الأزمان الإنسانية: الإباحية الجنسية أولاً والأُمومية ثانياً. بيد ان المختصين في السلوك يرون عكس ذلك. ان الكائن الإنساني لم يهش، منذ الفترة النياندرتالية، إباحية جنسية غير متميزة، وإنما علش أزواجاً أزواجاً... وهم يعززون نظريتهم تلك موضحين: ان الجهد الجماعي الذي لا يمكن الاستغناء عنه لاستمرار النوع والذي ينحصر في طرد الحيوانات الخطيرة، يحول دون، بل، لا يسمح بوقوع أي شجار أو تنافس بين الرجال من أجل النساء. وسواء أخذنا بهذه الفرضية أو تلك: ففي المضارب أو المغاور، حيث تلد النساء أطفالهن وينشئهم في الوقت الذي يكون فيه الرجال غائبين على الدوام، يطاردون ويقنصون، أحدثت، شيئاً فشيئاً، العائلة المتحدة حول الأم ومعها حقها الأمومي. وأياً كانت الكيفية التي تشكلت بواسطتها العادات والممارسات فإن الرغبة في الحياة وفي ولادة حيوات جديدة هي التي دفعت بالرجل، ليس فقط إلى الصمود وتأکید الذات في عالم معاد، وإنما دفعته أيضاً إلى الهيمنة، المتعاضمة دوماً، على العالم المحيط وتغييره بما ينسجم وتصوراته.

منذ حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد أحدثت بعض القبائل الأسرورية، التي كانت تعيش، حينئذ، على القطاف والتقاط ما تجود به الطبيعة من ثمر ونبات وعلى الطرائد وصيد الأسماك، مدناً قروية، وأجروا على المحيط تغييرات اصطناعية. واستقر الرجال مزارعين ليس فوق النجاد المرتفعة أو في السهول فحسب بل وعلى ضفاف البحيرات المروية البليلة والغنية بالأسماك أيضاً، حيث أقاموا سكناتهم على الموائد (مجموعة أوتاد). اننا نجهد متى تعلم الإنسان ان بذر البذور يخصب التربة كما أننا لا نعرف أيضاً متى بدأ بتدجين الحيوانات وتربيتها، تلك التي كان من

عاداته اصطیادها. بل كيف عرف حسابان الفترة الزمنية ما بين السفاد وولادة الحيوانات التي أصبحت، من الآن فصاعداً، حيوانات أهلية؟ وقد أثبت اكتشاف الهياكل العظمية التي يعود تاريخها إلى الألف الثامن ق.م. إن الكلاب كانت آنذاك رقيقاً أليفاً لذلك الإنسان الذي غدا حضرياً، وبعد هذه الفترة بنحو ألفي سنة شرع إنسان ما قبل التاريخ في تربية الماعز والخراف والخنزير والأبقار ومن ثم استخدم الحصان. وعليه فقد كان الإنسان القديم إما مزارعاً وإما مربياً للماشية وراعياً لها تبعاً للمنطقة التي يقيم بها. ومادام هذا الإنسان غير ملزم بمطاردة الحيوانات والسعي بحثاً عن الطريدة وعن قوته من النباتات، لتأمين احتياجاته الغذائية بل أصبح بمقدوره الحصول على لوازم الحياة وضرورتها بالعمل في الأرض وبترية الماشية، فإن غط حياته قد تميز كلياً عن نمط حياة الرئيسات الأخرى الرهينة أبداً بما تجود به الطبيعة. وغدا الإنسان مستقلاً وسيد نفسه بتغييره للعالم من حوله.

ويبلوغ الإنسان هذه المرتبة من النمو والتطور شرع في تبني عادات متميزة. وهي، حتى يومنا هذا، من خصائص الجنس البشري وحده. ومع إقامة الإنسان في المكان واستقراره فيه طراً تبدل في توزيع العمل بين الجنسين وتبدلت معه العلاقات بين الرجل والمرأة. فالنساء اللواتي كن حتى ذلك الحين يعتنين ويربين أطفالهن في المغاور والكهوف قد انتقلن للسكن، من الآن فصاعداً، في أكواخ ومنازل شيدت على مقربة من حقول خصبة أو تحت مضارب تحف بها المراعي من كل جانب. أما الرجال الذين كشفوا النقاب عن أسرار الدور الذي يلعبونه في الانسال فقد (عرفوا) النساء اللواتي كن قد اقترن بهم في حيز منعزل داخل سكنهم واللواتي كن قد أنجبن أطفالاً. فأبرزوا حقوقهم بوصفهم أبناء وطالبوا بملكيتهم، ليس لما أنجبوه من أبناء فحسب، بل ولأمهات هؤلاء الأولاد أيضاً.

وقد غدت النساء، اللواتي شاركن الرجل سريره وولدن له ذرية هو بأمس الحاجة إليها لتشارك في أشغاله المتنامية على الدوام، من ممتلكاته الثمينة كالحقل الذي

الرجال البدائيون

يزرعه ويعتني به والماشية التي يربها. وشاء الرجال أن يضموا النساء إليهم ليعتوا بهم. فأوجدوا (إن اخذنا بفرضية الانتروبولوجيين الذين يرفضون ان يروا في الزواج إرثاً قديماً ورثه الإنسان من اللبونات) مؤسسة الزواج وأخضعوا النساء إلى «الحق الأبوي» وأقاموا هذا الحق على الأسس نفسها التي قام عليها حق الملكية، وعلوه حقلاً لازماً لا يمكن الاستغناء عنه لحفظ ممتلكاتهم وحمايتها بسلامة تامة.

وعد الزواج في جميع الحضارات الإنسانية الأساس الطبيعي لحياة الرجل - المرأة المشتركة وقد فرضته الآلهة... وتختلف بالطبع، أشكال الزواج باختلاف العهود والمناطق وتبعاً للمفاهيم الأخلاقية أو الشروط الاقتصادية التي تهيمن على مؤسسته كما هو الحال في القانون الأساسي لحق الملكية.

ويرى بعض المختصين بعلم الجنس ان الزواج لا يرتكز، عموماً، على مبادئ عشقية وجنسية، إن حرية اختيار الشريك الجنسي. بملء الإرادة ودونما إكراه لم يتخل عنها أي من الطرفين عن رضا. وما دام الزواج لم يأت ليفرض قيوده وحواجزه، إذ خضع الرجال والنساء لغرائزهم واستطاعوا إشباع رغباتهم في التنوع والاختيار، فعليناً، والحال هذه، أن نعهده فطرياً.

وهنا لابد من أن نتساءل: هل بدا للإنسان البدائي أن غريزة التملك والرغبة في الاحتفاظ وزيادة ممتلكاته لضمان وجود أشد رسوخاً وثباتاً تفوق في أهميتها الغريزة الجنسية بمباهجها وتمام ارواء غليلها؟

لا يرتهن دوام الحياة المشتركة واستمرارها بين رجل ما قبل التاريخ والمرأة التي «عرفها» وامتلكها بالزواج بها، بالمتعة الجنسية التي يتبادلانها وإنما بولودية الزوجة، فالرجل يعقد زواجه، قبل أي شيء آخر، على سبيل التجربة ليتأكد من ان المرأة شغيلة محبة للعمل، وان بمقدورها منحه أولاداً هو بأمس الحاجة إليهم لحفظ أملاكه ونماتها.

وليس بضر ولا بشائن لكليهما ان انتهى الزواج بالفشل وأخفق. فبمستطاع المرأة كما الرجل، أن تجرب حظها في زواج اختباري آخر. صحيح ان الزواج مجرد

النساء من حقوقهن لكنه لا يحرمهن من مكاتهن. انهن أيد عاملة لا يمكن الاستغناء عنها وأجسادهن الولودة تنجب أيدياً عاملة أخرى جديدة. فالتساء والحال هذه، تمثل «رأس مال» وعلى طالب الزواج الذي يود امتلاكه ان يدفع بالمقابل ويهب الهبات والعطايا أو المخصصات العينية. وتغزو الفتيات البالغات، القادرات على الإنجاب، سلعة لا بد للزوج من أن يشتريها من أيها. لكن الرجل الذي دفع ثمن الشراء يأمل ألا يكون مخدوعاً بمزايا السلعة التي اقتناها، فهو يرغب، قبل أي شيء آخر، في الثبت من انه لم يؤو تحت سقف بيته، في الوقت الذي دخلت إليه هذه الزوجة، ذرية رجل آخر. ولهذا السبب كانت عفة البنت، قبل ليلة الزفاف، وفي مناطق عدة، شرطاً مساعداً على إبرام عقد الزواج. بيد ان هذا الشرط لم يكن مطلوباً ولازماً في كل مكان. فهو يفقد أوليته عندما تكون ليد العاملة القادمة، ثمرة اقتران سابق، أهمية تفوق بكثير بكاراة المرأة وعفافها.

إن للبقارة، على الأرجح، أهمية أعظم عند أب هؤلاء الفتيات منها عند من يرغب في الاقتران بهن. وبصريح العبارة: إن نقاء السلعة التي يجب أن «تقدم للرجل» يزيد في قيمتها التجارية. إن العفاف الذي فرض على الفتاة قبل الزواج دليل على اخلاصها ووفائها في حياتها الزوجية القادمة. وقد ساءت العادة عند العديد من الشعوب، لمنع الفتيات من فقدان بكارتهن، أن يُحتجزن ويعزلن عن الرجال الذين يتسبون «بفقدان السلعة لقيمتها». مما دفع المجتمع أيضاً إلى تلقينهن أصول الخفر والاحتشام وضرورة ستر أعضائهن الجنسية أو الأعضاء «الفاضحة» كيلا تغوي رؤيتها، على سبيل المثال، الرجال في العائلة وتدفعهم إلى الخطيئة، واقتدى الرجال بالنساء وسترُوا بدورهم أعضائهم التناسلية.

وقد عدت خيانة المرأة جريمة.. بيد أن هذه الجريمة ليست ضد نظام الأخلاق بل هي ضد حق من حقوق ملكية الزوج. وبالمقابل فقد استأثر الزوج بحق «إعارة» امرأته إلى أحد ضيوفه مادام من حقه التصرف بجسدها وروحها. واستمر حق الزوج هنا فترة طويلة حتى إلى ما بعد انتقال الإنسانية من مرحلة ما قبل التاريخ إلى التاريخ.

الرجال البدائيون

إن مختلف مراحل هذه التحولات في العلاقات المتبادلة بين الرجال والنساء تعود إلى أزمان ما قبل التاريخ. ومع ذلك فإن علماء الاجتماع يرون فيها «هزيمة تاريخية كبرى للجنس الأنثوي» ما فتت النساء يقاومنها منذ ألوف السنين. ولم تناضل النساء ضد مؤسسة الزواج كما ناضلن ضد تجريدهن الطاعني من حقوقهن لصالح الرجال وضد «ازدواجية الأخلاق» التي جاءت محصلة لذلك. فتحتم عليهن أن يبقين ضحاياه ما بقيت قوانين الأخلاق هذه من وضع الرجال لا النساء وقد صدرت باسم ديانة يقوم بإدارتها الرجال بوصفهم كهنة الآلهة ووكلائها. وهكذا سُنَّت القوانين وهكذا انتهكت وهكذا أهملت، ومع ذلك فقد استمر شيء ما كان حاضراً منذ البدء: إنه حب الحياة.

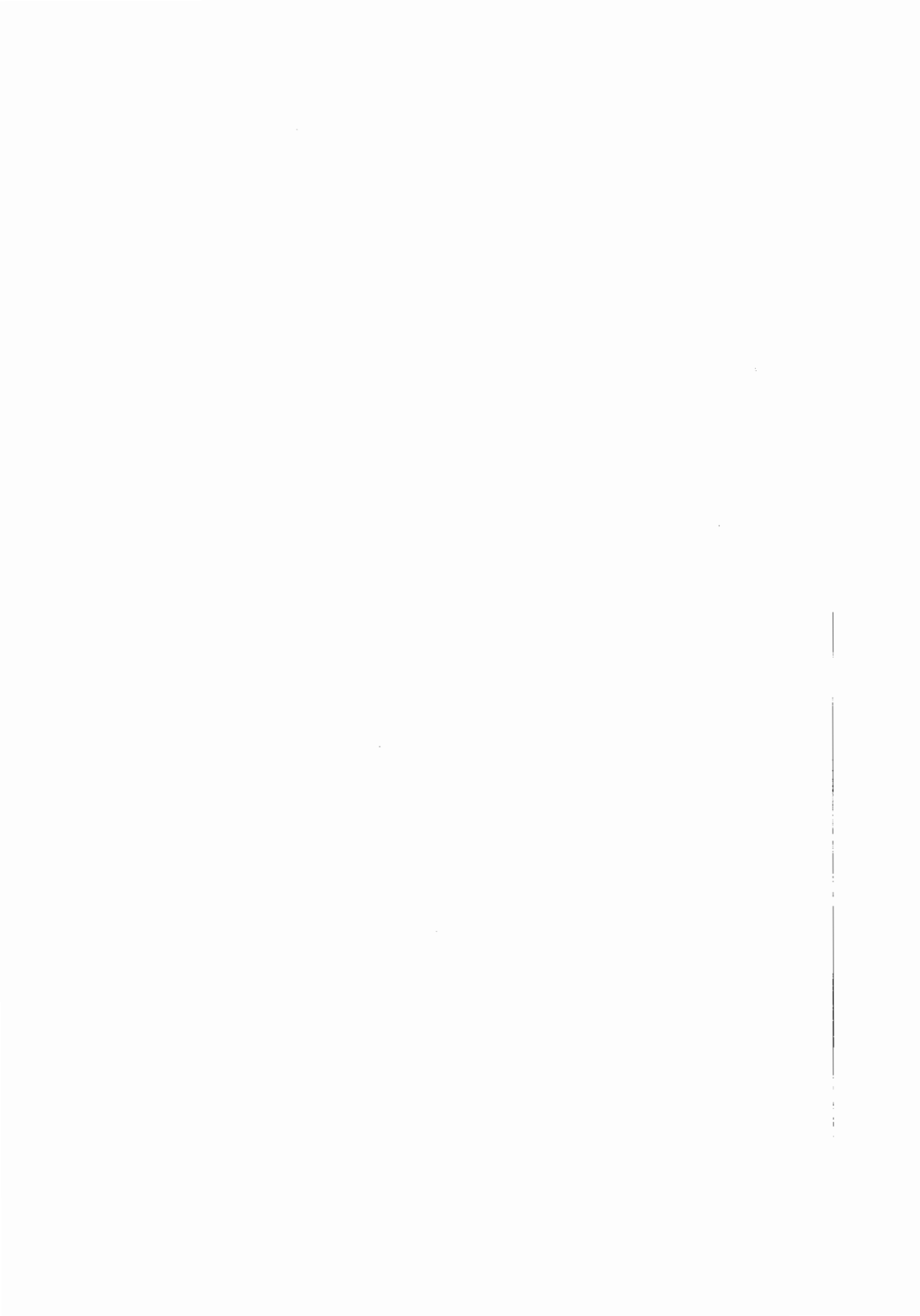


يد بشرية، ألحزت على الأرجح لاسباب سحرية

الفصل الثاني
بلاد الرافدين

تسلسل زمني

السومريون في بلاد الرافدين	أواخر الألف الخامس قبل الميلاد
أقدم الكتابات الرمزية	نحو عام ٣٥٠٠ ق.م
بداية التاريخ المدون في سومر	نحو عام ٣٠٠٠ ق.م
صارغون ملك أكاد	من عام ٢٣٥٠ حتى عام ٢٢٩٥ ق.م
ملحمة جلجامش	نحو عام ٢٠٠٠ ق.م
حمورابي ملك بابل	١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م
قوة الآشوريين في أوجها	نحو عام ١٢٠٠ ق.م
المملكة الآشورية الجديدة	نحو عام ٩٠٠ ق.م
آشور بانيبال	من ٦٦٨ حتى ٦٢٧ ق.م
حريق نينوي	٦١٢ ق.م
نبوخذ نصر الثاني	٥٨٦ - ٥٣٨ ق.م
زرادشت	نحو عام ٥٥٠ ق.م
سيروس الأكبر مؤسس مملكة فارس	٥٥٩ - ٥٣٠ ق.م



«تمتع بين أحضان المرأة»

من أقدم قصص الحب في التاريخ أسطورة إنانا وتموز

أحبت إنانا (عشتار)، إلهة الأرض المرحة، أناها تموز حباً جارفاً. إن هذا الاتحاد الرقيق الذي يجمع الأخ وأخته ويجذب، بولع، أحدهما إلى الآخر في عناق انتشائي لا ينفصم طوال أشهر الشتاء الطويلة، لا يمت إلى عالمنا بصلة. بيد أن سكان سومر الغنية، التي يرويها دجلة والفرات، لم يشعروا، هم أنفسهم، بمباهج هذه المتعة الكاملة ولذائدها، إذ كانت انعكاساً لمخيلتهم وصورة لذاكرتهم. لم يكن تموز وإنانا وجهين مثاليين ونموذجين سماويين لنساء سومر ورجالها، فحسب، بل كانا أيضاً رمزين إلهيين للعملية الجسدية التي تهب السعادة والمتعة.

كان سكان سومر يتوجهون بالدعاء إلى إنانا بوصفها الإلهة «التي تفتح أرحام النساء» إذ كان على جميع النساء، امتثالاً بانانا واقتداءً بها، أن يتهيان لعرض فروجهن، عن رضا، لأنظار الرجال لإيقاظ غريزتهم وحثهم على التمتع بأجسادهن الراضية والمنذورة لهم، وكان على الرجال أن يحتذوا حدو تموز، إله نمو النبات وتكاثر الحيوان، الذي يخضع لإغواء إنانا، وسحرها ويقدم لها منيه في كل مرة ترجوه فيها ذلك.

كان تموز قبل أن تكلف به أخته، يرعى، في ظل شجرة الـ«أريدا ERIDA» وفي حقول غير دنيوية، قطعاً لا يراه بنو البشر. كان الإله الشاب يحمي حيوانات السماء وحيوانات الأرض ويدراً عنها أخطار أشعة شمس الظهيرة المحرقة. أيقظت مداعبات إنانا شهوانية الراعي اليافع. وغداً، بفعلها، رجلاً، فأراد أن يبرهن على رجولته في الصيد والطرده كما برهن عليها في فراش الحب والمتعة. وفي إحدى مطارداته أصابه خنزير بري بجرح مميت⁽¹⁾.

منحت إنانا، قبل اقترانها بتموز، جسدها الشهواني، العطش أبداً، جميع الذكور الأحياء فوق الأرض. أما الآن فإنها لم تعد راغبة إلا في الرجل الوحيد الذي عرفت الحب في أحضانه - هذا الإحساس، الحديد عليها، بالامتلاء وبالكمال السعيد لأنها الخاص، لا يُمنح إلا للرجل والمرأة اللذين لم يخلق أحدهما إلا للآخر.

هذا الاشتهاء للواحد المفرد جعل من الإلاهة «التي تفتح أرحام النساء» مثلاً تختذيه جميع النساء. فليس بكاف أن تُشبع لذة الاتحاد الجسدي الحواس فقط بل عليها أن تروي القلب أيضاً. إن العديد من المعانقات لا تعدل عنقاً واحداً يتوجّه الحب ويرعاه.

إن الرغبة في امتلاك الرجل الوحيد هي وحدها صاحبة الشأن، ذلك الرجل الذي تفيض بحضوره، دون سواه، كل الحواس بالأمل والرجاء. هذا الرجل الحبيب أغلى من جميع رجال الأرض مجتمعين، والسعادة، كل السعادة، هي في البحث عنه والفوز به والاستسلام له.

خلقت إنانا أسطورة الحب. كانت مستعدة لكل التضحيات، إذ برهنت بسلوكها على ان المرأة العاشقة، لكي تفوز بالرجل الحبيب وتحفظ به، ألا تغفل

⁽¹⁾ مزج المؤلف هنا بين الأسطورة السومرية والأسطورة الكنعانية، فالإله الذي يقتله الخنزير

البري هو أدونيس وليس تموز - المحرر -.

شيئاً، وعليها، بدافع هذا الحب، ألا تتراجع أمام المخاطر، مهما بلغت ولو كانت الموت نفسه.

شرعت إنانا بارتياح طريق الجحيم لتبعث في تموز الحياة لكي يعود إليها من جديد، بتحميمه في الينبوع المقدس. سمحت لها اريشكيغال بالدخول وقالت لها: «أنا أيضاً أندب الرجال الذين انفصلوا عن زوجاتهم، وأنا أيضاً أندب النساء اللواتي انتزعن من أحضان أزواجهن» وعلى الرغم من الشفقة التي عبرت عنها هذه الكلمات، لم تستطيع اريشكيغال إعفاء أختها من معاناة ذل العذاب «وفق ما جاء في الشرائع القديمة» إذ بات على إنانا ان تلج، عارية، الممكنة السفلى (العالم الأسفل).

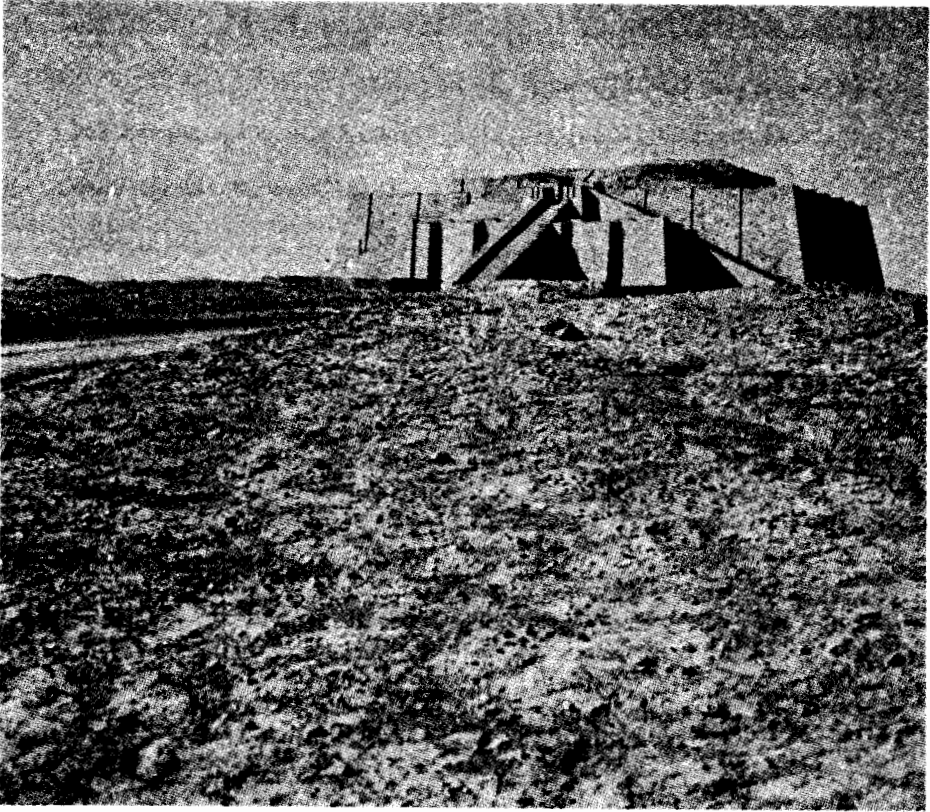
نضا الحارس عن الإلاهة ثيابها وعراها. وجردها من حليها ونزع النقاب عن كاهلها. لكن جمال جسدها العاري أثار غيرة سيدة العالم الأسفل اريشكيغال. فأصدرت حكمها بسجن أختها إنانا في غرفة من غرف قصرها ليذبل جمالها وتذهب كل الأمراض الممكنة بحسنها وبهاتها: «مرض العيون على عينيها... ومرض الجوانب على جنيها ومرض القلب على قلبها ومرض الأرجل على ساقها ومرض الرأس من رأسها...».

أذغنت إنانا، بدافع حبها لتموز، راضية بجميع هذه الأوجاع والآلام.. بيد ان هذه المصائب لم تنزل بها وحدها، إذ توقفت كل مظاهر الحياة فوق الأرض. فامتنع الإنسان والحيوان عن التزاوج والاقتران: «ما من رجل يطارد الفتيات... والنساء يضطجعن وحيدات... وكل الأفراح الجنسية انطفأت...».

علم الآلهة بما يجري، فأصابهم الروع والهلع من احتمال زوال البشرية. ترى من سيتقدم إليهم بالدعاء والعبادة إن وقع ذلك؟ ومن ذا الذي سيقدم لهم الأضحيات؟ فسارعوا إلى إصدار أوامره لاريشكيغال باخلاء سبيل أختها، بيد أن إلاهة الأرض أبت ان تغادر العالم الأسفل إلى عالم الأحياء إن لم يبعث تموز من بيت الأموات ويعود إليها حياً. وكان كما شاءت.. وما أن اتحد الزوجان

تمتم بين أعضان المرأة

الإلهيان، حتى شرعت الأرض بالتفتح والازدهار واستعاد الإنسان والحيوان لذة التزاوج والجماع واستدركوا، كما استدرك تموز وعشتار، باندفاع لا يكمل ولا يمل، كل ألوان الضم والاحتضان التي كانوا قد حرموها منها حتى ذلك الحين.



الزقورة (مجموعة من الأبنية الدينية) في أور، نحو ٢١٥٠-٢٠٥٠ ق.م،
ويعلو الزقورة، على الأرجح، معبد مكرس لإله القمر نانا

في كل ربيع، بعد أن تستقبل الحقول المحروثة بذارها، يحتفل رجال سومر ونساؤها بانبعث تموز الذي ييجلونه بوصفه إله الإنجاب والتوالد، رمز الرجولة

التي تهفو إليها الالهة الأرض. ولا تقرن النساء، أثناء أعياد الخصوبة هذه، بأزواجهن فحسب، بل يجامعن أيضاً من شئن من الرجال، إذ يمنح الزوج زوجه حق الاقتران بالرجل الذي تشتتهي، شريطة أن تحرص على إسقاط نطف من تعشق على الأرض كيلا تحبل. لم تحتفظ هذه العادة، القديمة قدم عبادة الأم الكبرى، باستمرارها إلا في أوساط صغار الفلاحين أنصاف الأحرار وفي أوساط عمال سومر المزارعين. أما وجهاء سومر وأعيانها، أولئك الذين يتباهون بمكانتهم وامتيازاتهم ومظاهر غناهم ويحرصون على التمسك بحقوق الزوج وكرامته، فقد أبوا أن تمنح نساؤهم أجسادهن إلى رجال آخرين أثناء أعياد الربيع هذه حين يسود الفسق والفجور، وأرادوا أن تكون نساؤهم ملكاً لهم وحدهم دون غيرهم، فأرسوا المبدأ الذي ينص على أن الزواج يفرض على المرأة واجب حب الزوج، وان اقتران المرأة بزوجها لا بد من أن يبعث فيها الحب ويذكيه ان كانت امرأة صالحة تتقيد بوصايا الدين ونواهييه. وعلى أسس هذا المبدأ سن الملوك الكهنة في مدن سومر قانون الزواج. وقد دُوّن هذا القانون إثر اكتشاف الكتابة في تلك المدن، واكتملت هذه الكتابة مع الزمن إلى ان غدت فناً.

استقرت إنانا المرححة حية في ذاكرة سكان الأرياف، إلهة تفيض حياة وحيوية وتهب اللذة والمتعة أنى حلت، إلا أن إنانا فقدت اسمها وأصل مغزاها في المدن الحصينة التي أحدثت على ضفاف دجلة والفرات وسيطرت على المناطق الخصيبة والمراعي القائمة بين النهرين. وسميت إلهة الحب الجسدي في المدن السومرية عشثار التي بجلتها النساء بالورع والتقوى وكرمها الرجال حيطة وارتياباً.

ومع ذلك، فان أكثر الرجال ذكورة تعوزهم حظوة عشثار ونعمتها، إنها الإلهة «التي تفتح أرحام النساء» فليس من حقهم الإساءة إلى الإلهة الكبرى التي ترعى الحب وتسهر بعطف عليه، فعليهم، ان هم أرادوا إيقاظ شهوانية زوجاتهم واستثارتهم وان ينعموا، في فراش الزوجية، بالحب والحنان بدل اللامبالاة وعدم الاهتمام، أن يقدموا لها الأضحيات. ولكي يحصل الرجال على

ما يرغبونه من الأبناء، عليهم، ليس فقط، كسب عطف عشتار، بل عليهم أن يفوزوا أيضاً بمحظوة الآلهة الكبار الذين يساهمون بدورهم في خصوبة الأرض وغنائها. ذلك ان الحقول ستبقى جذباء قاحلة إن لم يتدخل نغرسو إله الري والقنوات حتى وان كانت عشتار على استعداد دائم للحب تستجيب لرغبة تموز حاضنة لنطفه، بل كيف للانتاش والنماء أن يحدث فوق الأرض لولا أشعة شمس (الشمس)؟ وهل لشمس وسين إله القمر ان يولدا لولا أنو، الجلد اللامتغير، الذي كان منذ البدء بعد أن انجب ممو، العماء، الآلهة والشياطين؟

إن وفرة الغلال وجودتها، في نظر السومريين، مرهوتان بما يدور في كنف هذا الكون من توافق وانسجام. هذا الكون الذي يرى سكان سومر في مظاهره رموزاً للآلهة. فقد اعتقدوا وأملوا ان بإمكانهم، من خلال ترميزها، التأثير في هذه الآلهة الكلية القدرة لتقف إلى جانبهم وتلاءم وأمانهم، فشيّدوا المعابد لتكون لآلهة السماء مقاماً يليق بها، فوق الأرض، فتقيم بالقرب من عبادها تستمتع إلى صلواتهم وتستجيب لدعواتهم.

وفي هذه المعابد، المنتصبة فوق المرتفعات، أقام الملوك - الكهنة، فكانوا على اتصال مباشر بالآلهة. وقد سيطرت هذه المعابد وأبراجها المتدرجة، على المدن الممتدة فوق منحدرات التلال وسفوحها.

في البدء شيدت كل مدينة حول المعبد، وحول مقر الآلهة الراعية الفاخر هذا، حيث كان يعيش الملوك الكهنة، وقد أحاطت بهم هالة سلطانهم اللادنيوية، شيدت القصور وأقيمت البيوت والأكواخ داخل أسوار المدينة المرتفعة، وهيمن الملوك على المدن والأصقاع المحاورة، كما هيمنت الآلهة على المؤمنين، بوصفهم ممثلين للآلهة، مثلهم في ذلك مثل الوكلاء الذين تنمو مواردهم مما يقدمه المؤمنون من أضحيات وهبات، إذ تقضي عبادة الآلهة: ان من حق الملوك وكهنتهم أن يقبلوا، برضا، الثيران والماعرز والقطائر بوصفها عطايا مننورة لآلهة يأكلها هؤلاء الملوك والكهنة بدلاً عنها.

شعوب ما بين النهرين

رأس امرأة من أورك، نحو
٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق.م.
اشتهر باسم: امرأة الوركاء، وهو مصنوع
من المرمر الأبيض،
متحف العراق، بغداد



مسلة أورنامو ملك أور،
متحف فيلادلفيا





قدح حصي من مدينة أوروك،
نحو ٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق.م. وعليه نرى الغلال
والماشية وفاكهة التربة، تقدم إلى إلهة الخصب،
متحف العراق، بغداد.

ارتبطت مكانة الملوك —
الكهنة، في البدء، بما كانت تتمتع
به آهنتهم من اعتبار، ولكن سرعان
ما توقفت شهرة الآلهة وسمعتها
على سلطان الملوك ونفوذهم.

فأصبحت مناطق نفوذها
وأسمائها سريعة في قلبها وتحولها:
إذا ما شرع أحد الملوك في محاربة
ملك آخر وانتصر عليه استولى
المنتصر على الإله المهزوم وكأنه
غنيمة من غنائم الحرب ليضيف
قوة الإله المهزوم إلى سلطان آلهته،
فيفوز، من ثم، بالهيبة والشهرة،
ومع ذلك فإن إرادة الملوك
السومريين المطلقة، وقحتهم حيال
آلهة المقهورين، لم تذهب إلى حد
المساس بالإيمان الشعبي
وأصوله، إذ كانوا يخشون تعريض
النظام القائم للخطر، ويتورعون
عن تبديل القوانين الأخلاقية
المرعية التي نادى بها السلاطين
بوصفها وصايا ونواه إلهية تنسجم
والأعراف والتقاليد المرعية الراسخة
عميقاً في وجدان الشعب.

وبعد ان استوطن السومريون في منطقة بلاد الرافدين تشكلت الطبقة الاجتماعية في أوساط السكان، تلك الطبقة الشبيهة، في جوهرها، بالطبقية التي كانت تتشكل في كافة أصقاع العالم، بانتقال الأسر والقبائل والعشائر من حياة البداوة والترحال إلى الحياة الحضرية والاستقرار، فطراً تحسن على أنماط المعيشة بفضل اكتشافاتهم وابتكاراتهم الناجعة وجهودهم الدؤوبة المضنية. وغدا رؤساء القبائل أنبياء (بمعنى أنهم لسان حال الآلهة) وكهنة وملوكاً، يستمدون سلطانهم بوصفهم وسطاء بين القوى الدنيوية واللادنيوية. قد يحدث أحياناً أن يحاط هؤلاء الملوك، في حياتهم، بمظاهر التكريم والتبجيل، كما الآلهة، من خلال مراسيم وضعوها هم أنفسهم ذلك أنهم قد استخدموا بحكمة وسداد رأي، مزاياهم وامتيازاتهم لما فيه خير ورفاهية من يثقون بهم من الرجال والنساء.

وحري أن يعزى تعاضم التقدم ورغد العيش إلى أفعال هؤلاء الملوك، خاصة وإن حياة أسلافهم البائسة، التي انتقلت من جيل إلى جيل، ما تزال راسخة في ذاكرة الأفراد الذين كانوا ينعمون، آنئذ، بالرخاء. إن حكمة الكهنة - الملوك جعلت من شعب سومر ما كان عليه في حاضره، ومكاته تلك دليل قاطع على عدالة امتيازات الملوك في السيادة وفي إدارة دفة البلاد باسم الآلهة التي يمثلونها على الأرض والتي يجسدونها أحياناً. يرى سكان المدن والأرياف في أوامر الملك العدل بعينه والخير بأحلى صورته، وإذا ما تكشفت مساوئ هذه الأفعال، فالخطأ في ذلك لا يعزى إليه وإنما إلى خطأ ارتكبه الآلهة أو إلى تعكر في مزاجها، فيسعى الشعب جاهداً إلى تهدئتها بالأضحيات وكسب ودها بالصلوات. كان السكان في مدن سومر موزعين إلى ثلاث طبقات: تأتي في المقام الأول طبقة الأمولو المؤلفة من مستشاري الملك المباشرين الذين يتولون إدارة المدينة وتسيير شؤونها، ومن الكهنة والمحاربين الذين يحافظون على سلطة الملك ويدعمونها في حال تمكنه من تكريس نفسه كلياً للسلطة الروحية، فيحمونه ويدروون عنه غارات الملوك الأجانب. يلي هذه الطبقة طبقة الموشكينو MUSHKENU

تتألف من النجار والصناع وملاك الأراضي المستقلين. إن المنتسبين إلى هذه الطبقة أحرار بالطبع لكن عليهم الامتثال والخضوع لطبقة الأمولو. أما الطبقة الثالثة فتتألف من الرجال والنساء غير الأحرار، وكان هؤلاء إما ممن يبعوا في سوق النخاسة أو من أسرى الحرب أو ممن ولدوا في ظل سيدهم.

كان هدف الحياة وغايتها عند السومريين السعادة والرخاء، فسعوا إلى الثراء واجتهدوا كل الاجتهاد في تحسين معيشتهم والتمتع بحياتهم، إذ نلاحظ بوضوح، من خلال أعمالهم الفنية التي وصلت إليها، ما بلغته أنماط حياتهم، عبر العصور، من رقي وتهذيب. في البدء، لبس الرجال من المآزر أبسطها ولكن سرعان ما غطوا القسم الأعلى من أجسامهم بأفخر الأقمشة الصوفية والكتانية ذات الوبر، وارتدت النساء فساتين ذات ثنيات تسدل من الأكفاف، وتزين معاصمهن الأساور ونحورهن القلائد وأصابعهن الخواتم وآذانهن الأقراط، وكن يخضبن أظفرهن ويعتنين بها، لكنهن لا يمارسن وأزواجهن شيئاً من الأعمال اليدوية. كانوا مواطنين أحراراً، وأسياداً وسيدات للعبيد الذين كانوا يلبسون أوضاع المآزر وأبسطها ويعتنون بيوت الأثرياء ويمرسون المشية ويكرسون جل أوقاتهم للعمل في الحقول، وقد أتاحت أكداس الغلال المودعة في المستودعات للسومريين ممارسة التجارة بفائض إنتاجهم.

لم يقتصر السومريون، في أعمالهم التجارية، على مبادلة منتجاتهم الزراعية ببضائع الشعوب والأجناس القريبة والبعيدة فحسب، بل كانوا، أيضاً، من أوائل التجار في التاريخ. كانوا على دراية «بالحركة اليومية» للبضائع إذ دونوها كتابة، كما ساعدوا على تطوير ورشات العمل لجني ما في مهارة صناعتهم من فوائد، فأصبح النساجون والخزافون والحدادون وصانعو العجلات والسفن والسلال والأوسمة (الميداليات) والنحاتون على الحجر من المنتفعين، بالوراثة، بالأراضي الممنوحة من الملك. فكان على أبناء الصناع، للاحتفاظ بمناطق النفوذ هذه، تعلم حرفة الآباء لكي يزيدوا في ملكياتهم الخاصة ان هم اتقنوا فنهم.

شعوب ما بين النهرين

أقام سكان المدن السومرية داخل جدران المدينة التي بلغ الازدحام فيها حداً دفع أحد المواطنين إلى بث هذه الشكوى، التي نفهمها نحن اليوم تمام الفهم، وقد نسقت على بلاطة من الحجر، مارالت سليمة على الرغم من مرور آلاف السنين، بخصوص: «المدينة التي يتردد فيها صدى صخب الناس وضوضائهم».

أما الفقراء، فكانوا يسكنون في أكواخ ذات أسقف منبسطة تستخدم أيضاً حظائر للماعز ووزائب للخنازير. أما بيوت الأغنياء فقد كانت فسيحة رحبة ذات أفنية داخلية ظليلة يدل أناتها وما تترين به النسوة من حلي وجرامير، على مقام صاحب الدار ومبلغ ثرائه.

وغدت تربية الأطفال، في المجتمعات الحضرية، التي كانت في القبيلة والقرية البدائيتين وفقاً على الأمهات، من مهام الآباء الذين يسعون ويجهدون لكي يتلقى أربابهم العلم ويتسنى لهم مواكبة الآباء في مهنتهم، فكانوا يرسلون أطفالهم إلى المدارس لكي يتعلموا، منذ سني حداثةهم. الحظ السماري، الاحتراف الأعظم لشعب سومر، والحساب، لأهلهم، قدر الإمكاني، لممارسة مهنة التجارة التي تعد من أكثر المهن ربحاً. أما ذلك الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة فسوف يجد نفسه معوقاً وسحول دون تقدمه صعوبات همة، إذ كان لا بد من تدوين كل إجراءات البيع والشراء وكل العقود والتبرعات خطياً، والتصديق عليها وختمها لتكون صحيحة مقبولة.

نظمت القوانين والمحظورات العلاقات بين الناس، ومن ضمنها الأخلاق. وهكذا فإن الزواج يتم عقده بشراء الرجل للمرأة، وكما هو الحال في كل شراء، فإن الزواج يحميه عقد ميرم بين الطرفين. وقد عد الزواج الأحادي، في كافة المدن السومرية، أسس الأسرة. ومع ذلك فليس من المغيب الشائن أن يكون للزوج امرأة أخرى غير زوجه الشرعية أو أن يكون له علاقات جنسية مع «نساء المعبد» وبخاصة الخبيرات منهن اللائي يشكلن الفئة المحترفة غير العادية، كان البسطاء من رجال سومر، الذين يؤثرون إطلاق عذرهم وحلق شواربهم، يعدون

للزواج صفقة رابحة. صحيح ان الواجب يدعوهم إلى تقديم مبلغ من الفضة أو البضاعة القابلة للتداول والمقايضة عند الخطبة إلا ان هذا الثمن يؤكد طيب نوايا الخطيب وصدق رغبته في الزواج بخطيبته في وقت يتفق عليه، مسبقاً، مع ذويها. ولا تذهب هذه النفقة هباءً ذلك لأنها ستصبح، يوم الزفاف، ملكاً للعروس التي تضمها إلى أثاث المنزل على شكل مهر إضافي. ولا يفقد الخطيب عرايينه إلا في حال فسخه للعقد وتخليه عن وعوده. وليس من المعيب الشائن أيضاً أن تسكن الخطيبة، قبل زواج أبرمتة المؤسسة «بتحرير زفافي» في منزل والد زوجها أو منزل زوج المستقبل وتشارك خطيبها مضجع الزفاف. ثم ان ما تعاهد عليه الطرفان يبقى قائماً، فإذا تخلت الخطيبة، من جانبها، عن التزامها فعلى الأب أو أكبر الأخوة في الأسرة أن يرد للخطيب، على شكل تعويضات، ضعف ما كان قد قدمه.

على الرجل الذي يغوي إحدى الفتيات أن يتخذها زوجة له، أما إذا كان متزوجاً فعليه أن يدفع لأبيها أو لأخيها الأكبر، تعويضاً مقابل «انتزاع براءتها» لا يقصد بالبراءة في سومر، العذرة أو البكارة لأن العادة تقضي ان تضحى الفتيات ببيكارتهن في معبد إله المدينة. وهل للزواج أن يحظى بموافقة الملوك - الكهنة ومساعدتهم، ان لم يظهر العروس ويقدها، قبل الزواج، اتحاد جنسي مع ممثلي الآلهة في الأرض؟ إن دم العذارى قربان تستمرئه الآلهة، ومن الضروري أن يسكب هذا الدم ويراق أمام المذابح أو تحتها إذ يشكل قسطاً من مراسيم العبادة. كان الاتحاد الجنسي مع ممثلي الآلهة مدرسة للحب. وكان الآلهة يعلمون النساء فن الإحساس بالمتعة ومنحتها، تلك المتعة التي يجب أن تتوفر في كل زواج يتطلع إلى السعادة، كما يجب أن يتبدد، في حضرة الكهنة، كل حياء عذراوي، إنهم التحسيد الحي والمقدس للجنس الذكر، وكيلا تساور النسوة الشكوك، أياً كانت، حول ذلك، كانت عشتر تظهر على شكل إلهة ملتحية مزودة بعضوي الذكورة والأنوثة معاً. ويدل نهدها العاريان، المنذوران للمص والرضاعة، على

شعوب ما بين النهرين

أنوثتها. غير أن عشتار كانت رجلاً أيضاً ولحيتها لم تكن الدليل الوحيد الذي يشهد على ذلك.

وتحولت عشتار، من كافة وجوهها، لتصبح إلهة الرغبات المتناقضة المشبعة. صحيح أنها استمرت الإلهة راعية للزواج إلا أنها أبت وحرمت نفسها كل رابطة زوجية، ولم يكن، لاتحادها بتموز وحدها، أن يشيع جموح عشقتها المتوقع. وعليه فقد كانت الكائن المؤنث الوحيد الذي أباح له رجال سومر حرية جنسية مطلقة. ففي ذاكرة الرجال والنساء كانت عشتار تعيش ضرورياً لا حصر لها من مغامرات العشق بوصفها تمثل بديلاً لهؤلاء النسوة من البشر اللائي يترتب عليهن الامتناع عن كل المغامرات العاطفية خارج بيت الزوجية. وبما ان عشتار لم ترم أي زواج ولم ترتبط، من ثم، بأي عقد، فإن لها الحق في أن تخون كل الرجال الذين واقعوها.

لا نجد بين قوانين سومر الأخلاقية قانوناً واحداً ينص على معاقبة الرجل في حالة خيانتته لزوجته، في حين تتعرض الزوجات لعقوبة الموت ان هن جرّمن زانيات، رغم تضمين «صك الزفاف» تعويض الزوج المخدوع، وللزوج أن يطلق زوجه العاقر، دون اعتبار ما، إذ يكفي ان يعبر عن أمنيته تلك خطأ في وثيقة الطلاق.

وإذا ما رغبت المرأة الطالق في العودة إلى بيت أهلها فلها أن تسترد بائنتها وما دفعه الزوج إبان فترة الخطوبة، أما إذا آثرت البقاء في منزل زوجها للزوج حق الاقتران بامرأة ثانية تلتزم، حقاً، بغسل أقدام الزوجة الأولى وحمل مقعدها إلى المعبد.

لم تكن عشتار، بوصفها إلهة الحب الجسدي، حامية للزواج فحسب، بل كانت ترعى أيضاً «نساء المعبد» اللواتي أطلق عليهن الإغريق، لاحقاً، إماء المعبد، وقد شكلت كاهنات الحب هؤلاء طبقة أيضاً. فكان للاتنو، التي احتلت مكانة المرأة الشرعية الأولى للإله، ومن ثم، للملك – الكاهن، المقام

تمتع بين أعضان المرأة

الأعلى في حرم المعبد، فمن الواجب ان تكون ظاهرة الذليل والسلوك ولا غبار على أخلاقها. وقد ترتب على ذلك ان تُسمع، منعاً باتاً، من دخول إحدى الخمارات كيلا تدنس، بتأثير وسلطان المشروبات المسكرة، طهرها الكهنوتي، وإذا ما نمي إلى الملك ارتكابها لمعضية مخالفة للحشمة والآداب المرعية حكم عليها بالموت حرقاً.

وكان على السالمي والزيكو والقاديشتو، اللواتي يحتلن المرتبة الثانية بعد الانتو، ان يخضعن للكهنة ويطعنهم، كما أن من واجبهن ممارسة الحب مع جميع الرجال الذين يدفعون، في سبيل ذلك، الجزية للمعبد، إذ ليس بالشائن ولا بالمعيب، إطلاقاً، ان تكرس الفتاة نفسها «امرأة للمعبد» فللنساء من السالمي، عند الآلهة، المقام الثاني، انهن نساء الآلهة في المقام الثاني، واقتراهن الجسدي برجال مجهولين يقابل بالتبجيل والاحترام بوصفه زواجاً سريراً روحانياً، ويحمل الأطفال المولودون من هذه العلاقات السرية أسماء أمهاتهم، وهم ممن تفضل طبقة الأمولو تبنيمهم.

تلتزم النساء من السالمي بما نذرن إليه أنفسهن إلى أجل مسمى، وما ان يبلغن في فن الحب حد الكمال ويحصلن بائنتهن ممن عاشرن من الرجال المجهولين، حتى يسعى إليهن الرجال يلتمسون الزواج بهن، ومع ذلك، فقد ترتب على كل واحدة منهن، إذ يحظر عليهن الإنجاب بوصفهن «نساء للآلهة من المقام الثاني»، ان تصطحب معها، إضافة إلى بائنتها، أمة تستخدم كامرأة ثانية، على أن تكون صحيحة الجسم ضامنة لإنجاب ما يرغب زوجها من الأطفال، ولا يجوز دون زواج النساء من الزيكو والقاديشتو مانع ما، بل كان من حقهن أن ينجبن ماشئن من الأطفال، إلا ان ما يلدنه من الأطفال، إبان خدمتهن في المعبد، يتناهم الكهنة أو يعرضون للبيع عبداً، وما كان، في بادئ الأمر، خدمة للمعبد غداً، مع الزمن، احتراماً لدعارة لم تقتصر على النساء فحسب، بل مارسها الرجال أيضاً.

شعوب ما بين النهرين

إن فقرة من ملحمة جلجامش لتؤكد ان الجنسية المثلية (اللوواط) لم تكن ممنوعة آنذاك بل كانت، على العكس من ذلك، مألوفة وشائعة، إذ نقرأ فيها دعوة كاهنة الحب (أمة المعبد) لأنكيدو الأسطوري، ابن الطبيعة الذي كان نصفه إنساناً ونصفه الآخر حيواناً، تستحته للمضي إلى أهل أوروك: أولئك الذين يشدون كواهلهم بفاجر الأحزمة، ويزهون، دوماً، بخلل الاحتفال، ففي أوروك «يحتفل الناس، في كل يوم، بعيد حيث يهب الغلماء المختشون الفرح.. المتعة حلت بهم وباللذة يسرفون».



اطلال اوروك - اولى مدائن سومر القديمة

يتألف أبطال ملحمة جلجامش^(*)، هذه المجموعة الشعرية من الأساطير السومرية، من الآلهة وبني البشر. ولا بد من أن يسمح لنا تحليلنا لأفعالهم

^(*) ملحمة جلجامش: جاءت بعض الفقرات التي اقتبسها المؤلف من الملحمة مقتضبة أحياناً، فآثرت العودة إلى الملحمة بنصها الكامل (ترجمة الأستاذ فراس السواح) وكتاب قصة الحضارة ل(ديورانت) - المترجم -.

تمتع بين أمضان المرأة

وبطولاتهم بفهم أعمق لعالم السومريين الروحي وأخلاقهم المألوفة الشائعة في المدائن إبان تأليف هذه الملحمة.
كان بطل الملحمة الرئيس ملكاً على مدينة أوروك، وقد جاءت خصائصه في مطلع الملحمة على النحو التالي:

هو الذي رأى كل شيء حتى تخوم الدنيا
هو الذي كابد كل شيء وعرف كل شيء
واطلع على جميع الأسرار وكشف أموراً خبيثة.
واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كل شيء.

.....

وجاء بأخبار أيام ما قبل الطوفان
وسار في طريق بعيد طويل
وارتاد أصقاع الأرض بحثاً عن الحياة
ثلثاه إله وثلثه آدمي

كان مرآه يزرع الرعب في قلوب الرجال.. فما هيئة جسمه من نظير،
وليس من ملك مثله في كل مكان. كان طويل القامة ضخم الجسم مقتول
العضلات جميلاً يفتن الناس بجماله.. لكن توقاً دفيناً سيطر عليه: ان يرى مدينته
أوروك «تتلاأ بأبهي حلة بين المدائن» فسخر الرجال كافة ليكدوا ويجهدوا في
«بناء الأسوار ليل نهار»، لا يترك ابناً لأبيه ولا بكراً لحبيها ولا ابنة لمحارب أو
صفية لنبي، إنه الراعي والظالم. فتشكوه الفتيات والزوجات إلى آلهة السماء
ويستحيب أنو، الجلد اللامتغير، إليهن، ويأمر آرورو، الإلاهة خالقة الأشكال،
ان تخلق كائناً حياً نظيراً لجلجامش ليدخل في عراك دائم ويتغلب عليه، حتى
تستعيد حياة العشق المضطربة في أوروك سيرتها الآمنة. فسارعت آرورو متملية
في دحيلتها صورة أنو: غسلت يديها وجمعت قبضة من طين.

شعوب ما بين النهرين



رأس أحد الآلهة في لاغاش، نحو ٢٨٠٠ ق.م، متحف اللوفر، باريس.



خوذة ذهبية للملك ميسكالامدوك،
حاكم أور، نحو ٢٦٠٠ ق.م،
المتحف العراقي، بغداد

تمتع بين أحضان المرأة

ومن رضاب الأم الإلهي خرج أنكيديو لا يشبه في شيء رجال مردوخ المجبولين بعظم الأرض، ودم كنجو الشيطان الفاسد، نصفه إنسان ونصفه الآخر حيوان، يكسو الشعر جسده وشعر رأسه كما المرأة، إنه رجل له بأس الخنزير وسرعة الطير ولا يعبأ بصحبة الآدميين، بل يعتزلمهم ويعيش ناعماً مع الحيوان، يرعى الكلاً مع الغزلان ويرد الماء مع الماشية بقلب جذلان، ويطلب النصيحة عند ملك أوروك صياد حاول عبثاً اقتناص أنكيديو بشباكه وفخاخه. فيأتي جلدجامش، القوي المهييب الحكيم، بامرأة رائعة الجمال من معبد عشتار المقدس ويأمر الصياد: ألا فامض أيها الصياد وخذ معك امرأة حظية ودعها تنضو ثيابها عندما يرد الماء لسقي الحيوان، لتكشف عن مفاتها، فانه لمقاربتها ان رآها وستنفضُ من حوله الوحوش.. ومضى الصياد مع كاهنة المعبد يقصدان مورد الماء... وما أن يرى أنكيديو حتى يصبح:

هاهو ذا أيتها المرأة

عري نهديك

أسفري عن مفاتنك

حتى ينال كفايته منك

لا تحجمي

حركي فيه الرغبة، علميه وظيفة المرأة

متى رآك انجذب إليك

والفتحي ثوبك، حتى يرقد عليك

فتنكره طراند البرية

وسيلتصق صدره بصدرك

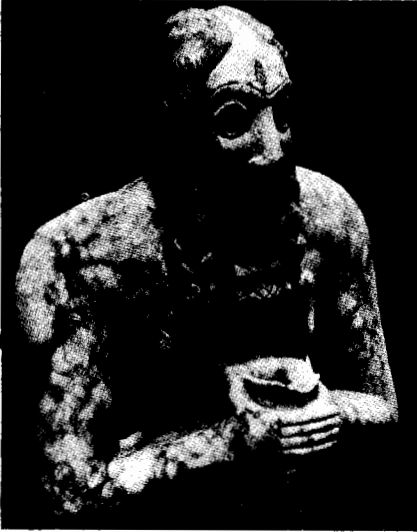
.....

وحلت المرأة أزرارها

وعرت صدرها حتى ينال كفايته منها، ولم تحجم وأخذت شهوته،

وفتحت ثوبها لكي يرقد عليها وأثارت نشوته كما تفعل النساء
والتصق صدره بصدرها فنسي أنكيديو أين ولد.

بعد ستة أيام وسبع ليال عب فيها السعادة عباً وروى نفسه من مفاتها
بعم وجهه شطر رفاقه الحيوان يطلب صحتها، لكنها ولت هاربة مرتدة عنه،



أحد كهنة معبد تل أسمر، بعيد ٢٤٠٠ ق.م.
جامعة شيكاغو

فعاد إلى كاهنة الحب، بعد أن
تعثرت قدماه وخارت قواه، خائباً
مستسلماً لمن استولت عليه
حواسه، فدعته تلك التي ملكت
منه الحواس إلى تغيير حياته:
«كيف يطيب لك العيش بين
وحوش البرية؟ تعال آخذك إلى
أوروك، المدينة ذات الأسوار..
وسوف أطلعك، أنت يا أنكيديو،
يامن تجهل الحياة، على
جلجامش... الرائع الرجولة
والعظيم البأس... المتعة ساكنة فيه
والشهوة تزين كامل جسمه...»

وبعد ان قدمت كاهنة الحب الخبز لأنكيديو قائلة:

«كل الخبز يا أنكيديو.

إنه عماد الحياة»

شجعتته على تناول الشراب: «خذ الشراب القوي فهو عادة البلاد». طاب
للآدمي - الحيوان المضي إلى أوروك، لم يكن مبالغاً في السلام، فقد عقد
العزم على تحريض جلجامش للدخول معه في صراع دام، وعندما حل بأوروك
ذات الأسواق التقى بجلجامش.. وسد على سيد البلاد البوابة بقدمه، ولكن

جلجامش الجبار تغلب عليه بقوته ووداده معاً، ويغدو البطلان صديقين حميمين.. وفي خلوتهما كان جلجامش يقدم لصديقه الزبدة في إناء من عقيق والعسل في إناء من لازورد، ويتسامران إلى أن يطلع النهار ويظهر الإله شمش، كان الصديقان الآدمي - الإله والآدمي - الحيوان يسيران جنباً إلى جنب يحميان أوروك من عيلام ويعودان ظافرين بعد أن يقوموا بأجل الأعمال.. وتغلبا معاً على حبابالا (هواوا - حبابا)، حارس الغابة، «أمام جبل الأرز مرتع الآلهة».

وبعد أن يرتدي جلجامش حلته ويزين نفسه بالشارة الملكية ليحتفل وصديقه أنكيكو بانتصارهما ترنو إليه عشتار العظيمة وقد استولت عليها الشهوة لمأى الرائع الرجولة وتتوسل إليه قائلة:

«تعال يا جلجامش وكن عريسي

هبنى ثمارك هدية

كن زوجاً لي وأنا زوجاً لك

سأمر لك بعربة من لازورد وذهب..»

لكن جلجامش لم يستسلم لإغوائها، ولم يقع في شرك سحرها ومعسول حديثها، ولم يشأ أن يعاني مصير مموز إله النماء الذي تبكيه كل عام، إذ يمضي إلى الجحيم عند حلول الخريف، فما صانت له وداً، كعهدها إذ كان اسمها اينانا، بل كانت، في فترة بعباده عنها، تلهو وتعربد مع رجال آخرين قبل حلول الربيع إذ تمضي باحثة عنه في الجحيم لتقترن به من جديد، زد على ذلك ما جنته على جميع عشاقها وما جرته عليهم من وبال. فهذا شاب جميل يزهو بفتوته حولته الآلهة المتهتكة إلى عصفور وهاهو الفائق القوة ايشولاتو بستاني أيها آنو سيد السماء مسخته، بعد أن سحرته، إلى حيوان لا حول له ولا قوة. فنادها جلجامش قائلاً:

«إن رغبت في حيي الآن أئن يصيبني ما أصاب هؤلاء؟» وبرفضه هذا أثار ثائرتها ونال من كبريائها وغرورها: كيف لرجل مثله أن يرفض طلب

شعوب ما بين النهرين

إلهة مثل عشتار، تلك التي «تفتح أرحام جميع النساء»؟ فعزمت على أن تنأر لجميع النساء من الرجل الذي رفض سواها، وينعم بالسعادة مع صديقه الحميم أنكيديو، وانطلقت إلى حضرة آنو تتوسل إليه أن يخلق نوراً تهلك به جلعامش.. وفي البدء رفض آنو طلبها ولم يعرها أذاناً مصغية ولكي تنال مرادها وينصاع آنو موافقاً على طلبها في أن يخلق هذا الوحش المروع الذي يحمص بخواره الناري أرواح مئات الرجال ويتلف باحتياحه مدينة أوروك، كان لابد لعشتار، سيدة غرائز الرجال والنساء، من أن تتوعد بأنها سوف تعطل كل ما في الكون من غرائز الحب والشهوة حتى يهلك كل شيء حي. ولكن جلعامش يجهز على هذا الوحش بمعونة أنكيديو ويقتله. فتصب عشتار على البطل لعتها وجام غضبها، فيستشيط أنكيديو غضباً وينترع فخذ الثور الأيمن^(*) ويقذفه في وجهها، وانتقاماً لهذا التحدي ورغبة منها في قطع أواصر صداقة حميمة تقض مضجعها أصابت أنكيديو بداء عضال، وبعد ان لبث جلعامش جانب جثة صديقه، يبكي الذي كان أحب إليه من النساء، ستة أيام وسبع ليال، أراد أن يكشف ما خفي من سر الموت. إلى جده الأكبر أوتنابشتيم الخالد انطلق. فهو وحده من يعرف سر الموت والحياة.

وبعد عناء سفر التقى جلعامش بالعجوز الطيب رجل شوربيك الذي بنى، في الزمن الغابر، امثالاً لنصيحة إيا إله الحكمة، سفينة فسيحة إنقاذاً لحياته وحياة من كان معه على متنها أثناء الطوفان، هذا الإعصار الذي أرسلته الآلهة على البلاد لتهلك به بني البشر.

وروى أوتنابشتيم جلعامش وقص عليه قصة إنقاذه لحياته وحياة من سعد فلكه، وكيف أنعمت عليه الآلهة بالخلود مع زوجه رغبة منها في

(*) في النص الفرنسي المترجم يقذف أنكيديو الإلهة بأعضاء الثور التناسلية - المترجم. وهذا غير موجود في النصوص الأكاديمية.

تمتع بين أحضان المرأة

استمرار الجنس البشري وخلوده. وغب سكون العاصفة وانحسار الطوفان
رمى ببصره إلى المياه «كان السكون مطبقاً وآل بنو البشر إلى طين» لم ينج
منهم إلا من كان على متن السفينة.



جلجامش يخنق أسداً، القرن الثامن ق.م، في زمن هذا النحت البارز غدا جلجامش بطلاً
أسطورياً، في حين إن جلجامش كان شخصية حقيقية حكمت أوروك في الألف الثالثة ق.م،
متحف اللوفر، باريس.

بعد أن أخفق جلعامش في ما احتر به يشفق عليه أو تنابشتيم ويمنحه فرصة أخرى، بأن قدم إليه نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها.. يسعد جلعامش بما غنم ويقفل عائداً إلى مدينته، لكنه يقف في طريقه ليستحم، وبينما هو يفعل ذلك، تنسل الأفعى وتسرق ما جناه بعد طول عناء. لقد قضي الأمر.. فلا مناص من موت الإنسان. ترى ما الذي ينتظر الإنسان في موته؟ ويتوسل إلى الآلهة أن ترد الحياة إلى أنكيدو هنيئات معدودات... ويظهر أنكيدو.. ويجب على أسئلة جلعامش الملحاح حول الموت والموتى: «لا أستطيع أن أحييك لأنني لو فتحت الأرض أمامك، ولو أحررتك بما رأيت لقضيت من شدة الهول ولغشي عليك».

حسب جلعامش، وقد سمع أخبار أهوال الجحيم أثناء ترحاله إلى أو تنابشتيم، أنه عالم بالموت خبير بحقيقته، فيقدم النصيح لصديقه أنكيدو قائلاً: «لا تحدث جلبة تصاعد إلى أرض الأحياء، لا تقبل المرأة التي تحب، ولا تضرب المرأة التي تكره، لا تقبل الطفل الذي تحب ولا تضرب الطفل الذي لا تحب...» ليست مخافة الموت بأسوأ الأشياء، إنما الأشد هولاً: «ان لا تجد روح الميت حارساً يرعاها». وقد قيل: «ويل لمن تركت جثته في العراء، فالروح عنه تائهة لا يهدأ لها بال وليس لسكبتها من قرار، ويل لميت ما جلب له ذوهه طعاماً، يقتات بالفتات وما تركه الآخرون في قدورهم من نتن الفضلات وما رموا به للطريق».

أما الآلهة سايتو التي امثل جلعامش أمامها يشكوها بلواه قائلاً: «ليتني لا رأى الموت الذي أخشاه»، فقد خففت من روعه قائلة: «الحياة الخالدة التي إليها تسعى لن تجدها، والآلهة إذ خلقت الإنسان أقامت الموت في جبلته وجعلت حياته حبيسة أيديها». ثم أردفت تنصحه الحياة التي يجب أن يعيش: «والحال هذه يا جلعامش، بالطعام والشراب املاً معدتك. ابتهج ليلك ونهارك. اجعل كل يوم من أيامك عيداً سعيداً. بالناي والقيثارة اطرب نفسك، وبالرقص انعش فؤادك ليل نهار. ارتد من الثياب انظفها، اغسل

تمتع بين أحضان المرأة

رأسك وضمخ شعرك وحمم بدنك بأعذب المياه. انظر بفرح إلى الصغار المسكين بيديك، وتمتع بين أحضان المرأة».

وانتشرت، بفضل
ملحمة جلجامش،
في بلاد سومر،
انتشار النار في
الهشيم هذه الدعوة
للتمتع بالحياة مخافة
موت محقق أثر في
أخلاق النساء
والرجال معاً، وبلغ
بهم حد الاحتفاظ
بورع ديني مقيم نحو
عشتار.



ترميم قبارة لها رأس ثور وجدت في أور، نحو ٢٦٠٠ ق.م
- المتحف البريطاني، لندن -

ومع ذلك فقد ندرت فترات الأمن والسلام في منطقة بلاد الرافدين حيث كان الرجال ينعمون «بين أحضان النساء» فراحت في الأفق، من كل حدب وصوب، تتوالى جحافل الغزاة المحاربين وقد اجتذبتهم بلاد سومر الخصيبة، فيحتاجون حقوقها وبساتينها ويذبجون ماشيتها وينهبون مدنها ويستولون عليها، فإن طابت لهم عادات السكان في تلك الأصقاع المغلوبة استوطنوها وعاشوا كما يعيش أهلها.

لم يكن يعكر صفو أمن السومريين إلا القبائل البدائية الزاحفة من الجبال والصحارى، فقد اعتاد ملوك المدائن على الاقتتال دائماً وأبداً، كما ان رهان هذه الحروب وشرورها كاد أن يكون، على الدوام، هو نفسه: الرغبة في تعاضم الملك والسلطان.

شعوب ما بين النهرين

في الوقت الذي كان الملوك يقتتلون في سومر وتتنازعهم الحروب الطاحنة، (إذ نستطيع أن نكتشف، في أيامنا هذه، مواضع قرابة خمسمائة مدينة دمرتها هذه النزاعات وتنتظر من يكشف النقاب عنها)، ارتقت قبائل من البدو الساميين بأكاد الواقعة في الشمال الغربي من سومر لتصبح مركزاً لمملكتهم.



رأس من البرونز،
لعله لصارغون الأول،
نحو ٢٣٥٠-٢١٥٠ ق.م،
متحف العراق، بغداد

وها هو سرجون (أو صارغون)، أشهر ملوك أكاد، بعد استيلائه على بلاد الرافدين يحدثنا عن نفسه قائلاً: «أنا الملك الواسع السلطان، ملك أكاد. كانت أمي كاهنة معبد ووالدي لم أعرفه. حملت بي أمي الوضيعة الشان واخرجتني إلى العالم سراً، ووضعتني في صندوق صغير من الأسل، وأحكمت علي الغطاء بالقار وأسلمتني للنهر...». ثم أنجاه أحد سقاة الملك، ورباه في كنفه، وقد شاء قدره أن يجعل منه «سيد مناطق العالم الأربع» ويسرد قصته بنفسه مفسراً لنا سر ارتقائه الخرافي من طفل لقيط إلى مؤسس أول إمبراطورية في التاريخ، ويقص علينا قصة هيامه بالالاهة عشتار التي هامت به بدورها، فاستطاع بعونها أن يهزم ذوي «الرؤوس السود»: السومريين. ترى، هل أراد سرجون، بهذه الأسطورة،

تمتم بين أحضان المرأة

أن يحتفي بثأر عشتار من شعب جلجامش وان يقدم نفسه بوصفه وسيلة لهذا الانتقام وأداته؟ ملك أوروك، كما نعلم، لم يستجب لإلاهة الحب الجسدي، لكن سرجون قد انصاع لمطلبها ومن ثم فقد حق له أن يكون جديراً بنعمها: لم تفتح له «أرحام جميع النساء» فحسب، بل فتحت له أيضاً أبواب المدائن السومرية كلها.



النور المنح ذو الرأس الإنساني، قصر صارغون، القرن الثامن ق.م،
كانت هذه الثيران تكتنف وتصون بوابات القصر العظيمة،
متحف اللوفر، باريس

لم تفقد أخلاق سكان سومر وعاداتهم نفوذها بزوال سلطان حكامها من ملوك أكاد. وتوزعت بلاد الرافدين، مجدداً، إلى العديد من ممالك المدن المستقلة، بل استطاعت أيضاً التغلب على ما أتى به الغزاة الجدد من عادات فظة... صحيح أن هؤلاء قد فرضوا هيمنتهم الغاشمة على البلاد لكنهم آثروا تبني ما لدى

تلك الشعوب المغلوبة من أنماط حياتية رغيدة، إلا أن طبقة جديدة من الأشراف والأعيان، أقامت وقتند في القصور، كانت قد حلت محل طبقة الأمولو المترفة التي كان على طبقة الموشكينو أن تقدم لها آيات التبجيل والاحترام، ومع ذلك فقد كان بمقدور الصناع والتجار أن يمارسوا حرفهم كسابق عهدهم، وأن ينعموا باللذة باحتضان زوجاتهم ونسائهم الأخريات. فهم وإن اضطروا أحياناً أن يسكتوا على ما تسبب به أسيادهم الجدد من تعكير صفو حياتهم الزوجية ومن استغلال مقيت لنسائهم، فذاك تنازل إلزامي لا مناص منه لاضطراب ذلك العصر وعدم استقراره، أما الجوهر الأساس فقد ظل على حاله لم ينل منه تبادل ولا تغيير. لكنهم ما برحوا يملكون عبيداً يستغلونهم وثروات يستثمروها، فسي الحقول والمراعي الخصيبة، مناطق نفوذهم، ما فتئت ماشيتهم ترعى ومزروعاتهم تنمو، فالسادة الجدد لا يختلفون، في شيء، عمّن ساد قبليهم. فما برح هؤلاء الأسياد يطالبون بنصيهم مما يجنيه الصناع والتجار، فمن أدى الجهد في الزراعة وشأنه ونعم بأمنه بل ويفوز أيضاً بالمكافأة إن هو طور عداً من الأعداء، أو أولئك الذين يرفضون أداء ما عليهم فليس بأسوأ مما كنا نرى. برحت تسير سيرتها الأولى في الدين والدنيا، لقد تم لكن دلالتها بقيت على حالها: فما زالت رموزاً كبرى تتجسد في الأضواء الأرض كما في السماء، وفي بقاء هذه الآلهة على الأرض، بقيت الأخلاقية التي سُنّت باسمها، لم تتبدل إلا في جزء بسيط منها.

أعلن جمورابي الحرب على الشر المتمثل في تلك المحاولات المناهضة لنصم القائم، وتتهدد أنماط الحياة والعادات المرعية التي تطورت على امتداد آلاف السنين: شرير ذلك الذي يعتدي على ملكية الآخرين، أو يلاحق قريبه في القضاء أو يسرقه أو يعتدي عليه أو يقتله. إن حياة الرجل الحر كما المال والثروة، فمن احترّم حياة الآخرين دفع حياته جزاء عمله، ومن ارتكب جريمة قتل فعقوبته الموت المؤكد. وإن كسر رجل أعضاء رجل آخر حل به العقاب نفسه. إن

تمتع بين أمغان المرأة

شريعة القصاص أو الأخذ بالثأر «العين بالعين والسن بالسن» كانت أساس التشريع الجزائي. ومع ذلك، لا يجوز أن يفرض هذه العقوبات المتضررون أو ذوهم، وإنما تفرضها المحاكم الملكية حصراً.

تعد السرقة المادية والاستيلاء على العبد أو الماشية جرماً مخالفاً للقانون، كما هو الحال بالنسبة لِدِين موثق، لم يلتزم المستدين بتسديده، سواء كان الدين إيجاباً أو قرض معونة. ويعد مذنباً كل من يرمي إلى غش قريبه وخيانتة، وتضليله بإدعاءات كاذبة، أو الخط من قدره ومن المكانة التي يحتلها في المجتمع. إن استغلال الفقراء والضعفاء والإساءة إلى من لا حول له ولا قوة شر، لكن الجريمة العظمى تنحصر في الاعتداء على ممتلكات الملك أو المعبد أو القصر، إذ يكفي أن يحتطف أحد الرجال عبداً من عبيد القصر، سواء كان هذا العبد رجلاً أو امرأة، ثم يقوده إلى خارج أبواب المدينة، لينال عقوبة الموت.

لم يكن تشريع جمهوري أساس تاريخ المجتمع والقانون فحسب، بل كان أيضاً أساس سلوك الإنسانية الأخلاقي عبر آلاف السنين، فقد أدرك رجل الدولة جمهوري، بعظيم حكمته أن التصريح عن وفاقه مع القوى الإلهية يمنح سلطته الدنيوية الزمنية بهاء فوق طبيعي، فنسب نفسه إلى مردوخ الإله راعي بابل وحاميها، بوصفه «الملهم والمحرض والمؤسس» لتشريع، وإلى شمش، إله الشمس، بصفته «الحامي للعدالة»، كما أعلن عن تبجيله لأنو وبل إلهي السماء والأرض، ولم يغفل في أحكامه، البتة، أن يقدم نفسه بصفته «الوكيل» و«الخادم» أو «الحارس» لقوى السماء، ثم يُعرّف بنفسه بصفته «الأب الحق لشعبه» فكان، كما الأب، يتولى قيادة الأسر ويتصرف بشؤونها.

منح جمهوري الأزواج، رجالاً ونساء، حماية القانون، لإدراكه ان الزواج أساس العائلة وعمادها، وبصفة أكثر شمولاً، أساس الدولة، فحظر على الزوج الانفصال عن زوجته المريضة ومنحها حق العودة إلى بيت أبيها، «..... فإن كانت المرأة شريفة لا يعيها شيء واعتاد زوجها الخروج من المنزل جرياً وراء

شعوب ما بين النهرين

المغامرات وخط من قدرها فهي غير مذنبه». وإن أتت المرأة «بالبراهين على سوء معاملة الزوج لها»، يعاقب الرجل بحرمانه من زوجته، وقد حافظ مثل هذا العقاب اليسير على امتياز الرجل القائم في الأخلاق السومرية، إذ كانت العقوبات بحق النساء اللواتي يعكرن صفو الحياة الزوجية بسلوك مخالف للآداب، بالغة القسوة والصرامة على الدوام: «فإذا تبين أن المرأة مذنبه، وإذا تركت منزل زوجها، وإذا اختلست مالا، وإذا أهملت زوجها.. يلقي بها في الماء».

ومع ذلك، فإن وضع المرأة البريئة، المرأة العاقرة، قد أصاب بعض التحسن: «إذا تزوج رجل من ناديتوم (كاهنة) وقدمت لزوجها أمة فأنجبت له أولاداً، فإذا عزم هذا الرجل على الزواج من الشوكيتوم (الأخت العلمانية) فلا يسمح له بذلك لأنه لا يستطيع أن يتزوج الشوكيتوم» ولا تحتل الأمة التي أنجبت أولاداً مكانة الزوج الأولى، كما نص تشريع حمورابي أيضاً على ضرورة عدم إقرار النساء بذنوبهن دون رد أو دحض لافتراءات الأزواج الكاذبة: «إذا اتهم رجل زوجته، ولكنها لم تضبط وهي تضاجع رجلاً آخر، تعود إلى بيتها بعد أن تؤدي اليمين أمام الإله».

إن الاغتصاب، وغشيان المحارم، وقتل العشير (الشريك)، واغتصاب خطيبة رجل حر، ومضاجعة زوجة الابن (الكنة) أو الأم الأرملة، تستدعي أقصى العقوبات وأشدّها.

وقد قام الملك ومن يختارهم من الكهنة بتنفيذ هذه القوانين، حتى إلى ما بعد وفاة حمورابي، عندما سيطر على البلاد غزاة آخرون. لم يحاول أحد ما تتبع أصول ما تضمنه هذا التشريع من نواه ومحظورات. ترى، هل عد الفعل الجنسي بين أقرب الأقرباء وأنزل بمرتكبه أقصى العقوبات بصفته انتهاكاً لحق الملكية؟ أم أن الحكام وقضاتهم قد رأوا في مثل هذا الاتحاد الجسدي المحرم فعلاً مخالفاً للطبيعة أم أنهم، ببساطة، قد فكروا تفكيراً سليماً بضرورة منع مثل هذه التصرفات بقسوة بالغة لأنها قد تعرض للخطر ما يخيم على أفراد الأسرة الواحدة.

من انسجام فتبلغ مبلغاً يهدد أمنها واستقرارها، فلا بد، إذن، من ان يكبت الخوف من العقاب كل رغبة؟ وبما ان كل هذه الوصايا والأوامر والمخظورات قد سنّت وفق تعاليم الآلهة، وأن الأحكام قد صدرت باسمهم، فقد اشتهرت كل القوانين الأخلاقية، التي ألزمت الحياة الجنسية بحدود معينة، بأنها وحي إلهي، وعليه فإنها تشكل فحوى الإيمان وتهيمن على المفاهيم الأخلاقية.

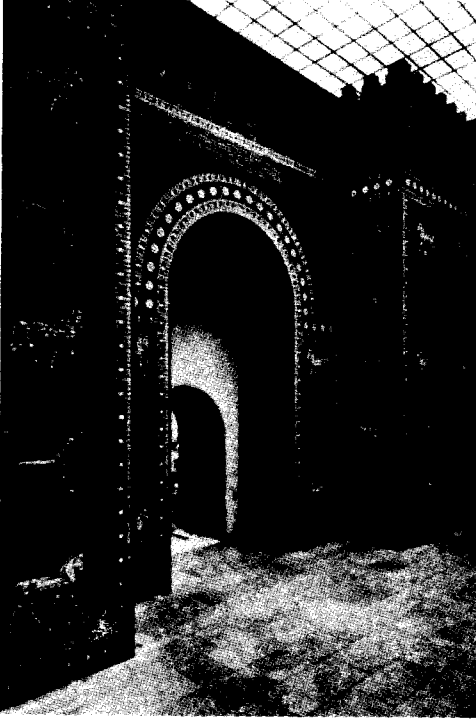
احتفظت قوانين بلاد الرافدين الأخلاقية الأساسية بقيمتها وأهميتها عبر آلاف السنين. وبقي الطقس الإلهي على حاله أيضاً، إذ كانت الكاهنة الكبرى، بمراقبة صارمة من الملك، تؤدي وظيفتها المقدسة بوصفها زوج الإله الرمزية، فهي لا تملك حق الزواج، لكن الكاهنة الكبرى قد استطاعت، في وقت لاحق، الزواج دون أن يكون لها الحق في الإنجاب.

واستمرت إماء المعبد ينذرن أنفسهم لحب يباع ويشترى في معبد إلهتهن الحامية فكُنَّ في نظر السكان محترفات مفيدات لا غنى عنهن، واستمرت فتيات بابل ينذرن بكارتهن في المعابد قبل أن يشرعن في علاقات غرامية أو يرتطن برابطة زوجية. فاستمر الإيمان، الذي كان يعد بموجبه «فتح أرحام» العذارى عملاً مقدساً ينبغي إنجازه على مقربة مباشرة من إلهة الحب الجسدي، إلى ما بعد استيلاء جميع الفاتحين الذين سيطروا على بلاد الرافدين وقاموا بتبديل الآلهة المحلية برموز إلهية أخرى، فهم وإن لم يرسلوا، بالفعل، بناتهم وأخواتهم وأفراد حاشيتهم إلى معبد عشتار لافتضاض بكارتهن في المكان الذي أعد خصيصاً لذلك، فإنهم لم يمنعوا، إلى جانب ذلك، هذه العادة الشعبية القديمة. ويروي لنا هيرودوت الذي عدَّ أب المؤرخين: «انه في معبد عشتار، التي كان يدعوها بميليتا الشبيهة بإلهة الحب الإغريقية أفروديت، لم يكن يتوفر للرجال النهمين للمتعة الجسدية إلا إماء المعبد. فكتب يقول: كان على كل امرأة بابلية أن تذهب مرة في حياتها لتجلس بالقرب من هيكل أفروديت وتضاجع أحد الغرباء، وكان من بينهن الكثيرات اللاتي يترفعن عن الاختلاط بنات جنسهن لأنهن يتشوفن

شعوب ما بين النهرين

ويتباهين بما ينعمن به من ثراء، كن يذهبن إلى المعبد في عربات مقفلة ويحيط بهن أعداد غفيرة من الخدم والحشم، أما الكثرة الغالبة منهن فكن يتبعن الطريقة التالية: كن يجلسن في غابة أفروديت المقدسة، وقد وضعن حول رؤوسهن حبلاً صغيراً (على شكل تيجان)، وبينهن كنت ترى على الدوام حشداً غفيراً من النساء بين غاديات ورائحات، وتنساب فيما بينهن ممرات مستقيمة تذهب في كل اتجاه يمر فيها الغرباء ليختار كل منهم عشيره. والمرأة منهن ان جلست جلستها تلك فلن يحق لها العودة إلى منزلها إلا إذا ألقى أحد الغرباء قطعة من النقود في حجرها وضاجعها خارج المعبد. وكان على من يلقي بقطعة الفضية أن يردد الكلمات التالية: «باسم الإلهة ميليتا» وميليتا هذه تعني أفروديت (عشتار).. ومهما يبلغ مقدار القطعة الفضية التي يقدمها الغريب فلا يجوز للمرأة أن ترفضها أو تستخف بها، فهذا الرفض ممنوع لما لهذه القطعة من قداسة، إذ ينبغي عليها، والحال هذه، أن تذهب مع أول رجل ألقى إليها بقطعة نقوده وليس من حقها أن ترفضه أياً كان هذا الرجل. وما أن تضاجعه وتحلل من ندرها وما ترتب عليها من واجب للإلهة حتى تعود إلى بيتها، وقد يحاول أحدهم، لاحقاً، أن يجزل لها العطاء لينالها لكنها ترفض. ولا تمكث النساء الجميلات الحسنات إلا بعض الوقت فما أن يأتين حتى يرجعن سريعاً إلى البيت، أما القبيحات فيمكنن في الهيكل طويلاً لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه القانون بل إن من بينهن من ينتظرن ثلاثاً من السنين أو أربعاً...». وقد كانت هذه العادة البابلية تعود بالنفع والفائدة على المعابد التي تحولت إلى معارض وأسواق موسمية ترضي جميع الأذواق وتشبع العديد من الحاجات، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على عدم كفاية عدد الكهنة الذكور، لتعاطم أعداد الفتيات اللاتي بلغن سن الزواج ممن ينبغي فض بكارتهن (*).

(*) لا نستطيع الاستنتاج إن الدعارة المقدسة كانت تغل دخلاً مالياً عالياً للمعبد لأن المقابل المدفوع من قبل الرجال كان مقابلاً رمزياً غير محدد، وقد لا يتجاوز في معظم الحالات أصغر قطعة نقدية متداولة آنذاك - المحرر - .



بوابة عشتار في بابل، متحف برلين

وكان الكهنة يؤدون واجباتهم الكهنوتية ويقومون بوظائفهم اليومية، كما التجار أو الصناع، في قاعات فسيحة مزدانة بأفخر الخلل، إذ كانوا يصنعون شراب العشق والمحبة ويبيعونه، وكانوا «خصوصاً الأمراض» و«نابو الموتى» و«ومنشرد الأناشيد والترانيم للأحياء». وهم مستعدون، مقابل أجور سخية، لتفسير الأحلام والتنبؤ. مستقبل المشاريع التجارية باستخدام الطير، وغالباً ما تتكشف صحة فؤولهم وتنبؤاتهم ودقتها، ذلك لأن هؤلاء الكهنة كانوا، بطريقة أو بأخرى، على علم، إلى حد ما،

بالقسم الأعظم من أسرار أولئك الملتصين الجزوعين القلقين.

لم تقتصر موارد الكهنة على إدارة دين يتولون شؤونه، بل ساعدوا أيضاً على ازدياد التطير وتمشي الخرافة وزرع الخوف في القلوب من الشياطين الذين يناصرون الإنسان العدا، ويطاردون دون رحمة أيّاً كان ممن لا يخضعون للقوانين ولا يتقيدون بها، ووساطة الكهنة هي القادرة، دون غيرها، على طرد الشياطين وتضييق الخناق عليهم: «إن كل من يقتني حلقة أو خاتماً، من صنع الكهنة أو خيطاً غزلته إحدى العذارى وباركه أحد الكهنة فسوف يستوثق من فحولته ويتقي شر

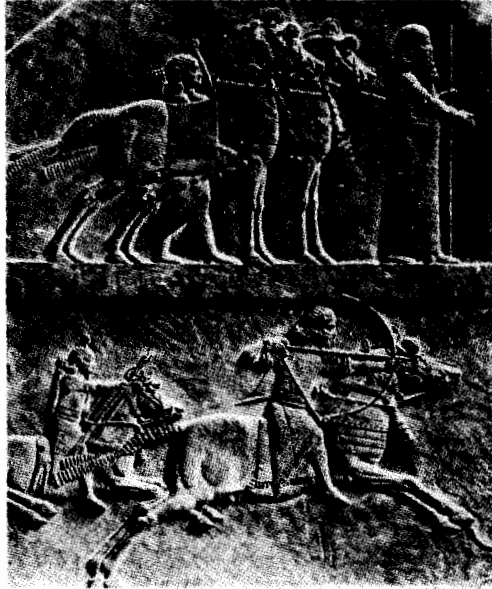
الشياطين الذين يتسببون بالأمراض والأوبئة، ويدفعون بالمرء إلى الجنون. وإن صورة إله يحملها الإنسان معه لا بد من أن تدفع عنه شر «العيون الحسودة»، لكن أسلم الطرق وأضمنها ان يكشف المريض أسرار نفسه ويسلم أمره إلى الكهنة فهم الذين أوتوا القدرة على طرد الشياطين بالسحر والتعاويذ والترايم».

وهكذا فقد تلازم تلازماً لا ينفصم كل من الفرح بالحياة والخوف من الأرواح الشريرة. ففي الحياة العامة ساد الفرح بالحياة وخيم.. فارتدى رجال بابل ونساؤها الثياب الطويلة الفضفاضة والغنية بألوانها، وتفاخروا، علانية، بحبهم لمسرات الحياة ولذائدها. وتزينت النساء بالأطواق والأساور، وعقصن شعورهن بقلائد من اللآلئ، والجمان وحسرن عن أكتافهن في أيام الأعياد، كما تلفف الرجال في معاطفهم يخطرون وفي أيديهم عصياً لها رؤوس منحوتة ومنقوشة. أما الكهنة فتراهم وقد اعتمروا القلائد الطويلة بأشكالها المحروطية ليتأهبوا بها عن عامة الفنانين، إذ كان عليهم، بالفعل، الإعلان عن تفوقهم وعلو مقامهم الدنيوي بكل الوسائل الممكنة لتوطيد سلطتهم، ومع ذلك لم يكن بمقدورهم ان يعدّوا المؤمنين الصالحين، بعد موتهم، بأجر ما، أياً كان، على صلاحهم وجميل أعمالهم، وذلك لأن السماء لا تفتح أبوابها إلا للآلهة.

لكن الخوف من أن تطوف أرواح الموتى تائهة لا تعرف الراحة، كالجزع الذي انتاب جلجامش، دفع البابليين إلى دفن موتاهم باحتفال مهيب. فوضعوا في قبور النساء الأمشاط وقوارير العطور وأدوات الزينة، ليكون بمقدورهن الحفاظ على مظهرهن وسحر مفاتهن إبان الموت، وألبسوا الرجال الثياب الفاخرة وزينوهم بشارات تدل على مكانتهم، ليواجهوا بها الشياطين ويفخروا. لكن أفضل الوسائل وأوثقها هي أن يُطمئن المرء نفسه إبان حياته، بفضل شفاعة الكهنة سترضى الآلهة، وتترفق بمن قدم لها العديد من الأضاحي والقرابين.. بل إنها ستدفع عنه، في موته، خطر الأشباح وتسهر لتجنبه شر الآلام والعذاب.

تمتع بين أحضان المرأة

ومع ذلك فقد بقيت بابل موطناً للفجور ومدينة ترتع باللذة والمسرات على الرغم من انتهاء أمرها، منذ أمد بعيد، عاصمةً لمنطقة بلاد الرافدين، إذ تركت أخلاق البابليين وأنماط حياتهم آثارها عميقاً في سلوك الملوك الآشوريين الذين اتخذوا من بابل المغلوبة مثلاً يحتذى لبناء عواصمهم. ومدينة نينوى هي إحدى هذه المعامل الملكية، وقد أطلق عليها هذا الاسم تكريماً للإلهة نينا، إلهة الحب الجسدي عند الآشوريين، التي لا تختلف في شيء عن عشتار. وفي مدينة الحب هذه، كان باستطاعة الآشوريين «التمتع بين أحضان النساء»، إلا أن الواجب كان يدعوهم، قبل كل شيء آخر، إلى إتقان فنون القتال وتقديم المساعدة للملكهم في غزواته وفتوحاته الدموية.



نحت بارز من نينوى، وفيه آشور بانبيال يشارك في الصيد،

المتحف البريطاني، لندن

من مبادئ ملوك آشور الرئيسة: القوة تتغلب على الحق وتسمو عليه. ففي مملكتهم لم ينعم بالامتيازات إلا المحاربون، إذ كان من حقهم ان يبتنوا لأنفسهم أفخم المساكن، وأن يجهزوها بكل وسائل الراحة التي توفرها لهم مكائنتهم المرموقة، فزينوا جدران منازلهم بستائر متعددة الألوان، وجلبوا لها من الخارج مفروشات وأدوات من الأخشاب النفيسة أو البرونز وأوان من الزجاج المنون أو الصلصال الموشى أو المعادن الكريمة، وفي داخل هذه البيوت الغارقة في بذخها وترفها عاشت المرأة الآشورية، إلى حد ما، كما الأسيرات، فلم يكن يسمح لها بالخروج والظهور في الأماكن العامة بغير حجاب، وفرض عليها التكيف والعيش مع العديد من النساء الأخريات ممن اختارهن الزوج وفق هواه، أما هي فممن واجبها أن تحرص، كل الحرص، على إخلاصها وتصون عرضها^(*).

وفي معبد نينا، غدا الحب الذي يباع ويشترى تجارة تدر على رجال الدين أرباحاً وفيرة، تزيد عما كانت تدره في معبد عشتار البابلي^(**). صحيح إن بنات المحاربي وأخواتهم قد انقطعن، كلياً، عن التضحية بعذريتهن لإلهة الحب الجسدي الآشورية، إلا ان بمسئطاع كهنة نينا المطالبة بجميع نساء المقاطعات المحتلة للخدمة في المعبد، والاحتفاظ بهن رهينات مدى الحياة. كانت المعابد معرضاً موسمياً يؤمه الملك ليختار حظياته وسراريه فتدخل النساء ممن اختارهن في عداد حريم القصر. ومن بين الرجال جميعاً لا يحق إلا للملك وحده امتلاك المرأة التي يشاء دون أن يكون للزوج المخدوع حق قتله، وإن فعل فالتقصاص واقع

^(*) لا نستطيع قبول رأي المؤلف هنا على إطلاقه، لأن صعود امرأة مثل سميراميس إلى سدة الحكم في آشور يقدم بيئة معاكسة.

^(**) لا يوجد لدينا معلومات تؤكد استنتاج المؤلف عن أرباح المعبد من الدعارة المقدسة فالقابل النقدي المقدس قد بقي في آشور رمزياً وفي حده الأدنى كما في بابل - الحرر - .

نتعم بين أعضان المرأة

عليه لا محالة، تلك هي حال مملكة آشور، إذ كانت عالماً يسوسه رجال قساة لا يعرفون الرحمة ويخضع، حصراً، لطموح اتساع رقعة الامبراطورية الآشورية. وما ان استلم الحكم سلاطين ضعاف حتى انهيار سلطان هذه الدولة العسكرية القائم على استبداد لدود وانضباط صارم وإرهاب مروع.. وانتهت موجات الجحافل التي اكتسحت مملكة آشور المرة تلو المرة بأن أعاد بناءها القبائل الرحل الأقدمون من الآراميين الساميين. وبقيت أحوال البلاد على حالها باستثناء إقامة أشرف جدد في القصور وحلولهم محل أشرف المملكة المنهارة وامتزج الآراميون، هذا البحر الخضم من البشر، بالسكان المحليين متبنين عاداتهم وتقاليدهم، ومع هؤلاء انتقل وضع المرأة من سيء إلى أسوأ.



لوح من مكتبة آشور بانيبال، نقشته عليه أحكام أخلاقية على الملك الافتداء بها في تسير شؤون مملكته.

وقد احتاج الملوك، للإمساك بزمام الحكم والحفاظ على سلطان المملكة بقوة السلاح، إلى طلب المزيد من المحاربين على الدوام، وهنا يكمن دور المرأة: ينبغي على النساء إنجاب الأطفال، في حين لم يكن لمعرفة الملقح عشيرهن أهمية تذكر. إن كل منع للحمل تعاقب عليه المرأة بأشد العقوبات، وإن شاء سوء الطالع أن ينتهي حمل المرأة بولادة كاذبة، حتى وإن ماتت أثناء الوضع، كانت تحرق في الساحات العامة على الملأ لتكون عبرة تزرع الرعب في النفوس.

وقضى العرف أن تقيم زوجات من رحل للحرب من الرجال في منازل آبائهن، وإن عاد هؤلاء الأزواج فلن يعودوا إلا عرضاً وهم يرومون هدفاً واحداً بعينه: إتيان نسائهم وتجميلهن. ولم تُعف، في ذلك الزمان، فتيات أسر

المحاربين صاحبة الامتيازات من الالتحاق ببيت الحريم للانضمام إلى نسائه. ويروي لنا الملك آشور بانيبال، محدث أكبر مكتبة في التاريخ، على أحد الرقم الطينية، كيف درج وترعرع في حرم ملكي وكيف بنى لنفسه بيت حريمه: «... في ذلك الوقت تقادم عهد الحرم، مكان الراحة في القصر.. الذي شاده سنحريب ليقيم فيه، وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وسرور، وتداعت جدرانها. وإذ كنت أنا آشور بانيبال، الملك العظيم، الملك القادر، ملك العالم، ملك آشور،... قد نشأت في ذلك الحرم وحفظني فيه آشور. وسين، وشمش، ورامان وبل، وناهر، وعشتار، وأنا ولي العهد. وبسطوا عليّ حمايتهم الطيبة وملاذهم الرضي،... ولم ينفكوا يبعثون إلي فيه أنباء سارة عن ظفرنا بأعدائنا، وإذ كانت أحلامي وأنا على سريري في الليل أحلاماً سارة، كما كانت خيالاتي في الصباح مبهجة جميلة.. فقد مزقت خرباته، وأردت أن أوسع رقعته فمزقتها جميعاً. وشُدت بناء مساحة أرضه خمسون تبكي» (عن قصة الحضارة لـ ول ديورانت - المترجم).

«... فأقمت مشرفاً، إلا أنني لم أشد البناء في مكان كثير الارتفاع تقديراً وإجلالاً لمعابد الآلهة العظام، أربابي في السماء، ووضعت حجر الأساس فوق هذا المشرف في شهر مؤات ويوم ميمون، ثم شرعت بوضع الآجر. وصببت شراب السمسم ونبذ الكروم فوق قبره، كما سكبت مزيداً من الخمر على جدرانه الطينية المطروقة.. وبالفرح والنشوة بنيت حرم النساء من قواعده حتى سقفه.. ووضعت فوق الجدران عوارض طويلة من خشب الأرز... وطلبت بالنحاس أبواباً تفوح منها روائح ذكية.. وزرعت حوله خميلة حوت جميع أنواع الأشجار... وفاكهة من كل نوع... ولما أنجزت عملي قدمت للآلهة أربابي أغلى الأضحيات وأثمنها ثم دخلت المكان تحت مظلة مهيبة» ونقرأ على ضريح آشور بانيبال، الذي لم يقتصر في حبه على النساء الجميلات فحسب بل توسع في بيت حريمه ليضم أجمل الغلمان وأحلامهم:

«تذكرو أبدأ أنك فان لا محالة

انعم بحياتك واطرب وارو رغبات فؤادك
فالمسرة حكر على الأحياء، فان مت فلن يبقى لك ما يسرك
لست الآن إلا تراباً

رغم أنني كنت ملك نينوى، رائعة المدائن، المدينة الرائعة.
ولكن قد بقيت لي هذه الأشياء التي ابتهجتُ بها في حياتي - الطعام الذي
أكلته، واللهو الذي استمتعت به، وملأذ الحرب ومسراتها.
أما ما عدا هذا من الأشياء التي يراها الناس نِعماً فقد تركتها خلفي» - (قصة
الحضارة، المترجم).

بعد أربع وعشرين سنة من وفاة آشور بانيبال أحرقت نينوى وذبح أهلها
ودمر بيت حريمه. وقد وجدنا بين ركام القصر وأطلاله عشرين ألف مقطع من
ألواح الصلصال منقوشة بأحرف مسمارية، أتاح لنا فك رموزها ودراستها ان نلقي
نظرة إلى الماضي التاريخي البعيد وتعرف على أخلاق السكان في بلاد الرافدين.
واقسم مملكة آشور بانيبال غزاة متحالفون تنوزعهم أهواء متضاربة: فانفرد
الميديون من البدو المحاربين ليقيموا في أعالي النجاد الإيرانية ويشيدوا الاكباتانا
عاصمتهم الأولى: «ملتقى العديد من الطرق».

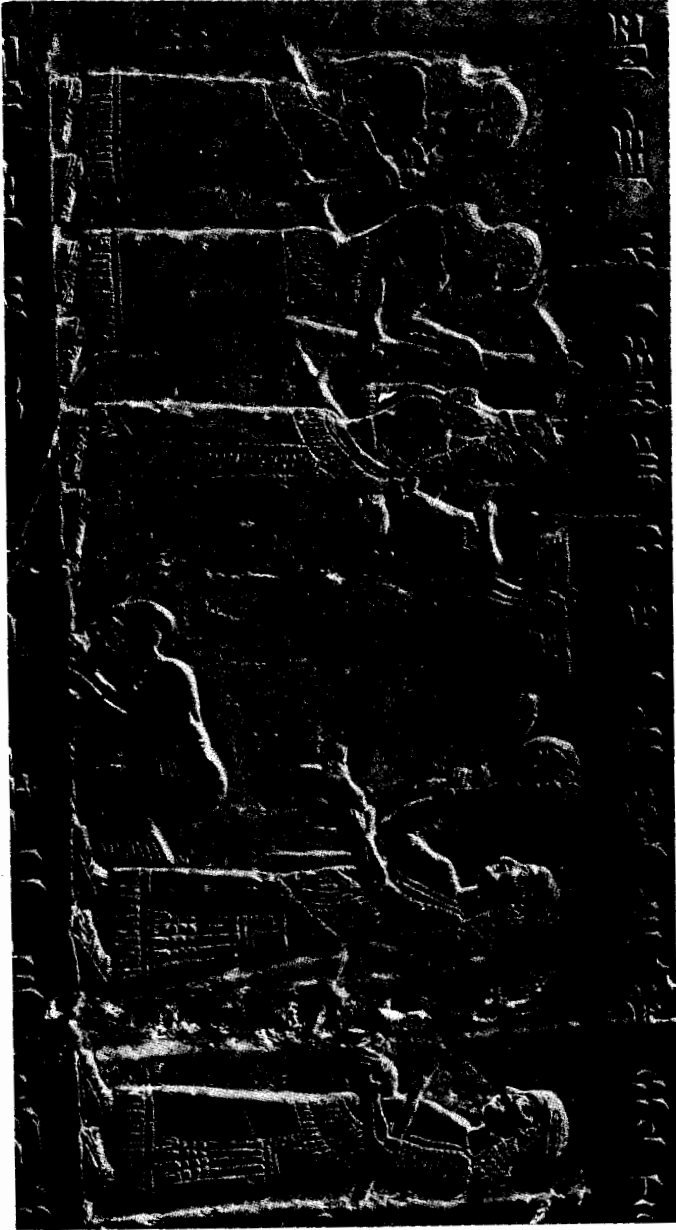
في حين انفرد الكلدانيون الآراميون بالغرب ونجحوا في الاستقلال بالملكة
البابلية، وقد رغب الغزاة الجدد بعد انتصارهم، الذي جاء ثمره لتوحيد القوى
واتفاق الكلمة، في أن ينفصل كل طرف منهم ليستقل بشعبه وما يتميز به
من أعراف وعادات وتقاليد، وأجمعوا على بناء سور عظيم في الشمال من
بابل يمتد من الفرات حتى دجلة.. لكن هذا الجدار الميدي، الذي سهرت
على حراسته مفارز توزعت على مساحات منتظمة لتسهيل مهمتها، قد حال
دون قيام علاقات جوار بين سكان البلدين، فامتنع العبور بينهما وانقطع
أخبارهما، وانصرفت، بلا رحمة، الروابط العائلية والعلاقات بين الأصدقاء.
كما استحالت الأعمال التجارية وتوقفت. وقد أدى تقسيم بلاد الرافدين

شعوب ما بين النهرين

هذا التجمع البشري الذي ضمت أفرادها، رغم تعاقب الحكام وعلى مر العصور، أخلاق واحدة، إلى ظهور عادات جديدة ومتباينة انفرد بها كل فريق على حدة في هذا الطرف أو ذاك وراء الجدار.

أما بالنسبة للملك بابل الأكادي. نبوخذ نصر، فقد كان هذا الجدار بمثابة وسيلة لحماية حدوده الخلفية، فهو لم يكتف بإعادة بابل إلى سابق مجدها وعظيم شأنها بل نجح أيضاً في التوسع بمملكته باتجاه الجنوب الغربي، فدمر أورشليم وأخضع اليهود إلى «الأسر البابلي» وبنى «برج بابل» الذي غدا مضرِباً للمثل، وجعل منه معبداً عظيم الارتفاع خص به مردوخ، الإله حامي بابل، فأعاد إليه اعتباره ليحتل مكانه بين الآلهة العظام. ومثلما حافظت معظم الأقوام البشرية، التي أقامت فيوادي الرافدين أو جيء بها إليه، على لغتها الأصلية، كذلك فقد استحال على «بني إسرائيل الذين اقتيدوا قسراً، ان يهتدوا سواء السبيل في «بابل اللغات» البناء الذي علا ٩١ متراً وكُرِّسَ لـ «إله حامي النظام» وأصبح في العهد القديم رمزاً «لاختلاط اللغات» وبلبلتها: «ونزل الرب ليرى المدينة والبرج اللذين بناهما بنو آدم. وقال الرب: هو ذاهم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة، وهذا ما أخذوا يفعلونه.. والآن لا يكفون عما هموا به حتى يصنعوه. فلننزل ونبلبل هناك لغتهم، حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. ففرقهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها، فكفروا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل، لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها». (الترجم من العهد القديم ترجمة دار المشرق).

لم يكن في بابل إلا لغات مختلطة حيرت الأسرى اليهود.. فليس ثمة صدفة، والحال هذه، في أن سمى كهنة إسرائيل وأنبيائها هذه المدينة، لفساد مسراتها وضعة أخلاقها، بـ«العاهرة البابلية» ان كل ما يجري هنا يتناقض مع عاداتهم وأنماط معيشتهم التي ينبغي عليهم الالتزام بها والسير على هديها، إن هم أرادوا تجنب غضب الرب وانتقامه، إذ سبق للرب أن أنزل بهم شر العقاب لسوء أفعالهم.



مقطع من مسلة، وله نرى الملك جان من إسرائيل يدلع الجزية خاصماً إلى سلما نصر الفالك، المتحف البريطاني، لندن

شعوب ما بين النهرين

ان يتلها في معبد عشتار مع نساء أجنبيات وأن يشملوا على مادب الميسورين وان يسمحوا لبنات إسرائيل بأن يتزين ويتخضبن، بقحة ودونما حياء، كنساء بابل المتهتكات... فذلك انتهاك لشريعة ينبغي عليهم الامتثال لها والخضوع لأحكامها إن هم أرادوا أن يقودهم الرب إلى الأرض الموعودة. وحافظ بنو إسرائيل على لغتهم وسانوا أخلاقهم بينما ابتهج، رجال بابل ونساؤها لرؤية آلهتهم تستعيد كامل سلطانها.

في الجهة الأخرى من الجدار، وفي الشرق من بلاد الرافدين، في مملكة الميديين الممتدة بعيداً في عمق آسيا، قلبت أقوال أحد الرجال الأخلاق السائدة رأساً على عقب. وسيطرت على غمط حياة الميديين تلك العقيدة التي تلقى زرادشت، الرسول الإلهي، بموجبه من «إله النور» أهورا - مزدا «كتاب الشرائع» مع وميض البرق وهزيم الرعد، وقد شبهت هذه العقيدة الشعبية، التي تناقلتها الألسن في بدء انتشارها، الصراع ما بين الخير والشر بالصراع الدائر بين قوى الكون فوق الطبيعة. فكان أهورا - مزدا «روح الخير» وإله السماء، وعيناه هما الشمس والقمر، أما عدوه النقيض فكان أهرمان، رب الظلمات ورمز الشر والقبح وجميع العيوب والآفات التي تصيب الإنسان في هذا العالم.



أطلال بابل، كل ما تبقى من أبهى مدائن العالم القديم وأروعها

تمتم بين أعضان المرأة

كان آهرمان أباً للخطيئة والمعصية والكفر.. وكل من يساعده بسوء أفعاله سيصليه استواد إله الموت، الذي لا يفلت من قضائه آدمي، بنار الجحيم الحامية وسيكابد، حتى آخر الزمان، شر الشقاء وأقصى الآلام. وفي مقابل ذلك فعلى كل من يخدم أهورا - مزدا بأفعاله الحميدة وكل من يخشى الله ويحيا حياة رجل عدل وحكمة ألا يهرب الموت ويخشاه. فقد جاء في «كتاب الشرائع»: ان باقتداره (أي العادل) أن يمثل في يوم الحساب بروح طيبة نقية حيث يصدر أهورا - مزدا حكمه على اهرمان فيهلكه هو وجميع قوى الشر هلاكاً لا قيام لها بعده. بينما الرجل العادل يبعث من جديد هو وجميع الأرواح الطيبة: «وتعود الحياة إلى الأجسام، وتزد في الأنفاس.. ويخلو العالم المادي كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال».

وقد عهد بالتمييز بين الخير والشر وبين الأفعال المسموح بها والأفعال المحظورة إلى الجوس شراح الأفيستا «كتاب المعرفة والحكمة». وقد امتاز هؤلاء الكهنة، الذين اشتهروا بقداستهم وكانوا نصحاء مرشدين للملوك، عن عامة الناس، باحتقارهم المطلق لكل ألوان المسرات والملذات الأرضية. فارتدوا من الثياب أبسطها وكرسوا أنفسهم لخدمة الإله وطقوس الطهارة المراسيمية، وامتنعوا عن تناول اللحوم، وأمسكوا عن كل أنواع شهوات الجسد ولذائذه، واستغرقوا كلياً في الحياة الروحية، وتوسعوا بصفاء معارفهم لتصدق نبوءاتهم، ويأتوا بمعجزات يرى فيها الناس ظواهر سحرية مقدسة، كما كانوا ينعمون، لدى الملك وفي أوساط الجماهير، بأرفع مقام وأوسع شهرة لكونهم منجّمين ومفسرين للأحلام. وغدا مذهب زرادشت دين الامبراطورية التي أنشأها ملوك الفرس بعد أن تغلبوا على الميديين وسيطروا على بابل. وتهدم الجدار الميدي واقتلع من أساسه فصار أنثراً بعد عين. وقد حل، في هذه الآونة، على بلاد الرافدين والمناطق المجاورة جنس جديد من الرجال حكموا البلاد وفرضوا عليها نفوذهم وأخلاقهم.

شعوب ما بين النهرين

كان هؤلاء رجالاً طوال القامة شديدي المراس يطلقون لحاهم ويجدلون شعورهم ويرسلونها لتصل إلى أكتافهم، كما كان الرجال والنساء يستعملون أدوات التجميل. فنشأت من ثم، طبقة خاصة من «المزنيين» أطلق عليهم معاصروهم اليونانيون «الكوزمتاي» (التي اشتقت منها كلمة مستحضر التجميل). وقد ارتدى الفرس، من الرجال والنساء، حتى في أيام الصيف القاطن، مما اعتادوا على ارتدائه من الملابس في المناطق الجبلية الباردة: ثلاثة أنواع من السراويل وثياباً داخلية محشوة حشواً تحت فساتين صوفية أو كتانية.

أما القوانين الأخلاقية التي امثلوها ورضخوا لأوامرها، فقد كانت عوناً للمرأة الفارسية دعمً وضعها في الحياة العامة خارج البيت: كن يستطعن الخروج من المنزل والعودة إليه سافرات دون حجاب، ويمتلكن العقارات ويتصرفن بشؤونهن، وكان في وسعهن إدارة شؤون أزواجهن باسمهم أو بتوكيل منهم.

كان الآباء هم الذين ينظمون شؤون الزواج لمن يبلغ الحلم من أبنائهم. وكانت المرأة لا تستطيع الزواج إلا برجل واحد. في حين ان تعدد الزوجات لا يعد منافياً للأخلاق، لأن بمقدور من يمتلك العديد من النساء تزويد ملك الملوك بالكثير من المحارِبين، وفي ذلك تقول الأفسستا: «ان الرجل الذي له زوجة يفضل كثيراً على الرجل الزاهد بالزواج (من لا زوجة له)، والرجل الذي يعول أسرة يفضل كثيراً على من لا أسرة له، والذي له أبناء يفضل كثيراً على من لا أبناء له» وبالطبع فإن المحوسب (رجال الدين) يُستثنون من هذه القاعدة العامة.

وسيان إن أنجبت هؤلاء الأبناء زوج الرجل أو حظاياه. المهم أن يكون المولودون الجدد ذكوراً.. «إن الرجال لا يضرعون ليرزقهم الله بنات، والملائكة لا تحسبهن من النعم التي أنعم بها الله على بني الإنسان». وأنه لشرف يتوق إليه المرء أن ينجب أولاداً للملك. فالأب الذي يعيل أولاداً

تمتع بين أحضان المرأة

كثيرين يتلقى من الملك هدية في كل عام، (وملك الملوك) هذا جليل الطلعة رفيع القدر إلى حد يستحيل على العامة من الفانين الفوز برؤيته.

وعلى من لا يملك كفايته من الأراضي أو العائدات التي تؤهله لإعالة أسرته الكبيرة أن يطمح للملك. سأل زرادشت الإله أهورا - مزدا: «أي إلهي خالق العالم المادي - إلهي القدوس ما هو المكان الثاني الذي تحس الأرض فيه أنها أسعد ما تكون؟» ويجيبه أهورا - مزدا بقوله: «إنه المكان الذي يشيد فيه أحد المؤمنين بيتاً في داخله كاهن، وفيه ماشيته، وفيه زوجته، وفيه أطفال، وفيه أنعام طيبة، والذي تُكثِرُ فيه الماشية بعدئذ من النتائج، وتُكثِرُ فيه الزوجة من الأبناء، وينمو فيه الطفل، وتُشعل فيه النار، وتزداد فيه جميع نعم الحياة.» لأن «من يملك بيتاً يفضل كثيراً من لا بيت له».

وليس غريباً أن يكون منع الحمل من أكبر الجرائم التي ترتكبها المرأة في بلد شعاره: للأب الكثير من الأبناء وللملك الكثير من المحاربين. إن الفجور والزنى وكل خطايا الجسد يمكن الصفح عنها، لكن المرأة التي تجهض نفسها وتحول دون حملها «تسرق» محارباً من جيش الملك، فعليها إذن أن تدفع من حياتها. عندما يقدم الرجل على جلد عميرة (الاستمناء باليد) ويبدد نطفه فعقابه الضرب بالعصا (الجلد)، لأنه هو أيضاً قد حال دون تطور جيش الملك وغناؤه.

إن الرجال والنساء الذين يدفعون المال ليمارسوا علاقات جنسية «يجب قتلهم» «لأنهم سفلة أحق بالقتل من الأفاعي الزاحفة والذئب العاوية» ويذكر هيرودوت: «إن الفرس قد أخذوا عن اليونان اشتهاؤ الغلمان» لكن الأفيستا التي تعود وصاياها إلى عهود سابقة ترى في اللواط شذوذاً وجريمة شنعاء لا يجوز، بأي حال من الأحوال، الصفح عنها: «لا شيء يمكن أن يمحو هذه الجريمة قط».

إن كل ما كان محظوراً وُعِدَّ خطيئة كان «نجساً» غير طاهر، لأنه يدنس الروح. وغدت الجبال النقية التي تطهر بها أجداد الفرس والميديين رمزاً لديانتهم. ومن تعاليم الكهنة: إن نظافة الجسد شرط أول لا غنى عنه لطهارة الروح، ففرضوا الاغتسال (الوضوء) قبل المباشرة بكل عمل من أعمال الحياة اليومية. كما كان لا يليق بالمرء أن يتناول طعامه وشرابه على قارعة الطريق. ولا يليق به أيضاً أن ييصق أو يتمخط أو يقلم أظفاره أو يقص شعره أمام الناس، بل الأسوأ من هذا كله أن يقضي حاجاته الطبيعية أمامهم. إن غير اللائق قبيح سيء والقبيح السيء عمل من أعمال أهрман شيطان الشر، كان الصبية من أبناء السادة الأعيان يتعلمون اللباقة وحسن المعاملة، عماد السلوك الأخلاقي، منذ سني حداثتهم، وكانوا يتلقون علومهم في المدارس، إذ اقتصرت مهمة الأم، تبعاً لعادة قديمة، على تربية البنات دون الذكور من أولادها، ففي السنة الخامسة من أعمارهم تنتهي رعاية الأم لهم ليتولى الآباء بدورهم، إعدادهم وتأهيلهم لتربية شاقة سينخضعون لها في الهياكل أو في بيوت الجوس. ولزرع الحقيقة في النفوس وتنشئتها على الحق، كان عليهم أن يحفظوا، عن ظهر قلب، الفقرات الأساسية من الأفتا. لكن المهم أيضاً أن يبرعوا في الفروسية والرمي في القوس وان يخضعوا لتدريبات جسدية أخرى، فكان عليهم أن يتعلموا الصيد والسباحة ويتحملوا تقلبات الطقس من برودة وحرارة ويقاوموا الجوع والعطش ويصبروا على الصعاب ويتغلبوا على الشدائد. وللتعرف على عمل الفلاحين وما تجود به أيديهم كان عليهم أن ينكبوا على أعمال الحقول، فاعتنوا بالماشية وزرعوا الأشجار. وشمل التعليم أيضاً إطلاع التلامذة على القوانين وإحاطتهم به، ليس فقط من أجل أن يمثلوا لأحكام الشرائع والقوانين ويأنفوا من ارتكاب المعصية والتسبب في الأذى، بل ليتعلموا أيضاً ألا يصفحوا عن الآخرين إن هم فعلوا ذلك. فإن زل أحد منهم فكذب أو جدف وقذف بشتائم أو غش وخدع فقد كل حق في ترشيح نفسه إلى أحد المناصب الهامة في الإدارة أو في

جيش الملك، فالكذاب «نجس» وكذلك أولئك الذين يأبون الامتثال «لقواعد الصحة» ولا يحافظون على نظافتهم. كان يشرف على نظافة التلاميذ، الذين يواصلون دراستهم حتى يبلغوا من النضج مبلغاً يؤهلهم للحياة العملية «كهنة يمارسون فن الطب». وقد كان هذا الفن عرفاً وعوناً للآخرين أكثر منه علماً، لكن كان جزءاً لا يتجزأ من فروض الدين الأساسية، لأن آهرمان الشرير، في الديانة الزردشتية، خلق ٩٩٩٩٩٩ نوعاً من الأمراض التي تصيب الجسم بالعدوى فيغدو «نجساً» وهنا يأتي دور الكهنة وتلامذتهم الذين يكافحون ليقهروا هذا السحر المؤذي، الوافد من الظلمات، بأدوية يتكرونها، ويحاربه الكهنة الجراحون بمبضعهم. وقد كانت أجور هؤلاء الجراحين محددة شرعاً بما يتناسب وأوضاع المرضى المادية، كان «فن الشفاء» مهمة تعود على أصحابها بالربح الوفير وتحتل مكانة لا تعلق عليها، إلا قليلاً، وظيفة الحاكم الملكي أو وظيفة قائد الجيوش. لأن مثل هذه الوظائف تتطلب من المرشح إليها أن يكون على دراية بالقراءة والكتابة، وفوائدها تجل أصحابها بين الشخصيات الثرية المرموقة، التي كانت ترح وتتعلم بحياة اليسر واليمن كتلك التي كانت تسود بابل فيما مضى. لأن الفرس وما درجوا عليه، في بدء انطلاقتهم، من أخلاق صارمة، قد تكيفوا سريعاً مع نمط حياة الملهعوب الخاضعة لهم بدعتها وترفها، فما ان يحتل أحدهم مركزاً مرموقاً ويبلغ مرتبة من مراتب الشرف في الإدارة أو في جيش الملك حتى يبادر إلى تزيين منزله وزخرفة قصره فيجهزهما بأعلى التحف التي يأتي بها من البلدان الأجنبية: أزهار ونباتات ورياحين نادرة تزين حدائق تحتضن منازل فاخرة، وموسيقا عذبة الأنغام تشنف آذان السادة الموسرين المتحلقين حول موائد حفلت بما لذ وطاب.. واستسلم ملك الملوك ورجال بلاطه لمسررات الحياة يغرفون منها عرفاً وينعمون بما لا يخطر على بال، رغم معرفتهم أنهم، بأفعالهم تلك، ينتهكون قوانين الأفيستا ووصاياها. فليس غريباً أن ترى حكام فارس المترفين وقد اتخذوا لأنفسهم، حيث

يقيمون، بيوتاً للحريم في سوسة وفي عواصم البلدان الخاضعة لهم، وجرى العرف: ان من حق المرأة، التي تبرهن على موهبتها الخاصة، ان تشاطر السادة الكبار مضجعهم أكثر من مرة. فليس غريباً، والحال هذه، ان تفقد المرأة الفارسية حريتها. وصار الآباء يزوجون بناتهم قبل بلوغهن سن الزواج، فانزلن ليعشن في بيت الحريم في عزلة تامة تحت حراسة المخصيين ليطأهن أزواجهن بقصد الإنجاب فقط، فمتنعن من الظهور بصحبة الأجانب من الرجال، وتجاوز هذا المنع حدوده ليشمل حرمانهن من رؤية الأب والأخ أيضاً، وما أن يصبحن أمهات حتى ينلن حق الاختلاط مع سراري أزواجهن وحظاياهم، لكن استمرار هذه الامتيازات منوط أيضاً بإرادة أزواجهن المطلقة. كلما ارتفعت مكانة المرأة وعلا شأنها اشتدت صرامة الانضباط الذي ينبغي عليها الانصياع له، فتلك كانت ميزة «شرف» يتمتع بها الأثرياء من الأزواج، ذلك لأنهم يمتلكون نساء طاهرات الثياب ولا غبار عليهن. فكانوا يتباهون بما ملكت أيديهم، دون غيرهم، ويتجحون بتضييق الخناق على أسيرات ملذاتهم وقد حشروهن في بيوت حريم زينت بإفراط تجاوز كل حد. فإذا ما أبت النساء الانعزال كلياً اقتصررت حياتهن على معاشرة الحظايا فقط. وهكذا، غالباً ما يحدث أن تنكب النساء مع مثيلتهن، بسبب إهمال سيد البيت لهن، على علاقات مثلية «السحاق» لأن مثل هذه الممارسات الجنسية الشبقية لم تحظرها الأفسنا، فهي لا تصيب، البتة، من غرور الرجال ولا تنال من اعتدادهم بأنفسهم، بل كانوا يصفحون عن مثل هذه العلاقات بين النساء بوصفها ألعاباً بسيطة غير مؤذية. كان لزوجات الرجال، الذين تعوزهم القدرة على اتخاذ بيت حريم وسراري، حق حرية التنقل، ولكنهن إذا ما «أسفرن عن وجوهن» تدنت قيمتهن في عيون الرجال ليصبحن مخلوقات رديئات أحط شأناً من الأخرقيات.. وغير جديرات بجذب انتباه الرجال إلا بما يتمتعن به من ظرف ودلال.

الفصل الثالث
مصر القديمة

تسلسل زمني^(*)

العصر النيوليتي	فيما بين ٤٠٠٠-٥٠٠٠ ق.م
عصر النحاس	نحو ٤٠٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م
الفترة التاريخية الأولى (الأسرتان الأولى والثانية)	٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ ق.م
المملكة القديمة (عصر الأهرامات من الأسرة الثانية حتى الأسرة السادسة)	٢٧٨٠ - ٢٢٨٠ ق.م
بتاح حوتب	نحو ٢٤٠٠ ق.م
الفاصل الزمني الأول ما بين الأسرتين التاسعة والعاشر.	نحو ٢٢٨٠ - ٢٠٥٢
المملكة الوسطى (الأسرتان ١١-١٢)	٢٠٥٢ - ١٧٧٨ ق.م
الفاصل الزمني الثاني ما بين (الأسرتين ١٣-١٧)	١٧٧٨ - ١٥٦٧ ق.م

(*) توجيهاً للدقة رأيت من واجبي أن أنقل للقارئ، بتصرف، ما جاء في كتاب «تاريخ إفريقيا العام - المجلد الثاني - اليونسكو» حول أوثق ما توصل إليه علماء الآثار في تأريخ التسلسل الزمني، واعتماداً على المصادر الأثرية والوثائق الكتابية، التي لم يبق منها إلا:

المملكة الجديدة (مرحلة الأوج، الأسر من ١٨ حتى ٢٠، كتاب الموتى).	١٠٨٥ - ١٠٦٧ ق.م
حتشبسوت تتسبم العرش بتنصيبها فرعوناً	١٥٠٤ - ١٤٨٣ ق.م
امنوفيس الرابع «اختاتون»	١٣٧٢ - ١٣٥٤ ق.م
الفاصل الزمني الثالث الأسر من ٢١ حتى ٢٤).	١٠٨٥ - ٧١٥ ق.م
الانحطاط (الأسرة من ٢٥ حتى ٣٠)	٧١٥ - ٣٣٠ ق.م
العصر الهلنستي (البطالمة).	٣٣٠ - ٣٠ ق.م

- حجر بالرمو الذي نقش على جانبيه أسماء كل الفراعنة منذ البداية حتى الأسرة الخامسة (حوالي ٢٤٥٠ ق.م) إلا أن هذه الوثيقة لم تصل إليها سالمة إذ هشمتها في قسم منها، عوادي الزمن ومن ثم فقد وصلت ناقصة.

- وبردية تورين، وتشتمل على قائمة الملوك بكامل ألقابهم وعدد السنوات والشهور والأيام التي حكموها مرتبة ترتيباً متسلسلاً، ويبدأ تاريخها منذ أقدم العصور حتى حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. إلا أن عدم اتخاذ التدابير اللازمة لصيانتها أثناء شحنها أدى إلى تمزقها إلى أجزاء، ثم انه بعد ترميمها بقيت فيها ثغرات كثيرة جداً.

يضاف إلى ذلك ان لكل فرعون تقويمه الخاص به فالحساب يبدأ بـ ١ - حين يتولى الحاكم التالي العرش، ثم إن هناك خللاً آخر وهو أن عدة فراعنة حكموا في وقت واحد وفي فترات معينة، بمعنى وجود أسر حاكمة متزامنة، ثانياً ان الفرعون كان في أحيان كثيرة يُشرك معه أحد أبنائه في الحكم ولما كان كل حاكم يورخ آثاره طبقاً لحكمه هو فقد حدث بعض التداخل.

وقد تعذر حل هذه المشكلة لو لم يتم توفر إحدى خواص التقويم الفرعوني القديم إطاراً وثيقاً للتسلسل الزمني، إذ انهم كانوا يربطون التقويم بظاهرة فلكية دائمة من السهل تنظيم جدوالها الزمنية. ونحن نشير هنا إلى ظهور النجم سوتس - نجمننا المعروف باسم سيوريوس أو الشعري اليمانية، المتسق مع ظهور صعود الشمس على خطوط عرض هيلوبوليس - ممفيس.

وقد أخذ المصريون بالتقويم القمري لتحديد تواريخ أعيادهم الدينية إلى جانب استخدامهم لتقويم آخر وهو فيضان النيل المنتظم.

إن أول فصول السنة، الذي أطلق عليه المصريون اسم «آخت» يشهد بداية الفيضان حين كانت مياه النهر ترتفع بالتدريج لتغطي النطاق الذي جففه الصيف القائلز ولمدة تقارب الأربعة شهور كانت الحقول تشبع بالمياه. وفي الفصل التالي كانت الأرض تظهر من جديد من ثانياً الفيضان تصبغ معدة للبذر. وكان هذا هو فصل «برت» ومعناها الحرقي «البزوغ أو الخروج» أي خروج «الأرض من المياه و«خروج» النبات». وحين ينتهي البذر ينتظر الفلاح النبات، ثم نضع الحب. وفي الفصل الثالث والأخير كان المصريون يجنون المحصول ثم يخبزونه. وبعد ذلك لم يكن سوى انتظار الفيضان الجديد وإعداد الحقول لحيته. وهذا هو فصل «شمو».

وقد ربط المصريون فيضان النيل بارتفاع الشمس وظهور النجم سوتس في الأفق، هذا النجم الذي شبهه المصريون ببايزيس التي كان يعتقد أن دموعها هي التي تسبب فيضان النيل. إن ربطهم لبداية الفيضان - أول يوم من أيام السنة الجديدة - بظاهرة فلكية قد زدنا بواسطة لوضع نقاط ارتكاز ثابتة لتأريخهم الطويل.

كما لاحظ المصريون، مع الزمن، ان بداية الفيضان كانت تتكرر في المتوسط كل ٣٦٥ يوماً، ولهذا قسموا سنتهم المشتمة على ثلاثة فصول إلى سنة تتكون من اثني عشر شهراً كل منها ٣٠ يوماً وبالحاق خمسة أيام إضافية (الخمسة المضافة إلى السنة)، وهي الأيام الخمسة التي يُطلق عليها الإغريق اسم النسب. إن هذه السنة على الرغم من صحتها لم تكن كاملة تماماً إذ أن الأرض في الواقع تكمل دورتها حول الشمس لا في ٣٦٥ يوماً بل في ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. أي أن بداية سنة المصريين الرسمية كانت تتراجع في كل أربع سنوات يوماً عن السنة الفلكية.

ولم يحدث إلا بعد ١٤٦٠ سنة وهو ما يسمى «بالدورة السوتية» أن كانت تتصادف في يوم واحد ظواهر صعود الشمس وشروق سوتس وبداية الفيضان. وهذا اليوم هو أول أيام السنة الرسمية (تعني أنه في كل ١٤٦٠ سنة يصبح الفرق سنة كاملة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً المترجم).

وقد تمخض هذا الفاصل التدريجي بين السنتين عن نتيجتين هامتين: فهو أولاً قد مكن الفلكيين المحدثين من تحديد الوقت الذي توصل فيه المصريون إلى تقويمهم، وكان يجب لهذا التاريخ بالضرورة ان يتزامن مع بداية السنة السوتية. فتزامن الظاهرتين، بداية ارتفاع الفيضان وظهور سوتس قرب الشمس - قد حدث ثلاث مرات خلال الخمسة آلاف سنة قبل الميلاد: في عام ١٣٢٥ إلى ١٣٢٢ ق.م. وفي ٢٧٨٥ إلى ٢٧٨٢ ق.م. وفي ٤٢٤٥ إلى ٤٢٤٢ ق.م.، ولفترة طويلة جرى الاعتقاد بأن المصريين قد أخذوا بتقويمهم فيما بين عامي ٤٢٥٤ و٤٢٤٢ قبل الميلاد. أما الآن فمن الثابت أن ذلك لم يحدث إلا في بداية الدورة السوتية التالية: أي فيما بين ٢٧٨٥ و٢٧٨٢ ق.م.

أما النتيجة الثانية لأخذ المصريين بالتقويم الشمسي الثابت فهي أنه قد تمخض بالتدريج عن إيجاد فاصل بين «الفصول الطبيعية» التي يحددها إيقاع النهر ذاته وبين «الفصول الرسمية» التي تأخذ بها الحكومة وتقوم على سنة طولها ٣٦٥ يوماً. وقد ازداد هذا الفاصل، الذي لم يكن يلحظ في البداية لكونه يوماً واحداً كل أربع سنوات، باطراد من أسبوع إلى شهر ثم إلى شهرين، إلى الوقت الذي كان فيه التقويم الرسمي يقع خلال أوج الفصل الطبيعي بمرت. وقد استرعى هذا الانتقال انتباه الكتبة المصريين. ولدنيا نصوص تلحظ، بصورة رسمية جداً، التفاوت بين طلوع سوتس الشمسي وبين بداية السنة الرسمية، وقد مكنتنا هذه الملحوظة - من الثبت - مع التحاوز في حدود أربع سنوات - من التواريخ التالية:

- من المجمع أن عهد سوسرت الثالث يشمل السنوات ١٨٨٢ - ١٨٧٩ ق.م.

- تقع السنة التاسعة من حكم امنحتب الأول بين السنوات ١٥٥٠ - ١٥٤٧ ق.م.

- يضم عهد تحتمس الثالث السنوات ١٤٧٤ - ١٤٧١ ق.م.

وبعض هذه التواريخ إلى التواريخ النسبية المستمدة من المصادر التي في متناول أيدينا: بردية تورين، ححر بالرمو، الآثار المورخة التي ترجع إلى فترات مختلفة، أمكننا التوصل إلى تسلسل زمني أساسي، هو أوثق جداول الشرق القديم الزمنية كفاية، وان نبدأ هذا التاريخ بعام ٣٠٠٠ ق.م ومن الممكن تأريخ تقسيمات مانيتون الرئيسية كالآتي:

- الأسرة الثالثة إلى السادسة (الدولة القديمة) حوالي ٢٧٥٠ - ٢٢٢٠ ق.م.

- الأسرة السابعة إلى العاشرة (العصر المتوسط الأول) ٢٢٠٠ - ٢١٥٠ ق.م.

- الأسرة الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة (العصر المتوسط الثاني) ١٧٨٠ - ١٥٨٠ ق.م.

- الأسرة الثامنة عشرة إلى العشرين (الامبراطورية الحديثة) ١٥٨٠ - ١٠٨٠ ق.م.

- الأسرة الثامنة عشرة إلى العشرين (الامبراطورية الحديثة) ١٥٨٠ - ١٠٨٠ ق.م.

- الأسرة الحادية والعشرين إلى الثالثة والعشرين (العصر المتوسط الثالث) ١٠٨٠ - ٧٣٠ ق.م.

- الأسرة الرابعة والعشرون إلى الثلاثين (العصر المتأخر) ٧٣٠ - ٣٣٠ ق.م.

- ويسجل فتح الإسكندر المقدوني في عام ٣٣٢ ق.م. نهاية تاريخ مصر الفرعونية وبداية العصر الهلنستي. (من كتاب تاريخ افريقيا العام - اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام - اليونيسكو - المترجم).

«اختك إلى جانبك»

أطلق سكان مصر الأوائل على بلادهم اسم الـ«كمت» البلاد السوداء، لتمييزها من بحر رمال الصحراء الصفراء التي تحيط بها من الشرق والغرب. كانت الكمت واحة تدين بخصوبتها وخضرتها إلى فيضانات سنوية مردها فيض النيل المنتظم. وعلى هذا فإن النهر يخصب البلاد السوداء بما يحمله إليها من فيض الطمي.

كان النيل إلهة عزيزة مرهوبة الجانب. وقد أطلق عليها مزارعو الكمت حايس (حايي) ومثلوها على شكل كائن ثنائي الجنس شبيه بعشتار بلاد الرافدين. وقد تحلت حايس هذه بخصائص ذكرية هائلة ولحية مهيبة. إلا أن لها، في الوقت نفسه، أنداء امرأة. وترمز صفات الإلهة الثنائية هذه إلى كفاءتها المزدوجة: ففي كل عام كان النهر يخصب نفسه بنفسه ويلد ذاته، وفيما بين مساقطه المزبدة من الجنوب حيث ينبع حتى البحر حيث يصب، كان الأم المرضعة لبلاد الكمت.

وقد حل محل الثنائية الجنسية، في وقت لاحق، الاعتقاد بقدرة الإله الذكرية المنجبة، إذ كانت نطفه مصدر خصب ونماء، فبدا إله النهر رمزاً للسلطة الذكرية، وثمة نصوص تشهد على ذلك إذ تصف حايس بالقدرة الجنسية الفائقة «ما أن

تلهب الرغبة فواده حتى يسارع إلى اختطاف الزوجات من أحضان أزواجهن ليقودهن حيث يشاء».

وللتخفيف من سعي جنسية الإله هذه، كان المصريون يقدمون إليه القرابين من الفتيات يلقي بهن عاريات بين أمواجه العاتية ليلهو بهن ويتمتع، وليتخلى، في الآن نفسه، عن شريكاتهم ونسائهم. أما الآن وبعد أن اكتسب المصريون بادئ ذي بدء، «فن السيطرة على النهر» فقد عقدوا العزم على الاحتفاظ لأنفسهم، دون غيرهم، بما عرفوا واختاروا من النساء.

وهكذا فقد استطاعوا أن يصرفوا غريزة حاييس الجنسية الجارفة النهممة ويشبعوها دون أن يتضرروا. وعندما نجح المصريون في توزيع مياه الفيضانات في قنوات أحسوا بمعجزة انتصارهم على هذا الإله المهيب المخيف فامتنعوا، من ثم، عن تقديم العذاري الأحياء له واستبدلوها بتمائيل أنثوية صغيرة لطيفة. وبدافع خشيتهم من عنف النهر وجبروته والرعب الذي تدبه في القلوب أمواج عاتية يقذف بها ذات اليمين وذات اليسار، صنع المصريون قرابينهم هذه من الذهب أو من الحجارة الكريمة المتعددة الألوان واستكملوها بتمائيل من اللدائن تمثل الإله، يقذفون بها بين أمواج النيل مع التمائيل النسائية الذهبية حتى تتصاعد مياه النهر فتغمر الأراضي وترويها.

تسمى سكان وادي النيل الأوائل، بفخر واعتزاز، «بالأناس» وكانوا يحمون أعضائهم التناسلية بوساطة غمد صلبة تدرأ عنها الإصابات والجروح وتزيد من حجومها وبروزها، إذ لم يعتد الرجال والنساء على ستر أعضائهم الجنسية بالمآزر إلا بعد لأي، فقد تطلب الأمر ردها من الزمن طويلاً. ولم يختلف سلوك أفراد القبائل الأخرى التي تسكن فيما وراء الصحراء وفي منطقة مجرى النيل الأعلى في شيء عن سلوك المصريين.

لكن المصريين كانوا يشعرون بأنهم مختلفون عن الآخرين ويعدون أنفسهم الأفضل بين الجميع، كما كانوا يفخرون بأنهم يعيشون ويموتون، بخاصة، على

طريقتهم المتميزة. وبعبارة أخرى كان المصريون «أناساً» أما الأجانب فلا. وفي زمن اشتد فيه كسب البلاد، وانهار النظام القديم الثابت، وانقلبت الأحوال الاجتماعية عاليها سافلها، ارتفعت الشكوى من أن «الأغراب في الخارج دخلوا مصر.. وأصبح الأجانب أناساً في كل مكان» (من كتاب ما قبل الفلسفة ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا - المترجم).

تعزى أصالة أخلاق وادي النيل إلى عزلة البلاد، وإلى انفرادها بمفاهيم دينية متنوعة هيمنت على بلاد الكمت، وإلى تميزها بمعطيات جغرافية طبيعية. لكن ظاهرة عدم تحلل جثث الموتى في تخوم البلاد الصحراوية كانت حاسمة، إذ كانت ريح الصحراء و«نسائم النيل» تصون، بغموض، تلك الأجساد الجامدة وتحافظ على مظهر الحياة فيها. وقد دفع ثبات الجثة المادي أقرباء المتوفى إلى التساؤل: هل الميت قد مات حقاً؟ أم أن الجسم وحده قد أصابه السبات لأن «القوة الحية» قد فارقت، تلك القوة التي ولدت معه وصحبتة ووجهته في خلال حياته؟ أطلق المصريون على هذا التصور الروحي للقوة الحية التي تبعث الحياة في كل كائن إنساني اسم الـ«كا» ترى متى تكونت تلك الفكرة؟ ومن أين قديم سكان الكمت الأوائل؟ ما برحت هذه الأسئلة بلا جواب. ويبدو، على الأرجح، إن هذه الأقوام لم تفد من «الغرب» مجتازة الصحراء الغربية، وإنما قدمت من الجنوب منحدره مع النهر، ووضعت في الغرب حدوداً «لمملكة الموت» حيث تغرب الشمس: نهاية العالم الأرضي. إن التشابهات التي تقدمها أخلاقهم بالقياس مع العادات الحالية لسكان افريقيا الوسطى تحمل على الاعتقاد بأنهم قد ساروا بمحاذاة النيل منطلقين من منابعه باتجاه مصبه إلى أن ألقوا عصا الترحال لدى اكتشافهم هذا الوادي الخصيب الغني بتربته، والمغمور بنور الشمس، والكثير الرواء. ولكن الحياة والخصب ليسا هبة مجانية، فقد تضافرت جهود المصريين مع ما تمنحه الطبيعة السخية المعطاء، كما دافعوا عن أنفسهم يدرؤون عنهم خطر الحيوانات المفترسة التي كانت تنهدد أمنهم وحياتهم، وتوزعوا في جماعات

تقاسمت فيما بينها «البلاد السوداء» فلم يكن ثمة ما يدفع بهم للنزاع والتنافس ليحصل كل منهم على نصيبه من وفرة الغلال وبحبوتها مادامت «الأرض تمنح» بسخاء. إن مشهد بعض الظواهر التي أفسحت المجال لتأويلات غامضة والانطباعات التي تحمل الإنسان على التساؤل وتجربة موت الأقرباء، كل ذلك تبلور في ذاكرة سكان الكمت على شكل هذا التصور للكا الذي حدد سلوكهم في الحياة الدنيا ورسم آمالهم في الحياة الآخرة.

وجد المصريون في الـ«كا» روح كل كائن إنساني، ومحتوى الحياة الروحية للرجال والنساء كافة. فقد كانت العلم والوجدان معاً، بواسطتها يشعر الإنسان بالألم والكتابة وبالفرح والمتعة. كانت الـ«كا» أكبر من حواس الكائن الإنساني مجتمعة، إنها فوق الطبيعي وفوق المحسوس: كانت الوسيط السري بين الإنسان والقوى الـ«فوق طبيعية» آلهة الكل المطلق، في حين ان الكائن الإنساني مجرد جزء من هذا الكل غاية في الدقة والضآلة، تستقبله الـ«كا» في وقت لاحق، في كنفها إذا ما بقيت حية بعد الموت. بيد أن الإنسان لا يبلغ هذا الكل العظيم إلا إذا امتثل بأفعاله، على مدى حياته الأرضية، لتعاليم الآلهة ونواهيها ذلك لأن الآلهة هي التي تمنع أو تمنح حق البقاء.

إن لكل كائن إنساني، إضافة إلى الـ«كا» روحاً. وقد تصور المصريون هذه الروح طائراً له أجنحة سريعة ورأس بشري، كما تصوروها شبحاً ذي نزوات، وتركيباً عجبياً مثيراً للقلق يأتلف من الحيوان والنبات والإنسان. وقد عبد سكان وادي النيل، على اختلاف طبقاتهم، إلى جانب آلهة الأرض والماء والهواء والضوء والظلمات والعديد من الآلهة الثانوية التي تستثير ضروباً متعددة من أسرار نمو الحيوان والنبات، عدداً من الحيوانات التي يرهونها: الحيوانات الأليفة، والتماسيح، وبنات آوى، والأفاعي، والحيوانات التي أبعدت عن المنطقة أو تلك التي اختفت وتوارت، فقد كانت هذه الحيوانات شياطين طيبة أو خبيثة وأرواحاً ناعمة أو أعداء غير مرئيين لا تمنع أذاها إلا التعازيم.

كادت جميع تمثيلات الميتولوجيا المصرية ان تكون موسومة، إلى حد ما، بأصل حيواني، إن وجوه الآلهة كانت تختفي خلف أقنعة حيوانية، كما كانت تنتهي مؤخرتها بذيول بنات آوى الناعمة الملساء. كان الأجداد الأقدمون يرهبون الوحوش التي لازمت سكناهم، فقد ناضلوا طويلاً للتغلب على الحيوانات الكاسرة والقضاء عليها. كما ان ذكرى هذا العراك بقيت مستحكمة راسخة في الأذهان على الرغم من تصاريف الدهر وتعاقب الأزمان، وارتبطت تمام الارتباط بالمفاهيم الدينية. وكان التمساح من أكثر الشياطين الحيوانية رهبة ومهابة في حين كان الثور من أحبها إلى قلوب المؤمنين، إذ يرى الرجال في مقدرته الذكورية مثلاً يحتذى وأمنية مشتهاة لكنها، بكل حسرة، صعبة المنال لا تضاهي. وكان بمقدور التيس وحده، من بين كافة الحيوانات، أن يأمل، إلى حد ما، بمجارة فحولة الثور المعبود. وثيران آيس المقدسة هي تلك الثيران التي ترسم على رقابها بقعة على شكل هلال قمري في ربه الأول. وفي مراغ أعدت خصيصاً، كانت الثيران المختارة تلهو بالأبقار وتمتع بها وتظهر للمؤمنين قدراتها على الإنجاب. كان ثور آيس يرمز إلى القوة الذكورية بكماها وتمامها ويوزع الكفاءات الجنسية على الإنسان والحيوان معاً.

عندما اتحدت قوى وادي النيل للإفادة من الفيضانات السنوية والتوسع بزراعتها بفضل الري، انضوت تحت سلطة الزعماء الذين تعاضم نفوذهم لنجاحاتهم التي تؤكد رشاد توجيهاتهم وصلاح أسسها ومنطلقاتها.

وجمل ازدياد السكان والرفاهية المتناميان، الزعماء الذين اكتشفوا «أسرار الطبيعة» على التجمع في «البيت الأعظم» يتبادلون فيه معارفهم للإفادة منها في سبيل النفع العام والمصلحة الشخصية أيضاً. وقد سمي «البيت الأعظم» بالفرعون، والفرعون لفظ كان يعني، في المقام الأول، المنزلة الرمزية، فأصبح، من ثم، لقباً للزعيم الأعلى. وغدا الفرعون، بفضل أعماله السامية، الحاكم المبجل والإله المعبود.

كان الفرعون «الحائز على علوم السماء والأرض» و«السيد الأعظم بين الرجال العارفين»، التحسيد الأرضي للآلهة التي أنيطت بها حياة الرعايا الأرضية وحياتهم بعد الموت، تلك الحياة التي لا يشارك فيها إلا أولئك الذين يخضعون للقوانين الأخلاقية التي أعلن عنها باسم الفرعون.

ولم تقتصر، بالطبع، مراقبة الخضوع للتعاليم الأخلاقية والإشراف عليها، على من صاغها وأصدرها: الفرعون وكهننته، ذلك لأن القانون لم يكن مجرد قانون أرضي بسيط بل كان في جوهره قانوناً إلهياً. وعلى الـ«كا» التي تبقى حية بعد موت الجسد، ان تقدم بياناً إلى المحكمة العليا «فوق الطبيعية». فالمصري كان يجهد طوال حياته في الامتناع عن القيام بأي عمل محظور يقف حائلاً دون تمتع الـ«كا» بالخلود. والحال هذه فإن الجميع يسعون جاهدين للتقيد بالقواعد. كما أن الفرعون «بخاصة» وهو الإله الفاني في الأرض، لا يبلغ الخلود إلا بعد موته، إذ يخضع هو الآخر، على الرغم من سلطانه اللامحدود، إلى الآلهة التي تستخدم شخصه الملكي لتتجلى من خلاله في العالم الأرضي.

أما فيما يتعلق باقترانه وزواجه فعليه ان يتقيد بالتقاليد الطقسية تلبية لمبدأ أسطورة الخلق ومراعاة لها: على كل فرعون ان يتزوج بإحدى أخواته ذلك لأن أول زوجين إلهيين كان يضم أخاً وأخته: إله الهواء شو وإلهة الرطوبة تهنوت. وكذلك الـ«نون» أصل الأشياء كلها كان يقضي بأن يتزوج الفرعون بأخته. إن كل أميرة ينجبها فرعون «البيت الأعظم» كانت، في الأصل، قد أعلنت ملكة منذ يوم مولدها، وأخوها، وقد غدا زوجاً لها، لا ينال لقبه ويبلغ مقامه إلا بعد تتويجه واقترانه بأميرة من «البيت الأعظم» (*).

(*) وهذا أثر باق من النظام الأمومي الأقدم حيث كانت السلطة تنتقل من الأم إلى الابنة، ولم يكن أمام الأخ في بدايات التحول إلى النظام الأبوي سوى الزواج من أخته لاكتساب الحق بالسلطة من خلالها - المحرر -



صورة اكرم، ام الملكة حتشسوت، قبر الملكة، الاسرة ١٨

إن الزواج بين الأخ وأخته كان شائعاً في أوساط الشعب أيضاً، حتى ان
كلمتي الأخ والأخت كانتا تعنيان أيضاً الحبيب والحبيبة،

أنا أختك الأولى

وأنت لي كالروضة

لتي زرعتُ فيها الأزهار

والأعشاب العطرة جميعها

وأجريت فيها غديراً
لكي تضع فيها يدك
إذا ماهبت ريح الشمال الباردة
وهي المكان الجميل الذي ننتزه فيه
حين تكون يدي في يديك
يفكر عقلانا ويتهج قلبانا
لأننا نسير معاً
إن سماع صوتك ليسكرني
وحياتي كلها في سماعك،
وإن رؤيتك

لأحب إلي من الطعام والشراب - عن قصة الحضارة - المترجم.
كما ان اقتران الأب بابنته لم يكن محرماً. إن مثل هذه الممارسات - الزيجات - التي أدانتها معظم شعوب الأرض بوصفها غشياناً للمحارم مازالت قائمة عند بعض المجتمعات الأفريقية ممن تتوافق أخلاقهم وتماثل، في كثير من جوانبها، مع العادات المصرية القديمة، مما يحدونا إلى الاعتقاد بأن أوائل من استوطن وادي النيل قد قَدِموا إليه من أفريقيا الوسطى. ومع ذلك فقد أكد علماء الأجناس البشرية عكس ذلك: لقد تبنى سكان أفريقيا الأصليون العادات المصرية وبخاصة ما يتعلق منها بالاحتفالات «المسارة» بمناسبة ختان البالغين التي ابتكرها المصريون للاحتفال بنضج البالغين الجنسي. وكان الختان، أيضاً يقع على الملوك الفراعنة. وقد أطلعنا على ذلك من خلال ما جاء في إحدى الكتابات المنقوشة إذ تأخر تنويع أحد الفراعنة ملكاً على مصر «لأنه مازال حديث السن ولما يجتن بعد»، فالختان كان أكثر من إثبات رسمي لأهلية البالغ للزواج، فقد كان عملاً صالحاً يتوجب على الآلهة الخضوع له على الرغم من طبيعة العملية المؤلمة.



الفرعون توت عنخ آمون في شبابه

تشهد على ذلك الرموز القضيبيية للإله أوزيريس والإله آمون - آمون، إضافة إلى المسلات الصغيرة من اللين المشوي الملون التي أعدت حصيصاً لاحتواء قضبان الموتى وحفظها.

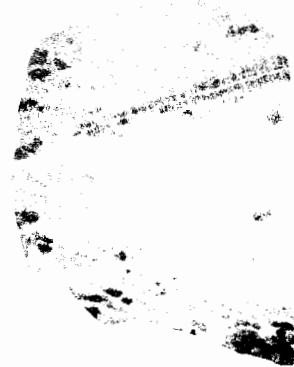
وليس بالشائن المغيب، بالنسبة للمصريين، أن يعرض أحدهم ذكره على الملأ، إن العضو المذكور في حاله انتصابه، كما يتراءى لهم، رمز طبيعي في تكوين كل حياة.

والحال هذه، فليس ثمة داع لستر هذا العضو وإخفائه مادامت الآفة تعرض أعضائها على الملأ ومادامت الذكورة أساس كل متعة حسية. إنه نون، العماء، هذا الإله الذي تخيله المصريون شبيهاً بكتلة سائلة لا حراك فيها، هو الذي أنجب «برلادة مباشرة» إله الشمس

رسم منحوت، يعود إلى

الأسرة ١٣

متحف فيلادلفيا، نيويورك



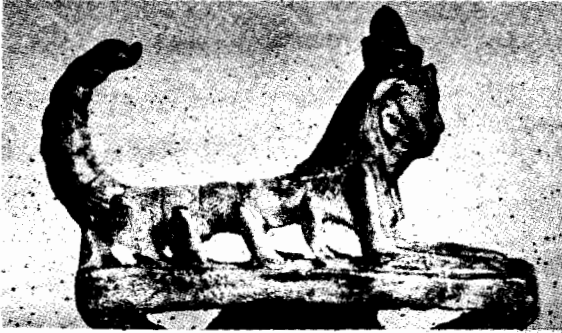


قناع جنائزي
لتوت عنخ آمون
الأسرة ١٨ -
من الذهب المرصع
بالأحجار الكريمة

رع وفقاً لأسطورة الخلق التي كان كهنة معبد هليوبوليس يُلقنونها. أما رع فقد اقترن بذاته ليروي غليله وينجب أول زوجين إلهيين، وبذلك فقد كان الأب والأم في آن واحد. وعلى هذا فإن إله الهواء شو وإلهة الرطوبة تفتوت قد ولدا من قطرات الدم المنبجسة من قضيب رع ومن منيه الذي أخصب رحمها الخاص. وبالفعل فإن المصريون يسبغون على إله الشمس إمكانات ذكرية وأنثوية سمحت بخلق وولادة أول زوجين إلهيين، ومن اقتران الإله شو بأخته تفتوت اقتراناً محرماً ولد إله الأرض جيب وإلهة السماء نوت. اللذان تجامعا بدورهما، إذ استلقت نوت بدعة وحنان فوق أخيها، لكن أباهما أوقف عناقهما وفصلهما رافعاً نوت لتتحني فوق أخيها كما القوس وتلامس الأرض بأطراف أصابع يديها وقدميها، بينما راح جيب المهجور على الأرض يتأملها من فوقه^(*).

^(*) في هذه الأسطورة أثر من الأسطورة السومرية حيث نجد الهواء انليل يفصل بين الأرض والسماء المتصقتين - المحرر -.

منع إله الشمس رع كلاً من الأرض والسماء من أن يتجامعا خلال ٣٦٠ يوماً التي كانت تشكل، في البدء، السنة المصرية. ولكن ثوث إله الكتاب وحامي العلوم الذي هزت مشاعره رغبة العاشقين الظمأى، أوجد خمسة^(*) أيام جديدة كانت تنقص، حتى ذلك الوقت، التقويم المصري. وهكذا فقد أمكن للسماء والأرض، دون معصية أوامر إله الشمس، أن ينعماء في كل سنة، باللذة والمسرة خلال خمسة أيام بياضها وسوادها، ومن اتحادهما انجب العاشقان أوزيريس وأخته إيزيس وسيت وأخته نفتيس.



العقرب برأس ايزيس

واقترنت إيزيس
بأخيها أوزيريس
كما تزوج
سيت بأخته
نفتيس، ومع
تعاقب العصور
اتخذ أوزيريس،
في مخيلة المؤمنين،
أشكالاً عدة.

في البدء كان إلهاً للقمر وحجب «ضوء اسمه المقدس» بهاءً إله النيل حاييس (حابي)، ثم أصبح إله النيل المعطاء ورمز بموته ونشوره إلى انخفاض مياهه وارتفاعها. وقد ارتبط هذا التماثل بأسطورة جعلت من أوزيريس إله «الحياة عند الموت» كما ارتبط بالعبادة التي كرس له بوصفه «إله استمرار كل ما هو أبدي» و«إله تحول الأشياء الأبدي».

(*) وهي تلك الأيام التي أطلق عليها الإغريق اسم النسيء والتي تطابق بين التقويم القمري والتقويم الشمسي - المحرر - المترجم -.

ففي المعابد التي تمثل «جلال أوزيريس بتمامه» يدل قضيه الضخم المنتصب على أن الإله يحافظ على خلود القدرة الذكرية حتى في العالم الآخر، إذ كانت تتوفر فيه كفاءات الثور والتميس الجنسية. فقد كان باعثاً للذكورة بشتى صورها وموزعاً لنشوة الحواس برمتها، كما أنه لم يقتصر على منح المتع الجسدية للرجال فحسب، بل كان يمنحها للنساء أيضاً على أن يحملن تحت مآزرهن ثمائمتستنسخ عضوه الإلهي. وقد حظي أوزيريس، بوصفه سيد «هذه الحياة التي لا تنتهي في اللحد...» و«راعي النشاط الجنسي» بشعبية واسعة جعلت منه موضوع العبادة الرئيس، في حين تقلبت شعبية غيره من الآلهة.

كان التخيل المبتكر لموت أوزيريس وخلوده تخيلاً إلهياً وإنسانياً في آن واحد، فقد أنسن أعمال الآلهة وأدخلها في دائرة الحياة اليومية، فجاءت شديدة القرب من الأذهان وبدت مقنعة بصدقها وصحتها على الرغم من تكذيب الخبرة الحياتية لها. كان أوزيريس الضحية البريئة لخيانة غادرة وغيره خسيصة. فقد اختلست منه حياته غيلة وغدراً ولكنها أعيدت إليه من أجل الخلود بفضل زوجه إيزيس ووفائها له، أضف إلى ذلك أن أوزيريس كان إله المصريين الأثريين.

حقد سبت، إله الظلمات والجفاف، على أخيه أوزيريس لتهديد هذا الأخير له بالفرق في فيض أمواج النيل المتعاضم. ثم ان سبت كان يحسد أخاه على ما ينعم به من اعتبار وتقدير في السماء كما في الأرض، وعلى ما يتمتع به من فحولة لا تضاهي، وعلى ما كانت تكنه له إيزيس الرقيقة، بخاصة، من حب دائم مقيم. ولإغواء أوزيريس، الطاهر الذليل والجامع الرغبة، حمل سبت أخته وزوجه نفتيس على سرقة رداء إيزيس المضمخ بالعطور وطلب منها أن تستلقي على مضجع أوزيريس الذي خالها إيزيس لحسن تنكرها وعظيم شبهها بزوجه، فغشيها إذ أعمت بصيرته غريزة طاغية. وحدث، حقاً، ما كان سبت قد تخيله: فما أن ضاجع أوزيريس نفتيس الشبقة، لاختلاط الأمر عليه بفعل عطرها، حتى أثلثته لذة عارمة وأخذته نوم عميق، فاستطاع سبت، إذاك، قتل هذا الجسد

المسترخي والفاقد الوعي.. وقطع جثمانه أشلاء. جمعت أزيس أشلاء زوجها وأخيها الغالي المبعثرة التي وجدتها جميعها ما خلا القضيب الذي ألقى به في مياه النيل فابتلعتة احدى أسماك الحنكليس (منه جاء تحريم أكل السمك على الكهنة المصريين). وصار بمقدور إيزيس، منذ ذلك الحين، أن تقوم بمراسيم الموتى ودفنهم. كان ينقص جثمان أوزيريس عضو الذكورة، العضو الذي لا يبد منه للإنسال، و«همزة الوصل بين الأزمان». ثم ان القوانين والأحكام التي أصدرها أوزيريس نفسه تقضي بأن يكون جثمان الميت كاملاً ليحق له الاستمرار بالحياة بعد الموت. وفقدت إيزيس كل رجاء، لكن أنوبيس، ثمرة اقتزان أوزيريس بنفتيس والمولود بعد موت أبيه، هب إلى نجدتها وجمع أشلاء جثة أوزيريس بدقة متناهية فبدا الميت حياً واستبدل القضيب المفقود بقضيب اصطناعي. وأمام هذا الجسد المكتمل الأعضاء والمقفوف بالكتان، والمشدود بالأربطة، جلست إيزيس القرفصاء وشرعت باحياء القضيب المستعار فأدخلته بفيها ونفخت فيه من أنفاسها الإلهية. إن هذه الحركة المخصصة لإنعاش وإحياء عضو الذكورة الخامل تدخل في عداد المداعبات الطبيعية التي تتضمنها ألوان الضم والعناق والتقبيل الغرامية، فجعلت منها إيزيس شعيرة مقدسة إذ استطاعت، بفضلها، أن تبعث في أوزيريس المتوفى القوة مرة أخرى. ومن اتحادهما الجديد ولد حورس، إله الشمس، الذي يشرق كل يوم على التوالي في السماء اللازوردية منتصباً على سبت ومبديداً ظلماته بسطان أشعته منتقماً لأبيه. أما أنوبيس فقد أصبح معلم المحنطين، الذين يجهدون في الحفاظ على سلامة جثمان الميت وتمامه، وفق ما تقتضيه الديانة المصرية.

وعلى الرغم من كون حورس إلهاً للشمس فإنه لم يتمثل مع رع ولا مع آمون - رع (الاسم الذي كان يعبد من خلاله إله الشمس في الجنوب) وهكذا فإننا نجد آلهة تمثال فيما بينها تماثلاً كبيراً لكن المؤمنين كانوا يتضرعون إليها تحت تسميات متعددة ويعبدونها تبعاً لطقوس متنوعة، وقد توقف ذلك على ما كان يمنحه مختلف الملوك الفراعنة ممن إشار لهذا أو ذاك

من الآلهة، كما كان يتوقف أيضاً على التنافس الدائر بين الكهنة الذين يرثسون العبادات ويشرفون على المعابد أكثر مما كان يتوقف على الاختلاف في تقدير فوائد الآلهة وفعاليتها.

وقد اختلف ما حظي به مختلف الآلهة من تقدير تبعاً لعملية التطور نفسها التي سارت عليها شعوب بلاد الرافدين، إذ كان المبدأ: الناس على دين ملوكهم، هو المبدأ الذي يبت في أمور الإيمان والأخلاق، ما خلا بعض الاستثناءات. ذلك أن أوزيريس قد تمتع بالحظوة نفسها في جميع الأراضي المصرية. وعلى مدى آلاف السنين، اكتملت أسطورة انبعائه، بعد اغتيال سبت له وإحيائه بفضل إيزيس، بالعديد من التزيينات والتفاصيل المستحدثة مما أدى إلى تبوئه بالمقام الأعلى بين الآلهة.

وسوف لن تفتنى «كا». كل إنسان بعد وفاته إن تمكن من اللحاق بأوزيريس واستطاع أن «ينصهر في أوزيريس» إنه الخلود «لأن أوزيريس لم يموت» ومن ثم فإن هذا الإنسان سيعيش إلى الأبد.

جسدت إيزيس أرض وادي النيل الخصبة، المحففة بالبنور، وغدت بفضل إخصابها السنوي بلقاح أوزيريس موزعة للغلال والمحاصيل. كانت تعلم النساء الأعمال المنزلية وفن المداعبات الغرامية، وتبارك الحبل والحمل، كما كانت ممثلة للحب الأمومي. وكان المصريون أثناء الانقلاب الشتائي يعرضون تماثيلها على شكل أم شابة ترضع وليدها الحديث العهد حورس.

كان المصريون في معابد إيزيس يخصصون لأخت أوزيريس وزوجه قضيياً يقوم بصنعه الكهنة ويحملونه في مقدمة تطوافهم وهم يغدقون عليه المديح.

وقد شجعت أسطورة القضيب الاصطناعي، المستخدم لتخليد اتحاد الزوجين الجنسي بعد موت العشير الغالي، المهرة من الكهنة على صنع هذه المسلات الصغيرة اللطيفة لتحفظ فيها أعضاء ذكورة الأزواج المصنوعة من القماش والشمع، كما ضم «جرن القضيب» أيضاً كتابة منقوشة تشهد على رغبة الأرملة في استعادة

زوجها في العالم الآخر لتقترن به جسدياً. وقد جاء في أحد النصوص: «فهل لي، أيها الغالي، أن أقوم معك بعمل الحب في العالم الآخر مرة أخرى؟».

ترى هل كانت إيزيس مدينة للنساء المصريات، اللاتي جعلن منها حاميتهن، بما حظيت به من تقدير باعتبارها زوجة عاشقة وأماً حنوناً؟ أم ان أسطورة ايزيس قد أقنعت الأزواج بأن لنسائهم عليهم حقاً بما يهبهم من متع جسدية وأفراح عائلية. أم ان الأسطورة، انطلاقاً من هذا الواقع، قد منحت النساء المساواة في الحقوق مع الرجال؟ وعلى كل حال فإن عبادة ايزيس وأوزيريس الثنائية كانت رمزاً للعلاقة الجنسية المثلى بين الزوجين.

فالنساء المصريات ما برحن يتمتعن بالحقوق الأمومية التي اندثرت آخر معاملها، آنذاك، في منطقة بلاد الرافدين. إن المشاهد المنقوشة على قطع الحجارة التي بحوزتنا لتدل على أن المرأة في وادي النيل قد شاركت في الحياة العامة، فكانت تأكل بصحبة الرجال وتشرب، وتغارس مهناً مختلفة، وتطوف في القرى والمدن بكامل حريتها، وتقوم بإدارة شؤون منزلها وتتمتع بأموالها الخاصة وتورثها، بدورها، لبناتها.

ولم يكن وضع ربة البيت - نبت بر - ليتزعزع إن كانت أماً. وقد جاء في التعاليم الأخلاقية التي تلقن للصبيبة المصريين في المدارس: «ينبغي ألا تنسى أمك.. ضاعف الخبز الذي تقدمه إليها، واحملها كما حملتك هي من قبل، فقد كنت حملاً ثقيلاً عليها.. وبعد أن أتممت شهور حملك ولدتك، لتحملك على كتفها ثلاث سنوات أخرى وثديها ما فارق فمك، وهي لم تشعر، يوماً، بالقرص من أوساخك ولم تضجر منك، بل كانت تقول: ماذا أستطيع أن أفعل من أجله؟ ولما أدخلتك المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف، في كل يوم، إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجمعة جاءت بهما من البيت.. فلا تدعها أبداً ترفع يديها إلى الإله مستجيبة به من إهمالك».

كانت التعاليم الأخلاقية تحمي الزواج وترعاه. فقد وجد المصريون فيه

هدفاً طبيعياً وبدهياً يتطلع إليه كل فتى بلغ سن الزواج. ونحن نقرأ في حِكْم بتاح - حوتب، الحكيم المرشد لأحد الفراعنة، ما دونه لابنه قبل عام ٢٨٠٠ للميلاد: «تزوج إن كنت أهلاً لذلك، وأحب زوجك في بيتها كما يليق بالزوج أن يفعل، املاً بطنها، واكس ظهرها، وأدخل السرور إلى قلبها ما دامت لك. إنها مثال الحرث النافع لزوجها» ثم ينهي نصائحه على الشكل التالي: «... استجب، مادمت حياً، إلى جميع أمانيتها، واحرص على تحقيق هذي الأمانى وبذلك تستحث زوجك على البقاء بجانبك، وإذا ما عارضتها كان في ذلك خرابك». كان على الخطيب، أثناء عقد الزواج، أن يؤدي اليمين بإعادة البائة إلى امرأته وتخصيص قسط من أملاكه الخاصة لها إذا ما تركها في المستقبل، سواء لأنه أحب امرأة أخرى أو لأنه قد فقد كل عاطفة نحوها. لكن تعاليم الزواج هذه كانت تتضمن بنداً أساسياً: «... باستثناء حالة الخطيئة العظمى، الموجودة في النساء». والخطيئة العظمى هي العقم، مثله في ذلك مثل زنى المرأة الذي كان يشكل سبباً وجيهاً للطلاق، فإذا ما ضبط الرجل زوجه متلبسة بالزنى كان في مقدوره أن يطردها من المنزل دون أن يعوضها بشيء. وبالمقابل فقد كان بإمكان الزوجة أن تعلم زوجها، طبقاً للأصول، أنها تريد أن تكون لرجل آخر، وتبين له طريقة تعويضها له عما سيلحق به من خسارة، دون أن يشكل تصرفها هذا حالة زنى. وإذا ما وقع ذلك كانت تكتب: «مادمت قد كرهتك وأحببت رجلاً آخر غيرك فإني أتركك بوصفك زوجاً، وسوف أعطيك مكيالاً ونصف المكيال من الفضة وسأرد له، علاوة على ذلك، المكيالين ونصف المكيال التي كنت قد قدمتها لي هدية خطبتنا»، وإذا ما عزم الرجل على هجر زوجته غير المذنبه فمن حقها البقاء في البيت. إن أقدم رسالة طلاق وجهت إلى امرأة هجرها زوجها ليلحق بامرأة أخرى بدأت بالتصريح الواضح التالي: «إنني أهجرك، فأنت، من الآن فصاعداً، لست زوجاً لي...»، وكانت بعض النسوة، أحياناً، يعقدن زواجاً مؤقتاً يجدهن إلى ذلك هدف محدد وهو أن ينجبن أطفالاً شرعيين. فإذا ما بلغ

هذا الهدف غايته فإن سند فسخ الزواج يضع نهاية لهذه العلاقة: «وما أن أنجب أطفالي تكون قد قمت بإشباع رغبتى وأصبحت حلاً من التزاماتك الزوجية»، ولكي لا تقع النساء ضحية للخطيئة العظمى كن يلتزم بالقيام ببعض الطقوس. فكن مثلاً يعبدن ويتلمسن قضيباً مقدساً، أو كن يترددن على زيارة ثور أيبس في ممفيس. وأمام هذا الرمز الإلهي للقدرة على الإنجاب كن يحسرن تنانيرهن عن بطونهن ويتجردن من ملابسهن ليظهرن للثور المقدس ولأزواجهن ما يعتورهن من رغبة في الجماع والإنجاب.

وقد يحدث ان تضاجع نسوة فقراء المزارعين أو البنائين التيوس (العز) يدفعهن إلى ذلك خوف مروع من الخطيئة العظمى - العقم - ويؤمنن، بفعل ذلك، أن يخلصن ليمنعن أزواجهن من معاشره نساء أخريات رغبة منهم في الحصول على الأولاد. وما تكشفه لنا النقوش والصور حول عادات وأعراف نساء مصر ورجالها لا تتعلق، إلا نادراً بطبقات المجتمع الدنيا. ترى هل كان هؤلاء يتقيدون بالأغنياء من السكان وذوي السلطان؟



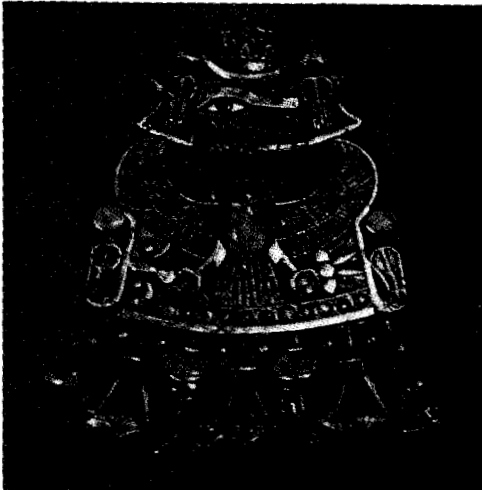
أبو هول ممفيس

أم أنهم كانوا جميعاً يستسلمون،

ببساطة، إلى ما فُطروا عليه من غرائز في أكوأخهم الضيقة والمصنوعة من كتل الطين الجاف؟ أم أنهم كانوا يخضعون إلى نواظم أخلاقية شائعة؟ فنحن لا

نستطيع أن نقيم الوقائع بالدليل القاطع، إذ لم يكن ليتوفر للمعوزين تخنيط جثمانهم عندما يموتون أو أن يشتروا لأنفسهم القبور الباهظة التكاليف، بحيث يمكن لنقوش لحودهم أن تنقل للأجيال القادمة واقع ظروف معيشتهم بدقة، بل إننا لا نملك وثيقة تكشف لنا بجلاء كيف كان يعيش هؤلاء العمال الذين أشادوا الأهرامات الهائلة والمعابد العظيمة وكيف كانوا يمارسون علاقاتهم الجنسية. جل ما نعرفه أنهم كانوا يسكنون بالآلاف في أكواخ أو تخشيبات مؤلفة من أعداد لا تحصى من صفوف الغرف الصغيرة المبنية من الطين والآجر. ومع ذلك فإن بالإمكان أن نفترض أن الحب كان يعود على هؤلاء أيضاً، على الرغم من بؤس حياتهم وشقائهم، ببعض المتعة.

لكننا نعرف، بالمقابل، من خلال العديد من الوثائق والبيئات كيف بنى هؤلاء قصور الأغنياء وبيوتهم وكيف جهزوها. ففي الأبنية الفسيحة كانت تنتصب وتتوزع الخزائن المطعمة بالعاج، والأسرة، والكراسي، ومواطئ الأقدام، والمقاعد المرتفعة، والموائد، وقد رصعت جميعها بالمعادن الثمينة وتغلبت، بمتانتها، على عوادي الزمان ونوائبه. كما أننا نعرف، مما احتوته أضرحتهم، ما كان يفضله أغنياء المصريين من ألوان الطعام..



زينة للصدر، وفيها شعار الشمس والقمر، وتعود لتوت عنخ آموت، الأسرة ١٨ المتحف المصري، القاهرة

فعلى الجدران صور تمثل نذور الموتى الخاصة بإعالة الـ«كا» قرينتهم. فهم يؤملون مثلاً أن يتناولوا في عالمهم الآخر ما كانوا قد تناولوه من الطعام والشراب في عالمهم الأرضي: عشرة أصناف من اللحوم المتنوعة، خمسة أصناف من لحوم الدواجن، ستة عشر صنفاً من الجعة، ألوان متنوعة من الفاكهة والحلاوي، كما كانوا يعبرون عن رغبتهم في التمتع باستعمال أدواتهم وأمتعتهم المفضلة: الملابس، والحلي، ومستحضرات التجميل، التي كانوا يستعملونها خلال حياتهم. وقد وضعت بعض النسوة المفنجات الأنيقات في غرف أضرحتهن أنواعاً مختلفة من مساحيق الجمال ونوعين من أحمر الشفاه ليكون بوسع قرينتهن الرحيل إلى العالم الآخر بشفتين حمراوين وأظافر ملونة وخددين مخضيين متوردين. وكان من الضروري أن يوضع تحت تصرفهن زيوت معطرة لشعورهن وأجسامهن، وخضاب أزرق لتكحيل جفونهن. فقد كشفت هذه الغرف عن كل ما يمكن أن يسهم في العناية بالجمال ويحافظ على الصحة في العالم الآخر: مرايا، وأدوات تجعيد الشعر ودبايسه، ومواسي، وكؤوس، وقوارير تحتوي على مراهم وأدوية أوصى بها الطبيب للمتوفى قبل موته: دم الضب المخثر ومخ السلحفاة المهروس وحليب امرأة نفساء أو بول امرأة طاهر لتكتمل بها الأدوية المتداولة والموزعة في أوان من المرمر أو العاج أو الذهب أو البرونز.

ومع ذلك فإننا لم نعثر، في القبور كافة، على أثر لتلك الأدوات الواقية الصغيرة التي أوصى بها الأطباء لنساء مصر قبل الميلاد بألفي عام، وذلك ان النساء اللاتي يحرصن على تجنب تبعات العلاقات الجنسية خارج بيت الزوجية كن لا يرغبن في توريث قرينتهن وزر مثل هذه الخطيئة، لخشيتهن من عقاب يصيبهن بالعقم بعد الموت، كما كن يرغبن، في العالم الآخر في نسيان ما ارتكبنه من شطط جنسي ومغامرات عشقية حتى ولو كانت الشريكة المحرصة هي الإلهة حتحور اللطيفة. كانت حتحور إلهة الجاذبية الجنسية والحب بلا قيد، فكانت ترفع، في حضرة أوزيريس، بحسن بيانها وبليغ لسانها، عن قضية من

ركن إليها من النساء اللواتي انتهكن حرمة الزواج.



الملك ميكيرينوس، تحوطه الإلهة
حاتور وإلهة محلية، الأسرة الرابعة،
المتحف المصري، القاهرة

واسم حتحور كان يعني: «مقر حورس» إذ كانت تستقبل بداخلها، كل ليلة، وبعد أن ينتهي من تطوافه الشمسي، الإله حورس الذي يحمل رأس صقر، وكان شعارها الحلقة «مينات». إن أياً كان؛ من الرجال أو النساء، امتلك أو لمس حلقة نالت التبريكات في معبد حتحور، سيحظى بكفاءة متميزة في ملذات الحب.

وكانت عابدات حتحور يستسلمن لرغباتهن إلى أقصى الحدود. فليس ثمة تعاليم تلزم الفتيات بصون عذريتهن حتى الزواج.

بل كن يتعلمن فنون الحب ويمارسنها على هواهن دون أن ينتظرن، بنفاذ صبر، زوج المستقبل.

فإن لم تف النظرة الغرامية بالغرض أتبعنها بالرسائل والقصائد الغرامية يتوجهن بها للرجل المختار ليكون حبيباً أو زوجاً:

«ياخللوة الاستحمام في حضورك

في الماء، يتل ثوبي الملوكي النسيج

ويلتصق بجسدي، فيتسنى لك مشاهدة جمالي

عندما أذهب معك إلى البحيرة

أجلب لك سمكة حمراء متألثة كالمرأة تتمدد بجمال بين أصابعي

تعال انظر إليّ».

وبين أيدينا قصة لأحد العشاق وقد استجاب لدعوة للاستحمام مع من يحب: «فإذا ما ضممتها وقبلتها انفرجت شفتاها، وسكرت من غير خمرة...» ثم يردف قائلاً: «... في الوسط من معقل جميلتي باب مشرع الأبواب.» ولدينا وثيقة من عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين تضرب نغمة حديثة على أوتار الحب القديمة جاء فيها:

«إن غرام حبيبتى يقفز على شاطئ الغدير
وفي الظلام تمسح رابض
ولكنني أنزل إلى الماء وأواجه الأمواج
ويشدد بأسى فوق الغدير
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمي سواء،
لأن حبها يملأ قلبي قوة.
فهي لي كتاب من الرقى والتعاويد.
وإذا رأيت حبيبتى مقبلة ابتهج لمرآها قلبي
وفتحت ذراعي ومددتها لأضعهما إلى صدري
وينشرح قلبي أبد الدهر... لأن حبيبتى قد أقبلت
فإذا ما ضممتها كنت كمن في أرض البخور
وكمن يحمل العطور،
وإذا قبلتها انفرجت شفتاها
وسكرت من غير خمرة،
باليتمني كنت جاريتها الزنجية التي تقف بين يديها،
حتى أرى لون أعضائها كلها.»

وقد ارتاب الآباء والمربون من طيش الفتيات وسرعة استجابتهن وسخائهن ومهارتهن في السحر والإغراء، وها هو الحكيم يتاح حوتب ينصح ابنه بالتحلي بالحيلة والحذر: «فإذا أردت لصداقتك أن يطول عهدا في بيت نزلت فيه أخواً أو صديقاً، فاحذر الاتصال بالنساء أياً كانت الغرفة التي إليها تدخل، فلا خير لك في مكان حللن فيه، والرجال يفقدون الرشد لمراى كشوحن الرائعة.. وستدرك، إذاك، ان النساء أشد قسوة من جلمود الصخر، إن في طيش لا احتراس فيه وهنياه تتلاشى كما الحلم، موت محقق...» كما نقرأ في بردية أخرى: «احذر المرأة التي تأتيك من الخارج، المجهولة من أهل مدينتها. فإذا أتت لا ترفع بصرك إليها وتصرف كأنك لا تعرفها، إنها كالردور في المياه العميقة لا يسر لها غور ولا يعرف لها قرار. وإن امرأة غاب عنها زوجها وسألتك: أأست جميلة؟، فإن غاب الرقيب نشرت حولها شباكها. وما أشنعها من جريمة عقابها الموت إذا أصغى إليها الإنسان».

ولم تكن تستهدف هذه التحذيرات إلا النساء المتزوجات والفتيات اللاتي يسعين إلى الزواج، إذ كان الرجال ينعمون بكامل حريتهم في إشباع شهواتهم الجسدية بين أحضان «الراقصات» اللواتي أطلق عليهن تورية «موزعات الفرح» بهدف إضفاء طابع مسكن غير مسيء على حضورهن في مجالس اللهو والطرب. ولم تكن هؤلاء الفتيات، المتمنقات بزنانير بسيطة ضيقة يشددن بها أوراكنهن، في عداد المدعووين، بل كن أعضاء في عداد الأسرة الواحدة، أما سيدة البيت التي كانت تزدهي بثوبها الفضفاض وقد عقدتها تحت نهدا الأيمن بإبزيم مرصع بالأحجار الكريمة، فلم تكن لتجد ما تعترض به على هؤلاء الرجال المنصرفين إلى تمتيع حواسهم متجاوزين حدود المتعة بالنظر إلى تلك الأجسام العارية الغضة الناعمة. كما أن انفراد الضيوف وسيد البيت بالراقصات كان يدخل في عداد تلك الترفهات أو تلك المداعبات التي تتضمنها مادب الأشراف التي تتضمن ألوان الخمرة والجمعة

والمراوح المضمخة بالعطور والمصنوعة من الأرياش الملونة، تنعش بمركتها
الرتيبة الموزونة المدعوين الذين احتدمت في عروقهم رغبة عارمة.

«العطور والزيوت تُقدم إليك لتشمها

أكاليل من أزهار اللوتس لمحوبتك

الجالسة إلى جانبك والساكنة في قلبك

دعونا نستمع للغناء والموسيقى

اقبلي أيتها البهجة - وليذهب الهم والغم

فسوف يأتي اليوم الذي نقرب فيه

من الأرض التي تحب السكوت».

[- من كتاب طيبة في عهد امنحوتب الثالث - ترجمة إبراهيم رزق - المترجم -].
ولا يرى المصريون، في العلاقات الجنسية العابرة أو التي حدثت اتفاقاً مع
فتيات لعوبات طائشات، علاقات عهر وزنى، فهذه العلاقات لا تدان بوصفها
فسقاً، على ألا ترتكب، قطعاً، في أحد الهياكل أو المعابد أو أحد الأماكن
المقدسة، أو أمام أحد مذابح الآلهة، أو على مقربة من أحد الحيوانات الإلهية. أو
لم تخلق الآلهة متع الحياة ولدانها لينعم بها جميع الخلق؟ وكيلا يصيب من شارك
في تزجيات الوقت هذه أي سوء، كان لابد لهذه التسلييات، من أن تنال قبول
الزوجة فحسب، إذ كان بإمكانهم التبحر بممارسة مثل هذه الملذات الفاجرة
والإشادة بها، دوغماً مداورة، والتوصية بها أيضاً لقريبتهم في العالم الآخر، على
مثال ما قام به كاهن آمون إذ كتب على ضريح الفرعون نفرحوتف «احتفل
بيومك السعيد وضمخ أنفك بأطيب العطور، وزين منكيبك وجيدك بإكاليل من
الزهور، ولتكن أحتك، الغالية على فؤادك، بجانبك، ولتصدح الألحان والأصوات
العذبة تحف بك من كل جانب.» فالأخت هي الزوجة، والأخوات العزيزات
على الفؤاد هن العشيقات والحظايا اللاتي يجمُلن حياة صاحب المقام، شريطة أن
تكون الزوجة راضية.



مقطع من تابوت يعود إلى الملكة الوسطى.

وقد كان كبار السادة يقتدون، في حياتهم، بكل صغيرة وكبيرة يقوم بها الملك: إن نط حياته الباهظة النفقات وما ينعم به من حرية في السلوك والتصرف كانت لهم مثلاً يحتذى.

اقتضى العرف، الذي حافظ عليه المصريون، ألا يتسّم ابن البيت الأعظم العرش إلا بعد اقترانه بأخته، بيد أن الملوك لم يكتفوا بالزواج بأخت واحدة بل كانوا يضاجعون العديد من أخواتهم بل وبناتهم لضمان ذرية السلالة الملكية. ذلك أن الدم الإلهي للسلالة الملكية يحافظ على نقائه إن اقترن رجال البيت الأعظم بنسائه. وقد استساغ المصريون أن يسرح الملوك الفراعنة ويمرحوا مع بناتهم وأخواتهم، إذ رأوا في تصرفهم هذا تصرفاً طبيعياً للغاية. إن كل ما يجري في حرم قصورهم المقدس كان فائق السمو طاهراً وبرياً.

فكان لابد للفرعون وأقربائه في البيت الأعظم من أن ينعموا ويتمتعوا بهذا الفصل الزمني من عمر قرينتهم ما بين الولادة والموت كما سينعمون لاحقاً بحياتهم القادمة، الحياة الحقة، ألا وهي الحياة الإلهية. ثم إن عل الفرعون أن يمارس الجنس ويغشى النساء على هواه، وعليه أن يقنص ويصطاد إن استبدت به نزوة القتل أو يدجن طريدته، وعليه أن يلهو بصيد السمك ويتسلى بنصب الشراك للطيور، ليبرهن على أن سلطانه يطول مملكة الحيوان أيضاً. ففي الليالي الممطرة، التي لا تشجع على إقامة مجالس اللهو على النيل وضافه، آثر الفرعون الترويح عن نفسه بالنرد والداما. كما أحب أيضاً مشاهدة حلبات المصارعة والملاكمة، بيد أن مشاركته فيها كانت بلا جدوى، فهل يليق بالفرعون أن يظهر للعيان ان ساعديه وساقيه الملكية أصلب أو أضعف من عود بني البشر؟ ذلك ان المصارعين والملاكمين على يقين من أنهم سيعرضون حياتهم للخطر إن هم تغلبوا على الفرعون أو على أحد أفراد البيت الأعظم أو على أحد أصحاب المقام الرفيع، فأثروا الهزيمة على الفوز. إن صراعاً هذا شأنه إذ انكشفت نهايته لم يكن إلا ليزرع الملاله في النفوس. ولسوف لن يمنح المتعة لصاحب المقام الرفيع إلا

إذ أتاح له صراع كهذا ممارسة بعض العنف، كأن يجرح عين أو قضيب خصم ما برح، في جميع تحدياته السابقة، يرغى ويزيد إعجاباً وتيهماً. ولم يكن عقاب بتر الأعضاء الجنسية ليقصر على الملاكمين والمصارعين الذين يظهرون على الملأ تفوقهم في الصراع. إذ كان العضو التناسلي لأحد الأعداء من أئمن الغنائم التي يفوز بها المحارب، ثم ان القائد الذي يطمح إلى إعلاء مكانته العسكرية كان يقدم إلى الملك، برهاناً على انتصاره، سلة طافحة بهذه الغنائم المثيرة للشفقة.

يبد أن الغنيمة السلبية تلك لم تعد تفي بالغرض مع اتساع حملات جيوش الفرعون، وإخضاع أقاصي البلدان وأبعدها وضمها إلى مملكة مصر العظمى. ولم يعد حرمان الخصوم والأعداء من أعضاء ذكورتهم مما يهيج ويسر إلا بقدر ما يرضي ذكورتهم الخاصة بهم.

وقد ألحق بالبيت الأعظم بيت صغير: بيت نساء الملوك الفراعنة الذين لم يكتفوا بأخواتهم وبناتهم، إذ جرى العرف أن يتلقى الملوك الفراعنة هدايا من أصدقائهم المغاربة أو جزية من البلدان المقهورة تضم أجمل فتيات الأقطار الأجنبية، وأن يطالبوا بنصيبهم من الغنائم فيختارون من أسيرات الحرب أكثرهن فتنة واغراء. مما أدى إلى تعاظم عدد النزيلات في بيت نساء الملك..

كان بيت النساء الملكي محكم الإغلاق، إذ قام على حراسته رؤساء الحرس، فحالوا دون أن تقيم «الحبيسات» - تلك هي التسمية التي كانت تطلق على النساء المكرسات للفرعون - أي اتصال مع الخارج. وقد حمل هؤلاء الحراس ألقاباً مثل: «ذاك الذي يحافظ على سجون الحظايا» أو: «ذاك الذي يقدم الحريم للملك ويحضر حفلات الرقص». وكان تحت امرة هؤلاء الخدم، المهيبين الحريصين على تهيئة الأجواء المناسبة واستبعاد كل ما يمكن أن يعكر صفو ملذات الملك الحميمة، جيش من الحرس والكتابة ينقلون إلى إدارة البيت الأعظم مطالب الحظايا ورجائهن ويستلمون ما طلبن من حوائج: الجواهر والحلي والثياب والأدوات اليومية والحلاوى النادرة التي اضطروا إلى جلبها من البلدان

القضية، فإذا ما فازت هولاء النسوة بحظوة الفرعون ومحبه، طلب بعض المأكولات النادرة فيؤتى بها من مواطنهن. وغالباً ما نالت الحظايا ألقاباً رفيعة، إذ أطلق عليهن: «زينة الفرعون» أو «تلك التي تسعد فؤاد الفرعون في كل وقت». وقد ينجح أحياناً بعض من هولاء الحظايا، ممن برعن في فنون الحب، في أن يحتفظن، لسنوات عدة، بما فزن به من حظوة وإيثار لدى الفرعون، فيمنحنهن الفرعون، ساعتئذ، مهراً سخياً ويزوجهن لأصدقائه المقربين أو الجديدين بهذا الشرف، ويفاخر هؤلاء الذين شرفهم الفرعون بحظاياه بأن ينقشوا على أضرحتهم: أنهم عاشوا حياتهم الزوجية مع إحدى سراري الفرعون معبرين عن أملهم في أن يروا المحكمة العليا تأخذ باعتبارها هذا الشرف العظيم الذي تتمتع به قرينتهم.

لم يحظ بالدخول إلى بيوت نساء الملك إلا الخالص من الأصدقاء الحميمين، وعلى هذا، لم يتوفر لدينا إلا النزر اليسير من الأدلة حول ما كان يجري داخل هذه البيوت. وتروي لنا واحدة من أوراق البردي أن الفرعون كان ينظم فوق مياه النيل ألعاباً مائية: «عشرون من الفتيات الأبيكار بقدود لطيفة تشرح الصدر، ونهود عامرة، وشعور مجدولة، وقد خلعن ثيابهن واستبدلنها بقمصان من الشباك ذات الثقوب الصغيرة، ويجدفن مجاديف من خشب الأبنوس المذهب».

وتظهر لنا الأشكال المنقوشة على الحجر أن كسوة الفرعون ونسائه في البيت لم تتجاوز خفين للقدمين وزينة للرأس، إذ أثر الفرعون أن يكون والنساء اللاتي يتحدث معهن ويمرح عراة.

وقد ضم بيت النساء، إضافة إلى الحظايا، ما أنجبته من أولاد للفرعون، يضطلع بترتيبتهم مربون خاصون يعملون على تهيئتهم ليشغلوا المناصب العليا في كل من البيت الأعظم والمعابد، فقد ولد للفرعون رمسيس الثاني، في بيت النساء، أكثر من مئتي طفل، نصفهم في الأقل، من البنات يُهيأن ليصبحن زوجات لنوي المقامات الرفيعة. وكان لابد من موظفين كبار ليشغلوا المناصب الرئيسة في البلاط والسلطة لخدمة

الفرعون نفسه. وقد كان هؤلاء الموظفون على اتصال مباشر بالفرعون الذي كان يربطهم به بروابط عائلية، وذلك من طريق تزويجهم ببناته من حظاياها، حرصاً منه على ضمان ولائهم له وتفانيهم في خدمته.

وقد رأى القادة والحكام ومن كانوا يشغلون المناصب الإدارية العليا، في الوقوف على خدمة الفرعون وتزيينه شرفاً رفيعاً، فكانوا يتعلمون فن قص الشعر وحلق اللحية ليستطيعوا، من ثم، أن يضيفوا إلى ألقابهم المهيبه لقباً آخر جديداً مثل: «المكلف بالجمال الملكي». ويتدربون على قص الأظافر وتدريمها ويتنافسون على شرف الاعتناء بيدي الفرعون وقدميه. ويتكرون خلاط ذكية الرائحة من خلاصة العطور. لتنتشر على بشرة الفرعون وأفناسه أريجاً كأريج «أزهار الحديدية». ويتلقون فن تزجيج الحواجب، على أيدي مصورين مهرة، ليخرج الحجاب من تحت أناملهم تام القوس. كما كانوا يتعلمون تلوين خدي الفرعون باللون الأحمر الخفيف وشفتيه باللون الأحمر الداكن.

وكان الفرعون إذا ما عدل عن خدماتهم ومبادراتهم، مؤثراً أن يعهد بزينته إلى مختصي العناية بالجمال، تفاخرت حاشيته بالباسه ثيابه، أو بوضع التاج على رأسه المهيب، ولقبوا أنفسهم باعتزاز «المكلفين بالإشراف على زينة الفرعون». فارتبطت كل قطعة من ثيابه بوظيفة يتباهون بها فينقشونها على أضرحتهم. وكنا نجد «المكلفين بصندوق مستحضرات التجميل» و«المكلفين بأقلام الزينة» و«حامل خفي الفرعون» «ذاك الذي يصير جديراً بالسهر على تنفيذ القانون». غير أن حيوات هؤلاء وبخاصة موتهم لا يمكن، في كل الأحوال، أن ترقى، ببهائهما ومقامهما، إلى مستوى حياة الفرعون وموته، على الرغم من ألقابهم الرنانة وانتسابهم إلى الطبقة الراقية التي تزداد قوة وثراء مع تعاظم سلطان الفرعون، وعلى الرغم من حياة الترف والبذخ التي يجيهاها الرجال والنساء من أقرباء الفرعون ونسبائه. ثم ان للفرعون عليهم جميعاً سلطاناً ونفوذاً طاغيين، إذ كان بمقدوره أن يقيم الدليل على تحدره المباشر من الإله. فكان لا بد للفرعون من

برهان كهذا، وذلك ما تؤكد أسطورة أحد الرسوم المحفورة على الحجر، وتمثل رجلاً وامرأة يتجامعان، ذلك ان حتشبسوت، بنت تحوتمس الأول، زوجة أخيها لأبيها تحوتمس الثاني، التي حكمت مصر بعد وفاة زوجها، قد أرادت من خلال هذا النقش أن تقيم الدليل القاطع على أصلها الإلهي لتبديد كل الشكوك الممكنة حول ذلك، فرسمت أمها أمحسي تلهو وترتع مع الإله آمون - رع في سرير الأبهة والعظمة وقد احتضنته مطبقة عليه بساقيها بعد أن اتخذ الإله شكل زوج أمحسي، الأب الحقيقي لحتشبسوت. وتكشف لنا الكتابة المنقوشة أن القصة برمتها ليست سوى اختراعاً. «.... وهذا ما قاله الإله آمون - رع، ملك الآلهة، حينما اتخذ شكل هذا الرجل، ملك مصر العليا والسفلى، تحتمس الأول، إذ وجد الملكة مستقلة على السرير في قصرها البهي، فأيقظها فيض عطر الإله ونوره وافتتنت به، وما ان اقترب منها حتى امتلكها، مسنداً صدره إلى صدرها، فتجلى لها إلهاً، وحين قدومه اجتاح الملكة، لمأى جمال الإله، إحساس فائض،.. كانت أنفاسه وأطيابه تنشر أريجها.. فانساب حب الإله في كيائها، كما انساب عطره في كل جوارحها..» وهذا ما قالته زوجة الفرعون، الملكة أمحسي، إلى آمون - رع: «لكم هي عظمة أنفاسك، وها أنا بكامل أعضائي أتشرب نذاك.» فقال لها الإله بعد أروى غ ليله منها: «أنت يازوج آمون، الأولى بين النيبيلات، نبيلاً، حقاً، سيكون اسم ابنتك التي ستخرج من بطنك، لأن ما جرى عليه لسانك كان نبيلاً. وسوف تسوس هذا البلد من أدناه إلى أقصاه بسلطانها الزاخر بطيب أعمالها، لأن روحي حلت فيها وإرادتي ملك لها وتاجي يتوج رأسها، كيما تحكم المملكتين وتقود قرينة الأحياء أجمعين.»

ولا بد أن تستسلم قرينة الأحياء منقاداً لها وذلك لأن هذه الصور الجميلة المتألفة مع التقاليد العريقة تهدد المخيلة.

وقد هيمن على المصريين، خلال آلاف من السنين، الإيمان بألهة تجسد كل الظواهر الطبيعية تحت أشكال إنسانية أو حيوانية، كما هيمنت عليهم أيضاً فكرة

السفر الطويل الذي يتحتم على الـ«كا» القيام به بعد الموت.



تمثال معبد رمسيس الثاني، منحوت في الصخر،

أبو سنبل (سيميل) الأسرة ١٩



جذع تحوتس الثالث يعتمر تاج مصر العليا الأبيض، الأسرة الثامنة عشرة،
المتحف المصري، القاهرة

وأثناء هذا السفر سينهدد الـ«كا» تصاعد للشر غير مرئي وشياطين من كل نوع، تلك المخلوقات الخطيرة التي توازر الإلاهة معاتي (معات) «حارسة النظام والأخلاق» التي كانت تنتظر، بدورها، الـ«كا» في قاعة رحبة مع أربعة وعشرين^(*) من القضاة. عندئذ تقدم الـ«كا» بياناً عن حياتها الأرضية وتسعى لتظهر أمثال أعمال حياتها (الأرضية) للقوانين الأخلاقية الأساسية الأربعة والعشرين.

فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها في أحزمة من القماش المشمع (قماش ييسوس)، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذي يفضله المصريون على الغراء، وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان يضعونها فيه فيحكمون إغلاقه ويودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى الجدار...» (قصة الحضارة - المترجم -).

ثم ان بصيرة معاتي النافذة كانت تكشف جميع الأسرار، فقد اكتسبت، بفضل خبرتها المتراكمة في ممارسة وظيفتها العليا، مثل هذه المعرفة عن الحياة الدنيا ومثل هذا الذكاء والفتنة في اكتشاف البواعث التي تتصرف بالإنسان وتحكم، وغدت على علم بجميع أسرار الأفعال الإنسانية وخفاياها. أضف إلى ذلك أنها كانت تتمتع بامتياز ومزية حياتها الزوجية مع ثوث، إله العلم والكتابة، إذ درج الكتابة على البوح، لحاميمهم، بأسرار الموتى بتسجيلها في جميع الصور والكتابات التي ينقشونها على الحجر أو تلك التي يصورونها على ورق البردي. كانت معاتي زوجة أخ أنوبيس ونجية الابن الذي أنجبته نفتيس من أوزيريس، ذلك الابن الذي ساعد إيزيس في ترميم جثمان أبيه فغدا معلماً للمحنطين، فكان يعرف تمام المعرفة بنية المخ والقلب والكبد والكليتين والأحشاء التي تستأصل من الجثة بمهارة فائقة قبل تحويلها إلى مومياء ووضعها في اللحد. إننا مدينون لهيرودوت بتقريره المفصل حول المحنطين وفنهم: «أول ما يفعله المحنطون أن

(*) في كتاب السيروس بدج: الديانة الفرعونية، ترجمة وتقديم: يوسف سامي اليوسف بلغ عدد القضاة اثنين وأربعين قاضياً. - المترجم -

المصريون

يستخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد، فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقي منه بإدخال بعض العقاقير فيه، ثم يفتحون فتحة في جنب الميت بحجر حاد ويخرجون جميع أحشائه، فإذا ما غسلوا البطن ونظفوه ببييد الخلل رشوا عليه العطور المسحوقة، ثم ملؤوا البطن بالمر النقي وبعطر العشب وغيره من العطور، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل، فإذا ما فعلوا هذا كله غمروه في منقوع مركبات النطرون وتركوه فيه سبعين يوماً، وتركه أكثر من هذا الوقت مخالف للقانون.



تابوت على شكل مومياء
قبر توت عنخ آموت،
نهاية الأسرة الثامنة عشرة

كانت معاتي على علم تام بخفايا الميت وأمانيه الحميمة، إذ كان بمقدورها أن تقرأ ما دونته أسرته على ضريحه، فيجيء حكمها معصوماً من الخطأ، وبما أن

هذه الإلهة العظيمة كانت امرأة، فقد أعلنت من شأن ما يكنه الرجال من احترام وتكريم لنسائهم، فأشادوا بنسائهم بما سجلوه على أضرحتهم: «إنهن مثال يحتذى في التقوى والمحبة والرأفة واللطافة تجاه الغير» و«مثال للاحتشام والرزانة في أفعالهن وحركاتهن ومظاهرهن». وقالوا عنهن: «نصيرات الضعفاء». ومجدوا ما اتسمن به من «احترام للفقراء» و«إخلاص لسادتهن» فمن كرم زوجته وأشاد بعفتها كان جديراً بتقدير معاتي له، اللهم إذا بلغ تهتك الزوجة - موضوع المديح - ، من الوضوح والجلء، حداً يستحيل على معاتي والزوجة تجاهله.. فيغدوا المديح الكاذب، في هذه الحالة، خداعاً بيناً، ولا يعد، البتة، أكذوبة خيرة يقبل بها الكهنة وتغض معاتي الطرف عنها.

كانت فضيلة كاهنات المعبد، الرفيعات المقام، فوق كل الشبهات، إذ أُطلق عليهن: «خطيبات الإله» أو «العابدات الإلهيات»، إنهن بنات الفرعون أو حفيداته المولودات في البيت الأعظم، فكن أثناء الاحتفالات الرسمية، يوجهن الرقصات والموسيقىات اللائمة ينهضن بأعباء الدين. ونحن لا نملك، باستثناء منحوتة صغيرة تمثل عناقاً عشقياً للإله آمون - رع وقد احتضن بقوة الأميرة امينارديس، إلا القليل من التلميحات حول العلاقات الرقيقة الطبيعية القائمة بين هؤلاء الخطيبات الورعات والآلهة وكهنتهم، ففي معبد آمون - رع كانت تعيش «المنزويات الحبيسات» من الموسيقىات والراقصات اللواتي يحتجزهن الكهنة في بيت النساء تحت حراسة مشددة على غرار بيت حريم الفرعون. وقد أثار نفاق كهنة آمون - رع الفاسق سحق الفرعون أمينوفيس الرابع، فجعل من الشمس الإله الأوحد، ذلك لأنه ليس للعالم إلا إله واحد هو آتون، وحظر عبادة إله آخر غيره في مملكته، واستبدل باسمه اسم إختاتون (آتون راض).

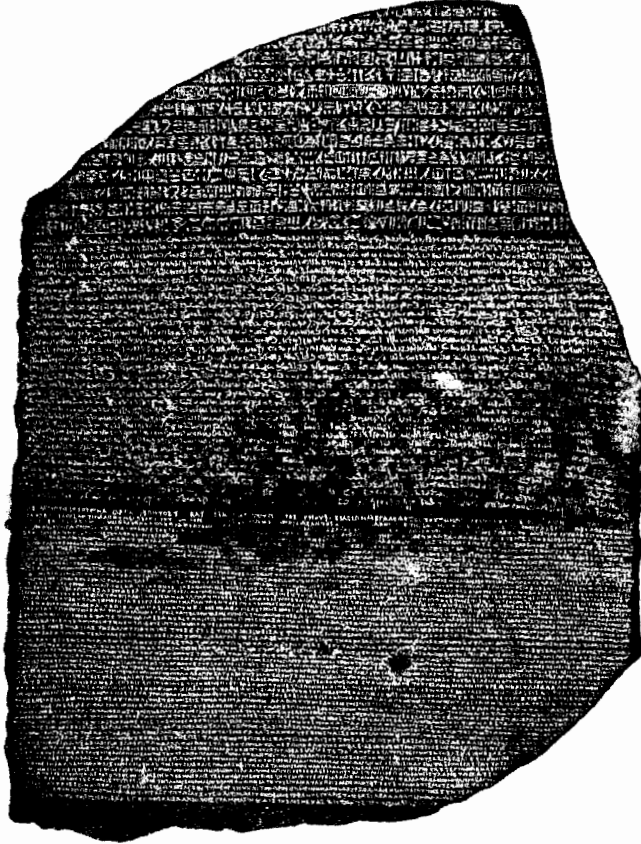
وآتون، لقب للشمس بوصفها القوة الذكورية للحرارة ومصدراً للحياة. فكان لا بد من أن يحمل هذا الاسم، من الآن فصاعداً، محل «الله» إنه اسم للخالق ودليل على كل حياة. بيد أن تلك الفترة الوجيزة التي جلس فيها الملك إختاتون

على عرش مصر لم تساعد على انتصار مبادئه الأخلاقية الصارمة، كما أن اقترانه المثالي بنفرتيتي الجميلة لم يترك أي أثر في التقاليد القديمة، ذلك أن الإيمان الراسخ، منذ القديم، في الاستمرار في العالم الآخر وفي اتحاد الـ«كا» مع أوزيريس في الحياة المقبلة الشبيهة بانبعث أوزيريس، قد انتشر من طريق الكتابة الهيروغليفية التي ما برحوا ينقشونها على الحجر، في الوقت الذي كان يعمم فيه الكهنة قواعد سلوك الـ«كا» بنشرها في أوراق البردي. فمن وجد في حوزته، حين وفاته، واحدة من أوراق البردي هذه المسماة بـ«كتاب الموتى» وقد دفنت مع موميائه، ضمن لقبريته دليلاً ثميناً يقوده إلى أوزيريس ويبلغ به الانبعث من جديد، وما عليه إلا أن يتبع ما تضمنته من تعليمات لكي يتغلب على العقبات الخادعة التي ينصبها، في طريقه الشياطين.

ويشير كتاب الموتى، كلمة فكلمة، إلى الاستجواب الذي ستخضع له «الكا» في محكمة معاتي العليا مع قضاتها الأربعة والعشرين قبل اندماج الـ«كا» وانصهارها في أوزيريس، الحي أبداً. ولا يعني ذلك أن على الـ«كا» أن تجيب، من خلال مواجهة معارضة، على أسئلة القضاة، إذ تقتصر تصريحات المتوفى واعترافاته على تأكيد صريح بأنه لم يرتكب قطعاً عدداً من الأعمال التي تستوجب اللوم، ذلك أن اعتراف الـ«كا» كان اعترافاً سلبياً.

وهو عبارة عن مرافعة يشهد بواسطتها المتوفى أنه لم يخالف التعاليم الأخلاقية وبنود الإيمان التي يقوم عليها النظام الاجتماعي المصري، وليس ثمة أوامر في كتاب الموتى، فهو لم يقل: «عليك أن تحيا هكذا...»، بل هو كتاب يتضمن محرمات لن يستطيع كل من يخالفها، أثناء حياته الأرضية، أن يفوز ببراءته من القضاة الأربعة والعشرين، ويفقد، من ثم، كل حق من حقوقه في الحياة الأبدية، كان على المتوفى، والحال هذه، أن يقسم بأنه لم يرتكب إثماً قط: «إنني لم أنتهك، البتة، حرمة الزواج في مكان مقدس...» «إنني لم أرتكب اللواط قط...» «إنني لم أصم أذني عن نداء الحق والعدالة...» «إنني

لم أكن قط عنيفاً مع إنسان واحد».. «إنني لم أضاجع، يوماً، زوجة أحد».. «إنني لم ألعن الآلهة مطلقاً».. «بل امتنعت، طوال حياتي، عن الاتيان بكل عمل يثير اشمزاز الآلهة». وتؤلف مختلف بنود هذه المرافعة تعداداً مفصلاً للمحرمات التي فرضها الكهنة، باسم الآلهة، على الشعب المصري والتي تتوعد مرتكبيها بجرمانهم كلياً من الحياة الأبدية.



حجر روزت نحو ١٩٦ ق.م، اكتشف عام ١٧٩٩، نقوشه المتوازية بكتابتها الثلاث المختلفة، كانت مفتاحاً لمعرفة الهيروغليفية المصرية، المتحف البريطاني، لندن.

جعل الكهنة من كتب الموتى تجارة رابحة، إذ كانوا يستحثون زبائنهم على الوقاية، في أضرحتهم، بالتزود بتمائم سحرية تكفيرية من الأسماء والأفاعي وبخاصة الجعلان، نظراً إلى كفاءتها المزعومة في إحصاب نفسها بنفسها، رمزاً لانبعاث الـ«كا» وقيامها.

وقد أدى بيع كتب الموتى وطلاسم المعجزات إلى ثراء المعابد التي كانت تعدها وتصنفها، كما شجع الملوك الفراعنة على المتاجرة بالحياة الباقية هذه مادام سلطانهم يقوم، في أساسه، على مبادئ أخلاقية تنظم العلاقات الاجتماعية في كافة أرجاء مملكتهم. وقد فقد الموت، بفضل هذه الديانة، تلك الحياة التي يحيونها على الأرض، فاجتهد الرجال والنساء معاً، قدر استطاعتهم، في أن تكون حياتهم الأرضية حياة متعة وبهجة لتكون حياتهم المقبلة على غرارها. وان بإمكان كل من زود ضريحه بالتجهيزات اللازمة وكل من كان على وفاق مع الكهنة، ان يستسلم، دونما خوف، إلى التمتع بكل مباح وان يجعل من أيامه عيداً مقيماً.

«لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف،

وهي ألفاظ ذائعة الصيت نطقاً بها..

انظر إلى مكانيهما

إن جدرانهما قد جردت

ومواضعهما قد اندثرت

كان لم تفن بالأمس.

ان أحداً لا يأتي من هناك

ليحدثنا عما حل بهما..

حتى يرضي قلوبنا،

إلى أن يحين وقت ارتحالنا

إلى المكان الذي ذهباً إليه.
شجع قلبك على نسيانه
واجعل من أسباب سرورك أن تسير وراء رغباتك
مادمت حياً ترزق.
وضع المر على رأسك،
والبس على جسمك نسيج التيل اللطيف،
وانعم بوسائل الترف العجيبة
أشياء الآلهة.. الحقة

.....

وزد في مباهجك أكثر من ذي قبل،
ولا تترك قلبك يذبل،
وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك
وهيء أمورك على ظهر الأرض
حسب ما يأمر به قلبك أنت،
حتى يأتيك يوم النحيب.
حين لا يسمع ذوو القلوب الساكنة (الموتى) نحيبهم،
وحين لا يصغي من في القبور إلى حزنهم،
واحتفل بيوم السرور
ولا تمل منه
انظر، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه
أجل، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك»^(*)

(*) «من قصة الحضارة - المترجم -».



صورة جدارية من مازة طاقم المتحف البريطاني، لندن

وهذا ما سعى إليه الرجال والنساء إذا ما توفرت لهم الظروف المناسبة، فكان أحباب المستقبل هؤلاء يتوجون رؤوسهم بالورود ويتطيّبون بأثمن العطور ويلبسون الثياب الفاخرة الغنية الألوان ويمرحون ويسرحون ويحتسون الخمر ويتبادلون الهدايا الثمينة. وكانوا كلما ازدادوا رفاهاً ازدادوا تخبثاً فزينوا كعابهم ومعاصمهم بالخلي والجواهر وازدانوا، أيام الأعياد بشعور مستعارة بهية المنظر في حين كانت للنساء شعور قصيرة.

وقد ألحق الثراء بصحة الأغنياء الأذى، غير أن أدوية لعلاج السمنة قد توفرت بين أيديهم... ولم يكتف الكهنة، قط، بتلاوة الأدعية والتعازيم السحرية، كما أنهم لم يكتفوا بطرد الأمراض بالأوامر والإيعازات فحسب: «اخرج أيها البرد يا ابن البرد، يا من تهشم العظم، وتلف الجمجمة، وتمرض مخارج الرأس السبعة، اخرج على الأرض. وفر. وفر. وفر» بل اكتسبوا، دوغما ريب، بفضل فن التحنيط، معرفة وافية بالتشريح وعلم وظائف الأعضاء واستفادوا منها في علاجهم، فغدوا جراحين مهرة وشرعوا بإجراء عمليات جراحية في الجمجمة، وعرفوا الجسم البشري واكتشفوا أعراض العديد من الأمراض ووضعوا أسس تشخيصها ودرسوا العلاجات الناجعة، وأوجدوا الأدوية وصنعوها بعد اختبار آثارها وفعاليتها، وعرفوا معظم الأدوية وعلاقاتها المرضية وسموها بأسمائها للتمييز فيما بينها، حتى الأمراض التي لم يستطيعوا شفاء مرضاهم منها وعرفوا، مسبقاً، أنها قاتلة لا محالة. وكانوا ينصحون المرضى باتخاذ التدابير الوقائية فشاع استعمالها، كالحقن الشرجية مثلاً، وقد نقل إلينا هيرودوت: إن المصريين يتناولون في كل شهر مليوناً لمدة ثلاثة أيام متواصلة ويحرصون على وقاية صحتهم بالمقيّات وغسل المعدة، «إذ يعتقدون أن جميع الأمراض التي يتعرض لها البشر تنشأ مما يتناولوه من طعام». فكان رجال مصر ونساؤها يأكلون كثيراً وبعثة، لأن كلاً منهم كان يرغب في تشريب قرينته مبادئ حب الحياة بعد الموت.

تمثال امرأة،
الأسرة الخامسة



القزم سينب
وعائلته، الجيزة،
الأسرة السادسة،
متحف القاهرة



الفصل الرابع
أهل الهند

«الجنس عند أهل الهند»

«لو سئلت أين عرف الفكر الإنساني أجمل تفتح لأئمن مواهبه، وأين أوغل على أبعد مدى في تأمل كبريات المسائل الميتافيزيقية فوصل إلى حلول لبعض هذه المسائل الجديرة بأن تخطف أبصار حتى أولئك الذين درسوا أفلاطون وكنت، لقلت: الهند. ولو سألت نفسي أي أدب من الآداب يستطيع أن يمدنا نحن الأوروبيين - الذين لم نكن نتغذى إلا من الفكر اليوناني والروماني - بأحسن ما من شأنه أن ينقي حياتنا الداخلية وأن يوسع أفقها وأن يهب لها طابعاً أكثر شمولاً وإنسانية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وأن يهيئنا لا حياة هذا العالم فحسب، بل كذلك لحياة سامية خالدة فإن ذهني ينصرف مرة أخرى إلى الهند..»

«ماكس مولر»

تسلسل زمني

ثقافة وادي السند (الدرافيديين، موهنجو - دارو)	٢٥٠٠ - ١٥٠٠ ق.م
الغزو الآري (الهندو - آريون)	نحو ١٥٠٠ ق.م
قانون مانو (وقد ثبت كتابة في القرن الثالث قبل الميلاد).	نحو ١٥٠٠ ق.م
تلوين الفيذا	القرن الثامن ق.م
بداية الجانية أو الجائية ^(٥) (مذهب تطهير النفس باللاعنف - المترجم - مذهب اهيمنسا)	نحو ٦٠٠ ق.م
بوذا	٥٦٣ - ٤٨٠ ق.م
الـ «كاما - سوترا» لفاتسيايانا - VATSYAYANA.	القرن الثالث بعد الميلاد

^(٥) البانية (في قاموس المنهل)، الجينية، الجيناوية، الجينية، الجانية الخ.. ذلك لأن المترجمين لم يأخذوا اللفظ الهندي من مصدره بل أخذوه عن اللغات: الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية... (المترجم).

«بين أحضان الحبيبة»

تعني كلمة موهنجو - دارو في اللغة السنديّة، إحدى لغات الهند المتعددة، «موطن الأموات» ويدل هذا الاسم على مجموعة من الخرائب والأطلال الشاسعة المنتشرة على امتداد مجرى نهر السند الأدنى. تُرى ما الاسم الذي قد أُطلق، فعلاً، على المدينة التي كُشف النقاب عنها علماء الآثار المعاصرون، تلك المدينة التي كانت قبل ٤٥٠٠ سنة تزخر بالحياة وتعيش في نشاط كبير؟ إننا نجهد ذلك، جل ما نعرفه أن هذه المدينة قد احتفظت باسم المكان: «موهنجو - دارو».

نُظمت هذه المدينة وفق مخطط دقيق. فالشوارع تتقاطع بزوايا قائمة، وفي الساحات العامة وفي داخل البيوت تتوفر عيون المياه التي تغذيها أنابيب فخارية تصل بمياهها الجارية إلى غرف الحمامات وغرف النظافة في أماكن السكن والإقامة، وقد تم تصريف المياه الفائضة بإتقان بالغ. واحتوت «موهنجو - دارو»، منذ الألف الثالث ق.م، إضافة إلى مخازن الحبوب، على حمامات عامة فسيحة وأحواض صغيرة يلعب فيها الأطفال ويصخبون. وتسمح لنا أدوات الاستعمال اليومي، التي وجدت بين أنقاض المنازل ذات الطابقيين، بإقامة الدليل على أن مستوى المعيشة في موهنجو - دارو كان رفيعاً. غير أن طبيعة مخلفات تلك الحضارة لا تزودنا بإيضاحات كافية حول عقائد السكان وأخلاقهم. حتى

الجدع المتبقي من تمثال فتى عار، والتمائيل البرونزية الصغيرة لراقصات عاريات، لا تزودنا أيضاً بإيضاح ما حول الدور الذي كانت تلعبه. ترى هل تعود هذه التماثيل إلى آلهة أو إلى كائنات بشرية تزهو بجمال أحسادها؟ وهذا التمثال من حجر الطلق لرجل يرتدي ثيابه الموشاة الغنية التطريز، ذي الوجه المصعر الخد، الجامد التعبير والمؤطر بلحية موزعة بعناية، والشفقتين الغليظتين المكتنزتين، وفتحة عينيه الضيقتين، ترى أكاهاً كان هذا الرجل أم ملكاً - كاهناً أم مواطناً ذا شأن من مواطني المدينة؟

إننا على جهل مطبق بما كانت عليه المراتب الاجتماعية في موهنجو - دارو. ذلك لأننا لم نستطع، حتى الآن، ترجمة الرموز الكتابية التي تغطي القطع الفخارية أو معرفة النقوش على الأختام والتمائم التي عثرنا عليها بين الأنقاض. بعض من هذه الصور الخطية يمثل رسوماً زخرفية وتزيينات وصلباناً، وصلباناً معقوفة (سواستيكا)، ومشابك، ودواليب، وبعضها الآخر يمثل مسوخاً حراجية أو مائية في أوضاع مهددة، أو حيوانات محلية تتقاتل فيما بينها كالأبقار (الدربانية ذات السنم) والخراثيت والفيلة والتماسيح والتمور. أما «الأم الكبرى» فكانت تظهر، في هذه الرموز الجرافية بأوضاع متنوعة أو على شكل تماثيل صغيرة: ففي هذه الأعمال، دون أدنى شك، نجد الرمز القديم للأوثنة المؤلهة التي سيطرت لفترة طويلة على الجنس القوي، وهي تتلقى منه، بواسطة الكاهنات تضحيته العذبة بنطفه الذكرية.

تبدو «موهنجو - دارو» أنها كانت مدينة آمنة مسالمة، إذ لعبت فيها النساء دوراً بالغ الأهمية. فنحن لم نكتشف فيها إلا ما ندر من الأسلحة ومن رموز الذكورة: إن بعض الأشجار والعمد المنتصبة، التي تبرز بين رموز كتابية وبعض الحجارة القضيبية، لا تكفي للدلالة على الشعب الذي كان يعيش على ضفاف السند قد مارس بكثرة عبادة القضيب كما مارسها بكثرة في وقت لاحق.



اللينغام (القضيب) رمز مقدس كان يُمثل في النحت أو التصوير الجداري في أصقاع الهند
كلها، متحف غيمت، باريس

وقد كشف النقاب، في خراب المدينة، عن العديد من لعب الأطفال، وهذا ما يسمح لنا بأن نستنتج ما كان يوليه الآباء والأمهات للأبناء من عطف ورعاية. وكانت نسخ العربات وحيوانات الجر المبسطة من أكثر هذه اللعب شيوعاً وتكراراً، إضافة إلى أقفاص العصافير، إذ وقع بين أيدينا منحوتة صغيرة لتور له رأس متحرك أبدع الصانع صنعها، ومنحوتة أخرى لقرود لقائمتيه الخلفيتين مفاصل متحركة، مما يدلنا بوضوح، على أن الأهل كانوا يؤالفون ما بين أبنائهم والواقع بوساطة هذه الدمى - المنحوتات.

ومن المستحيل، في كل حال، إزالة الغموض الذي يكتنف حياة أقوام السند هذه، الخيرة في صهر الذهب، والفضة والنحاس والبرونز وصنعها منذ عصر ما قبل التاريخ، بمقارنتها بما أسفرت عنه نتائج التنقيبات الأخرى التي تمت في الأراضي الهندية، بيد أننا نستطيع أن نعد دمار المدن والمستعمرات المنتمية إلى حضارة السند هذه، والذي حدث في القرن الخامس عشر ق.م. قد وجه ضربة قاضية إلى عبادة «الأم الكبرى» في جميع أصقاع الهند باستثناء بعض جماعات الأرياف التي حافظت على ما بقي منها.

ترى هل كان السكان في منطقة «موهنجو - دارو» من الدرافيديين أي: انهم كانوا في عداد غزاة الهند الأوائل؟ وما زال من المعتذر علينا إقامة الدليل على ذلك. جل ما نعرفه عن هؤلاء الدرافيديين، ذوي البشرة السمراء الداكنة والأنوف الفطس، أن لباعتهم تجارة نشطة مع سكان الرافدين ومصر وأنهم قد امتازوا بنزاهتهم واستقامتهم، على الرغم من استغنائهم الدائم عن كشف الحسابات والعقود معتمدين على ذاكرتهم محط اعتزازهم. وهم يؤكدون ان غياب كل شكل من أشكال الخلاف فيما بينهم دليل على استقامتهم وبرهان عليها.

ولكن سرعان ما انتهى أمر استقلال الدرافيديين وحضارتهم عندما انقضت عليهم القبائل الزاحفة من الشمال فاكسحت أراضيهم واستولت عليها. كان

أهل المنذ

اسم هؤلاء المتحجرين آريا، «الآريين». سلاحهم القسي والسهام والفؤوس والرماح، يتنادون إلى ساحات القتال ويتقاطرون إليها على عرباتهم الحربية. تعني كلمة آريا في لغتهم: النبلاء. لكن هؤلاء المحاربين والرعاة الرحالة قد أثروا بقطعهم للطرق والسلب والنهب في خلال تجوالهم وشرودهم، فما أن استقر بهم المقام وتحضروا وأثروا حتى غدوا أشرفاً ونبلاء، والكلمة التي كانت، بالنسبة لهم، تعني، في البدء، حرباً وكان لها معنى محددًا: «الرغبة في مزيد من الأبقار» صارت، في وقت لاحق، يعني: «الرغبة في مزيد من الأراضي» حصراً.

أخضع الآريون وادي السند وتقاسموا الأرض فيما بينهم، مع مراعاة لاستقلال كل قبيلة من قبائلهم واحترامه. فاستبعدوا السكان المقهورين واستبدوا بهم، كانوا يتميزون عنهم من الناحية الجسدية، إذ كانوا أطول قامة وأصلب عوداً وأمهر في استعمال السلاح. وعزموا على البقاء معاً بمعزل عن الآخرين، وعلى التزواج فيما بينهم لتحافظ ذريتهم على الفوارق الجسدية الواضحة كيلا تضع ذاتيتهم العنصرية، إذ كانوا يفخرون بكون بشرتهم أشد نصوعاً من بشرة السكان الأصليين الخاضعين لهم.

وقد كان للتمييز القائم على لون البشرة الـ«فارنا» التأثير الحاسم في تطور الأخلاق. ولا ريب في أن الآريين قد تبنوا عدداً، لا بأس به، من معتقدات المغلوبين وعلومهم، بيد أنهم لم يتزاوجوا معهم، بل ظلوا الأسياد والمحاربين وأصحاب الملك، ورجعوا عن التجارة فتركوها للتجار من السكان الأصليين، وتخلوا عن الصناعات الحرفية لأصحابها، ورأوا ان التمتع الكسول بالفوائد والأرباح دليل نفوذ وامتياز سلطان. ورغبة منهم في الاحتفاظ، أبداً، بسلطانهم هذا، وزعوا السكان إلى طبقات متميزة: في المقام الأول يأتي «الكشاترية» أو المقاتلون، يليهم الفلاحون والصناع، ثم أفراد الطبقات المستعبدة وأخيراً «الباريا» أو «المنبوذون» محط احتقار الجميع.

وكما كانت الحال بالنسبة للأعمال التجارية، فإن الدرافيدين من السكان الأصليين لم يدونوا معارفهم كتابة ويثبوتوها. لكنهم امثلوا لتعاليمهم الناظمة لعقيدتهم وأخلاقهم بدقة متناهية حتى لكأنهم قد سجلوها بأبجدية كانت في متناول أيديهم، وما أخذه الآريون عن هذه التعاليم كان ينتقل شفاهاً من جيل إلى جيل، تلك هي «الفيدا» أي المعرفة. كما أن الـ«فيدات»، كتب المعرفة، لم تصبح كتباً إلا بعد تدوينها باللغة السنسكريتية، لغة المتصرين. وقد ساد الاعتقاد، رداً من الزمن طويلاً، إن الفيديات كانت مؤلفاً أصيلاً صادراً عن الشعوب التي يطلق عليها الهنـدو - آرية، غير أن العلماء قد أثبتوا أن طابع «كتب المعرفة» وخاصيتها على صلة وثيقة مع شروط الحياة الهندية وظروفها وان مضمونها لا يتفق مع معطيات فروع أخرى من أسرة الشعوب الهندو - أوروية التي شاءت ظروف هجراتها القتالية أن تحملها إلى مناطق أخرى.

كان يحرك السواد الأعظم من الشعوب الآرية وبيعت الحياة فيها، تفاؤلية نشطة وفعالة ورغبة في العيش من أجل الذات مع استخفاف بالآخرين، هذه المشاعر نلقاها في الفيذا وبخاصة في قسمها القديم الذي يمجّد اندارا، ملك الآهة.. البطل المقدم «محطم الأعداء» و«قاتل التنانين»، غير ان الفيديات تعبر، بخاصة عن تشاؤمية عميقة الغور، فهي ترفض مسرات الحياة ولذاتها وتسعى إلى كشف الغموض الشامل من طريق تبادل الأفكار والتأمل الذاتي.

إن الفيديات، مثلما انتقلت إلينا بشكلها المدون بعد زوال سلطة الهنـدو - آريين، لم تذكر شيئاً عن الأمومية ولا عن حقوق النساء. ولم يبق فيها إلا بعض البينات المتناقضة كلياً مع أحلاق الغزاة الرحل. وهكذا فإن الـ«رج - فيدا» RIG-VIDA «معرفة الترانيم المقدسة» قد سنت، من بين ما سنته، قوانين مثل: «لتكن الزوجة سيدة على حماتها بلا منازع، والسيدة المطلقة على حميها، والسيدة على أخوة زوجها». «إن الرج - فيدا والـ أتهارفا - فيدا»، علم الصيغ السحرية، لتدلنا على أن النساء، قبل غزو الآريين للهند، كن يستطعن التجوال

أهل الهند

عملء حرّيتهن سواء كسن متزوجات أو عواذب، وكن يستطعن حضور الاجتماعات والمشاركة في الاحتفالات مع الرجال جنباً إلى جنب، وكن يمتلكن الأرض والأموال فيتوافد عليهن المعجبون على أمل الفوز بهن، وكان بمقدورهن اختيار عشاقهن وأزواجهن حسب مشيئتهن. ففي العهد السابق لجيء الآريين، كانت الخطوة الأولى، بغية إبرام الزواج، تأتي بمبادرة من المرأة أو أسرتها ولا تأتي من طريق الرجل. وكانت التعاليم تقضي بأن يكون الرجل جديراً بأمه وأهلاً لما تغذى به منها من رضاع. فقد منعت الفيدات عن الزوجات المشاركة في القرابين العامة الشائعة أو القيام بها، بوصفها عرفاً تقليدياً رسمياً. ثم إن الزوجة كانت تحضر الاحتفالات الدينية برفقة زوجها، ذلك أن حقوق النساء وامتيازاتهن قد انتهت أمرها عندما فرض الراجا (RAJAHS - رؤساء القبائل)، رؤساء مختلف القبائل أصحاب السيادة المطلقة، قوانين الزواج الشائعة عند القبائل الرحل وإلزام الرجل، بخاصة، بأن يعتصب زوجة المستقبل بالقوة أو أن يحصل عليها بمبلغ من المال. وترى النساء الآريات في ذلك شرفاً عظيماً ويفخرن بكونهن، والحال هذه، هدفاً للاختطاف أو سلعة للشراء. وإنه لأمر جدير بالتقدير أن يشتري الرجل أو يختطف العديد من النساء: إنه لما يسجل للرجل بالفخر أن يعول زوجات كثيرات، وأن ينقل إلى الخلف قوته. فقد تمتع الراجا وأكثر أقربائهم امتيازاً بحق امتلاك زوجاتهم وأبنائهم، ولهم أن يقرروا، إذا ما طاب لهم، أن يبيعوهم أو يرموا بهم في عرض الطريق. قبل مجيء الآريين كان بمقدور المرأة الأيم أن تتزوج وفق مشيئتها إن هي رغبت في الزواج مجدداً.

أما الآن فليس الرجل هو الذي يصاهر عائلة زوجته بالتحاقه بعائلتها ودخوله إلى بيت أهلها، بل المرأة هي التي تدخل بيت الزوج لتخضع إلى حق «أبوي صارم جلبه الآريون وفرضوه على السكان المحليين». فثمة طبقة جديدة تسعى إلى فرض أخلاقها، تلك هي طبقة البراهمة أي «الكهنة الذين يعرفون» التي تشكلت عندما اتخذت الديانة أشكالها الدقيقة المحددة.

بين أخصان الحببية

وكان البراهمة حماة الدين والناطقون بلسانه والمؤمنون عليه، هم الشفعاء ما بين الآلهة والراجا الطبقة العليا، من جهة، والوسطاء ما بين طبقة الأمراء والمحاربين والطبقات الدنيا من جهة ثانية.

لم تسمح الوثائق المتوفرة بين أيدينا بإقامة الدليل على أن طبقة البراهمة صاحبة الامتياز قد تشكلت من ذرية المنشدين - الكهنة الذين كانوا ينشدون الأناشيد القديمة ويروون قصص الماضي المقدس لسادة البلد الجدد، إذ تناولت طبقة البراهمة هذه الوثائق بالتبديل والتحوير انصياعاً لأوامر سادتهم الذين كيفوا القوانين الأخلاقية والدينية بما يتناسب ومصالحهم وينسجم مع تقاليدهم. فزعم البراهمة أنهم قد استحقوا هذا الامتياز بالوراثة وتفاحروا إذ ولدوا من رأس بوروشا، الكائن البدائي المزود بألف رأس وألف قدم، وأن «كرامتهم الروحية» هذه التي خصوا بها بالولادة، «جزء من طبيعتهم الأكثر غوراً».

ترأس البراهمة، بصفتهم كهنة، العبادة التي ما برحت تسيطر عليها العقيدة البدائية التي تلزم الإنسان بتقديم الهبات إلى الآلهة بغية الفوز برضاها ورحمتها وحمايتها. ومادامت الصلوات لا تفي بالغرض فقد طالبت الآلهة بالهدايا وانهبات العينية الملموسة لقاء عطفها وحظوتها.

وكلما ازدادت معرفة هؤلاء الكهنة في تعزيز ودعم أماني الواهبين وشكاوهم بالرقى والتعازيم المكتنفة بالأسرار والحيل السحرية البارعة، تبيدت شكوك المؤمنين حول صحة مزاعم البراهمة بضرورة تناول القرابين. ثم إن كاهناً كهذا كان يهتف، أثناء تناوله القربان: «أذهب إلى السماء وابعث فيها الغيث».. والمزنة قد «تأتي أحياناً لكنها لا تلبث أن تنهمر في آخر المطاف، شريطة أن تتكرر الأضحيات لفترة من الوقت طويلة». وقد آمن الهنود، منذ أمد بعيد، أن أحد الأسلاف، الموغلين في القدم، من النبات أو الحيوان (إذ تصلح صورته رمزاً للقبيلة، بل «شعاراً» مشتركاً وعماماً، إن صح التعبير، يتحكم بمصائر الأفراد بواسطة قوى فوق طبيعية. كما آمنوا أيضاً بأن الآلهة كانت قوى من قوى

أهل الهند

الطبيعة، مثل أجنى AGNI - انصار، «روح العالم»، اواندارا، إله العواصف المخصبة الخير، الذي غدا، في وقت لاحق، ملك الآهة. والإنسان، أينما حل، كان مهتداً بالأرواح تظهر له على شكل من التحليات الغربية: كالأفاعي والمسوخ الكؤودة. ولا تدفع عنه الفناء المطلق إلا قدراته على الإنجاب حصراً. والحال هذه فإن في توالد الرجال والنساء وتزاوجهم شكل من أشكال الدفاع عن النفس ضد القوى اللادنيوية، أسوة بما قامت به الأرض الأم مع السماء إذ ومض البرق وانهمل المطر مدراراً. غير أن البراهمة، أولئك الذين يحملون حبلاً مقدساً، كدليل يبين على أصلهم الإلهي، هم الذين كانوا ينظمون الأخلاق ويخضعون العلاقات الجنسية إلى قوانين ما برحت تزداد قسوة وصرامة.. ولما كانوا عاجزين عن منع الغرائز الطبيعية من أن تنال كفايتها من الارتواء، على الرغم من الوعيد وانزال العقاب، سنوا قانون الحياة الجنسية والدينية ماداموا هم وحدهم الذين يعرفون ما يروق للآهة وما اختص به بنو الإنسان.

واتسع علم البراهمة واتسعت معرفتهم ليشملا الحياة بعد الموت وبقاء الروح واستمراريتها على شكل شبح يتتاب مكان إقامته القديم. فعلى الدوام عذب الإنسان، كقصاص ينزل به لخطيئة ارتكبتها، خوف من أن الأموات يهيمنون على وجوههم، لا ينعمون بالسكينة ولا يهدأ لهم بال». ان الخوف من «تكرار الموت» والهلع ممن لا يجد «عالم آباءه» «فيغدو، كرة أخرى، غداء لإله الموت» قد زرع في الإنسان فكرة مروعة عن «موت لا ينتهي» وفقدان يتكرر على الدوام لثروة طائلة، وتمزيق «لا ينقطع لشملة العائلة، ذلك لأن «كل من رحل إلى ذلك العالم الآخر دون أن يتحرر من الموت، سيولد ليموت في ذاك العالم الآخر بغير انقطاع». وقد ينتج عن هذا التصور المقلق للموت المتكرر مبدأ «الكارما»^(*) (KARMA) المثير للجزع، إنه قانون لا يرحم، إذ ينص على أن كل

(*) كارما: قانون الفعل أو قانون السببية في دنيا الروح، وهو أسمى قوانين العالم وأبشعها (قصة الحضارة - المترجم -).

عمل من الأعمال لا بد لصاحبه من أن ينال جزاءه ثواباً يكون أو عقاباً إما في حياته التي يحيا أو في تقمصه وتناسخه، وان كل من يرغب في التحرر من الموت المتكرر لن يجديه نفعاً لا السلطان ولا الغنى.. مادام الحال هكذا، فلم يبق أمام الإنسان، القادر على بذل سلطانه وماله في سبيل هذا الخلاص، إلا سبيل واحد: «ذلك أن التضحية التي بذلها في هذا العالم، تكون في العالم الآخر كينوته عينها، أتمان^(*) SON ATMAN - فإذا ما رحل «ذاك الذي يعرف ذلك» عن هذا العالم، يلاحقه قربانه الذي ضحى به، وهو يناديه: «تعال، هذا أنا، إني أنت نفسك». وعلى هذا لا بد من أن يتقمص اتمان براهمان^(*) الكل المطلق. وفي سبيل ذلك ينبغي عليه أن يعمل على تطهير ذاته بالشكل الذي يرتيه الكهنة، وعليه أيضاً، أن يتخلص من جميع شروره، ويسلخها عنه كما تسلخ الأفعى عنها جلدها وترميها، فيغدو جوهره تركيباً من الترانيم المقدسة والحكم والأناشيد والقرابين». بيد أن الترانيم المقدسة والحكم والأناشيد قد توارثها الأبناء عن الآباء في عائلات البراهمة. وقد ملك حراسة المعرفة وحماتها هؤلاء مفاتيح «عالم السماء». فكان بمسئطاع حكمتهم وحدها تحديد ما للكارما، بالنسبة إلى قانون الموت، من فضل وقيمة. فلم يكن للبراهمي، والحال هذه، حاجة قط إلى أن يسير

(*) اتمان: ان اشتقاق هذه الكلمة موضع شك، فيظهر (من سفر رج - فيدا القسم العاشر ص ١٦) إن معناها في الأصل نفس، ثم أصبح معناها الجوهر الحيوي، ثم أصبح الروح، أنها نفس النفوس كلها وروح الأرواح كلها، والمطلق الذي لا مادة له ولا صورة، والذي تنغمس فيه بأنفسنا جميعاً إذا نسينا أنفسنا كل النسيان (قصة الحضارة - - المترجم).

(*) براهمان: روح العالم غير المشخصة، ويجب تمييزها من لفظة براهما الذي هو أكثر منها تشخيصاً، وهو أحد الثالوث الإلهي (براهما وفشنو وشيفا) كما يجب تمييزها من برهمي، التي تدل على العضو من طبقة الكهنة، ومع ذلك فليس التمييز بين اللفظتين الأوليتين ملحوظ دائماً، فقد نجد براهما مستعملة بمعنى براهمان. (قصة الحضارة - المترجم) ومنه: الأتمان: جوهر الفرد، والبراهمان: جوهر الوجود.

أهل المنه

سيرة مثالية ليحقق له، من ثم، أن يفخر بحكمته ويزهو بثرائه وأملاكه: «فيما يتعلق بالذهب فإن لي منه نصيباً، ومن الأبقار والخيول والعييد والثياب والأغذية فإن لي منها نصيباً أيضاً». فكان الناس يحتفون بثناء اليراهمي دونما شعور بالغيرة أو الحسد.

وقد أباحت سلطة اليراهمة الروحية والدينية، وسيادتهم على أفراد الشعب، لطبقة الراجا ومحاربيهم، السيطرة على إقطاعاتهم وفق هواهم، فكانوا يعيشون في قصور فاخرة تحف بهم حاشية من الأمراء، وهم على جهل بكل مستلزمات الأخلاق، فأباحوا لأنفسهم غشيان المحارم واللواط. وعدوها ضرباً من الألعاب المشروعة، فانغمسوا فيها مستسلمين لها كلما طاب لهم الهوى. ولما كانوا قد خطفوا نساءهم أو اشتروهن بأثمان باهظة، بدا لهم ان اغتصاب النساء وشراءهن أو شراء ما رغبوا في امتلاكه من الغلمان شيء طبيعي، فكانت حياتهم وفقاً على السعي وراء المتع الحسية الأكثر تنوعاً بتصيدون ملذات الجسد بشتى الطرق والحيل. ثم أنهم علّموا الفتيات الرقص لتكتسب أجسادهن ليونة في الحركة فيمارسها في ألعاب العشق. كما أنهم خصوا الغلمان ليتمتعوا بما في صباهم من سحر وقتنة وينعموا بأصواتهم الحادة، إذ كان هؤلاء المخصيون محط رعايتهم وتدليلهم. وكانوا ينظمون حفلات الفجور لامعان النظر في مشاهدة الرجال والنساء وهم يتجامعون في أشد الأوضاع تنوعاً، وليتعلموا بفضل هذي المشاهدة المثيرة كيف ينوعون بدورهم متعمهم الجنسية الخاصة وكيف يصعدون من شدتها. وكلفوا المتطربين بصنع المراهم وتركيب شراب العشق ليزيدوا من شدة فحولتهم وشبق عشيراتهم الراضيات بقصفهم وعريدتهم.

وهم إن لم تسعفهم مخيلتهم وتبتكر لهم ألواناً من شبق الحواس، هرعوا إلى اليراهمة يلتمسون عونهم فينصحهم هؤلاء، بطيبة خاطر، بضروب جديدة في التهتك مادامت تساعدهم على عدول الراجا غرماهم عما في الحياة من جدية وعزوفهم، من ثم، عن ممارسة السلطة. فأسلم الراجا إلى اليراهمة مهمة سن

القوانين الناظمة لأخلاق الأفراد وسلوكهم. وكان الكهنة يستندون في فتواهم، إلى «قانون مانو»^(٥). ومانو هو الابن الأسطوري للإله براهما (الذي تبوأ، لاحقاً، مكانته إلهاً أعلى) كما كان البراهمة يلقنون تلامذتهم إن «مانو» تسلم الذارما^(٥) من أبيه السماوي. وكانت الذارما تقضي بتأدية الفروض الدينية والالتزامات الاجتماعية بدقة وعناية، وترسم في كل طبقة من الطبقات الحدود التي يجب التقيد بها لممارسة كل نشاط أو مهنة أو حرفة، ذلك إن الواجبات والحقوق تنتقل من الآباء إلى الأبناء بالوراثة ومن ضمن ذلك البراهمة أنفسهم، فعلى زيد من الناس الذي ينتمي إلى طبقة بعينها أن يمارس مهنة طبقته التقليدية، ولا يحق له، على كل حال، أن يتجاوز حدود عمله إلى عمل طبقة أخرى: «خير لك أن تؤدي عملك المقسوم لك أداء سيئاً من أن تؤدي عملاً مقسوماً لغيرك أداء حيناً».

وقد رمى قانون مانو، المنظوم شعراً، إلى التوفيق بين العلاقات الاجتماعية داخل مختلف الطبقات من جهة وفيما بين الطبقات والتعاليم الأخلاقية من جهة أخرى. تلك التعاليم التي يعدها البراهمة تعاليم سليمة وصالحة. مما استلزم تحذير كل زواج يخرق مبدأ تقسيم الطبقات، فعلى كل رجل أن يختار زوجه من الطبقة التي ينتمي إليها، ومن كانت له زوجات كثيرات عليه أن يمنح الأفضلية للزوجة التي من طبقته لتسود على الأخريات. وقد شرح مانو هذي القواعد: «يغدو الرجل من الطبقة الكريمة دنياً إن ارتبط بعائلة من الطبقة الدنيا، أما من كان دنياً بمولده فيستحيل أن يسمو بصحبة الأعلين». ويشجع قانون مانو على الزواج: «فبالنسل وحده يكمل الرجل، أما المرأة: فقد كُرِّست، أساساً، للإنجاب، فالأبناء

(٥) يتألف هذا التشريع من ٢٦٨٥ بيتاً من الشعر ويرجعونه إلى سنة ١٢٠٠ ق.م. لكن

الباحثين اليوم يردونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح. - المترجم -.

(٥) الذارما. قواعد السلوك في الحياة لكل إنسان كما تحدها له طبقته. - المترجم -.

أول المنه

لا بد منهم للمضي في عبادة الأسرة لأسلافها، ذلك لأن أرواح الأسلاف تفتنى إذا ما امتنع عنها الطعام وانصرف الأبناء عن تقديم الأضحيان». لم تُمنح المرأة إلا حقاً واحداً وهو «حق حماية الزوج لها حماية حذرة». غير أن المرأة بالنسبة إلى مانو هي الشر عينه. «مصدر العار هو المرأة» ومصدر الشقاق هو للمرأة، ومصدر الوجود الدنيوي هو المرأة، فإذا فحذار من المرأة. وفي فقرة أخرى نقرأ: «إن للمرأة نزاعة بطبعها إلى إغواء الرجل على الدوام ومن ثم كان لزاماً على الرجل ألا يجلس في عزلة مع امرأة ولو كانت من أقرب أقربائه». «لا تقتصر قدرة المرأة على تضليل الأحمق عن جادة الصواب وسواء السبيل بل لها القدرة أيضاً على تضليل الحكيم، تمسك بزمامه وتخضعه لشهواته أو غضبه». وباختصار: إن الجنس اللطيف كان، في جميع أحواله، محتقراً ذليلاً.

(وغالباً ما كانت المحادثات مناظرات شعرية ارتجالية أو شواهد متعارضة تدور بين شعراء عدة، ولتقديم فكرة عن ذلك، فلنستمع إلى الحوار التالي من شواهد الشعراء أنفسهم:

- البراهمي، رجل المعرفة:

من ذا الذي خلق، إذن، تلك المتاهة من الشك، ذلك المعبد من الخيلاء، ذلك الدن من الخطايا، ذلك الحقل المزروع بألف خدعة، ذلك الباب المؤدي إلى جهنم، تلك السلة الطافحة بالأكاذيب، ذلك السم الذي يشبه العسل، تلك السلسلة التي تربط الأنام بالأرض: المرأة).

- إحدى الحظايا:

إن الحكيم الزائف، الذي ينم على النساء، يخدع نفسه ويخدع الآخرين معه، ذلك لأن ثمرة التوبة هي السماء، والسماء هي التي تمنح الإيسارا لأولئك الذين يفوزون بها.



عاشقان من معبد فيشنويت في البنجاب

أهل المنند

- البراهمي:

الشهد في معسول حديثهن، ومن صدورهن ينفتن السم.. ففي آن واحد
يرشف الرجل الشهد من شفاههن وبظهر يده يوسع صدورهن ضرباً.

الحظية:

لن يفوز أولئك الجانين، الذين يلوذون بالفرار من المرأة، إلا بحر الثمار،
ذلك لأن حماقتهم تلك وإله الحب سيذيقانهم مر العذاب... وفي اليوم الذي
يتمكن فيه رجال شرفاء من السيطرة على حواسهم، فإن جبال فينديها ستحتاز
المحيط سباحة.

البراهمي:

ليس في عالمنا هذا إلا حديقة طافحة بالأزهار الضارة، إنه الصبا: بؤرة
الهوى، وعلة آلام مبرحة تفوق بسعيرها أتون مائة جهنم، ومصدر للجنون،
وستار من الغيوم يحجب نور العلم، وسلاح إله الحب الأوحده، وسلسلة من
الخطايا من كل نوع.

الحظية:

كلب هرم أعور، وأعرج جرب، لا يكسو عظامه سوى الجلد، ومزقت
شذقيه ما قرضه من كسر وصلب ما برح يتعقب الإناث من جنسه. إن إله الحب
يعذب حتى المحتضرين، فما إن تمس قدم إحدى الجميلات شجرة الأسوكا حتى
تتفتح أكمامها. النساء الشهوانيات يلهين، بما ينعمن به من غنج وشهوة، أفئدة
الرجال قاطبة، فتراهن يهدرن مع أحدهم، ويرشقن آخر بنظرات حب مشجعة،
في حين أن حب رجل ثالث يعمر قلوبهن.

- البراهمي:

إن ذاك الذي يصبح سيد حواسه، يمتزج تبصره وعقله بالروح العليا، وعلى
هذا، ما جدوى مناجاة الأحبة، وشهد الشفاه، وصباحة الوجوه، وهو الحب
وأهاته، واعتصار نهود مدورة كما الرمان.

- الحظية:

الكتب المقدسة تملأ أفواه المتفهمة.. ومن أطراف شفاههم يدعوننا للإقلاع
عن الحب. ترى من ذا الذي يستطيع النجاة من أرداف الصبايا الجميلات،
المزدانة بالنطق المجلجلة والآلي الحمراء المتدلّية. فإذا ما حاكت المرأة شراك هواها
فلن يستطيع براهما نفسه أو يحول دون مبتغاها.
رجل كهل: لا يتأكد الرجل من استقامة شرفه وكريم فضيلته وواسع
حكيمته إلا إذا انتصر، بقلبه وعزمته، على فساد النساء وشروهن...

أحد الفتیان:

ما هو أجمل المشاهد وأروعها؟
ما أذكى العطور وأطيبها؟
ما أمتع الأصوات وأرحمها؟
ما ألد مذاق وأحلاه؟
ما أحلى الملامسات وأنعمها؟
ما هي أجمل الصور التي تستأثر بالفكر؟ مفاتها
إن كل ما في الفتاة يطفح بالسحر والروعة.
- شاعر شاب:

الفتاة العذراء برعم وردة رخصة لما يتفتح بعد.

- فتى آخر:

البسمة الرقيقة على الشفاه، والنظرات الحية الجسورة، والهذر الفكه،
والتلمص المراوغ، والعود المفاجئ، وتبادل العواطف السريع، والتسلّيات اللعوب
المرحة التي لا تنقطع.. أليس هذا جميعه ما يأسر لينا؟
يا للصبايا ذات العيون كعيون الأطباء..

فإن هن ابتعدن عنا نتوق شوقاً إلى رؤيتهن.

وإذا ما رأيناهن، لا تملكنا إلا رغبة واحدة: أن ننعّم باحتضانهن

وإن كنا بين أحضانهم، فلا نطبق عنهن بعداً.

- شاعر شاب:

تُرى أي فأن سينعم بهذا الجمال الساحر، الذي يشبه بريعانه وطهره زهرة
لما يتنشق شذاها أحد بعد.. ولما يلمس زغبها الناعم إنسان بعد.. لمن ستؤول
تلك الشبيهة برعم رخص لما يمسسه ظفر آدمي بعد.. (تلك الشبيهة بلؤلؤة لم
تنزل تنعم بالحماية في كنف صدفتها حيث ولدت؟) (من كتاب: KAMA-
SUTRA) منشورات SOLAR - المترجم ..

إذا ما عزم الرجل على الزواج، تحتم عليه أن يطلع زوجته على
واجباتها: «على المرأة الوفية أن تخدم مولاهما كما لو كان إلهاً، وألا تأتي
شيئاً من شأنه أن يؤلم زوجها، أياً كانت حالته، حتى لو خلا من كل
فضيلة» (أما الزوجة التي تعصي زوجها فمآلها أن تتقمص روحها جسد ابن
آوى في خلقها التالي. من قصة الحضارة - المترجم -). كان مانو ينصح
الرجال، على الدوام، بالعدول عن تشديد الرقابة على النساء وإلا فان
مكرهن سيملي عليهن خدعاً تجلب المصائب. ومن المستحسن ألا تضربهن
«حتى لو كان ذلك بزهره»، كما أشار عليهم بمنح المرأة جميل الثياب: «لأن
الزوجة إذا حرمت أنيق الثياب فلن تسعد زوجها وتمتعه.. وإذا زينت المرأة
ببهيج الثياب، ازدهى المنزل كله بالجمال.» «بيد أن قانون مانو يمنح
الأفضلية للمرأة الأم»: «الأم أولى بالتقدير من ألف والد».

وقد عدّ مانو زواج الاختطاف أنبل شكل من أشكال الزواج، غير أنه سلّم
أيضاً بزواج يشترى. وأعلن أن القران «الأكثر حكمة» هو ذاك القران الذي يتم
باتفاق الوالدين مع مراعاة قواعد الذارما. لكن القانون أدان «الحب»، إذ لا
ينبغي أن يكون الدافع لاقتران الزوجين اتقاد جسدي أو نشوة روحية، ذلك لأن
الملذات الشهوانية التي ستنجم عنه تتناقض والمثل الأعلى في التخلي أو الزهد
الذي يكرز به البراهمة ويطنبون في امتداحه.

وفي مقابل ذلك فقد أجاز تشريع مانو للبراهمة «الاستمتاع» مادامت المتعة في خدمة العقيدة فاستخدموا في معابدهم «خادمت الإله» اللائي يرقصن ويغنين أمام صور الآهله وغمائلها. وكانت مهمة إعداد هؤلاء العذارى المنذورات وتربيتهن تربية جنسية شهوانية تعود، حكماً، إلى الكهنة. أوليست هذه المهمة، التي تجعل من هؤلاء الفتيات نسوة عذبات يشرحن صدور الراجا والمحاربين، بالمهمة، المقدسة الشريفة؟ ذلك لأن الزهد بالنسبة لهؤلاء السادة أصحاب الامتياز ليس إلزامياً. وقد كان للبراهمة، في العديد من المناطق، «حق الليلة الأولى» مع كل عروس فتية. كما كانوا ينعمون بحرية لا حد لها في إخصاب النساء العواقر فيبيتون معهن ليلة في المعبد لكي يبرأن من عقمهن، فيما رسون معهن كل أنواع العشق وفنونه.

قلما كانت امتيازات «الرجال المقدسين» تثير السخط أو الاعتراض، ذلك لأن البراهمة قد عرفوا تمام المعرفة قانون مانو فبرعوا في تفسيره وتأويله.. فقالوا: «إن كل مساس بالبراهمي يستوجب أقصى العقوبات وأشدّها»، لأن كل من يمس شعور رجال المعرفة هؤلاء، ينتهك، من ثم، حرمة الـ«فيدات» كتب المعرفة. بل إن القانون يحمي البراهمة حتى من تعسف الراجا: إذ يوحى بإعفائهم من الضرائب، لأن البراهمي، إذا ما ثارت ثائرتة، يستطيع ان يسحق الأمير ورجال حربه جميعاً بتلاوة اللعنات والرقى السحرية، دون أن يلجأ إلى تدبير ما آخر. وفي المقابل، لا تحق على البراهمة عقوبة الموت. ومع ذلك فإن قانون مانو قد تضمن إنزال العقاب في أغلب الحالات الجرمية، والموت هو العقوبة في عدد كبير جداً من الجرائم، ولا يستطيع إنقاذ الجاني إلا «حكم الله» وحده. فعلى السارق الذي لا يعترف بجرمه أن يغطس ذراعه في سطل يحتوي خليطاً من الزيت المغلي ومن روث البقر، أو أن يدخلها في سلة طافحة بالأفاعي السامة وغير السامة، فإن خرج من محنته وامتحانه سالماً معافى بُرئت ساحتة مهما بلغت صحة الشهادات التي تدنيه.



العشاق

إن قانون العقوبات لمانو، مثل قانون حمورابي، إذ يركز هو الآخر على القصاص بالمثل: العين بالعين والسن بالسن، بيد أن القصاص هنا مفتح ووحشي بوجه خاص: كانوا يبتزون الأيدي والأرجل ويجدعون الأنوف ويصلمون الأذان ويفقون العيون ويهشمون عظام الأيدي والأرجل بمطارق خشبية، ويغرسون المسامير في الأكف والأقدام والصدور، ويقطعون أعصاب المفاصل قبل إعدام المحكوم عليه بشبه حياً، أو بتعريضه لأنياب الكلاب الجائعة، أو بقذفه تحت أقدام القيلة لتدكه دكاً. وكانوا يطلعون الجناة، قبل تنفيذ عقوبة الإعدام فيهم، على مبادئ «الافتداء الآجل» وفق تعاليم مانو، لتخليصهم من جميع أفعالهم البشرية... وهكذا يتأكد الجاني أن لا مندوحة له من الخضوع لتناسخ الروح فلا مناص من تقمصه لأشكال جديدة أخط وأدنى ولا نجاة له من مكابذته، بغير انقطاع، للآلام المبرحة في كل ولادته وميتاته الجديدة القادمة، ويشرع الكهنة في تعداد «نتائج أعماله في هذا العالم» فلن تجد نوعاً واحداً من أنواع الحيوان أو حشرة من الحشرات المؤذية أو حيواناً من الحيوانات الآكلة للحوم أو ضرباً من ضروب الديدان أو الأفاعي أو جنساً من أجناس الطير أو النبات يستعد لقبول روح الخاطفة للحلول فيه إلى حين موتك المقبل، ليقذف، من ثم بروحك الآتمة التي لا تستحق الراحة، نحو تقمص مروع آخر.. وهكذا فإن الروح الآتمة تناسخ بغير انقطاع.

لم يذكر قانون مانو عرفاً مازال قائماً، بشكل أو بآخر، حتى الآن: كانت الأرملة تحرق فوق محرقة زوجها المتوفى. غير أن الـ«أتهارفا - فيدا»: كتاب معرفة الصيغ السحرية، يرى في التضحية بالأرامل حرقاً عادة قديمة. وهكذا فإن المرأة بموتها الطوعي ستبقى زوجته إلى الأبد، وستعود إلى الارتباط الزوجي به في جميع حيواته وتقمصاته المقبلة. يكفي أن تُمزج رفاتهما وأن يدفنا معاً.. والكلمة الشائعة الاستعمال في الهند للدلالة على إحراق الأرملة وترميلها هي «ساتي» وتعني: «المرأة المطيعة لزوجها وقدرها». وقد تحسب كتاب: «أتهارفا - فيدا»

أول المنه

لعادة حرق المرأة فأوجد مخزجاً مشرفاً للمرأة الأرملة ينجيها من ألسنة اللهب: حينما ترقد المرأة على المحرقة بجانب زوجها الميت وحالما تشرع النار في الاشتعال، بمقدور أحد الرجال - إذا ما رغب في الزواج بها - أن يمسك بيدها.. فإن قبلت به، في الحال، زوجاً لها، فيمكن هذه المرأة، التي نذرت نفسها طعمة للنيران، أن تستأنف معه حياتها التي سبق أن قررت وضع حد لها.

قبل أن يركز بوذا بـ«نعيم النرفانا المطلق في سعادة الفناء الذي يقضي على كل رغبة، ويذهب بكل كراهية، ويحرر الإنسان من آلام التقمص والعودة إلى الحياة»، وقبل أن يعلم تلامذته «الحقائق السامية الأربع» وأن الحياة ليست منهلاً للمتعم الحسية لا ينضب، بل الحياة سلسلة متوالية من الآلام، ظهر في أوساط العديد من الطوائف، «حكماء» مستقلون سعوا إلى عزل الجمهور عن البراهمة وعملوا على دحض مذهبهم لبطلانه ونددوا بالتتكب عن الدنيا والزهد فيها.

وقد بين هؤلاء المشككون «NASTOKA» «النكار» أن الفيدات التي يعتمدها الكهنة ليست، من قريب أو بعيد، كتباً للمعرفة، بل هي اللامعرفة بعينها، وأن تعاليم البراهمة ليست إلا خدعاً وأباطيل ولا هدف لها إلا إرهاب الشعب وإثراء البراهمة، ثم إن هؤلاء «الرجال» القديسين «لم يحملوا الحبل المقدس» إلا لتشيبه، رجال الدين المتشددون في تمسكهم بالعقيدة بموكب من الكلاب يمسك كل منها بذيل سابقه، وإن ما يحملونه من أفكار عميقة حول روح العالم «بزره الفكر» ليست سوى أوهام مجانين مدعين، ماداموا هم أنفسهم يقرون أن عقل الإنسان عاجز عن كشف حقيقة الأشياء ومعرفة. كما أن نظرية تناسخ الأرواح التي تزرع الرعب والفرع في النفوس قد اختلقتها مخيلة البراهميين المريضة السقيمة، لتسكين جوعهم، وإرواء عطشهم وإشباع نهمهم وحشعهم، فهم وإن صدقوا وكان للإنسان روح فهي، في أحسن أحوالها، عبد للمصادفة ولا تملك لها دفعا، ثم إن الإنسان ليس مزيجاً لعناصر هي التراب والماء

والنار والهواء: «إن الحمقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت».

واحد من أهل البدع هؤلاء اسمه بريها سباتي، كتب يقول:

«ليس للجنة وجود، ولا هناك خلاص أخير،

فلا روح، ولا عالم آخر، ولا طقوس للطبقات

(إن فيدا ذات الوجوه الثلاثة، وأمر الإنسان لنفسه بلغات ثلاث،

وهذه التوبة بكل ما فيها من تراب ورماد.

كل هذه وسائل عيش لقوم

خلو من الذكاء والرجولة

كيف يمكن لهذا الجسد إذا ما أصبح تراباً...

أن يعود للظهور على الأرض؟ وإذا كان في وسع الشبح ان يمضي

إلى عوالم أخرى، فلماذا لا يجذبه الحب الشديد

لن يحلفهم وراءه، فيرجع إليهم؟

إن هذه الطقوس الغالية التي تعلم لمن يموتون

ليست إلا وسائل عيش دبرها

دهاء الكهنة.. لا أكثر من ذلك^(*)...

فما دمت حياً، انفق حياتك مطمئن البال

مرح النفس، والإنسان النبيه يقرض المال من أصدقائه جميعاً ما

استطاع إلى ذلك سبيلاً ويطعم نفسه بالزبد المذاب..»

وتحول بعض من هؤلاء المتشككة إلى بارياجاسكا أي الجوالين، وراحوا

يطوفون متنقلين من مكان إلى آخر باحثين لهم عن تلامذة وأتباع، يعلمونهم أن

لا وجود للإله، وأن ما يطالب به الكهنة من امتناع عن الجنس والزهد فيه

(*) من قصة الحضارة - المترجم -.

يتعارض ومغزى الطبيعة ومعناها، مادامت جميع المخلوقات على وجه البسيطة تزوج بمسرة ومنتعة، إذ كانوا يقولون: «الحكمة الوحيدة هي أن تتمتع بالحياة وتنعم على الأرض» وكذلك الأخلاق أمر طبيعي، فهي عرف اجتماعي ووسيلة لراحة العيش في المجتمع، وليس بالأمر الصادر عن الإله. والطبيعة لا تأبه لخير أو لشر، لفضيلة أو رذيلة، وهي تشرق بشمسها في غير تفرقة بين الأوغاد والقديسين، فلو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً، فهي منافاتها للأخلاق كما تعرفها حدود البشر، ولا حاجة للإنسان إلى إلجام غرائزه وشهوته، لأن هذه هي الإرشادات التي رسمتها الطبيعة للناس، الفضيلة غلطة من الغلطات، وغاية الحياة هي أن تعيش، والحكمة الوحيدة هي أن تعيش سعيداً. تلك هي الفلسفة التي أخذ بها فريق «الشارفاكا» ختاماً لأسفار الفيذا وأسفار الأوبانيشاد. وقد استقبل هؤلاء المتشككون الرافضون للفكر والروح ودعاة التمرد على زعماء الدين، بالترحاب في بلاد أمراء الراجا وفي مناطق نفوذ رجال حربهم، كما استقبلت دعواتهم وتشجيعهم، للنبلاء وعلية القوم، على التنعم بالملذات بالترحاب أيضاً. ومن البدهي أن يلقي كل تأييد يدعم لهوهم وكل تبرير لبطالتهم القبول والترحاب. وعلى العكس من ذلك، فقد كره وجهاء القوم مبدأ الأهميسا (AHIMSA - العزوف التام) الذي كان يركز به ابن ملك إقليم بيهار سيدذارتا - جانتاما SIDDHAHARTA- GANTAMA الذي اهتدى إلى التزهد.

وعلى هذا فكيف يرحب بمثل هذه الأخلاق أولئك الذين يجيئون حياة بذخ ورخاء، وينعشون ذكورتهم الخائرة باستخدام جميع نساء أهل البيت للاعتناء بصحتهم، إذ كان بمقدورهم أن يختاروا، في كل يوم من أيام الأسبوع، حظية جديدة، وكان يزعجهم أشد الإزعاج، أن هذا الناسك، الذي يمجده مريدوه من الجائنين^(٥) وكأنه أحد الفاتحين (جينا DGAINA) قد استسلم راضياً بتسميته

^(٥) انظر التعريف الذي جاء في التسلسل الزمني من هذا الفصل. - المترجم -.

بطلاً عظيماً (ماهافيرا) وامتدح الانتحار وراعى بدقة متناهية الأمانى والنذور التي فرضها وأمر بها، فعلى كل معتنق للأهيمسا ألا يقتل كائناً حياً حتى لو كان جعلاً تملأ أسرابه الجو دويماً، وألا يحترث الأرض مخافة أن يزهق أرواح بعض الديدان، فكان لزاماً عليه أن يكنس الأرض أمامه قبل أن يطأها كيلا تدوس أقدامه العارية بعض الحشرات فيهلكها، كما حظر عليه أن يذبح أو يضحي بحيوان كائناً ما كان، حتى العسل منع عنه مادام نتاج الحياة.

هذا القاهر لذاته الكاره للكذب والممتنع عن أخذ ما لم يعط له، الذي قضى حياته عفيفاً طاهراً، وأدان لذائد الخواس بوصفها خطيئة، لم يغز قصور الأمراء ولم يستمل إليه قلوب الأغنياء.. فأغلقت في وجهه ووجه مريديه الأبواب، بل وطردها، بلا رحمة، من بيوت السادة، ذلك لأنهم لم يكونوا متسولين يلتمسون الصدقات.

ولم يرغب الراجا والمحاربون والبراهمة وأفراد الطبقات، التي أثرت بالتجارة أو الصناعة، والتواقفة إلى الاقتداء والتشبه بنمط حياة الأمراء والكهنة، في أن يطرأ تبديل ما على ظروف حياتهم الاجتماعية والروحية التي عادت عليهم بالنفع الوفير. ثم أنهم كانوا يحقدون على بوذا «المستنير»، الذي غادر قصره الملكي بما فيه من بذخ وترف، وتخلّى عن حياة الأمراء، ليغدو متسولاً ومبشراً ويخلق ديانة جديدة.

وبقيت أعراف وتقاليد المحاربين والبراهميين والأغنياء، الذين يعزلهم عن بقية الطبقات تقسيم صارم، على حالها، في جوهرها، لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل، فابتكروا، في عزلتهم خلف أسوارهم وحدائقهم، ضروباً من المتع، وأحالوا اللذة فناً رهيماً. فلم يعكر صفوهم معكر ولم يقلق طمأنينتهم أحد، ذلك لأنه كلما ازداد عدد أنصار مبادئ بوذا ومشايعها، حتى بعد وفاته، ازداد عدد الرجال والنساء من الطبقات الدنيا الراغبين في تعلم كبح رغباتهم وكتبها، وفي التخلي، طوعاً، عن «الشهوة إلى اللذات» وعن «الشهوة إلى

أهل الهند

أن يصبح....» وعن «الشهوة إلى القوة والسلطان». في حين لم يكن للمدللين الفاسدين إلا أن ينعموا بالحياة ويستمتعوا بها، كانت الجموع الخاضعة لمبادئ بوذا راضية مسالمة، فلم تطالب بحق واحد من حقوقها، بل كانت تتألم دونما شكوى، لأن الآلام تسمو بالناس إلى الصفاء والطهارة، وتمنحهم الأمل في إمكانية بلوغ النرفانا.

إن التقسيم إلى طبقات وما نتج عنه من وجود متزامن لأخلاق وآداب «متباينة في مناطق واحدة قد زادت في حدته التأثيرات البوذية. فمن جهة أولى، تبنى قسم من السكان الدين الجديد، واستخدم البراهميون، من جهة ثانية، سلطانهم ونفوذهم للحفاظ على ديانتهم التقليدية أو ترميمها تحت شكل من أشكال التجدد تزيد أو تنقص بما ينسجم، قبل كل شيء آخر، مع مصالحهم الخاصة».

وقد قدر البراهميون، حفظة الفيدات وحراسها، على امتداد العصور، ما للأناشيد المؤثرة والتراجم المقدسة من سلطان ونفوذ على بني الإنسان. فاستطاعوا بحذق تأويلاتهم للأسرار المبهمة، السيطرة على أفكار العوام من الناس. أما الآن، وبعد أن تغير الزمن، فقد بدل البراهمة أسلوبهم. وبداهم أن إحياء أساطير الماضي وبعثها موات. فرددوا هذي القصائد، المغرقة في شعبيتها، وانشدوها في بلاط الأمراء ورددوها على أسماع الشعب.

فنظّم العديد من الشعراء البراهميين أشعار الرامايانا RAMAYANA والمهاب — هاراتا MAHAB - HARATA. واستطاع البراهمة، بفضل هاتين الملحمتين المنظومتين أن يرسخوا في أذهان مستمعهم وقرائهم الإيمان بالأقدمين وبقوانين مانو، وذلك أفضل من تلقينها حكماً جافة وتعاليم صارمة.. ولما جاءت هاتان الملحمتان مغلفتان بأساطير الآلهة والأبطال والملوك والعمالقة والقصص والخرافات وروايات الحب فقد انطبعت في الذاكرة بسهولة فرسخت في الأذهان واستحثت المخيلة.

بين أخطان الحبيبة

(ولسوف نتناول هاتين الملحمتين، لما لهما من أهمية بالغة ومكانة مرموقة، إنما بإيجاز بالغ. في رأي الكثيرين أن «الماهابهارا» هي «أعظم آية من آيات الخيال التي أنتجتها آسيا». بدأت هذه الملحمة (حوالي سنة ٥٠٠ ق.م). قصيدة قصصية قصيرة، ثم أخذت تضيف إلى نفسها في كل قرن من القرون المتعاقبة حكايات ومقطوعات.. حتى بلغ طولها في نهاية الأمر ١٠٧,٠٠٠ زوج من أبيات الشعر الثمانية المقاطع أي ما يساوي سبعة أضعاف الإلياذة والأوديسة مجتمعين.

يقدم الجزء الأول من القصيدة «شاكونتالا» الجميلة وابنها القوي «بهارفا» وقبائل كورو وباندافا، التي تتألف من حروبهما الدموية سلسلة الحكاية، فالملك «يودسشيرا» ملك البندافيين - يقامر بثروته حتى تضيق كلها، ثم يجيشه ومملكته ويأخوته وأخيراً بزوجته «داروبادي» وكان في هذه المقامرة يلاعب عدواً له من قبيلة كورو، كان يلعب بزهرات مغشوشة، وتم الاتفاق على أن يسترد البندافيون مملكتهم بعد اثني عشر عاماً، يتحملون فيها النفي من أرض وطنهم.. وتمضي الإثنا عشر عاماً، ويطلب البندافيون أعداءهم الكوريين ببرد أرضهم، ولكن لا جواب فتعلن الحرب بين الفريقين... ويروي لنا الشاعر الإحصائي أن عدد من سقط في القتال قد بلغ عدة مئات من ملايين الرجال، وتسمع «جانداري» - الملكة زوجة ملك كورو الأعمى - تسمعها وسط هذا المشهد الدامي المتزعج بمناظرات الموت، تصرخ جازعة عندما تبصر العقبان محومة في لفة الشره فوق جثة ابنها الأمير «درُيودان»:

ملكة طاهرة وامرأة طاهرة، فاضلة أبداً خيرة أبداً،

هي جاندار التي وقفت وسط الميدان شاعخة في حزنها العميق

والميدان ملآن بالجماجم، وجدائل الشعر انعقدت عليها الدماء

وقد اسود وجهه بأنهار من دم متجمد،

والميدان الأحمر ملآن بأطراف من لا يحصيهم العد من المقاتلين...

وعواء بنات آوى الطويل المديد يرن فوق منبطح الأشلاء،
والعقاب والغراب الأسحم يرفرفان أجنحة كريهة سوداء،
وسباع الطير تملأ السماء طاعمة من دماء المحاربين
وجماعات الوحش البغيضة تمزق الأجساد الملقاة شلواً شلواً
سيق الملك الكهل في هذه الساحة، ساحة الأشلاء والموت
ونساء كورو بخطوات مرتعشة خطون وسط أكداس القتلى
فدوّت في أرجاء المكان صرخات عالية من جزع
عندما رأين ذناب الغابة تطعم بما هيا لها القدر من فرائس
عندما رأين جَوَّابَات الليل السود ساعيات في ضوء النهار
ورنت أرجاء الميدان المخيف بصرخات الألم وولولة الجزع
فخارت منهن الأقدام الضعيفة، وسقطن على الأرض
وفقد أولئك الرائيات كل حس وكل حياة، إذ هن في إغماءة
من حزن مشترك، إلا أن الإغماءة الشبيهة بالموت، التي
تعقب الحزن، فيها لحظة قصيرة من راحة للمحزون.
ثم انبعث من صدر «جانداري» آهة عميقة من قلب مكروب
ونظرت إلى بناتها المحزونات، وخاطبت كرشنا قائلة:
«انظري إلى بناتي اللاتي ليس هن عزاء، انظري إليهن وهن
ملكات أرامل لبيت كورو انظري إليهن باكيات على أعزائهن
الراجلين، كما تبكي إناث النسور ما فقدت من نسور أنظري
كيف يثير في قلوبهن حب المرأة كل قسمة من هاتيك
القسمات البارزة الداوية».
انظري كيف يَجُنُّ بخطوات قلقة وسط أجساد المقاتلين وقد
أحدها الموت.

وعندئذ - واحسرتها - وقع بصرها الحائر على ابنها «دريوذان»
فأكل صدرها غم مفاجئ، وكأنما زاغت حواسها عن مقاصدها
كأنها شجرة هزتها العاصفة.
فسقطت لا تحس الأرض التي سقطت عليها.
ثم صحت في أساها من جديد، وأرسلت بصرها من جديد
إلى حيث رقد ابنها مخضباً بدمائه يلتحف السماء
وضمت عزيزها دريوذان، ضمته قريباً من صدرها
وإذ هي تضم جثمانه الهامد اهتز صدرها بنهضة البكاء
وانهمرت دموعها كأنها مطر صيف، فغسلت بها رأسه النبيل
الذي لم يزل مزداناً بأكاليله، لم تزل تكلله أزاهير المشكا
ناصعة حمراء.

«لقد قال لي ابني العزيز دريوذان حين ذهب إلى القتال، قال:
أه ادعي لي بالغبطة والنصر إذا ما إعتليت عجلة المعمة»
بيت: عزيزي دريوذان: «اللهم - يابني - اصرف عنه الأذى
إلا أن النصر آت دائماً في ذيل الفضيلة»

.....
ولست الآن أبكي دريوذان، فقد حارب أميراً وسقط أميراً
إنما أبكي زوجي الذي هذه الحزن، فمن يدري ماذا هو
ملاقيه من نكبات؟»

.....
انظر كيف تمسك به على سريره في رفق بيدين رقيقتين
رحيمتين

انظر كيف تدير بصرها من زوجها العزيز الراحل إلى ابنها

الحبيب فتخفق عبرات الأم فيها أنة الأرملة وهي أنة مريرة
وان جسدها الذهبي رقيق كأنه من زهرة اللوتس
أواه يازهرتي، أواه يا بنتي، يا فخر «بهارات»، وعز «كورو»
ألا إن صدقت كتب الفيدا «فدريوذان» الباسل حي في السماء
فقيم بقاؤنا على هذا الحزن، لا نعم بحبه العزيز؟
إن صدقت آيات «الشاسترا»، فابني البطل مقيم في السماء
فقيم بقاؤنا في حزن مادام واجبهما الأرضي قد تأدّى؟
فال موضوع موضوع حب وحرب، ولكن آلاف الاضافات
زيدت عليه في شتى مواضعه.

وإليكم قصيدة من أسمى القصائد الفلسفية التي عرفها الشعر العالمي جميعاً،
وهي المسماة «بهاجافا لرجيتا» ومعناها: (أنشودة المولى)، وهي بمثابة (العهد
الجديد) في الهند يحلونها بعد كتب الفيدا نفسها، ثم يستعملونها لخلق الإيمان
في المحاكم كما يستعمل الإنجيل أو القرآن.

«إن الأمر كما أراه هو أن هذا الحشد من ذوي قربانا
قد تجمعها هنا ليسفك دماً مشتركاً بيننا،
ألا إن جسدي ليخور وهنأ، ولساني يجف في فمي..
ليس هذا من الخير يا «كشاف»، يستحيل أن ينشأ خير ما
من فريق يفتك كل منهما بالآخر، انظر،
أنني أمقت النصر والسيادة، وأكره الثروة والترف
إن كان كسبهما عن هذا الطريق المحزن، وأسفاه،
أي نصر يسراً يا «جوفندا» وأي الغنائم النفيسة ينفع،
وأي سيادة تعوض، وأي أمد من الحياة نفسها يحلو،

إن كان شيء من هذا كله قد اشتريناه بمثل هذه الدماء؟..

فإذا ما قتلنا

أقرباءنا وأصدقاءنا حياً في قوة دينوية

فيها من غلطة تنضح شراً،

إنه لخير في رأيي، إذا ما ضرب أهلي ضربتهم،

أن أواجههم أعزل من السلاح، وأن أعري لهم صدري،

فيتلقى منهم الرماح والسهام، ذلك في رأي خير من مبادلتهم

ضربة بضربة».

ثم يأخذ «كرشنا» الذي لم تحمله ربوبيته على الحد من نشوته بالمعركة - في بسط وجهة نظره من صحة ما يقول ثقة استمدها من كونه ابن فيشنو، معلناً أنه من الخير والعدل أن يقتل الإنسان ذوي قريبه في حالة الحرب، وأن واجب «أرجونا» هو أن يتبع قواعد طبقة الكشاترية، وأن يقاتل ويقتل أعداءه بضمير خالص وإرادة طيبة، لأنه على كل حال لا يُقتل إلا الجسد، وأما الروح فباقية، وهنا تره يشرح ما جاء في «سانخيا» عن «بوروشا» التي لا يأتيها العطب وما جاء في «يوبانشاد» عن أتمان التي لا تفسى.. وتنتهي قصيدته الطويلة بالأبيات التالية:

.....»

أنا من القمر فضته ومن الشمس ذهبها

أنا موضع العبادة في الفيدا، والهزة التي تشق أجواء الأثير،

والقوة التي تكمن في نطفة الرجل، أنا الرائحة الطيبة الحلوة

التي تعبق من الأرض البليلة؟ وأنا من النار وهجها الأحمر

وأنا الهواء باعث الحياة، يتحرك في كل ما هو متحرك

أنا القدسية فيما هو مقدس من الأرواح، أنا الجذر

الذي لا يذوي، والذي ابثق منه كل ما هو كائن،
أنا حكمة الحكيم، وذكاء
وفخامة الفخيم...

أن من ير الأشياء رؤية الحكيم
ير أن براهما بماله من كتب وقداسة،
والبقرة، والفيل، والكلب النجس،
والنبوذ وهو يلتهم لحم الكلب، كلها كائن واحد».

لعل المؤلف أراد أن يتخذ الروح الهندية من الهمود المميت الذي فرضته
العقيدة البوذية، وأن يوقظها لتحارب من أجل الهند، فهي بمثابة ثورة رجل من
الكشاترية أحس أن الدين يوهن أمته، وارتأى في زهو ان هنالك أشياء كثيرة
أنفس من السلام، وقبل كل شيء كانت هذه الملحمة درساً لو حفظته الهند لجاز
أن يصون لها حريتها.

أما الرامايانا فهي من أشهر الأسفار الهندية وأحبها إلى النفوس.. وكما أن
«الماها بهاراتا» تشبه «الألياذة» في كونها قصة حرب عظيمة أنشبتها الآلهة
والناس، وكان بعض سببها استلاب أمة لامرأة جميلة من أمة أخرى، فكذلك
تشبه «رامايانا» «الأوذيسة» وتقص عما لاقاه أحد الأبطال من صعاب وأسفار،
وعن انتظار زوجته صابرة حتى يعود إليها فليتم شملهما من جديد..

استطاع «راما» على إثر منافسة، أن يلوي القوس «موضوع الرهان»...
فيقدم إليه «جاناك» ابنته «سيتا» بالصيغة المعروفة في مراسم الزواج في الهند:

هذه سيتا ابنة جانك وهي أعز عليه من الحياة
فلتقاسمك منذ الآن فضيلتك، ولتكن أيها الأمير زوجتك الوفية
هي لك في كل بلد، تشاركك عزاً وبؤساً
فأعزها في سرائك وضرائك، واقبض على يدها بيدك

والزوجة الوفية لمولها كالظل يتبع الجسد
وابنتي سياتر زين النساء - تابعتك في الموت والحياة
وفي هذه الملحمة نقرأ قصيدة تكاد تحفظها عن ظهر قلب كل عروس هندية،
إذ قالت «سيتا» عندما نفى زوجها الحبيب إلى الغابة حيث سيقم وحيداً:
«العربة والخيول المطهمة والقصر المذهب، كلها عبث في
حياة المرأة فالزوجة الحبيبة المحبة تؤثر على كل ذلك ظل
زوجها...
إن «سيتا» ستهم في الغابة، فذلك عندها أسعد مقاماً من
قصور أبيها.
إنها لن تفكر لحظة في بيتها أو في أهلها، مادامت ناعمة في
حب زوجها...»

وستجمع الثمار الحوشية من الغابة اليانعة العبة
فطعام (يذوقه «راما» هو أحب طعام عند «سيتا».)
تمتاز أشعار هذه الملحمة بدقة الشعور، وبإعلائها شأن المرأة والرجل إعلاء
مثالياً، وبتصوير الحياة تصويراً قوياً «وهو تصوير واقعي أحياناً» (عن قصة
الحضارة - المترجم -) (*).
على سؤال لتلميذه المفضل أناندا: «ما هو السلوك الذي ينبغي لنا أن
نسلكه إزاء النساء؟» أجاب بوذا: «كما لو أنك لم ترهن» - «لكن ماذا نصنع
لو تحتمت علينا رؤيتهن؟» - «كن منهن على حذر تام، ياناندا» (**).

(*) لم يعرض مؤلف هذا الكتاب إلى هاتين الملحمين إلا ماماً، فرأيت أن أقدم للقارئ ملخصاً
وجزياً لهما، نقلاً عن قصة الحضارة، للمتعة والفائدة. - المترجم -
(**) من قصة الحضارة - المترجم - .



العاشقة تضم الحبيب كما العرائش منحوتة من معبد كونارك في البنغال
(القرن الثالث عشر)

وعلى العكس من «المستنير» «قدم الشعراء البراهميون النساء ومثلوهن بملاحح ساحرة للغاية مما أدى إلى نسيان نصائح «مانو» وتحذيراته التي قد تعرض كل من لم يأخذ بها إلى الوقوع تحت تأثير إغرائهن ومفاتهن الوخيمة العواقب. وعليه لم تفر النسوة بحق من الحقوق وإنما فزن ببعض الاعتبار، فكان الآباء، بتفويضهم أمر بناتهم إلى أزواج المستقبل، يمتدحون الروابط الزوجية ويشيدون بها». (كما سبق وأسلفنا في قصيدة «جاناك» - المترجم -).

لقد كانت المرأة النبيلة الرائعة، التي لا تكتفي بان تكون رفيقة مخلصه تبذل نفسها في سبيل زوجها فحسب، بل وتعرف أيضاً كيف تمنحه المتعة بمداعباتها، محط إكرام وإجلال. وكان البراهمة يذكرون بالحكمة القديمة التي جاءت في الفيدات: «في أحضان الحبيبة ينسى الرجل العالم أجمع، إن كل شيء فيها خارج منها...» ولكي تكون مداعبات الحبيبة مؤثرة ناجعة، كان ينبغي، أن تكون عاشقة ومعشوقة في آن واحد معاً. وقد حافظ البراهمة، في ممارساتهم لوظائفهم الكهنوتية، تمام المحافظة، على عادات نظرائهم وعلى الدوافع التي تخضع لها أفعال بني البشر. فانتهوا، بهذا الصدد، إلى أن قوانين مانو، إذا كانت تنظم مظاهر علاقات الجنسين الخارجية، فإنها لا تسيطر على علاقاتهما الحميمة، فهي لم تشر إلى طرق الاتحاد الحقيقي، وأحكامه وغالباً ما لاحظوا، بأنفسهم، ان امتلاك امرأة ما، حتى تلك الراضية الراغبة، غالباً ما يكون مخيباً للآمال، ان افتقر إلى فرح الحب ومتعته الـ«كاما KAMA» وان متعة الرجل ولذاته تبقى ناقصة إن لم تتجاوب وتتطابق إحساسات المرأة أو، في الأقل، ماتتظاهر بالشعور به، مع إحساسات الرجل، إن إرواء غليل الرغبة الجسدية الغريزية إن هو إلا نشوة سريعة عابرة، ولن يكون، على كل حال، نعيماً حقيقياً، إن بقي العشير بارد العواطف، فالمرأة تستطيع منح جسدها دون أن تستسلم بروحها، تلك هي الحال في زواج المصلحة الذي يرمه الأهل، أو في مضاجعة الخليلات اللائي يشترين

أهل المنه

بالمال. وتبقى اللذة تافهة لا طعم لها، ويبقى العاشق وحيداً في مضجعه على الرغم من وجود امرأة بجانبه، ورجل هذه حاله، لا يستطيع أن يكتف على نفسه انه يدين بهذه الـ«كاما» إلى نفوذ ظروفه، أو إلى ما فصله الأهل ودبروه ففعلوا لقرانه بالمال والتجارة، أو إلى ثرائه الذي مكنته من دفع ثمن خدمات خليلاته. إن القبول الفاتر اللامكترث والمدعن لذكورته لا بد من أن يؤدي إلى فتور لذة عناقه ولا بد من أن يجرح كبرياءه وينال من زهوه.



مداعبات

ولا ترغب الزوجات، قطعاً، في تلك الكاما التي لا يرى الزوج فيها إلا تأدية لواجب الزواج أو تلك التي تمنحه الأمل في الحصول على الأبناء. فهن يرغبن أيضاً في استشارة عواطف العشق والمحبة، ليستطعن، من ثم، التمتع باللذة ومنحها بشغف ومحبة، تلك اللذة التي يفرضها عليهن الواجب. وهن يرغبن في تعلم كيفية استمالة من اصطفين من الرجال والاحتفاظ بهم، وكيفية مساعدتهم وتقديم الخدمات لهم بغية السيطرة عليهم بفضل ما يهينهم من متع وملذات.

وعلى هذا فلا يكفي المرأة ان تترين بأحلى الثياب، وان تغنج مزدانة بجليها، وان تتطيب بالعطور وتعني بجمال جسدها ونظافته، وان تعد أطيب المأكولات وأفخرها، ذلك لأن الرجال الذين يسعون للتسلية والترريح عن النفس خارج بيت الزوجية قد أفسدتهم الخيلات والحظايا البارعات في مهنتهن الجديرة بالاهتمام، إذ وجدوا عندهن الأبواب مشرعة واللهم بالكلام الفالت مباحاً والألعاب الجماعية متوفرة ومشاهد الرقص والموسيقا تسر العين والأذن معاً. ففي بيوت اللذة كانوا يلتقون بأصدقاء، يسعون هم أيضاً، وراء اللهم وترجية الوقت فيحصلون على ما يسعون وراءه، لكنهم، مثلهم أيضاً، لن يجدوا الحب أبداً.

وقد خفف البراهميون تخفيفاً مؤقتاً من غياب الاستعداد إلى الزواج والتحضير له، هذا الغياب الذي أحال الرابطة الزوجية إلى اتحاد غير سعيد لا يرغب فيه الطرفان، فغدا مجرد مساكنة ليس إلا. وضمنوها تعاليم موضحة بحكايات مناسبة ووصايا بسيطة واضحة تشرح كيفية ممارسة العلاقات بين الزوجين بغية تحقيق فكرة الـ«كاما» الإلهية.

وقد احتفظنا بأسماء بعض معلمي المتعة الجنسية هؤلاء، إذ استفاد مالاناجا فاتسيا يانا، معلم الحب العظيم، مما دونوه في الـ«كاما - سوترا». وتعني كلمة سوترا مبدأ، كما تعني تقريراً، أو رواية وحكمة بل ان الـ«كاما - سوترا» التي ألفها المعلم فاتسيا يانا هي أكثر من ذلك، انها ملخص متكامل يخلو من تحفظ النظريات ويطبق، عملياً، الحياة الغرامية والجنسية، وهي أيضاً لوحة للأخلاق

زاخرة بالألوان تولف منها جميعاً فسيفساء من المشاهد تفوق الحصر.
كسر فاتسيا يانا الطوق فاخترق الأحكام السابقة التي حظرت على النساء معرفة
الفيئات فحالت بينهن وبين معرفة الـ«كاما». وقد بلغت هذه الأحكام المغلوطة مبلغاً
دفع الرجال إلى منح النساء فرصة لجميع الخيرات الغرامية بفضل ممارستهن نشاطاً
جنسياً لا يكمل ولا يكمل. ومن البديهي ألا تؤدي هذه الممارسة المنقوصة، الخرقاء
غالباً، إلى تحقيق المتعة الصحيحة وما يجود به الجسد من مسرات وأفراح.
فلا بد، والحال هذه، من تربية نظرية وعملية، ولا بد من التحرر والانعقاد
من التحفظات ليصعد الإنسان من حساسيته ويجرر اتحاد الأجساد الطبيعي،
بكافة الأشكال التي تلبسها هذا الاتحاد، من فقدان الثقة ومن عثاره وفضيخته
ومما علق به من فساد أخلاق وإخلال بالآداب، إذ أن الفحش نقيصة الفكر
وحده، لا الجسد. وليست أعضاء المرأة والرجل الجنسية أشياء قبذرة بل هي
وسائل الـ«كاما» الخيرة التي ينبغي للجنسين للنجاح في الحب، معرفة طاقاتها
وتعلم استخداماتها. وقد حبا الله الإنسان بالعيون للرؤية والشفاه للتقيل،
والـ«لينغام - العضو المذكر» ما وجد إلا للتلذذ بالمتع والإنجاب في مهبل الأثني -
الـ«يوني» وعلى العشرين ألا يتركا هذه المتعة تحت رحمة اتفاق مصادفة طارئ
غير متوقع. لن يقع «المطلعون» في شرك الصدفة وجبايلها إذا ما تعلموا مبادئ
الكاما وامتثلوا للسوترا. وقد يسلّم فاتسيايانا بأن كثيراً من النساء هن «خبيرات
ومجربات» مثل بنات الأمراء والمحاربين، إضافة إلى الخليلات. وعلى هذا فقد
اقترح أن تعلم رفيقات الثقة، من هؤلاء النساء، الراغبات في تعلم الحب، الأربعة
والستين فناً، وهي توطئات لسعادة مرهفة ناعمة جدية بالحب، أو تعليمهن
بعضاً منها، في الأقل، ان تعذر ذلك لكن الأفضل عموماً، ان تضطلع بمسؤولية
تعليم الفتاة المبتدئة إحدى الصديقات المتزوجات أو الخالات أو إحدى الخادومات
المسنات أو المتسولات الأليفات أو إحدى الأخوات المجربات، الفت الكاما -
سوترا لتخص أفراد الطبقات المسورة والنسوة المقيمات في دور السكن الفاخرة

بين أخضان الحببية

اللائي أبيع لهن، في محيط من الأبهة والعيش الرغيد، التلذذ بمتع الحب والإمام بشتى الوسائل واستخدامهما لاستئارة اهتمام الرجال واستمالة قلوبهم.

ان تعرف المرأة: تركيب العطور، وشراب العشق، وكيفية العناية بجسدها وتطيبه بالعطور الذكية وان تعرف تضميخ شعرها وضرهه وصبغه، وتلوين أسنانها وأظافرها و... فتلك أمور لا تشكل إلا المبادئ الأولى، إذ كان ينبغي لها أن تتعلم، أيضاً، الغناء، والرقص، والعزف على مختلف الآلات الموسيقية، وان تلم بالأزهار وتبرع في توزيعها على شكل أكاليل لتزين بها بنوق، رهيف، صور الآلهة، والأسرة والوسائد الموزعة فوق الفراش. وكان لها أن تعمل على تطوير رشاقة أصابعها في صنع الأقراط وباقات الريش، وزينات الرأس الفنية، إضافة إلى أشغال الصوف والحريز. وكان عليها أن تتقن ألعاباً تكسبها الصبر، والتلاعب بالألفاظ والدهاء، وان تتقن لغات غامضة تستطيع بواسطتها التحدث مع من تحب دون أن يفقه الآخرون من حوفاً شيئاً. وكانت تتعلم الكتابة والقراءة بالرموز، ونظم القصائد، ومزج عصير الفواكه والمرطبات.. وكانت في حاجة إلى الإمام جيداً بما تفرضه المعاشرة من سلوك وآداب، وإلى معرفة آداب استقبال الضيوف في بيت زوجها وتكرمهم كما ينبغي، وكان يتحتم عليها أن تتقن كل ذلك إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة لكي تكون، من جهة، محط اهتمام زوجها، رجل المجتمع الملم بالأربعة والستين فناً، ولكي لا تكون، من جهة ثانية، عرضة للإهمال والإبعاد فتحل محلها إحدى الخليلات، ذلك لأن للحظية الخبيرة في فنون الأثني، الحق في احتلال مكان الشرف في مجتمع الرجال.

وعلى هذا فان الـ«كاما - سوترا» كانت تفرض على النساء واجبات والتزامات، بينما كانت تلقي على مسامع الرجال النصيح والإرشاد. وكان أول شرط من شروط السعادة «الآرتها ARTHA» الحصول على الثروة، لأن الرجل إن لم يكن ثرياً تعذر عليه الحصول على منزل فاخر تحيط به حديقة غناء ويحتوي على غرف داخلية وقسم مكشوف. الغرف الداخلية معدة

أهل المنه

للنساء، أما الغرفة الخارجية فلا بد من أن تكون طافحة بالعطور الذكية، والأطياب البلسمية، وتضم سريراً وثيراً بجوفاً في وسطه، يغطيه نسيج كتاني أبيض مزدان بأكاليل الزهور، وتنتشر على بساطه بتلات نضرة متعة للنظر، أما ما تبقى من الغرفة فيتم اعداده وتنظيمه بعناية فائقة - حيث العطور للعناية بالقم وطاولات اللعب بالتردد.. ولا بد أيضاً من أن تضم الحديقة: أرجوحة دوارة وأخرى عادية، إضافة إلى عريش مزدان بنباتات مزهرة مع منحدر خضير للجلوس عليه. وينبغي للرجل أن يحرص تمام الحرص على هندامه كما المرأة. وعليه أن يتأكد، دائماً، من أن أنفاسه تفرح عطرأ، وعليه أن يستحم كل يوم، وان يضمخ جسده بالزيوت العطرية كل يومين، وأن يزيل العرق من إبطيه، وألا يترك لها أثراً، وعليه أن يخلق جمجمته ووجهه كل أربعة أيام، كما كان عليه، قبل أن يبدأ عمله اليومي كل صباح، أن يتأكد من أنه قد صبغ شفتيه وجفنيه بصبغة تتناسب مع سيمائه.

ترى هل هذا الرجل، المثالي الذي وصفته الـ«كاما - سوترا» وقد استعد بعناية فائقة لمقابلة امرأة من اختياره، ليس إلا مجرد مغرور بسيط معتد بنفسه، أم أنه لم يبذل الكثير من الوقت للعناية بمظهره إلا لترضى به تلك التي قابلها في أحد الأعياد أو في إحدى المآدب حيث احتلت، هي أيضاً، مكانها بين المدعوين، ذلك لأنها تنتمي إلى الطبقة نفسها التي ينتمي إليها هو؟

كان العالم الذي يتحرك فيه رجلنا هذا، حتى هبوط الليل، عالماً مذكراً، إذ كان يمضي ساعات نهاره مع أصدقائه، ثم أنه لم يكن ممنوعاً أو مشيراً للريب أن يمنح أحد أصدقائه دالة جنسية زائدة إن أحس هو وعشيرته بالحاجة إلى عدم الاكتفاء بالعلاقات الروحية. والحق ان استسلام الرجال للمتعة الجنسية المثلية لم يكن مناف للعادات أو غير منسجم معها.. ذلك لأن تعاليم فاتسيا يانا كانت تقضي بأن يتبع الإنسان ذوقه الشخصي فيما يتعلق بموضوع الحب والعشق ولم يضاف إليها إلا قيداً واحداً: «وفق عادة البلد» ثم إنه رأى أن المنع يولد الرذيلة

في حين أن الأفعال التلقائية المتحررة من القيود، أيًا كانت أشكالها، تسمو بالفكر والروح معاً، شريطة ألا تتسبب في أذية الآخرين.

والرجل المثالي، سواء كان برفقة أصدقائه، أو بدونهم، كان يتوجه إلى الحدائق العامة ممتطياً سهوة جواده ويسير وراءه بعض من خدمه، حيث يشاهد عراك الديكة وعصافير السمان وصراع الأكباش ويمضي سهرته، عند الاقتضاء، مع خليلته، فيتزهان في ضوء القمر ويتناولان طعامهما في الغابة إذا ما اخضوضت الدراعيم، ويلعبان ألعاباً جماعية. وقد حظر على الرجل ممارسة الـ كما مع امرأة تنتمي إلى طبقة أعلى من طبقته، أو مع امرأة من طبقته إذا ما كانت ملكاً لرجال آخرين. غير أنه كان يتمتع، مع ذلك، بحرية زائدة تخوله اللهو مع الخليلات، وأن يمرح ويسرح مع نساء من الطبقات الدنيا، أقصين عن طبقاتهن أو تزوجن للمرة الثانية.

فإذا ما رغب الرجل في الزواج، بامرأة من طبقته طبعاً، عليه أن يتأكد من أنه لن يسعى وراء فتاة ذات «أنف أقنى أو منحرجين خانسين أو فخذين مقوسين أو ظهر أحذب» وعليه ألا يسعى قط إلى الزواج بفتاة لا تحب النظافة، وغير طاهرة الذيل لعلاقتها برجل آخر.

كانت الأعياد الدينية والتظاهرات الرياضية تمنح الرجل فرصة مراقبة الفتاة العذراء إذ يستطيع طالب الزواج التأكد من أنها تروق له من الناحية الجسدية وان مظهرها وسلوكها مناسبان وسليمان. وعلى أبيه وأمه إضافة إلى أصدقائه أن يتوسطوا له لعقد قرانه.

كان يتحنن على رجل المجتمع الحق ألا يلجأ إلى مغازلة من اختارها أثناء أيام الخطبة الأولى، حتى إلى ما بعد الاحتفال بالزفاف رسمياً، إذ كان ينبغي له، قبل الاقتران بها في الـ «كاما» ان يسعى للتقرب منها والتودد إليها ليفوز بحضوتها ورضائها، وأن يجترس من اللجوء إلى العنف إزاءها مخافة ان يجرح حساسيتها، ولكن عليه، في الوقت نفسه ألا يبالغ في احتجازه لنفسه مما يدفعها إلى الاعتقاد

أهل المنه

بأنها غير مرغوبة. وجرى العرف أيضاً أن يرقد الزوج الليالي الثلاث الأولى لينام على الأرض بالقرب من زوجه الحديثة العهد، وأن يمتنع العروسان، في الوقت نفسه، عن التمتع بملذات العشق، أما النهار فسوف يتيح لهما فرصة التعارف والألفة مما يساعد الزوج الشاب على الاطمئنان إلى زوجها فيزول فزعها من محاولات تقرب عشيرها العجولة.

وفي الأيام السبعة التالية يتناول الرجل والمرأة طعامهما معاً، ويقومان بزيارة الأصدقاء الذين حضروا زفافه. وعليهما، بحضور الآخرين، ألا يتصرفا كعاشقين وإنما كصديقين حميمين. غير أنه يتحتم عليهما، إذا ما وجدا على انفراد، أن يستحما معاً، إذ لا بد من أن يدفعا عنهما كل حياء، وأن يتعرف كل منهما على جسد قرينه عارياً قبل أن يتحد الاثنان جنسياً، وفي هذه الحالة، ستساعد الموسيقى المولدة للنشوة على استرخائهما وتخفيف توترهما، إذا ما تأمل كل منهما عري عشيره المثير والمهدد معاً.

إن النساء الملمات بالحب كما جاء في الكاما - سوترا على علم بأن متعة الحواس التي تنتظرهن أو تعصى عليهن منوطة بتكوينهن الجسدي أو ببنية الرجل الذي سيستسلمن له. وقد تعلمن أيضاً كيف يكون بمقدوره ومقدورهن معاً معالجة فقدان الانسجام فيما بين حجم الأعضاء الجنسية الخاصة بكل منهما. وعلى هذا، فقد أصبح بالإمكان مد يد العون إلى الطبيعة لكي يعزز العمل الجنسي، الذي باشره الطرفان بفن ورهافة، الروابط الزوجية ويمنح كلاً منهما أمتع النشوات وألذها.

وليس للحياء المزيف مكان في الكاما - سوترا، ذلك لأن النساء المطلعات على مضمون كتاب الحب هذا يعرفن أنه يوجد ثلاثة أصناف من الرجال وفق أبعاد أعضاء ذكورتهم المسماة لينغام، فبعضهم يكونون أرانب، وبعضهم الآخر ثيراناً، والصنف الثالث والأخير هم الأحصنة: يدعى الرجل من الصنف الأول بالرجل الأرنب، ومن الصنف الثاني بالرجل الثور، ومن الصنف الثالث بالرجل الحصان، وقد صنفت النساء أيضاً، تبعاً لعمق مهبلهن الـ«يوني» أو اتساعه، في

ثلاث فئات: في الفئة الأولى تدعى بالمرأة الطيبة، وفي الثانية بالمرأة الفرس، وفي الثالثة بأنثى الفيل.

الرجل الأرنب يتناسب والمرأة الطيبة والرجل الثور مع المرأة الفرس والرجل الحصان مع أنثى الفيل، ومن المحتم على كل من العشريين ألا تبرد همته أو تخور عزيمته إن لم تحقق الصدفة هذا الوفاق، ذلك لأنه يتوفر لكل منهما العديد من الوسائل الطبيعية والاصطناعية لتدارك هذا التفاوت الجسماني. فالأهمية أولاً وأخيراً تعود إلى حمية الهوى وشدة الرغبة، وبخاصة استعداد الزوج وكهأنته في إطالة فترة الجماع ليبلغ بالمرأة ذروة حساسيتها ويروي رغبتها، في ذات الوقت الذي يروي فيه غليله بالقذف في مهبلها، فمن واجب الزوج أن ينتظر متعه وزوجه وبلوغها ذروة النشوة الجنسية، ألا وهي رعشة الجماع. وبالمقابل فإن على المرأة أن «تعامله بالمثل وتقابله جميله بأجمل منه» وان تخضع لإتقان كافة ضروب الحب والجماع التي يتضمنها الكاما بتمامه.

وتساعد إرشادات الـ«كاما - سوترا» الرجل على تبديد كل ما ينتاب زوجه البتول من نفور وخوف وتردد، ففي مقدوره أن يطمئنها ويؤكد لها بأحاديثه الرقيقة وقلباته العذبة ومداعباته الناعمة لفخذيها وخصصرتيها، إن ملامسة الشفا واللسان والأصابع لن تسبب لها ضيقاً أو إزعاجاً وبذلك يستطيع أن يقودها، بكثير من الحب والحنق، إلى الاستسلام لهواه، فلا تهاب منه احتكاكاً ولا يخشى منها رفضاً. أما إذا ما استمرت تبدي بعض التحفظ فعليه أن يسارع إلى التغلب على ذلك فيشرح لها، بكثير من المراعاة والمدارة «فنون الاتحاد الجنسي»، مع الاستفاضة باعترافات حبه وهواه.. إن فضول جسد المرأة الفتي، ورغبته في اكتشاف المجهول، ومخيلتها الفتية المتوقدة، تدفع بالمرأة إلى قبول الحب والاستسلام له. ويحیی دور تبادل القبلات، منحها وقبولها قبل كل شيء آخر، وذلك وفق تعاليم الكاما - سوترا، عندئذ تتحدث الزوج بلطف مع زوجها فلا تمنع عنه ملامسة نهديها وتسمح له بـ«عناق الملامسة» ثم تلتصق به بشدة

أهل المنه

لتنفذ فيه إن صح التعبير، بنهديها ويدعى هذا العناق بـ«العناق الثاقب أو الحاد»... فإذا ما احتك جسد بتولي بجسد مذكر سمي هذا العناق بـ«العناق المتأرجح أو المتذبذب». وتجذب المرأة أثناء «العناق الضاغط» رأس عشيقها لتحصل منه على قبلة. وما أن يعانقها وقد «تشابك العشيران كما العرائش» تسقط إذاك جميع القيود، ويدخل كل منهما في الآخر، الفم بالفم، العين على العين، والجبهة على الجبهة.. عندئذ تشرع «عجلة الهوى في الدوران، فليس ثمة قاعدة ولا نظام... لكليهما معاً وفي كليهما».

هذه الجملة، في «الكاما - سوترا» تختتم «فن العناق» وهي تعني: أن هوى العشاق يجد أساليبه الخاصة في الكاما. وعليه فانه لا يلتمس عوناً أو نصحاً ما مهما كان نوعه، بل يعرف، من تلقاء نفسه، أن يبلغ بالاتحاد الجسدي أقصى درجات المتعة.

بيد أن «العشق يزوي والزواج يبقى». وعلى هذا، فإن الزوجين في حاجة إلى التعلم لكي يستمر الحب ويبقى على أشده. وقد أوردت الكاما - سوترا هذه التعليمات والإرشادات في فصل: «أنماط مختلفة من العلاقات الجنسية» الذي يشرح للنساء طريقة معالجة الصعوبات الشاقة وتجاوزها، تلك الصعوبات التي تتأتى عن تباين بنيتي العشيرين. وهكذا فان على المرأة الطيبة الانسجام مع الرجل غير الأرنب إن هي تبنت «الوضعية المفتوحة» ويكون المهبل واسع الفتحة. أما «الوضعية المغلقة» فإنها تسمح للمرأة الفرس أن تحتجز في مهبلها قضيب الرجل الأرنب، وتسمى هذه الوضعية أيضاً وضعية «الفخذين المضمومين»، وعلى هذا فإن لكل وضع صالح لاستثارة اللذة الجنسية وتأجيحها تسمية خاصة به متناسبة معه، فإن اتحدت المرأة المتكئة على جدار أو عمود بالرجل وهي واقفة، دعيت هذه الوضعية بـ«وضعية الاتكاء أو الاستناد» أما إذا استقبلت عضو الرجل وهي جاثية على ركبتيها ثم انحنى إلى أمام فتكون قد شكلت وضعية «البقرة».

وقد تضمنت الكاما - سوترا أيضاً توجيهات دقيقة تعلم المرأة ما ينبغي لها القيام به ان هي تبنت، في الجماع، دور الزوج، فإن كان متمدداً على ظهره:

ينبغي لها إذن أن تمسك به «كما الكماشة» أو أن تروّح عنه بجرعة «القارب» إذا ما ارتفع بجذعه. أما «الاتحاد الفموي» القائم على تقبيل الرجل للـ«يوني – المهبل» أو تقبيل المرأة للـ«لينغام - القضيب» فإن الكاما - سوترا لم ينصح به بوجه خاص، بل جاء ذكره مع التعليق الوحيد التالي: من الممكن أن «يقوم الطرفان بهذه الأشياء أو أن يمتنعا عنها ولذلك تبعاً لذوقهما ومزاجهما، انه لعمل حميم».

«فلا تصلح مختلف أنماط ملذات العشق في كل وقت أو لأي كان، بل إن لكل نمط منها وقتاً مناسباً ومكاناً محددًا». وتعدد الكاما - سوترا كل أوضاع العشرين الممكنة وتختتم ذلك بأبيات الشعر التالية: «مقدور البارعين من الرجال والنساء تنوع أنماط جماعهم باستلهاهم واسترشادهم بأمثلة من تزواج مختلف الحيوانات والطيور.. بما يتناسب وذوقهم الشخصي.. إن مختلف أنماط الجماع هذه تستثير قلوب النساء إلى الحب، وتستحثهن على طلب الحظوة والصدقة والمحبة».

وينبغي للزوجين، إذا ما أصبح كل منهما ملكاً للآخر، في حب حميم أليف «أن يذهبا إلى حجرة النظافة وبيت الخلاء، باحتشام، ودون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، ليعودا، من ثم، إلى السرير أو إلى مستشرف المنزل، يقضمان قطعة من الحلوى أو يرشفان كأساً من عصير الفواكه المنعش وهما يتبادلان أحلى الأحاديث وأعذبها. وللرجل أن يُري زوجته، إذا ما أسندت رأسها إلى صدره، ما في السماء من كواكب ونجوم.. نجمة الصبح.. ونجم القطب... والدب الأكبر».

ولشد ما أسهم هذا الوصف الرومانسي، لما جاء في قصيدة الحب الزوجي الغزلية، في انتشار الكاما - سوترا وشعبيتها، إنها، حقاً، نهج حب وغمط حياة، يتمناها الآباء لبناتهم، وفيها أيضاً ما يرغب الرجال في نواله من نساتهم من تدليل وما تتمناه النساء، من الرجال، من تدليع. بيد ان الكاما - سوترا، على الرغم من ذلك، لم ترد إلى الزوجات في الهند ما كانت الفيدات قد سلبتها منهن

أهل المند

من حقوق قديمة، فهن، والحق يقال، يدعين سيدات البيت لكنهن، في الحقيقة لسن سوى أسيرات للحب ومستزقات لوفاء زوجي غير مشروط، فإن حدث وانتهكن الأمانة الزوجية طردن من منزل جملتهن بالحب وزينه باهوى، أما هن فعليهن، بالمقابل، ألا يتمردن أو يعترضن إن عاند أزواجهن وأبوا إلا أن يلهوا مع خيالاتهم أو مع نساء أخريات مستعدات للاستسلام «لرجال يروقون للنساء».

لم يكن كتاب فاتسيا يانا وقفاً على النساء الشرعيات فحسب، بل نراه في السوترا يتعرض بالوصف أيضاً إلى السلوك الخاص بكل من النساء والرجال الجائعين والتواقين إلى التمتع خارج الزواج، فمنح تعاليمه مشجعاً كل امرأة وكل رجل متشوق إلى الإسهام في الكاما. كما خص بمديته الخليلات، ذلك أن الزيون يتمنى أن يجد عندهن إلاماً بمبادئ مهنتهن وقد حصلن على كافة أشكالها وصورها، البسيطة منها والرفيعة المستوى، فمن المحتم عليهن، وهذا أمر بديهي، أن يكن «خبيرات» في فنهن، كما كان لابد لهن أيضاً، من أحلهن ومن أجل زبائنهن، من أن يعرفن جميع أشكال آداب السلوك، ثم إن الحظية الماهرة الظريفة تعرف تمام المعرفة أن تقدر أيضاً «ما في الإنسان من خصال ومزايا أخرى»، كما قدرت ما في الثروة من فوائد لا ينبغي الاستهانة بها. وينبغي لها أن تتصرف بطريقة تدفع بعشيرها إلى أن يعزو فوراً حبها وهواها إلى رغبتها وشهوانيتها لا إلى جشعها وطمعها. وعليها أن تبدي إلى الأشخاص، ممن يستطيعون مساعدتها ورعايتها، صداقتها ومودتها دونما استغلال أو طمع.. وعليها أن تصون مكانتها فتمسك عن الكلمات السوقية وعن القهقهة وأن تمتنع عن كل اتصال بالرجال المرضى أو الغلاظ، والسيئي الظن، والقساء، والجشعين والنصابين.

وعلى الرجل، بالمقابل، أن يكافئ خدمات خليلته بما يتناسب وثروته، وطبيعة العمل الذي قدمته له. أما النساء الأخريات، ممن يرغب في الفوز بهن، فعليه أن يقترب منهن بحذر ودراية، مع مراعاة بالغة لميوهن وأفكارهن. وتقدم الكاما - سوترا، لمن يسعى وراء المغامرة من العزاب والأزواج، قائمة

«من يسهل الفوز بهن» من النساء، وقائمة أخرى أيضاً بمن يتحتم عليهم تجنبه منهن، ذلك لأن في أزواج هؤلاء النسوة نقائص وعيوب بدءاً من الوساحة وانتهاء بالغيرة وبدءاً من الخسة والجبن وانتهاء بالطيش والضياع، وبدءاً من العجز الجنسي وانتهاء بسرعة القذف والتهيج القسوى، تلك الصفات التي «تكدر النساء».

فإن قاومت النساء، أحياناً، محاولات تقرب الرجال منهن، فذلك، حسب اعتقاد الكاما - سوترا ما جاء إلا بدافع من حبهن لأزواجهن أو مراعاة لعائلتهن وأطفالهن، وبخاصة، لخشيتهم من اكتشاف أمرهن أو لارتياجهن في أن الرجال لم يحاولوا التقرب منهن إلا بتحريض من أزواجهن لامتحان إخلاصهن واختيار وفائهن. حرر النصوص، التي اعتمدها فاتسيا يانا، البراهمة الذين يتوجهون بكتاباتهم إلى البراهمة دون غيرهم، أما الكاما - سوترا فلا بد لها، لمقاومة تعاليم البوذية حول بطلان الوجود الأرضي، من أن تصل إلى جميع الطبقات وتدرّكهم. وقد سيطرت المتعة المنتصبة كما العقيدة، ليس فقط، على نمط حياة الأغنياء من الهنود الذين كرسوا هذه الدروس في الأصل لهم، بل سيطرت أيضاً على نمط حياة أفراد الطبقات الدنيا الذين يستطيعون الإسهام في الكاما كما أسهم فيها أصحاب الامتياز بالولادة.

فقدت، قواعد اللياقة والأحكام المحددة لأداب السلوك مع القريب وفي العلاقات الجنسية، والأوصاف المرتكزة على اختبار المتع المباحة والمنوعة ومراقبتها، خيراً مشتركاً عم جميع الطبقات والأفراد ممن يرغبون في التمتع بالحياة، إن كل شخص يمثل للكاما - سوترا لن يرتكب خطيئة ولا يثماً ضد الدين. وقد بارك البراهمة العملية الجنسية شريطة ألا تُمارس بالقرب من أحد المعابد، وبخاصة، في داخلها، كما راق لهم (أي البراهمة) الرجال الذين يحافظون على مظهرهم وظرفهم، والذين يسمون بفن الحياة إلى رتبة الفضيلة وقد استسلموا، كلياً، إلى مسرات الحب ولذاته.

أهل المند

إن الانقسام الصارم إلى طبقات، الذي أوجده البراهمة وفرضوا على الجميع، دون رحمة أو شفقة، احترامه والتقيد به، لم تتهدد سلامته أو يتعرض للخطر قط إن تقيد الرجال والنساء معاً، بالكاما - سوترا في جبههم وعلاقاتهم الجنسية. وقد شجع الكهنة طقوس عبادة الكاما إلى حد بلغ فيه المهبل والقضيب (اليوني واللينغام) المعبودين الأثريين في أوساط الشعب. فقامت النصب التي اتخذت شكل الـ«لينغام» على جانبي الطرق، ونحتت على واجهات المعابد الكبرى الحجرية دروس اللذة الشبقية، لكي تبليغ رسالتها إلى جميع الرجال المتشوقين إلى المعرفة وإلى جميع الفضوليين والمتفرجين، ولكي تشدد من إيمانهم في أصل الجماع وغايته الإلهية.

كلمة أخيرة لا بد منها نحتتم بها الحديث عن الكاما - سوترا ونعرض فيها بالتفصيل لما في كتاب الحب هذا من معان فلسفية قد تغيب عن مدارك غير المطلع على ثقافة الهند وتراثها ومعتقداتها وقد جاءت هذه الكلمة، بقلم الكاتب: MARC DE SMEDT توطئة لكتاب الـ«كاما - سوترا» الصادر عن «SOLAR» - المترجم -.

الكاما - سوترا، هذا النص المقدس

كاما - سوترا: هذا الاسم الذي يبعث فينا، على الفور، تذكرات شبقية خفية، ذلك لأننا نعتقد، لابل ونعرف، حتى لو لم نقرأ كتاب الحب هذا، إنه يعني بحثاً يتناول مختلف أوضاع الحب التي سجلها التقليد الهندي وفهرسها. إن الكاما - سوترا، بالطبع، بحث في الحب دونه، نحو القرن الثالث للميلاد، أحد البراهمة: فاتسيا يانا الذي تناول، بالبحث والتكليف والتلخيص، تعليماً هندياً قديماً بنصوصه الباطنية المقدسة التي تناقلها الهنود، يوماً بعد يوم، عبر طقوس نظمت العلاقة بين الناس.

غير أن مفهوم الحب ومعناه في هذا البلد، الذي ازدهرت في ربوعه إحدى أعظم الحضارات على كوكبنا الأرضي، لم يقتصر، بالطبع، على بعض حركات

الجسد والتواءاته التي يمكن أن نلاحظها في سلوكنا الغرامي. ذلك لأن حركات العشق هذه ليست، في جوهرها، إلا توجيهاً لمشهد حب حقيقي بكامل أحواله، تتحدث فيه العيون والأيدي والعمود والألوان والحلي والشعر والموسيقا وعدد من الصور الأخرى، معبرة عن العواطف بجميع خلجاتها والرغبة بكامل درجاتها والتودد وتنوعاته الحاذقة. أضف إلى ذلك، أن الكاما - سوترا (حِكْمٌ حول الحب) قد اندرج ليحتل مكانه، في صميم نص ديني هندي يسدي إلينا النصح والإرشاد لبلوغ اتحاد منسجم يقوم بين الأفراد في المجتمع، من جهة، وبين الكائنات والنظام الكوني الشامل، من جهة أخرى، بتوجيه من كوكبة الآلهة الهندوسية التي يرمز كل منها إلى طاقة خاصة به، إنه تيار - قوة يتوقف عليه حسن سير مجموعة نظامنا في المحرّة.. وعليه، فإن لهذا البحث علاقة وثيقة بالفيدات التي تندرج في قائمة أقدم النصوص المقدسة التي نعرفها، وتشكل أسس أقدم الديانات في العالم وأكثرها ثراءً، بنظيرتها المعقدة في نشوء الكون، وميتولوجيتها الغزيرة، وفنونها في التأمل مثل: أشكال اليوغا وتنوعاتها والبرانياما PRANYAMA (مراقبة التنفس والتحكم به)، دوغما إغفال لقانون الأخلاق المولوي SEIGNEURIAL والبراهمية، ونظام الطبقات، وقد تبين أن العلاقات ما بين الآلهة والبشر، في الهند، غير قابلة للفكك مادامت تشكل جزءاً من لحمة نشوء الكون نفسها: الروح الفردية «آتمان» والروح الكونية «براهمان» تشكلان كلاً واحداً، إنهما وليدتا خلق واحد. ومع ذلك فقد اشتقت كلمة يوغا من ويغ: رابطة، ربط، نير، وإن مبدأ التمرينات التي تقترحها تهدف، تماماً، إلى ربط الكائن بالطاقات الكونية.

أسطورة الخلق:

فما هو إذن دور الحب في كتاب كهذا؟ إن الحب، هو أيضاً، حاضر في كل مكان، ذلك لأنه بانعدام الرغبة، الوجود البدئي، لم يكن ليراجباتي (بوروشا - بدء كل شيء) أن يرغب في إنسال الخليفة... بوسعنا أن نذكر هنا إحدى هذه الأساطير المسلية ذات النصوص المتعددة المتنوعة:

«في البدء كان هذا الكون عدماً فيما عدا «النفس»
على هيئة إنسان، فتطلعت حولها ورأت ان
لا شيء عداها، فكانت صحتها الأولى:
إنه أنا...
ثم أدركها الخوف من الوحشة، لكنها فكرت:
إذا لم يكن ثمة غيري، ففيم خوفي؟
ومن ثم رحل الخوف
لكنها كانت مع هذا لا تزال مفتقدة البهجة
(تماماً كما نفتقد البهجة في وحدتنا)
حسناً، هذا الكون، هذه النفس،
كان في حجم رجل وامرأة متعانقين، ومن ثم قسمت النفس
ذاتها إلى شطرين، الجزء الذكر، والجزء الأنثى
من النفس أو من الكون
ثم عانق الذكر الأنثى، ومن هذا العناق ظهر
الجنس البشري
وسألت الزوجة نفسها قائلة:
كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه
فلاختف
واختفت في صورة البقرة
وانقلب هو ثوراً، فزواجهما
وكان بازدواجهما ان تولدت الماشية
فاتخذت لنفسها هيئة الجواد
ثم أصبحت هي أتاناً

فأصبح هو حماراً
وزواجها حقاً»

وولدت لهما ذوات الحوافر، وانقلبت عنزة فانقلب لها تيساً، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشاً، وزواجها حقاً، وولدت لهما الماعز والخراف، وهكذا حقاً كان خالق كل شيء، مهما تنوعت الذكور والإناث، حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى حيث النمل، وقد أدرك هو حقيقة الأمر قائلاً: «حقاً إني أنا هذا الخلق نفسه، لأنني أخرجته من نفسي، من هنا نشأ الخلق» (في هذه الفقرة الفريديية، نلمس بذرة مذهب وحدة الوجود وتناسخ الأرواح، فالخالق وخلقته شيء واحد، وكل الأشياء وكل الأحياء كائن واحد فكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم صورة أخرى ولا يميز هذه الصورة من تلك ويجعلها حقيقة إلا الحس المخدوع وإلا تفريق الزمن بينهما. (من قصة الحضارة - المترجم -).

كما هو الحال في جميع النظريات التي تناولت نشأة الكون فإن رغبة بدئية، إرادة الخلق، تكمن في أساس عالمنا وأشكاله وكائناته. إن كل جزء من هذا الكل يرتبط بالآخر على شكل سلسلة حيوية وصبغية، وخلوية، تلك هي الحياة نفسها. حياة يستحيل وجودها بانعدام الرغبة في الحياة والانسال وفي استمرارية سلسلة التطور. ففي أساطير هندية أخرى نجد تصويراً لبيضة ذهبية تطفو فوق مياه العدم فتخصبها وبنلك يبرز الوجود. ولكن أياً كانت النصوص والروايات المختلفة المقترحة، فإننا نرى، دائماً، في حركة التكوين، نوعاً من اللعب الجنسي يدور بين كيانين يتم أحدهما الآخر. احتكاك مولد للحرارة، وولوج، وتمخيض (واحدة من أقدم الأساطير تستخدم هذه العبارة: الجبل الأصلي ماندارا «مخض» محيطاً من حليب لا نهاية له)، هناك، على الدوام، صورة لاتحاد ما وتنافذ مخصب يحول (الزوجين) إلى طاقة جديدة: $1 + 2 + 3$ ، إن تكرار الأعداد هذا، يمكن أن يتوصل إلى مالا نهاية، وانطلاقاً من هذا البدء، ومع ذلك، فمن الغريب، كما نلاحظ، أن جميع هذه الأساطير لا تطعن بنتائج العلم الحالية، ذلك العلم الذي

أهل الهند

يرى الحياة تولد في نهاية عملية كيميائية وكهربائية على سائل من جزئيات المحيط (الأوقيانوس) الأصلي.

ثم إننا نجد، على الدوام، ثلاثة من الآلهة الرئيسة تنجح في إرساء سلطانها وسيطرتها على جميع الآلهة الأخرى وعلى الكائنات والطبيعة: وتشكل ثالوثاً «TRIMURTI» كيان الانبعاث والطاقة الروحية الحقيقية - يتألف من: الخالق براهمان، والحفيظ فيشنو، والمدمر شيفا: وهكذا فإن حلقة الولادة والحياة والموت، الحاضرة في جميع مراحل حياتنا وفي جميع المواقف، تجد كامل تحقيقها وتحكم الكل. وترافق كل إله من هذه الآلهة شاكتي SHAKTI التي تمثل، في آن واحد، قرينه المؤنث وسلطان تجليه. وهذه «الأمهات الإلهية» هي محط احترام الهنود جميعاً، وعليه فإن كل امرأة تُعد تجسيدا لهن، إذ تستطيع أن تكون، من تلقاء نفسها، الأم، والوالدة المكونة، والمكان، والوسيلة، وملاذ الخلق واستمراريته. وهكذا فإننا نلاحظ مدى ما تتسم به علاقة الحب، في الكاما - سوترا، من احترام، والدور الذي يلعبه الحب في ربط الروح والمادة برباط لا ينفصم.

إن كل ما في الثقافة الهندية من روحانية موسوم بالجنس والعشق، غير أن العشق هنا قد تحول طبيعياً، إلى نظام منطقي، فلم يصبه ما أصابه في الثقافة الغربية من كبت وإبعاد. إن اللينغا (ذكور حجرية) والليونى (الفروج)، التي تعد بعشرات الملايين، هي محط احترام الجميع في كافة أنحاء شبه القارة الهندية: احترام العضو الخالق والرحم الحاضن، علة الحياة ومصدرها.

وقد اشتهر كرشنا، الجسد لفيشنو، والإله المفضل في مجمع الآلهة، بگرامياته مع الـ«غوبي» معبوداته من الراعيات الأسطوريات، إذ كان يعلمهن فن الوصال الحقيقي مع الجوهر الإلهي، ذلك الوصال الذي يسمو بالحب الجسدي من طريق ممارساته. لقد سحر الراعيات واحدة إثر أخرى، فرقص ولعب معهن وأجهن جميعاً، فإذا به في آخر المطاف، يختفي بعد أن ظنت كل واحدة منهن أنها امتلكته.. مبيناً لنا ان الوهم هو الذي يسوس الحياة وان على العاشق المثالي، أن

يتجاوز رغبة الامتلاك وأن كل شيء ليس سوى لعبة (ليلا - LILA) حتى إن الأشكال الحية ليست إلا انعكاسات للعبة إلهية.

جمدت الهندوسية الاتحاد الجنسي في الزواج وخارجه سواء بسواء، شريطة ألا يرى العشيران في نفسيهما وفي مسرتهما إلا لعبة للطاقت، الإلهية في جوهرها، حينئذ يستنسخ عمل الحب ولادة السيرورة البدئية لخلق العوالم، ذلك لأن المبدأ المذكر هو الذي اتحد مع متممه، الشاكتي، المبدأ المؤنث.

ويلي الاتحاد العشقي هذا التحولان في الجسم والنفس معاً، إذ يقرن الرجل والمرأة شرطهما بـ«الفعل» الذي يمكن، بل، ينبغي له أن يدوم طويلاً، وأن يظهر بكافة الأشكال والصور التي يهبها للعاشقين. المرأة تمنح الرجل ما فيها من متعة، والرجل يمنح المرأة ما فيه من قوة، تلك القوة المنتشرة فيها لا الصادرة عنها. وتشدد النصوص على حقيقة أن: «من ثبت روجه بوحدة اللذة وهويتها في حالتها الفطرية يصير ساحراً في الحال، لا يخشى الشيخوخة ولا يهاب الموت. يقول كانها: إن نحن بُتْنَا في مدخل النفس قفلاً متيناً، وإن جعلنا من الروح، في تلك الظلمة الموحشة المريعة، قنديلاً، وإن لمست جوهرة جينا (JINA) هناك في الأعالي، أفاصي السماء، نبلغ، من ثم، النرفانا ونحن نتمتع بالوجود».

والواقع ان النصح للرجل بعدم توزيع بذاره الذكورية (على الأقل بطريقة التكرار) هو قاسم مشترك تنادي به كافة مؤلفات الحب في الشرق: للرجل الحق في صيانة حيويته بعدم هدرها دونما جدوى وللرجل الحق أيضاً في اكتساب السيطرة على الذات، وفي امتلاك قدرة ذاتية أوسع على النشاط والفعل، وفي التمتع بطاقة نفسية وجسدية تزداد نمواً وثراء، وفي أن يبلغ، أخيراً، حقيقة اللحظة، من الآن.. ان تلييته رغبة شريكته التي تتفجر حول القوة الجنسية المذكرة الشديدة الصلابة، والتي تمجد معدنه الداخلي، اتحاد وانصهار في وحدة خارج الزمن ينطلق فوق ساحة الوعي العليا: ليحتويه «فراغ» الشريكة لأن لحظة التركيز المطلق هذه التي عليها، بل كان يتحتم عليها أن تكون الحب الجسدي، هذه

اللحظة من التواصل التي يلتقي فيها كائنان، هي من أكثر اللحظات إجلالاً في الهند التقليدية: ففي لعبة واحدة تلتقي القوى المتناقضة المتكاملة، فيما وراء الفكر وأبعد مما يمكن أن يخاطر على بال، في رقصة بداية الخلق الكونية ذاتها. إنها إسهام في حركة العالم، واتصال مع سورة الحياة واندفاعاتها، ومرحلة من مراحل معرفة الذات والكون.

وفي الفترة نفسها، تلك الفترة التي شهدت ظهور الكاما - سوترا، نمت في النهدي، فوق الموروثات والذخائر الفيديا القديمة المقدسة وتقنياتها في التحلي والإثارة، جذور حديثة ونظريات جديدة في التطبيقات العملية التي أثمرت يوغا جنسية حقيقية، ألا وهي: التانترية^(*) TANTRISME - ان اللاحقة «ISME» المضافة في آخر كلمة «TANTRA» تستثير فينا البوح والامتداد: بقدرات الجسد ومزايه ووجدان الروح وسريرتها.

وثمة نص من نصوص التانترية يفصح موضحاً لنا: «على الإنسان أن يسمو باستخدام علة سقوطه» ومن الممكن أن تكون، مظاهر الطبيعة الإنسانية نفسها، تلك المظاهر التي تكبلنا وتمنع انطلاقنا، مثل الحجارة في أركان نحرنا وذلك لأن الدوافع الجنسية، في اقتراب بلغ هذا الحد، تصير درياً سالكاً أمام الحقائق الكونية، نهتدي به إلى وحدة النهائي واللانهائي. وقد أدت شعيرة الأسانا (الأوضاع الجسدية ASANAS) التانترية في تطورها إلى ولادة سلسلة مثيرة من الاختبارات النفسية الجسدية التي ارتقت بنموذج الانضباط فانتهى، بدوره، إلى التأمل. ففي فعل الأسانا (وضع جسدي) يتحد الرجل والمرأة. وفي تجربة اللذة واختبارها يكمن تحقيق الأسانا. ويذهب المريدون، أثناء الاتحاد الجنسي، بوعيم بعيداً عن المحيط، إذ تتوقف الروح إلى أن تكون حرة، ويزيد الكبح والاحتجاز في شدة

(*) التانترية: ترجمها الدكتور علي زيعور في كتابه الفلسفات الهندية بالطانترية - المترجم - والتانترية انضباط ديني مشتق من تانترا. وهو عبارة عن كتيبات دينية عملية لممارسة الطقوس - المترجم -

بين أخضان العبيبة

الطاقة الجنسية وحدثها، ويحملها على التوهج إلى حد يتحرر فيه الفيض النفسي من قممه.

يهتدي الإنسان بوساطة التانترا أساساً إلى طريق التحكم بالطاقة الجنسية لبلوغ غاية روحية، وتعلمه تقصي أحاسيسه وسير غورها أفضل مما تعلمه كتبها وقهرها. تلك هي المظاهر العشرة (الدرجات العشر) للرمزية التانترية التي آلت إلى شاكتي: الطور الأثنوي للطاقة الكونية:

- ١ - كالي KALI، قوة الزمن وسلطانه
- ٢ - تارا TARA، قوة الراحة والتسلية
- ٣ - سوداسي SODASI، الأشكال الستة عشرة لتجسيد الرغبة
- ٤ - بهوفانسفاري BHUVANESVARI قوى العالم المادي الجوهرية
- ٥ - بهيراافي BHAIRAVI، التعدد في الأشكال وكائنات لا نهائية
- ٦ - شيناماستا CHINNAMASTA، موزعة الطاقة الحيوية في الكون
- ٧ - دهوماباتي أوذوماباتي، DHUMABATI، شريكة الرغبات غير المروية
- ٨ - باغالا BAGALA، مدمرة القوى السالبة
- ٩ - ماتانجي MATANGI، القدرة على السيطرة
- ١٠ - كاملا KAMALA، حالة الوحدة المشكلة ثانية

وتفصح التانترية موضحة باستمرار: أن أولئك الذين استسلموا للحب لأسباب شبقية محضة قد أفسدوا طاقتهم الحيوية بل قد يتعرضون، بفعل ذلك، لفقدانها. في حين أنهم لو استسلموا إلى المتع الجنسية بوعي حاد وألفة روحية (انتخابية كما يقول غوته) تؤلف ما بين قلوبهم، وإن هم نبذوا العبة الأنا، لأخذ فعل

أهل المند

الحب، عندئذ، بعده الحقيقي التحرري المبرأ، ولأمكن لوعي الوحدة الوجودي، عندئذ فقط، أن يسفر عن نفسه وأن يحقق ذاته بواسطة هذا الإثبات المعلن من خلال كافة أشكال التصوف:

«ليس ثمة فارق ما بيني وبينك»

إن ما يتوهنا، يوغا الحب، هي التي تسمح حقاً:

- باستتارة الكوندا ليني^(*) وبعنها، هذه الأفعى الملتفة، رمزياً، في أسفل العمود الفقري على شكل طاقات كامنة في متناولنا، فتعمل عملها، في عمودها الفقري (هذا المحور الحيوي) وفي أعصابنا دون رقيب.

- وبمعرفة استخدام تنفسنا الحيوي (برانا) الذي هو الكون نفسه.

- وبأن ندوب في الآخر.

- وبأن نموت في داخلنا، أيضاً، لنبعث للحياة من جديد بوعي يقظ

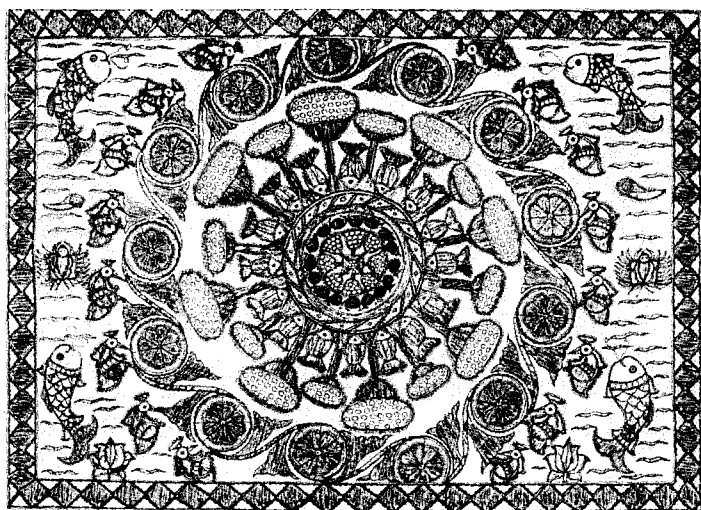
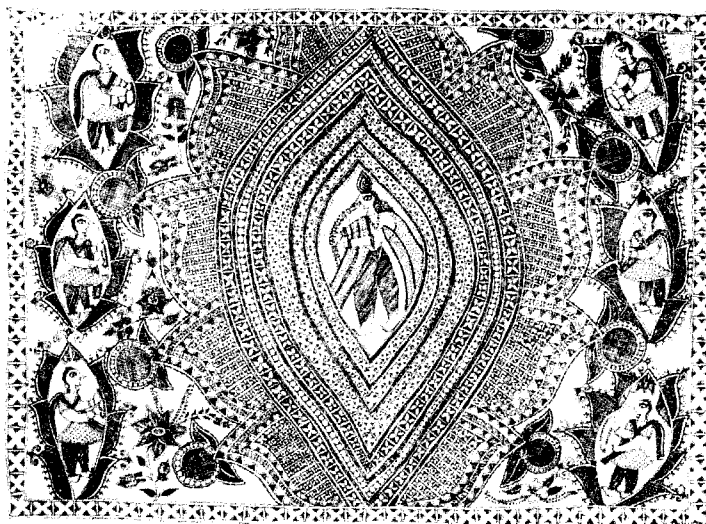
ومتعاضم.

وهكذا نجد أن العمل الجنسي غير مهمل في ظل اللاوعي وتخيلاته الوهمية، بل هو، على العكس من ذلك، موضع إجلال وإكبار، وقد سلط عليه ضوء عرف كيف يكشف عما في كافة أوجهه التي لا تعد ولا تحصى، من قبلة فالكاما - سوترا، إذن، يرغب في أن يكون قبساً ينير للآخرين، ودليل تربية، ينسجم مع نوع محدود من المجتمعات.

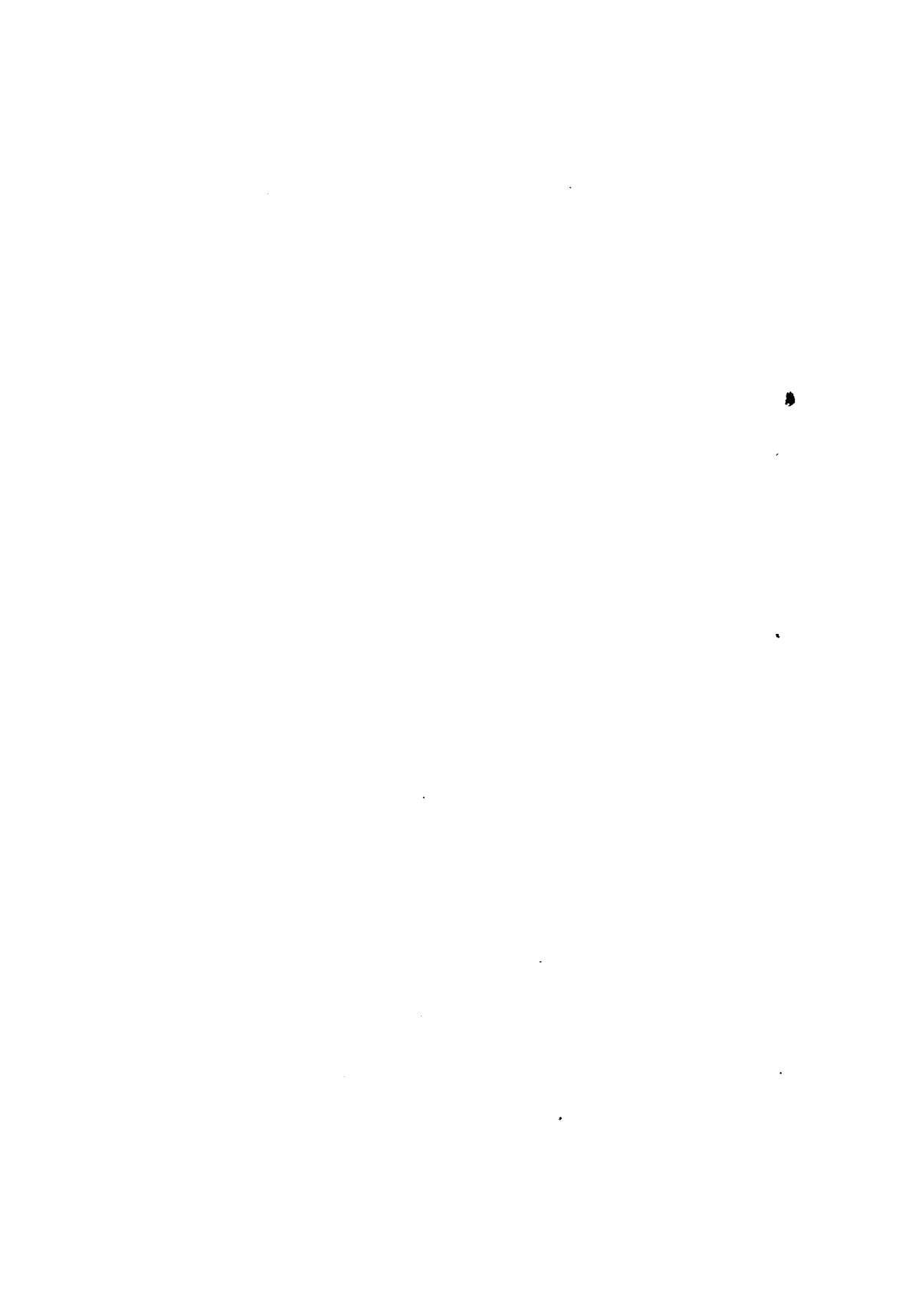
إلا أنه يوسع رسالته تلك أن تبهنا الكثير: رفاة الإحساسات وبعراضف. وعذوبة اللذات الاستهلاكية، وتنوعات الأوضاع المشتركة ترسم لذة جمالية حقيقية. إنه رومانسية المتعة بلغ كامل مغزاه ومعناها بامتزاجها في منمنمات رائعة... إنه بحث في الحب..

^(*) الكوندا ليني: غدة في أسفل العمود الفقري ملتفة، يشبهها اليوغيون بالأفعى. - المخرر..





الفصل الخامس
الإسرائيليون القدماء



كلمة لابد منها

سيلحظ القارئ أن هذا الفصل هو الفصل الوحيد، من بين فصول الكتاب الخمسة، الذي لم يزين صفحاته أي عمل فني، ذلك لأن الأعمال الفنية الخالدة التي قدمتها للبشرية الحضارتان الفرعونية والرافدية، بخاصة، ما كان لها أن تشهد النور لو لم تتهياً أسبابها من الاستقرار والتأمل والوحدة الثقافية و... تلك الأسباب التي لم تتوفر لليهود في يوم من الأيام.

نقرأ في سفر أخبار الأيام الأول الفصل السابع عشر: «فكان في تلك الليلة أن صار كلام الله إلى ناتان قائلاً: اذهب وقل لداود عبدي هكذا يقول الرب لا تبني لي أنت بيتاً للسكن. إني لم أسكن بيتاً مذ يوم أخرجت إسرائيل إلى هذا اليوم ولكني كنت من خيمة إلى خيمة ومن مظلة إلى مظلة.»، فاليهود حتى القرن العاشر أو التاسع ق.م - الفترة التي كان فيها داود على رأس اليهود لمحاربة الفلسطينيين أهل البلاد - كانوا جماعة من البدو الرحل ما أن استقر بهم المقام في قسم من فلسطين حتى شتتهم سبي آشور من جديد. وسيلحظ القارئ أيضاً أن الكاتب قد اعتمد، في هذا الفصل، اعتماداً كلياً على التوراة. ولو لم تتوفر بين يدي القارئ العربي مؤلفات عديدة تناولت التوراة بالتحليل والتفصيل، لتحتّم علي هنا أن أمهد للفصل بكلمة تضع القارئ على حقيقة التوراة كما وصلت إلينا اليوم. ولكنني، على الرغم من كل شيء، أدعو القارئ للإطلاع على مؤلفي الأستاذ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى ولغز عشتار للتعرف على البنية الإجمالية لثقافة المنطقة وحضارتها وما كان لتلك البنية الثقافية من أثر بالغ في رسم كل جديد لاحق.. وعندها (عند ذلك) سيكتشف القارئ الأصول التي اعتمدها التوراة فجاءت في أساسياتها - المترجم -.

تسلسل زمني

أبرام يغادر أور.	نحو ٢٠٠٠ ق.م
نزوح موسى عن مصر، ظهور الرب لموسى في سيناء	نحو ١٢٥٠ ق.م
الوصول إلى أرض كنعان	نحو ١٢٠٠ ق.م
النبى صموئيل	القرن التاسع ق.م
داود	نحو ١٠٠٠ ق.م
الأنبياء	١٠٠٠ - ٤٥٠ ق.م
سليمان	نحو ٩٥٠ ق.م
النبى اشعيا	القرن الثامن ق.م
الأسر البابلي لليهود	من ٥٨٧ ق.م

«حبك أطيب من الخمر»

لم يولف «بنو إسرائيل»، قبل الخروج^(٥)، شعباً، ذلك لأن أفراد الأسرة الواحدة هم الذين تكاثروا على مر العصور، فتوزعوا في قبائل وعشائر. ثم إن إنتماءهم كان يركز على عقيدتهم المشتركة أكثر منه على قرى الدم، أما عاداتهم وتقاليدهم فلم تكن مستقرة، بل تغيرت دوماً بفعل التأثيرات الخارجية، ولم يكن لآبراهيم نفسه ولا لأبنائه وأحفاده مفاهيم أخلاقية محددة ودقيقة كما لم يكونوا بمدركين لا للخير ولا للشر، لا بالمسموح به ولا بالمحظور، فكانوا يجهلون أيضاً ما يتحتم عليهم القيام به أو الإقلاع عنه لیسلكوا سواء السبيل. أي ما يدعوه العهد القديم بـ«يطيب للرب»، فسعوا جاهدين، وعلى غير هدى، ليكونوا أبراراً، في نظرهم هم قبل غيرهم، وقد تبين لهم دائماً أن محاولاتهم تلك، إن هي إلا آثام وخطايا، ولكن ما هي الخطيئة إذن؟

(٥) خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى متجهين إلى فلسطين، وقد اختلف العلماء في تحديد تاريخ هذا الخروج: ١ - في القرن السادس عشر ق.م، ٢ - في منتصف القرن الخامس عشر ق.م. ٣ - نحو عام ١٢٩٠ ق.م، ٤ - في عصر منفتح أو حوالي ١٢٣٠ ق.م. - المترجم -.

ارتكب الرجال والنساء المعاصي واستسلموا للذليلة، غير أنهم لم يكونوا مدركين لانحرافهم عن طريق الهداية، مادام الرب الإله لم يُظهر لهم سخطه وغضبه، بأن أنزل بالمذنبين عقاباً ما.

كانوا سلماء النية سذجاً غير مدركين. ثم إنهم قاموا بما قام به أسلافهم، إذ تكيفوا مع أخلاق الشعوب والقبائل التي عاشوا بين ظهرانيها، فاقتدوا بعاداتها.. فهل هم، والحال هذه، مذنبون، إن هم جهلوا مواطن الشر^(٥)؟

فليس ثمة تعاليم. مقدورهم الرجوع إليها خارج قوانين بلاد الرافدين، وخارج البلاد التي جابوها وأقاموا بها، وليس ثمة أحد يملئ عليهم كبح غرائزهم وكتبها ومنع نسائهم وبناتهم من المشاركة في العبريات الجنسية التي كانت تقام في أعياد الخصب، وليس ثمة من يحظر عليهم الاقتران بنساء أجنبيات أو يحول بينهم وبين إرواء ميولهم الجنسية المثلية (اللسواط - السحاق)، كما كانوا يجهلون أو بالأحرى، لما يعرفوا بعد، ما يتحتم عليهم القيام به أو ما ينبغي لهم الإقلاع عنه.

ومن قصص الخطايا التي ارتكبتها إبراهيم وذريته، والكفارة التي فرضها الرب عليهم، أدركوا، حقاً، أن بعض الأفعال منافية للأخلاق، وأن على كل منهم، بدءاً من الآن، الإقلاع عنها، كيلا يجر على نفسه سخط الرب وثأره... ونحن نعني بهذه القصص: «كتاب العهد القديم»- التوراة -

إن الطاعة غير المشروطة، والمصحوبة بثقة عمياء، في كلام الرب، كانت البرهان الوحيد على سلامة سلوكهم وصحته، مادام هذا السلوك غير محدد في أوامر ونواهٍ معلنة وصریحة. وعلى هذا، فقد استمر إبراهيم وذريته،

^(٥) من الواضح هنا أن المؤلف يتقدم بتبرير ساذج للروايات الفاحشة الواردة في سفر التكوين.

إن صح التعبير، يجربون ويبلون ويركنون إلى بصيرتهم الخاصة كيلا يأثموا ويرتكبوا الموبقات، وإلا فإن الرب سينزل بهم شر العذاب.

وقد نظم سلوك بني إسرائيل الخلقى ما كان يدور بين الرب وأسلافهم من قصص وأحاديث، إلى حين إعلان موسى لوصاياها العشر ولقوانينه الأخلاقية التي سنّها للمستقبل. ثم إنهم بفضل هذه التعاليم الملزمة، التي أمرهم بها الرب فحضعوا لها، أخذوا يتميزون عن الآخرين، ليس بمظهرهم وسلوكهم الخارجيين فقط، بل بتجربتهم الروحية أيضاً، ذلك لأن هؤلاء الآخرين لا يقاسمونهم إيمانهم بالرب ولا خضوعهم، غير المحدود لأوامره^(*).

وليس ثمة وصف متكامل يشير إلى حقيقة هذا الإله، الكلّي القدرة، والكلّي الوجود، كما أننا لا نعرف كيف أكمل المؤمنون الصورة الإلهية لوحداثيته وتفردته، تلك الصورة التي حبّوها بصفات إنسانية. فهو لم يكن مرئياً، وليس بمقدور أحد يتطلع إليه أو ينظر إليه مواجهة، ولم تكن له ثمة تماثيل، وهو يختلف تمام الاختلاف عن بقية الآلهة الأخرى: إنه مقيم في الفكر والمخيلة.. ومع ذلك، فإن الصفات التي أطلقها عليه العهد القديم وما صدر عنه من أقوال، كانت متناقضة بل تنسجم مع ما كانت عليه طبيعة عباده من الخلق، كان غضوباً ووديعاً، دموياً ومسالماً، معانداً وذا نزوات، والرحمة لا تعرف إلى قلبه سبيلاً، فويل لكل من لا يمثّل لصوته لانه لا بد رازح تحت لعناته:

«فتكون ملعوناً في المدينة، و ملعوناً في البرية، وتكون ملعونة سلتك ومعجنتك، و ملعوناً ثمر بطنك و ثمر أرضك، ونتاج بقرك و غنمك، وتكون ملعوناً أنت في دخولك، و ملعوناً أنت في خروجك، يرسل عليك الرب

(*) لم يخضع اليهود، طوال تاريخهم إلا إلى أوامر الرب في إبادة سكان البلاد، فطالما، انتهكوا وصاياه الأخرى، والتوراة تثبت ذلك - المترجم -.

اللعة والاضطراب والوعيد في كل ما تمتد إليه يدك مما تصنعه، حتى تبيد وتهلك سريعاً، بسبب سوء أعمالك بعدما تركتني، يلصق الرب الوباء بك إلى أن يفنيك من الأرض التي أنت داخل إليها لترثها، يضربك الرب بالضنى والحمى والبرداء والتهاب مع الجفاف والصدى والذبول، فتطاردك حتى تهلك، وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً، ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل من السماء عليك حتى يبيدك. يجعلك الرب تنهزم أمام أعدائك، تخرج عليهم من طريق واحدة وتهرب من أمامهم من سبع طرق، وتكون موضوع ذعر لجميع ممالك الأرض. وتصير جثتك مأكلاً لطيور السماء ووحوش الأرض وليس من يقلقها. يضربك الرب بقروح مصر والبواسير والجرب والحكة فلا تستطيع مداواتها. ويضربك الله بالجنون والعمى وحيرة القلب، فتتلمس في الظهيرة كما يتلمس الأعمى في الظلمة، ولا تنجح في سبلك وتكون مستغلاً ومسلوباً طوال أيامك وليس لك مخلص.. تخطب المرأة فيغتصبها رجل آخر، وتبني بيتاً ولا تسكن فيه، وتغرس كرمًا فلا تأكل بواكيره، ويذبح ثورك أمام عينيك ولا تأكل منه.. حتى تصير مجنوناً.. يضربك الرب بقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين فلا تستطيع مداواته، من أخمص قدمك إلى قمة رأسك...».

هذه اللعنات وما أنزل «الرب المخيف» من لعنات أخرى قاسية على بني إسرائيل، كان ابراهيم يجهلها، على الرغم من علمه بأن الله قد أنزل عقابه بالبشر «طوفاناً» لما لحق بهم من خزي وعار، وأن سلفه نوح لم يكن لينجو هو وذووه لو لم يكن «باراً» مؤمناً بكلام ربه الذي لم يتطرق إليه الشك مطلقاً ممتثلاً لأوامره وخاضعاً لها.

اتتمر ابراهيم، أيضاً، بأمر الرب، محبة له وخشية منه، وإننا لندهش، حقاً، بصدق العهد القديم وصراحته البالغين في وصفه لابراهيم وأفعاله المثيرة للريب، إذ كان يدعى ابرام، وبخاصة عندما ندرك أن هذا الموصوف سيكون، في المستقبل القريب، محط احترام المؤمنين جميعاً، بوصفه الجد الأكبر للمسيح. بيد أن الكتاب المقدس يرغب، بل ينبغي له أن يكشف عن الحقائق ويعلمها للمؤمنين، لا أن يخفيها وينكرها، فكان من الضروري أن يصف كيف عاش الناس حياتهم حقاً، لا أن يروي لنا أنهم عاشوا أبراراً، فمن زلاتهم وخطاياهم يستخلص الخلف الدروس والعبر. في البدء نظم كل منهم سلوكه وفق عادات البلاد التي أقام بها أبرام وأسرته وتقاليدها، أو تلك المناطق التي رحل إليها بعد أن أمره الرب «انطلق من أرضك وبيت أبيك، إلى الأرض التي أريك.» وتكيف أبرام وذووه، ما أمكنهم ذلك، مع أخلاق البلد الذي نزلوا فيه، ووفروا لمعيشتهم بالوسائل نفسها التي يستخدمها سكان المناطق التي هاجروا إليها مسالين^(*) كان أبرام مربي ماشية، يسوق هو وابن أخيه لوط، في ترحالهما، وحلولهما، قطعاناً من الأبقار والخراف. ولكن ابراهيم غادر أرض كنعان التي خصصها الرب له، إذ حلت بها المجاعة^(**)، وانطلق ميمماً وجهه شطر مصر.

جرى العرف، في بلاد الرافدين، الموطن الذي غادره أبرام، ان يطالب أصحاب المقام وكبار الكهنة، بالنساء الجميلات لخدماتهم الخاصة. وعلى هذا، فإن كل مقاومة، للحيلولة دون ذلك، كانت تذهب هباء. كان ابراهيم على علم بذلك. فخامره الشك أن تلك العادة تسري أيضاً على كافة البلاد.

(*) كانوا مسالين في بدء إقامتهم. - المترجم -.

(**) ويريدونها أرض يمن ويسر. - المترجم -.

ومن ضمنها مصر، فما إن اقترب وزوجه من تخومها، حتى خاطب ابراهيم زوجه العاقر قائلاً: «ساراي، أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر، فإذا رآك المصريون، قالوا: «هذه امرأته»، فيقتلونني ويقتلونك على قيد الحياة. فقولي أنك أختي، حتى يحسن إلي بسببك وتحيا نفسي بفضلك». وما ارتآه أبرام كان الصواب عينه، إذ رآها وأشاد بجمالها، لدى الفرعون، حراس الحدود المصريون وأمرء «الفرعون» معاً وبعد أن اقتيدت ساراي إلى بيت الفرعون، أحسن ملك المصريين وفادة ابرام بسببها، وصار له «لزعمه بأنه أخوها»: «غنم وبقر وحمير وخدام وخدامات وحمائر وجمال.».

ولو لم يضرب الرب فرعون وأهل بيته ضربات شديدة «بسبب ساراي امرأة ابراهيم»، لكان باستطاعة الزوج المتبصر الخدوم، الذي عرف بزوجه أختاً له، أن يستقر في أرض مصر عزيزاً رضي البال، غير أن الفرعون لم يشأ أن يدخل في خلاف مع قوة عليا تجلت له قدرتها وعظمتها، كما أنه توجه بالملامة إلى الزوج الذي أميط اللثام عن أكذوبته: «ماذا صنعت بي؟ لِمَ لم تعلمني أنها امرأتك؟ لِمَ قلت: هي أختي، حتى أخذتها لتكون لي امرأة؟ والآن هذه امرأتك: خذها وامض» «وأمر فرعون قوماً فشيعوه هو وامرأته وكل ماله..» وكان أبرام غنياً جداً بالماشية والفضة والذهب، عندما ترك مصر هو وامرأته ساراي ولوط وكل ما كان معه.

وقد تميزت هذه الفترة الزمنية من حياة أبرام المسالمة الهادئة، التي انفصل فيها أبرام، فيما بعد، عن لوط بسبب ما وقع من خصومات بين رعاة ماشيته ورعاة ماشية لوط، بمخاصمة من خصائص عادات ذلك الزمان وتقاليده: تلك هي الدعوة التي وجهتها ساراي إلى زوجها: «هو ذا قد حبسني الرب عن الولادة، فادخل على خادمتي، لعل بيبي يُبنى منها». فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن ساراي، الزوجة المثالية، قد تبنت موقف نساء «بلاد

الرافدين» المثاليات، حيث ولدت وترعرعت فنصحت زوجها باتخاذ حظية لإنجاب البنين.. إذ لا بد أن يكون للرجل أبناء وبخاصة الذكور منهم. وامتثل أبرام ل.. صوت ساراي «واتخذ خادمة امرأته المصرية هاجر زوجاً له، فلما رأت هاجر أنها قد حملت، هانت سيدتها في عينيها، فقالت ساري لأبرام: ظلمي عليك إني وضعت خادمتي في حضنك فلما رأت أنها قد حملت هنت في عينيها. ليحكم الرب بيبي وبينك». فقال أبرام لساراي: «هذه هي خادمتك في يدك، فاصنعي بها ما يحسن في عينيك». ان ما حدث يتطابق وقانون حمورابي الذي سُنَّ، على الأرجح «في الوقت الذي غادر فيه أبرام مملكة بابل^(٥) وولدت هاجر لأبرام ابناً، فسمي ابرام ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، الذي يكون أباً لأثني عشر رئيساً، فقال الرب... «وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه. وها أنذاك أباركه وأتميه وأكثره جداً جداً، وولد إثني عشر رئيساً» سيعيشون في مراع وقرى من خيام».

واستناداً إلى العهد القديم، فقد جرى العمل بشعيرة الختان بناء على تعليم منزل صريح وواضح، أما السَّنة التي يُختن فيها الذكور فقد تغير ميقاتها، إذ لم يعمد ابراهيم إلى الختان لإقامة الدليل على النضج الجنسي أو الاحتفاء به، كما هو الحال في مصر الفرعونية، وإنما اعتمده ليسم به، منذ سن مبكرة لجميع الذكور، من أهل بيته والخارجين من صلبه.

^(٥) قانون حمورابي كما نعلم لم ينته بوفاة مشرعه، بل امتد لقرون عدة لاحقة.. وعليه فليس، بالضرورة أن يكون هذا التشريع قد سُنَّ في الوقت الذي غادر فيه أبرام مدينة أور.. ومن المفيد أن نعلم أن أسفار موسى الخمسة في شكلها الحالي، وهي التي اعتمدها مؤلف هذا الكتاب، تعود على الأرجح إلى القرن السادس والخامس ق.م - المترجم -.

بعد ثلاث عشرة سنة من ولادة إسماعيل، ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة، تراءى له الرب وقال له: «أنا الله القدير، فسر أمامي وكن كاملاً. سأجعل عهدي بيني وبينك وسأكثرك جداً جداً» فسقط أبرام على وجهه. وخطبه الرب قائلاً: «ها أنا أجعل عهدي معك، فتصير أب عددٍ كبير من الأمم، وساميك جداً جداً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم، عهداً أبويّاً، لأكون لك إلهاً ولنسلك من بعدك.. وأعطيك الأرض التي أنت نازل فيها، ولنسلك من بعدك، كل أرض كنعان، ملكاً مؤبداً، وأكون لهم إلهاً^(*)». هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: «يختن^(**) كل ذكر منكم، فتختنون في لحم قلفكم، ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم. وابن ثمانية أيام يختن كل ذكر منكم من جيل إلى جيل، سواء أكان مولوداً في البيت أم مشترى بالفضة من كل غريب ليس من نسلك. يختن المولود في بيتك والمشتري بفضتك، فيكون عهدي في أجسادكم عهداً أبويّاً. وكل أقلف من الذكور لم يختن في لحم قلفته تفصل تلك النفس من ذويها، لأنه قد نقض عهدي» و«بالختان تميز» جميع الذكور في بيت إبراهيم من حيرانهم.

وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين عندما تراءى له الرب وأصدر عليه أمره: «ساراي امرأتك لا تسمها ساراي، بل سمها سارة. وأنا أباركها وأرزقك منها ابناً وأباركها فتصير أمماً..» فسقط إبراهيم على وجهه

(*) هذه الفقرة من العهد القديم تدل دلالة واضحة على أن اليهود ليسوا إلا دخلاء، وعلى أن الأرض التي نزلوا فيها ما كانت لهم في يوم من الأيام. - المترجم -.

(**) الختان عادة مصرية أخذها اليهود من الفراعنة الذين استعبدوهم، ونحن نعلم ما لمصر الفرعونية من علو مقام في العالم القديم.. فلعل اليهود قد أخذوا بشعيرة الختان تيمناً بفراعنة عظام اسقاطاً لما أصابهم من مذلة ومهانة... - المترجم -.

بنو إسرائيل

وضحك، وقال في قلبه: «ألابن مئة سنة يولد ولد.. أم سارة، وهي ابنة تسعين سنة، تلد؟»

ضحك ابراهيم لتشككه، غير أنه، مع ذلك، كان يؤمن، مدفوعاً بخشيته من الرب، بأن سارة ستلد له ابناً، لأن الرب صرح له قائلاً: «وستسميه اسحق، لأنني سأقيم عهدي الأبدي بيني وبينه وبين ذريته من بعده..»

امتلأ ابراهيم لأوامر الرب جميعها.. إلا أن سارة، التي وقفت عند باب الخيمة تتسمع، فوجئت بحديث ابراهيم مع رسل الرب الثلاثة الذين استقبلهم ابراهيم بالحفاوة والتكريم، إذ قال أحدهم: «سأعود إليك في مثل هذا الوقت، ويكون لسارة امرأتك ابن» وسارة التي «انقطع عنها ما يجري للنساء» ضحكت في نفسها قائلة: «أبعد هرمي أعرف اللذة، وسيدي قد شاخ؟» فقال الرب لابراهيم: ما بال سارة قد ضحكت قائلة: «أحقاً ألد وقد شخت؟ هل من أمر يعجز الرب؟ في مثل هذا الوقت أعود إليك ويكون لسارة ابن» فأنكرت سارة قائلة: «لم أضحك، ذلك لأنها خافت».

وقضى الله، في السنة نفسها التي بارك فيها اقتران ابراهيم بسارة. أن يدمر مدينتي سدوم وعمورة، إذ علا الصياح والصراخ عليهما واشتد، وخطيئة من فيها قد ثقلت جداً، فتقدم ابراهيم يتضرع للعفو عنهما: «أحقاً تهلك البار مع الشرير؟ لعله يوجد خمسون باراً في المدينة، أحقاً تهلكها ولا تصفح عنها من أجل الخمسين باراً الذين فيها؟ حاشى لك أن تصنع مثل هذا: أن تميم البار مع الشرير، فيكون البار كالشرير، حاشى لك أديان الأرض كلها لا يدين بالعدل» فقال الرب: «إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة، فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم» وظل عدد هؤلاء الأبرار ينقص إلى أن قال ابراهيم: «لربما وجد هناك عشرة» فقال له: «لا

أهلك المدينة من أجل العشرة». ومضى الرب عندما انتهى من الكلام مع ابراهيم، ورجع ابراهيم إلى مكانه.

كان يقيم في سدوم ابن أخي ابراهيم، لوط. هبط الملاكان في سدوم مساءً، وكان لوط جالساً عند بابها. فلما رآهما، قام للقائهما وسجد بوجهه إلى الأرض، وقال: «سيديّ ميلاً إلى بيت عبدكما وبيتنا واغسلا أرجلكما، ثم تبران وتمضيان في سبيلكما». فقالا: «لا، في الساحة نبيت». فألح عليهما كثيراً، فمالا إليه ودخلا منزله. فصنع لهما مأدبة وخبز فطيراً، فأكلاه. وقبل أن يضطجعا، إذا بأهل المدينة، أهل سدوم، قد أحاطوا بالمنزل، من الصبي إلى الشيخ، جميع القوم إلى آخرهم. فنادوا لوطاً وقالوا له: «أين الرجلان اللذان قدما إليك في هذه الليلة؟ اخرجهما لكي نعرفهما^(*)» فخرج إليهم لوط إلى المدخل وأغلق الباب وراءه وقال: «أسألکم ألا تفعلوا شراً، يا اخوتي. ها أنذا لي ابنتان ما عرفتا رجلاً: أخرجهما إليكم، فاصنعوا بهما ما حسن في أعينكم. وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً، لأنهما دخلا تحت ظل سقفي».

كان واجب الضيافة، في سدوم، أرفع شأنًا من عذرية الفتيات. ولكن لم يكن للوط، على الرغم من عرضه، ولا لضيفيه، أن يمنعوا شرور اللوطيين وعنفهم في سدوم، لو لم يضرب الضيفان المهاجمين، من صغيرهم إلى كبيرهم، بالعمى، فلم يقدرُوا أن يجدوا الباب. عندئذ نصح المرسلان من لدنه تعالى لوطاً بالرحيل عن سدوم هو وزوجه وبناته. ثم إن لوطاً أراد أن يضطحب معه أصهاره الذين سيتخذون بناته أزواجاً،

(*) عرف امرأته - اقترن بها وضاجعها: وعرف الإنسان حواء امرأته فحملت وولدت قاين (سفر التكوين، الفصل الرابع - المترجم -).

لكنه بدا «كمازح في أعين أصهاره» ذلك لأنهم لم يصدقوا أن المدينة ستهلك عقاباً لها على آثامها وذنوبها. فلما طلع الفجر، أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وابنتيه، لشفقة الرب عليه، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة. فلما أخرجاهم إلى خارج قال: «انج بنفسك لا تلتفت إلى ورائك ولا تقف في السهل كله، وانج إلى الجبل لئلا تهلك». ويدلنا ذلك على أنه ينبغي للفارين، ألا يأسفوا على ما حلَّ بهم من خسارة مادية، ولا على إقلاعهم عما في سدوم من عادات وتقاليد، كما ينبغي لهم: ألا يفكروا، البتة، بما خلفوه وراءهم.

وعندما أمطر الله على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السموات، وقلب «تلك المدن وكل السهل وجميع سكان المدن وبنات الأرض» التفتت امرأة لوط إلى ورائها «فصارت نصب ملح» وصعد لوط من صوعر وأقام في الجبل هو وابنتاه معه، لأنه خاف أن يقيم في صرعر. فأقام في مغارة هو وابنتاه. فقالت الكبرى للصغرى: «إن أبانا قد شاخ، وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها. تعالي نسق أبانا خمراً ونضاجعه ونقم من أبنينا نسلاً» فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، وجاءت الكبرى فضاجعت أباهما ولم يعلم بنيامها ولا قيامها. فلما كان الغد، قالت الكبرى للصغرى: «ها أنذا قد ضاجعت أمس أبي، فلنسقه خمراً هذه الليلة أيضاً، وتعالي أنت فضاجعي لنقيم من أبنينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بنيامها ولا قيامها. فحملت ابنتا لوط من أبيهما».

وولدت الكبرى ابناً وسمته موآب، وهو أبو الموابيين إلى اليوم، والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمته بنعمي، وهو أبو بني عمون إلى اليوم» فلم

يكن، والحال هذه، للموآبيين ولا لبني عمون، الإسرائيليين اعتباراً ما، إذ كانوا «أبناء فسق وفجور» - أولاد سفاح^(*) -

ومن المحتم ألا تقوم لعادة تسليم الزوجة إلى الغير قائمة، كما فعل أبرام في مصر، فقد ذكر أن ابراهيم، عندما حل في جرار قادماً إليها من بلاد غربية، قال في سارة امرأته: «هي أختي» فأرسل أيمملك ملك جرار، فأخذ سارة^(**) ولم يكن أيمملك قد دنا منها إذ أتاه الرب في حلم الليلة وقال له: «إنك ستموت بسبب المرأة التي أخذتها، فإنها تحت سلطان زوج لها» فسعى أيمملك، محاولاً، في الحلم، تبرئة ساحته: «أليس هو الذي قال لي: هي أختي، وهي أيضاً قالت: هو أختي، بسلامة قلبي ونقاوة كفي صنعت ذلك».

وصفح الرب عن أيمملك و ابراهيم كليهما. ثم إن سارة حملت لابراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي وعد الله به، وسمناه اسحق، وفي اليوم الثامن تحت «بحسب ما أمره الرب به» لم يرو لنا العهد القديم أفعال ابراهيم وابن أخيه لوط لكي يدينهما، ويكشف لنا عن ضعفهما ووهنهما، إذ ترمي القصص الدينية إلى تعليم المؤمنين، صراحة، أن الله يستهجن ويقاصص بلا رحمة ذوي الأخلاق الشائنة: زنى المرأة المتزوجة، واللذات المثلية الشاذة، والعلاقات الجنسية بين الآباء وبناتهم.

^(*) جاء في حاشية من كتاب «كتب الشريعة الخمسة» ان لبني موآب وبني عمون تقليداً يمكنهم من الافتخار بمثل هذا الأصل. ان ابني لوط لا تظهران هنا في مظهر الفجور، لأن غايتهم الوحيدة هي بقاء النسل. وتفترض الآية، ٣١، أن يكون لوط وابنتاه الناجين الوحيديين من الكارثة. ولعل قصة سدوم، التي دمرت بسبب خطيئة سكانها، قصة عبرانية أردنية قديمة توازي رواية الطوفان. - المترجم -.

^(**) ترى كم كان عمر سارة عندما أخذها أيمملك؟ - المترجم -.

وقد برأ الرب ابراهيم من خطاياها، ذلك لأن ابراهيم كان أبداً على أتم الاستعداد للامثال، دوغما تردد، لأوامر ربه، وإلى الإيمان بخشوع بما لا يمكن تصديقه، إذا شاء الرب، وعلمه ذلك، بل كان مستعداً لقتل، حتى ابنه اسحق^(*) وحيداً، الذي أحبه كل الحب، ليقدمه قرباناً (محرقة) على أحد الجبال: ولما بنى ابراهيم هناك المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه وجعله على المذبح فوق الحطب ومد ابراهيم يده فأخذ السكين ليذبح ابنه. ناداه ملاك الرب من السماء قائلاً: «ابراهيم ابراهيم!» قال: «لبيك». قال: «لا

^(*) في الأنشودة الجدلية «خوف ورعدة» تأليف الفيلسوف سرن كير كجورد ترجمة فؤاد كامل، ملحوظتان هامتان جاءتا في تذييل الدكتور فؤاد كامل للكتاب هما: «إن القرآن الكريم لم يحدد، صراحة، اسم الابن الذبيح ولكننا نستطيع أن نستخلص منه فيما يشبه اليقين أنه لم يكن اسحق بحال من الأحوال، وإلا لما ذكره بعد قصة الفداء مباشرة في هذه الآية الكريمة: ﴿وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين﴾ فهذه البشرية كانت تالية لقصة التضحية ولم تكن قبلها».

ونحن نعلم ان اسحق لم يكن وحيد أبيه إذ كان لابراهيم ابن آخر من هاجر هو إسماعيل الذي حضر وفاة أبيه ودفنه.

أما عن المكان الذي دارت فيه أحداث هذه القصة، فهي مكة. والدليل يؤخذ هنا أيضاً من العهد القديم، ففي الآية العشرين من الإصحاح ٢١ من سفر التكوين ان ابن هاجر (وهو اسماعيل) «.. سكن في برية فاران» «وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر» وفاران تطلق على مواضع منها جبال مكة.

أما سبب ذكر اسحق في التوراة بدلاً من إسماعيل، على حين أن الدلائل جميعاً تشير إلى أن اسماعيل كان هو المقصود بالتضحية - فذلك لأن اليهود كانوا حريصين على أن يكون أبوهم الذي انحدرت منه سلالتهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حداثة سنه. - المترجم -.

تمد يدك إلى الصبي ولا تفعل به شيئاً، فإني الآن عرفت أنك متق الله. فلم تمسك عني ابنك وحيدك».

رفع ابراهيم عينيه ونظر، فإذا بكبش واحد عالق بقرنيه في دغل، فعمد ابراهيم إلى الكبش وأخذه وأصعده محرقة بدل ابنه، وعلى هذا فإننا ندرك خضوع ابراهيم غير المشروط.. كما نلاحظ أيضاً أن الله لا يقبل بأن يضحى الآباء بأبنائهم، تلك العادة المسموح بها في القبائل التي كان ابراهيم يعيش في كنفها.

فقد أصبح من المحتم أن يحمل محل التضحية البشرية، من الآن فصاعداً، كبش أو حمل.

وخاف ابراهيم وقد بلغ من العمر عتياً، أن يتخذ ابنه امرأة من بنات الكنعانيين الذين يقيم في وسطهم، فأرسل اقدم خدام بيته ل يبحث لأبنه عن خطيبة في بلاد الرافدين، عند ابن أخيه بتوئيل^(٤) الذي كان له ابنة اسمها رفقة. وانتظر الخادم إلى أن تأكد له ان الفتاة كريمة محبة للضيف، إذ لم تقدم الماء له فتسقيه هو وحده فحسب، بل سارعت واستقت جميع جماله أيضاً، فطلب إليها أن تكون زوجة اسحق، ولكي يعقد خطبتهما، وضع لها حلقة أنف من ذهب وزنها نصف مثقال، وسوارين ليديها وزنهما عشرة مثاقيل ذهب. وبعد موافقة أبيها وأخيها لابان قالوا للخدام: «ان الأمر صادر من عند الرب، فليس لنا أن نكلمك فيه بشر أو خير، هذه رفقة أمامك، خذها وامض فتكون امرأة لابن سيدك، كما قال الرب» فلما سمع خدام ابراهيم كلامهما، سجد للرب إلى الأرض، وأخرج حلبي فضة وحلي ذهب وثياباً وأعطاهما رفقة، وهدايا قدمها لأخيها وأمها. حسب ما كانت تقتضيه عادة

(٤) في رواية أخرى ان رفقة زوج إسحق هي، بنت ناحور، أخي ابراهيم. - المترجم -.

بنو إسرائيل

أهل البلاد. ينبغي للرجل الطيب المنبت أن يتخذ زوجاً له، فتاة عذراء، من أسرة أحسن اختيارها، أو من أسرته هو، إن كان ذلك ممكناً.
«وأحب اسحق رفقة حينما قدمها له الخادم.. فصارت له زوجة، وتعزى اسحق عن أمه».

إن لحق البكورية، الذي يعود إلى الابن الأول المولود من الزوج الشرعية، أهمية بالغة.. وهذا ما تشير إليه قصة يعقوب وعيسو، التوأمان اللذان ولدتهما رفقة لزوجها اسحق.

ومع ذلك فقد كان التوأمين من جبلتين متباينتين تمام التباين، على الرغم من أن أباً واحداً قد أنجبهما، وأماً بعينها قد أخرجتهما من أحشائها، إذ صار عيسو صياداً فخرج إلى الريف والحقول، وصار يعقوب رجلاً بسيطاً محباً للاستقرار، فأقام بالخيام. وأحب اسحق عيسو لأنه كان يستطيع صيده، وأما رفقة فأحبت يعقوب.

وذات يوم، عندما رجع عيسو من جولات صيده، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ، طلب إلى أخيه يعقوب أن يطعمه مما أعدّه من مرق أحمر، فقال له يعقوب: «بيني اليوم بكريتك» فقال عيسو: «ها أنذا صائر إلى الموت، فما لي والبكرية؟» فقال يعقوب: «احلف لي اليوم» فحلف وباع بكريته ليعقوب. فأعطى يعقوب لعيسو خبزاً وطبخاً من العدس، فأكل وشرب وقام ومضى، وهكذا استخف عيسو بالبكرية. إن هذه الملاحظة لتؤكد لنا انه من الخطأ أن يتنازل المرء عن حق يعود إليه بالولادة، كما تطلعننا أيضاً على أنه لا ينبغي لتصياد الصلب العود، من الآن فصاعداً، أن يفضل أخاه الراعي الحريص على أهل بيته.

كان يعقوب هو الأثير عند أمه.. وفضلته كثيراً على عيسو، ثم إن يعقوب تزوج بفتاة من قبيلة أجنبية ساعدته على خداع أبيه ليفوز ببركته

وبحق البكرية، وذلك ان اسحق، لما شاخ، قال لعيسو: «ها أنذا قد شخت ولا أعلم يوم موتي. والآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك، وأخرج إلى الحقل وصد لي صيداً، وأعد لي ألواناً طيبة كما أحب، واتني به فأكل، لكي تباركك نفسي قبل أن أموت». فنصحت رفقة يعقوب بأن يأتيها بجوادين^(*) من أفضل جياده لتعدهما لاسحق ألواناً طيبة من الطعام كما يحب: «فتأتي بها أباك ويأكل، لكي يباركك قبل موته». وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي عندها في البيت فألبستها يعقوب، وكست يديه وملاسه عنقه بجلد الماعز، وأعطت يعقوب ابنها ما صنعته من ألوان الطعام الطيبة والخبز. تعذر على اسحق أن يتعرف على ابنه يعقوب بعينه الكليلتين، إذ دخل عليه بثياب أخيه عيسو بعد أن كسا يديه بجلد المعز فبدتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، وقدم لأبيه الطعام. فقال اسحق ليعقوب: «تقدم حتى أجسك يابني، لأعلم هل أنت ابني عيسو أم لا، فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه، فجسه وقال: «الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو». ولم يعرفه، لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه. وقال: «تقدم قبلني يابني» فتقدم وقبله، فاشتم رائحة ثيابه وباركه وقال: «ها هي ذي رائحة ابني، كرائحة حقل قد باركه الرب. يعطيك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض، ويكثر لك الحنطة والنبذ، وتخدمك الشعوب وتسجد لك الأمم. سيداً تكون لأخوتك، ولك بنو أمك يسجدون لاعتك ملعون ومباركك مبارك». ولما عاد عيسو من صيده وعلم أن أخاه قد خدعه صرخ وبكى واشتكى قائلاً: «ألأنه سمي يعقوب قد تعقبني مرتين: أخذ بُكريتي، وها هو ذا الآن أخذ بركتي»، ثم قال: «أما أبقيت لي بركة؟».

(*) في سفر التكوين تقول رفقة لابنها يعقوب: «امض إلى الغنم وخذ لي من هناك جديدين من المعز جيدين». - المترجم -.

بنو إسرائيل

وبما ان للبركة الأبوية الممنوحة قيمة مقدسة لا تنقض ولا ترد، فإن اسحق لم يرجع عن كلامه، بل أجاب ابنه وقال: «ها أنذا قد جعلته سيداً لك.» عندئذ رفع عيسو صوته وبكى. فأجابه اسحق أبوه وقال له: «معهزل عن دسم الأرض يكون مسكنك، وعن ظل السماء الذي من عل. بسيفك تعيش وأخاك تخدم، ويكون انك، إذا قويت تكسر نيره من عنقك» وتحدد مصير عيسو الصياد بهذا القرار، فحقد على أخيه وتهدهه بالقتل، إلا أن رفقة أخبرت يعقوب، ابنا الأصغر الأثير، ونصحته بالهرب إلى لابان أخيها في حاران فدعا اسحق يعقوب وباركه مرة ثانية وقال له: «لا تأخذ امرأة من بنات الكنعانيين». أما عيسو فقد تزوج، إضافة إلى ما ملك من النساء، بابنة اسماعيل، الحفيدة الصغرى لابراهيم وهاجر.

وفي بلاد الرافدين، في بيت لابان خاله، استقبل يعقوب بالحفاوة والتكريم. وبعد انقضاء شهر من الزمان عرض لابان على يعقوب أجراً لقاء عمله. وأحب يعقوب راحيل ابنة لابان الصغرى، وكانت فتاة مليحة الوجه ممشوقة القامة، وتعهده بالعمل عند خاله سبع سنوات لتكون له. فكان عمله ثمناً لشراؤها.

أما ليئة، ابنة لابان الكبرى، فقد كانت «قصيرة البصر» وفي الصباح، بعد وليمة الزفاف التي أقامها لابان عند انقضاء سنوات العمل السبع، ثمن شراء راحيل، لم يجد يعقوب في مضجعه راحيل التي أحبها وإنما وجد ليئة أختها الكبرى. فتوجه إلى خاله يعاتبه ويلومه: «ماذا صنعت بي؟ أليس أنني براحيل خدمتك؟ فلم خدعتني؟» فقال لابان: «لا يصنع في بلادنا أن تعطى الصغرى قبل الكبرى.

أكمل أسبوع هذه، فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمها عندي سبع سنوات أخرى». فصنع يعقوب كذلك وأكمل أسبوع هذه، فأعطاه راحيل

ابنته امرأة له. فدخل يعقوب على راحيل أيضاً وأحبها أكثر من حبه لليئة. وعاد وخدم لابان سبع سنوات أخرى. وحملت ليئة دون أختها وولدت أربعة بنين. ولما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب، غارت من أختها وقالت ليعقوب: «هب لي ولداً، وإلا فإني أموت». فغضب يعقوب على راحيل وقال: «ألعي أنا مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن؟» قالت: «هذه خادمتي بلهة: ادخل عليها فتلد على ركبتي ويني بيبي أنا أيضاً منها» فأعطته خادمتها بلهة امرأة، فدخل عليها يعقوب مستجيباً لطلبها. فحملت بلهة وولدت ليعقوب ابناً. فقالت راحيل: «قد حكم الله لي واستجابني فرزقني ابناً».

وعندما حملت بلهة للمرة الثانية وولدت ليعقوب ابناً آخر، تهللت راحيل فرحاً وكبيراً وقالت: «قد صارعت أختي مُصارعات الله وغلبت» إلا أن ليئة التي «توقفت عن الولادة» قدمت لزوجها يعقوب خادمتها زلفة وأدى تنافس الأختين، وغيرتهما، وتوقهما إلى إنجاب البنين من يعقوب وزوجهما إلى تكاثر نسل يعقوب الذي غمرته به امرأاته وحظاياه.

ولكن عندما فتح الله رحم راحيل ووهبها ابناً من لحمها ودمها وسمته يوسف، عزم يعقوب على الرحيل بنسائه وبنيه، إذ خدم خاله بما فيه الكفاية. عند ذلك طلب يعقوب من لابان أن يعطيه أجره، فقد تجاوزت خدمته السنوات الأربع عشرة لتمتد وتبلغ عشرين سنة. وأذعن لابان بعد تردد وأعطى ابن أخته، زوج ابنتيه، جميع الحملان والجداء وجميع التيوس والمعز المخططة والرقطاء والبلقاء والنمراء، التي يمكن أن يجدها بين قطيعه. وبلغ نصيب يعقوب من القطيع، بفضل حنكته وحيلته، حداً أثار غيرة لابان وبنه فتألّبوا عليه وحقدوا. «ورأى يعقوب وجه لابان، فإذا به ليس معه كما كان أمس فما قبل.» فأوحى الرب ليعقوب: «ارجع إلى أرض

آبائك ومسقط رأسك، وأنا أكون معك» وساق يعقوب جميع ماشيته، وجميع الأموال التي اقتناها و«هرب، خادعاً لابان الآرامي ولم يخبره بفراره». جد لابان في اثرهم، لكنه تمالك نفسه وكظم غيظه ذلك ان الرب اتاه في الحلم وقال له: «إياك أن تكلم يعقوب بخير أو بشر». وشق على لابان أن يمثل لأمر الرب، لا لأن يعقوب قد هرب خفية، ولا لأنه قد ساق ابنتيه كما يساق أسرى الحرب، ولا لأنه لم يمنحه فرصة تشييعه بابتهاج وأغانٍ ودفٍ وكنّاره، ولا لأنه لم يستطع أن يقبل أحفاده وابنتيه، فحسب، بل لأن لابان قد حسبه لصاً سرق «أهنته» أيضاً «فتلك جريمة لا تغتفر».

ولما كان يعقوب لا يعرف ان راحيل قد أخذت «التيرافيم» وهي أصنام المنزل الأبوي، دعا لابان إلى تفتيش كل ما لديه ليجد ضالته، لكن لابان لم يجد الأصنام في خيمة راحيل التي أخفتها في رحل الجمل وجلست فوقها. وجس لابان الخيمة كلها فلم يجد شيئاً، إذ قالت راحيل لأبيها: «لا يغضب سيدي إن كنت لا أستطيع أن أقوم أمامه فقد حدث لي ما يجري للنساء».

وهكذا احتفظت راحيل، بالقرب منها، بالرموز التي انتهكت حرمتها ونقلتها سراً إلى منزل زوجها ثم إن لابان طالب، أثناء توديعه لبناته، بحقوقه الأبوية، تمشياً مع عادات سكان الرافدين: «البنات بناتي والبنون بني والغنم غنمي، وكل ما تراه هو لي، فماذا تراني اليوم أفعل بيناتي وبالبنين الذين ولدتهم؟» ومع ذلك فقد أحلى سبيل يعقوب وجميع أفراد أسرته وكل ما كسبه، في بلاد الرافدين من أموال وأنعام، وقطع مع يعقوب عهداً: فأخذ يعقوب حجراً وأقامه نصباً. وقال يعقوب لأخوته: «اجمعوا حجارة» فجمعوا حجارة وجعلوها كومة وأكلوا طعاماً فوق الكومة. وقال لابان: «هذه الكومة تكون شاهداً بيني وبينك اليوم».

وحط يعقوب رحاله قبالة مدينة شكيم في أرض كنعان، واشترى بمئة قسيطة^(٥) قطعة من الحقل حيث نصب خيمته، وأقام هناك مذبحاً ودعاه باسم ايل، إله إسرائيل.

أمل يعقوب ان يعيش في سلام، لكن شكيم بن حمور، رئيس البلد، رأى دينة، الفتاة التي ولدتها لبيثة ليعقوب، فأخذها وضاجعها واغتصبها. أحب شكيم الفتاة وتعلقت نفسه بها فحاطب قلبها، ثم تحدث مع أبيه قائلاً له: «خذ لي هذه الفتية زوجة».

وتوسط حمور لابنه لدى يعقوب وأخوتها إذ سمع الجميع بالأمر وعرفوا ان دينة قد دُنست. وقال: «إن شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابتكم، فأعطوه إياها زوجة، وصابرونا». وقال شكيم لأبيها وأخوتها: «أنال حظوة في عيونكم، وما تطلبونه مني أعطيكم لكم. أكثروا عليّ المهر والعطية جداً، فأعطيتكم كما تطلبون مني، وأعطوني الفتاة زوجة»، فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه وكلموهما بمكر لأن شكيم دنس دينة أختهم، وقالوا لهما: «لا نستطيع أن نصنع هذا: أن نعطي اختنا لرجل أقلق، لأنه عار عندنا، ولا نوافقكم على ذلك إلا إذا صرتم مثلنا بأن يُختن كل ذكر منكم، فنعطيتكم بناتنا ونتخذ بناتكم ونقيم عندكم ونصير شعباً واحداً. وإن لم تسمعوا لنا ولم تحتنوا، نأخذ ابنتنا ونمضي».

وحسن كلام يعقوب وأبنائه في عيني حمور وابنه شكيم ووافقا على طلبهم، وأقنعا جميع رجال المدينة معهما «واختن كل ذكر منهم، كل الخارجين من باب المدينة والداخلين إليها». ولكن، ما أن حل اليوم الثالث، وآلام المختنتين على أشدها، جاء ابنا يعقوب، شمعون ولاوي، أخوا دينة،

(٥) في تورا - دار المقدس - مائة نعجة - المترجم - .

بنو إسرائيل

ودخلا المدينة آمنين، وقد امتشق كل واحد منهما سيفه، فقتلا كل ذكر، وحمور وشكيم ابنة قتلاهما بحد السيف وأخذوا دينة من بيت شكيم وخرجوا. ثم دخل يعقوب على القتلى وسلبوا المدينة بسبب تدنيس أختهم.. «وأخذوا غنمهم وبقرةم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل.. وسبوا كل ثروتهم وجميع أطفالهم ونسائهم وسلبوا كل ما في البيوت».

فقال يعقوب لشمعون ولاوي: «قد جلبتما الشقاء علي وسودتما وجهي عند أهل البلد من كنعانيين وفرزيين، وأنا نفر معدود، فيجتمعون علي ويضربوني فأهلك أنا وبيتي»^(٩)، أيجهل أبناء يعقوب يا ترى ما هو الحق أو الباطل في عيني الرب؟ أم أنهم كذبوا وقتلوا ونهبوا لأن آلهة غريبة تلك التي جلبتها راحيل معها، قد حملتهم على ارتكاب جرائمهم تلك ودفعتهم إليها دفعا؟ وعلى كل حال فإن يعقوب قد أمر أبناءه بالتخلص من تلك الآلهة الغريبة المقيمة بينهم وفرض عليهم أن يطهروا ثيابهم ويبدلوها. وغادر المدينة وأرض شكيم هو وجميع أهله وقومه. وبيناهم في الطريق مخضت^(١٠) راحيل وعسرت ولادتها. فلما عسرت ولادتها، قالت لها القابلة: «لا تخافي فان هذا ابن لك». وكان قبل أن تفيض نفسها، لأنها ماتت، قد سمته «بن أونني»^(١١) وأما أبوه فسماه بنيامي.

ولم يكن يعقوب سعيدا، كل السعادة، بأبنائه الأثني عشر، ذلك ان ابنه رأوبين، ضاجع سرية أبيه بلهة، وعلم يعقوب بذلك، فلعن، وهو على فراش

(٩) يتابع المؤلف تبريراته الساذجة للغش والخداع والسلوك غير الأخلاقي لأبطال عصر الآباء في سفر التكوين. - المحرر -

(١٠) مخضت الحامل: أخذها وجع الولادة والطلق واقتربت ولادتها.

(١١) بن أونني: ابن المي. ب.

الموت، ابنه رأوبين: «رأوبين، أنت بكري، قوتي وأول رجولتي. فاضل في الشموخ، فاضل في العز، فزت كالماء: لن تفضل لانك علوت مضجع أبيك، حينئذ دنست فراشي عليّ». وقد رسمت هذه اللعنة وسنت قانون المستقبل الذي يمنع «اختلاط العلاقات الجنسية» في الأسرة الواحدة.

كما تسبب له بنوه الآخرون، بالألم والحزن. ذلك أن يعقوب، بعد وفاة أبيه اسحق الذي فاضت روحه وانضم إلى أجداده شيخاً قد شيع من الحياة، وبعد أن أقام في أرض الكنعانيين، أحب يوسف، ابن راحيل البكر، على جميع بنيه، الذين ابغضوا يوسف وحسدوه، إذ صنع له أبوه قميصاً موسى، فأخذتهم الغيرة منه، إذ كان يرى أحلاماً يروق له أن يقصها عليهم: «في حلمه الأول رأى أنه وإخوته يحزمون حزماً في الحقل، فإذا بحزمته تقف وتنتصب فتحيط بها حزم أخوته وتسجد لحزمته» وفي حلمه الثاني «رأى كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له، فهل هذا يعني أن أباه وأمه وأخوته جميعاً سيسجدون له إلى الأرض؟ وتأمّر الأخوة على التخلص منه، لكنهم لم يقرروا قتله. فباعوه إلى التجار الإسماعيليين بعشرين من الفضة، وأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعز وغمسوا القميص في الدم وبعثوا بالقميص الموشى وأوصلوه إلى أبيهم وقالوا: «وجدنا هذا انظر: قميص ابنك هو أم لا؟ فنظر إليه وقال: هو قميص ابني. وحشّ ضار أكله. افترس يوسف افتراساً» ومزق يعقوب ثيابه وشدّ مسحاً على حقويه وحزن على ابنه أياماً كثيرة. كما أن يهوذا، الابن الرابع ليعقوب من لئته، قد تسبب لأبيه يعقوب بالكثير من الآلام أيضاً. وكان في ذلك الزمان أن يهوذا رأى بنت رجل كنعاني اسمه شوع، فتزوجها ودخل عليها. فحملت وولدت له ابناً فسماه عير، ثم حملت أيضاً وولدت ابناً فسمته أونان: «واتخذ يهوذا زوجة لعير بكره اسمها تامار. وكان عير، بكر يهوذا، شريراً في

باعه أخوته، بالحفاوة والتكريم: فاحتل أعلى المراتب، وانتهى به المطاف إلى دعوة جميع أفراد أسرته للإقامة معه في مصر.. ولكن بعد ان تجاوز محتته التي أوقعتها به زوجة فوطيفار: وكان بعد هذه الأمور ان امرأة مولاه طمحت عيناها إلى يوسف وقالت ضاجعني، فأبى، وقال: «هوذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت، وجميع ما هو له قد جعله في يدي، وليس في هذا البيت شيء فوق يدي، ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك زوجته. فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة وأخطئ إلى الله؟ وكلمته يوماً بعد آخر فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها. فاتفق في بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن في البيت أحد من أهله. فأمسكت بثوبه قاتلة ضاجعني. فترك رداءه بيدها وفر هارباً إلى خارج. فلما رأت أنه قد ترك رداءه بيدها وهرب خارجاً، صاحت بأهل بيتها وقالت لهم انظروا كيف جاءنا برجل عبراني ليتلاعب بنا. أتاني ليضاجعني فصرخت بصوت عال. فلما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت ترك رداءه بجانبني وفر هارباً إلى خارج. فلما سمع مولاه كلام امرأته استشاط غضباً وأودعه السجن».

وباور لورميان وتوماس مان. ومن الموسيقيين: هندل وبيهول روزنبرغ. ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا ما لهذه القصة من قرابة مع تراث المنطقة وبخاصة مع قصة أنوبو وبيتيو الفرعونية. وهي قصة أحوين صغير وكبير ظللا يعيشان عيشة راضية سعيدة في مزرعة لهما، حتى هامت زوجة أنوبو بحب بيتيو الذي ردها عن نفسه فانتقم منه بأن وشت به إلى أخيه واتهمته بأنه أراد بها سوءاً.

وللصديقنا الشاعر فايز حضور في الجزء الأول من ديوانه - ص ١٦٧ - قصيدة تحت عنوان: «زليخة بالملح ترسم عينيها» إنما لزليخة هنا حضوراً معاصراً أثيرى وأعمق. وللصديق فراس سواح، في كتابه لغز عشثار، تحليل عميق يرجع بقصة يوسف إلى أصولها ويكشف النقاب عن أبعادها ومغزاها.

انظر الصفحة ٣٤٠ وما بعدها من كتابه: لغز عشثار - المترجم - .

بنو إسرائيل

وهكذا تنتهي هذه التوطئة التي عرضت علينا، بدقة متناهية موحية، الخطأ التي سارت عليها، في طريق الرب، تلك العائلة التي اغتربت عن موطنها الأصلي^(*) وعلى العكس من ذلك، فإن الأربعمئة والثلاثين سنة القادمة، التي سيعيشها «بنو إسرائيل» في مصر، لم يصفها لنا العهد القديم إلا لماماً وبجمل مقتضبة.

وتلخص هذه الرواية الموجزة أربعة قرون حرر موسى في نهايتها، الشعب من عبوديته، ومنح الرجال والنساء، الذين رزحوا طويلاً تحت وطأة وكلاء التسخير، ومنذ الشهر الثالث بعد الخروج، قانوناً، بلغ في كماله حداً جعله، على الرغم من تعاقب العصور، صالحاً حتى الآن، وترك آثاره عميقاً في أخلاق السواد الأعظم من البشرية^(**).

واجتاز بنو إسرائيل، وهم يتضورون جوعاً، البحر الأحمر سيراً على الأقدام، إذ مد موسى يده وجعل الرب له ولشعبه البحر جافاً، ومن خلفهم فرعون وجيشه يجردان في إثرهم ويسعيان لقتلهم.

واجتاز المشاة الجياع البحر الأحمر بعد أن جفت مياهه بمشيئة الرب، وبمشيئته ارتدت أمواجه على الفرعون ومن كان معه، فأغرقهم جميعاً، ثم ساروا في الصحراء وشربوا من ماء الصخرة التي ضربها موسى بعصاه فانبعثت مياهها وتدفقت. كانوا نفراً من الهارين، لا حول لهم ولا قوة ولا يملكون شروى نقيز، إذ كانوا رجالاً ونساء خدام مصر وعبيدها، فلم

(*) لا يمكن أن نسلم بصحة كل ما جاء في التوراة التي أملت سطورها عواطف اليهود الأسرى، ونحن وإن قلنا، جداً، بذلك، فإن يهود اليوم لا يمتنون بصلة إلى يهود الأمم. - المترجم -

(**) نوافق المؤلف على ذلك إذا كان يعني قانون السلب والنهب واغتصاب أراضي الغير بالقوة، وهو القانون الأخلاقي الذي وجه دوماً سلوك اليهود. - المحرر -

يكن لهم، في خروجهم، من طعام إلا المن الذين أنزله الله عليهم من السماء، ولا يملكون من الثياب إلا تلك التي تلف أجسادهم، كانوا يفترشون الأرض ويلتحفون السماء.

فإلى هذه الزمرة المستضعفة، التي كانت تحلم، أثناء مصابها ومحنها، بلحوم مصر، وترى في مسيرتها التي لا بد من أن تقود أفرادها إلى الأرض الموعودة، طريقاً لا نهاية لها، إلى هذه الجماعة سنّ موسى الوصايا العشر وما نتج عنها من شرائع عملية.

واكتفت «الشريعة» جميع مراحل الحياة الإنسانية، وجميع ما يمكن للإنسان أن يختاره منها من إمكانات واحتمالات، وفرض موسى، بدقة وعناية، سلوك الإنسان القويم في كافة أفعاله الأساسية، منذ ولادته إلى حين وفاته. فكانت كل مخالفة للوصايا العشر خطيئة تستوجب العقاب، وإثماً بحق الرب الذي تراءى لموسى فنطق بلسانه، حتى أولئك الذين يتشككون بعقاب الرب وقصاصه. وأولئك الذين عميت أبصارهم فاستخفوا بها وازدروها، قد علمتهم الشريعة أن حياتهم ترتبط، برباط لا ينقسم، بحياة نظرائهم من بني البشر. وقد تحتم على كل من ينتمي إلى بني إسرائيل أن يخضع نفسه وسلوكه ورغباته وغرائزه إلى الشريعة المشتركة. إن أساس الشريعة الراسخ هو وجود الله فوق الناس أجمعين. (إنه الله الواحد الأحد، والكلّي الوجود، والقدير المقدر، وأصل كل حياة، والذي لا شريك له) (*). إن كل من يدنس اسمه مآله الموت، فعلى بني إسرائيل ألا ينطقوا باسمه باطلاً،

(*) يضرب المؤلف هنا بعرض الحائط كل الدراسات التوراتية التي تؤكد أن الإسرائيليين لم يتوصلوا إلى فكرة التوحيد إلا تدريجياً وأن هذه الفكرة لم تتوصل إلى أبوة الله للبشرية جمعاء إلا بعد تعليم السيد المسيح. - المحرر -

بنو إسرائيل

وأن يلتزموا بكتمانه. وعليهم، حتى في صلواتهم، أن يبدلوا اسمه يهوه، اسمه، ليحل محله أدوناي^(**)، ربي، وينبغي للمؤمن أن يحترم السبت، يوم الراحة الأسبوعية. وقد قيل: «واليوم السابع سبت للرب إلهك، فلا تصنع فيه عملاً أنت وابنك وابنتك وخادمك وخادمتك وثورك وحمارك وجميع بهائمك ونزريك الذي نزل في داخل مدنك لكي يستريح خادمك وخادمتك مثلك».

وقد ذكر النص التوراتي الذي سجل هذا العرف، جميع أفراد الأسرة ماخلا الزوجة: ولا يمكن أن يكون سبب ذلك مجرد إهمال أو نسيان، لأن الزوجة في حياتها اليومية لم تكن تتمتع بحقوق محددة إلا في حالات استثنائية، فالمرأة بزواجها تصبح ملكاً للرجل.

وقد رأى شراح النصوص المقدسة في هذا الخط من قدر المرأة ومنزلتها، الذي أدى إلى رقتها واستعبادها، ليس فقط، محصلة لامتياز الأب غير المحدود، بل هو تعبير أيضاً عن خشية الرجال ومهابتهم من نزيف دم النساء الدوري، والمثير للريب «لنجاسته». فالزواج كان للرجال ضرورة لا بد منها لكي يخضعوا النساء إلى سلطانتهم، ويشبعوا، بفضلهن، حاجتهم الجنسية وينجبوا البنين.

(**) جاء في كتاب أدونيس أو تموز لمؤلفه جيمس فريزر، ترجمة جيرا ابراهيم جيرا: إن بعض ملوك أورشليم الكنعانيين القدماء لعبوا دور أدونيس في أثناء حياتهم.. لذا ان كان ملوك أورشليم الكهان في القدم يلعبون دور أدونيس على استمرار فلا عجب إذا رأينا نساء أورشليم فيما بعد يكيّن على تموز، أي على أدونيس، في باب الهيكل الشمالي.. فكان الملك العبراني يدعى في أثناء حياته «أدونني هاميلخ» أي: «سيدي أو ربي الملك»، وينوحون عليه بعد موته صارخين «هوى آحي هوى أدون» أي: «واأخواه ورباه» ولا نشك في أن عبارات الأسى هذه على موت ملك من ملوك اليهود هي العبارات نفسها التي كانت ترددها نساء أورشليم في مدخل الهيكل الشمالي على موت «تموز» - أدونيس - المترجم -.

لكن الدم الذي تفقده المرأة في كل شهر، لم يجعلها في نظر الرجال دنسة فحسب، بل و«كافرة» أيضاً. ألم تحرم الشريعة تناول دم الحيوان الذبيحة؟ «لأن الدم هو نفس كل جسد.. وأي رجل من بيت إسرائيل ومن النزلاء المقيمين فيما بينهم أكل دماً، أنقلب على أكل الدم وأفصله من وسط شعبه. لأن نفس الجسد هي في الدم».

في البدء كانت عقوبة العلاقات الجنسية أثناء فترة الطمث الموت.. وفي وقت لاحق نقراً: «وأية امرأة كان بها سيلان، أي سيلان دم من جسدها، تبقى سبعة أيام في نجاسة طمئتها. وكل من لمسها يكون نجساً حتى المساء. وكل من مس مضجعتها يغسل ثيابه ويستحم في الماء ويكون نجساً حتى المساء. وإن ضاجعها رجل فصارت عليه نجاسة طمئتها، يكون نجساً سبعة أيام، وكل مضجع يضطجع عليه يكون نجساً». وثمة تعاليم مماثلة تتعلق بالمرأة النفساء، وتمايز تلك التعاليم تبعاً لجنس المولود: «وخاطب الرب موسى قائلاً: «كل امرأة حبلت فولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، كأيام طمئتها تكون أيام نجاستها، وفي اليوم الثامن تختم قلفة المولود، وثلاثة وثلاثين يوماً تظل في تطهير دمها»^(*). ثم إن تشريع موسى لم يتطرق إلى ممارسات الرجال الجنسية قبل الزواج، بيد أن قانوناً أخلاقياً صارماً كان يفرض على الفتيات صيانة بكراتهن إلى ليلة زفافهن، فمن أجل حماية الأزواج والآباء الذين يخشون حرمانهم من مهر بناتهن، تضمن القانون محرمات صارمة تنزل بكل من ينتهك عذرية الفتاة». دون أن تجني النسوة من ذلك فائدة تذكر: «إذا صادف رجل فتاة عذراء لم تخطب، فأمسكها وضاجعها فوجداً معاً،

(*) تفريق مبين بين الجنسين رسم للأثنى مستقبلاً مازالت تشكو منه وتعاني حتى الآن، لما ترك من آثار سلبية عميقة في وجدان رجال الدين والفكر والفلسفة والآداب - المترجم -.

فليعط ذلك الرجل المضاجع لها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون له امرأة، لأنه أذلها، ولا يحل له أن يطلقها كل أيامه^(٥)» وعلى هذا فإن الفتاة التي «أمسك بها الرجل، ثم اغتصبها، يكون قد حكم عليها بتكريس جميع أيام حياتها لمغضبها، وان تمام معه كما شاء له الهوى، وأن تتحمل، حتى آخر يوم من أيام حياتها، استياء يكنه، بلا ريب، ذاك الذي أكره على دفع خمسين من الفضة إلى حميه الممتن.

والحال أفضل قليلاً إن كانت الفتاة العذراء «مخطوبة» إلى أحد الرجال فاغتصبها رجل آخر: وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فصادفها رجل في المدينة فضاغها، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجوهما بالحجارة حتى يموتا. أما الفتاة، لأنها لم تصرخ وهي في المدينة وأما الرجل، فلأنه اغتصب امرأة قريبه، فاقلع الشر من وسطك. فإذا صادف الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل، فأمسكها وضاغها، فليمت ذلك الرجل المضاجع لها وحده. وأما الفتاة فلا تصنع بها شيئاً، إذ ليس عليها خطيئة تستوجب الموت، فإنما هذا الأمر أمر رجل وثب على قريبه فقتله. ذلك بأنه صادفها في الحقل، فصرخت الفتاة المخطوبة، فلم يكن من يخلصها.»

وعلى كل امرأة انتهكت حرمة الزواج أن تدفع من حياتها ثمن خطيئتها، ولا يعاقب الرجل العقاب نفسه إلا إذا ألحق، من جراء عمله هذا، الضرر بحق ملكية رجل آخر: «إن ارتكب الرجل فاحشة وزنى بامرأة قريبه، موتاً يموت الرجل والمرأة كلاهما.» ولكن للرجل الحق في ممارسة العلاقات

^(٥) جاء في سفر الخروج، الفصل ٢٢، الآية ١٥: «إن أغرى رجل بكرة لم تخطب فضاغها، فليجعل لها مهراً فتكون زوجة له. فإن أبى أبوها أن يزوجه، فليزّن له من الفضة مثل مهر الأبقار» - المترجم - .

التي لا تفرق بين النساء والفتيات المراهقات الثلاثي لا ينتمين إلى قومه، ولا يشكلن
 جزءاً من بني إسرائيل^(*).

عنى الرجل الابن، ولكن، لا يحق له، البتة، أن
 يناديها مرة ثانية.

فمؤنين صارمة في شأنها، حيث «كشف العورة» ويعد
 أكبر من «كشف العورة» بغيره، لأنه يمس عيبه الجنسية المحرمة، إغواء
 المرأة ذراعاً على تفسيه و«الفتنة» والفجور.

كما تعرضت الشريعة الإسلامية في أحكامها التي يمكن تخيلها، فذكرتها
 ووعظت بها صراحة «.. لا تكشف عورة أمك لا تكشف. إنها أمك،
 فلا تكشف عورتها. وعورة أمك لا تكشف، فإنها عورة أمك.
 وعورة أختك، ابنة أمك أو ابنة أمك، مولودة في البيت كانت أو في
 خارجه، لا تكشف. وعورة بنت ابنك أو بنت ابنتك لا تكشف، إنها
 حثك، فلا تكشف عورتها، وعورة أخت أمك لا تكشف، فإنها ذات
 قرابة لأبيك، وعورة أخت أمك لا تكشف، فإنها ذات قرابة لأمك. وعورة
 عمك لا تكشف وإلى امرأته لا تقرب، فإنها عمك.. وامرأة مع أختها لا
 تتخذ لتكون ضررتها فتكشف عورتها معها وهي حية..

هذه المحرمات تهدف إلى تدارك الإغواء وتجنب الفاحشة، فهي
 تحول دون ارتكاب أفعال بمقدورها استثارة الرغبة في انتهاك المحارم
 وغشيانها».

(*) في الواقع ان القوانين الأخلاقية السامية التي أشار إليها المؤلف منذ قليل، هي دوماً قواعد
 للتعامل بين بني إسرائيل أنفسهم. أما عندما يتعلق الأمر بغيرهم فقد أجاز لهم التوراة كل
 أنواع السلوك غير الأخلاقي.. - المحرر -.

إن في اتخاذ الرجل لامرأة وأمها زوجتين له انتهاكاً لحرمة الأخلاق: «وكل رجل اتخذ امرأة وأمها، فذلك فاحشة، فليحرق هو وهي بالنار، فلا تكن فاحشة في وسطكم». وإن «كل رجل جامع بهيمة فليقتل قتلاً، واقتلوا البهيمة أيضاً»، و«كل امرأة تقدمت إلى بهيمة لتسفدها، فاقتل المرأة والبهيمة: إنهما تقتلان قتلاً، فدمهما عليهما». و«كل رجل ضاجع ذكراً مضاجعة النساء، فقد صنعا كلاهما قبيحة فليقتلا: دمهما عليهما». كما منعت الشريعة أيضاً، تنكر الرجل بزوي امرأة، والمرأة بزوي رجل، بوصفه فاحشة، فعلى الرجل والمرأة معاً تجنب مثل هذه البلبلة بين الجنسين، إذ ينبغي للرجل أن يظهر بمظهر الرجل، وعلى المرأة أن تظهر بمظهر المرأة.

وقد حافظ الزواج على مكانته بوصفه أساس الأسرة وعمادها، على الرغم من الاحتقار والامتهان الذي حل بالمرأة، إذ كان باستطاعة أبيها أن يبيعها ببيع الإماء قبل بلوغها الحلم، وما أن تتزوج حتى تصبح ملك زوجها الذي اقتناها من أبيها أو من أكبر أخوتها. كانت العزوبة خطيئة، وكان على الكهنة إذا ما بلغ واحد من العشرين من عمره، ان يتزوجوا امتثالاً لما تقتضيه الشريعة، نظراً لأنه لا بد للرجل البالغ من أن يروي غريزته الجنسية كيلا يغوى ويدل فيقتزف الخطيئة. أما الزوجات فقد جردتهن الشريعة من الحقوق كافة باستثناء ما استوثقته، إذا ما أصبحن أمهات، من كبير اعتبار وسط الشعب. عند ذلك ينعمن بحماية الأسرة التي يرتفع مقامها وتقوى مكانتها بما ينبجن من خلف وبنين: «من يجد المرأة الفاضلة؟ إن قيمتها فوق اللآلئ. قلب رجلها يثق بها فلا يحتاج إلى غنيمة. تأتيه بالخير دون الشر جميع أيام حياتها. تلتمس صوفاً وكتاناً وتعمل بمحذق كفيها. فتكون كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد. تقوم في الليل وتعطي لبيتها أكلاً ولجواربها وما

يكفيهن. تتأمل حقلاً فأخذه وبثمر كفيها تفرس كرمًا. تُنطقُ حقوبها بالقوة وتشدد ذراعها. تذوق ما ألد تجارتها فلا ينطق في الليل سراجها. تلقي يديها على المكب وأناملها تمسك المغزل. تبسط كفيها إلى البائس وتمد يدها إلى المسكين.. لا تخشى على بيتها من الثلج لأن أهل بيتها جميعهم لابسون الحلل.. تصنع لنفسها أغطية موشاة ولباسها البز والأرجوان. رجلها معروف في الأبواب حيث يجلس بين الشيوخ. تصنع أقمصه وتبيعها وتعرض مناطق على الكنعاني. لباسها العز والبهاء وهي تفرح في اليوم الأخير. تفتح فاهها بالحكمة وفي لسانها سنّة الرأفة. تلاحظ طرق بيتها ولا تأكل خبز الكسل. يقوم بنوها فيغبطونها ورجلها فيمدحها: إن بنات كثيرات قد انشأن هن فضلاً أما أنت ففقت عليهن جميعاً. النعمة غرور والجمال باطل، والمرأة المتقية للرب هي التي تُمدح. أعطوها من ثمر يديها، ولتمدحها في الأبواب أعمالها».

(الإصحاح الأخير من الأمثال - المترجم -).

ويُعد منع الحمل انتهاك صارخ لحرمة الزواج، وإضرار كبير يلحق بملكية الرجل، وتحويل منحرف يبدد نطفه، وذنس تبلغ رائحته الخبيثة السماء، ويستنزل من العقاب ما ينزل بالزاني. وقد حظر على المرأة المتزوجة بشدة كل انحراف جنسي، كما تحتم أن تقتصر غاية علاقات النساء الجنسية مع أزواجهن على الإخصاب والإنجاب وليس على بعض المتع الشهوانية. وتعد المرأة زوجاً مثالية إن اقتصر اهتمامها، كلياً، على زوجها وبيتها وأحاطتهما بعنايتها. جاء في سفر يشوع بن سيراخ، الإصحاح السادس والعشرون، مايلي: «رجل المرأة الصالحة مغبوط، وعدد أيامه مضاعف. المرأة الفاضلة تسرُّ رجلها وتجعله يقضي سنيه بالسلام. المرأة الصالحة نصيب صالح تمنح حظاً لمن يتقي الرب. فيكون قلبه جذلاً ووجهه بهجاً كل حين غنياً كان أم

فقيراً.» ثم نقرأ في إصحاح آخر: «لطف المرأة ينعم رجلها. وأدبها يسمّن عظامه. المرأة الحليّة نعمة على نعمة. والنفس العفيفة لا قيمة توازنها. الشمس تشرق في غلا الرب وجمال المرأة الصالحة في عالم بيتها. السراج يضيء على المنارة المقدسة وحسن الوجه على القامة الرزينة. العمدُ من الذهب تقوم على قواعد من الفضة، والساقان الجميلتان على أحصى ذات الوقار الأسس تثبت على الصخر إلى الأبد، ووصايا الرب في قلب المرأة الطاهرة».

ولكن حتى هذه المرأة المثالية، الجديرة ببناء زوجها وتكريمه، ليس لها أن تستوثق من حبه وإخلاصه، إذ حق له أن يمتلك العديد من النساء، وحق عليها، إن تُوفي عنها، ان تستقبل بذار (نطف) أخيه أو أقرب أقربائه الذكور إن لم يكن للميت أخ: أو ليست المرأة مخلوق للولادة فحسب؟ كما حق للزوج الذي قام بما عليه من واجبات حيال الإنسال وتخليد جنسه، أن ينعم بحريته في اللهو مع نساء أخريات. ولكن، والحق يقال، إن هؤلاء النسوة الأخريات «مخلوقات ضالة» و«بغايا» وقد اتخذت العديد من الإجراءات لمنع «النساء الفاحشات» من الإقامة بالقرب من المدن والقرى.

ومع ذلك، فإن الرجل، يطغى ويبغي ويتهك ناموس الرب، إذا ما استسلم إلى الفسق والفجور في الجوار، فذهب به الحال إلى اقرار الفاحشة مع نساء عابدات للأوثان، فيكون بذلك قد اقرتف إنما لا يتنقل ضميره فحسب، بل ينمي في نفسه الخوف والرهبية أيضاً: فإن ذاعت خطيئته وانتشرت، طاله «مجلس الأقدمين»، الذي يشكل الكهنة فريقاً من أعضائه، فيطالبه بعرض أفعاله ليدفع من نفسه ثمن كفارتها؟ لقد شوّه سمعته ولن يسلم من الأقاويل وأصبح، من الآن فصاعداً، أمراً مشبوهاً ومثيراً للريب، حتى وإن كانت طبيعة ما اقرتف من جرم ومخالفات لا تدخل في عداد ما سنته

الشريعة من عقاب وقصاص. أما إذا تكرر انحرافه فزاد تيهها وضلالاً، فقد التحف بالعار وحلت عليه اللعنة، ثم إنه قد أساء إلى عائلته وعرض وحدتها وتماسكها للخطر، تلك العائلة التي يتحتم عليه رعايتها والحفاظ عليها أيضاً كان الثمن، ذلك لأن في هذه الوحدة وفي هذا التماسك رمزاً لتضامن أسباط^(*) إسرائيل، أحفاد يعقوب وذرية أبنائه الإثني عشر.

كان بنو إسرائيل على يقين لا يرد، بحقيقة قوانينهم الأخلاقية وصحتها. وتشهد على ذلك نصوص العهد القديم التي تعرض لجميع ما عاناه بنو إسرائيل من محن وبلايا^(**) ولكل أشكال الغزو والسي التي حلت بهم عقاباً لهم من عند ربهم لما اقترفوه في حياتهم من آثام وذنوب. لقد أثموا، وهذا ما يدلنا على أنهم خالفوا وانتهكوا وصايا الرب العشر التي أعلنها موسى وشرحها باسم الرب. والمعصية التي يقترفها بعض الآثمين من الرجال والنساء تحمل لعنتها على الطائفة برمتها، فالخطيئة تخصهم جميعاً، وعلى كل منهم أن يدفع ثمن هذه الخطيئة وأن يكفر عن الجميع، وعلى الجميع أن يكفروا عن الفرد، فقد شبه الأنبياء، في لغتهم الرمزية الشعب الخاطيء بـ«النساء الزانيات».

إن أسوأ تفريع يمكن أن تقذف به المرأة هو اتهامها بأن لها علاقات جنسية قبل الزواج أو خارج بيت الزوجية: «هكذا أيضاً المرأة التي تزك بعلمها وتجعل له وارثاً من الغريب. لأنها أولاً عصت شريعة العلي، وثانياً خانت

(*) مفرداً سبط من الكلمة العبرانية شبط ومعناها «عصا» أو جماعة يقودها رئيس بعضاً، وكانت تطلق عادة على أبناء يعقوب. - المترجم -.

(**) لم تسلّم شعوب الأرض قاطبة من المحن والبلايا، لكن اليهود، بخاصة، قد جروا على أنفسهم ما جروه لاعتقادهم بأنهم فوق الجميع ديناً وفكراً و..... - المترجم -.

رجلها، وثالثاً تنجست بالزنى، وأقامت نسلأ من رجل غريب. فهذه يؤتى بها إلى الجماعة وتُبَحِّث أحوال أولادها. إن أولادها لا يتأصلون وأغصانها لا تثمر وهي تخلف ذكراً ملعوناً وفضيحتها لا تمحي».

ونقرأ: «زنى المرأة في طموح البصر ويعرف من جنفيها واظب على مراقبة البنت القليلة الحياة لئلا تجد فرصة فتبذل نفسها. تنبه لطرفها الوقح ولا تعجب إذا عقتك. تفتح فمها كالمسافر العطشان، وتشرب من كل ماء صادفته، وتجلس عند كل جذع وتفتح الكنانة تجاه كل سهم».

لكن اللوم الأشد يقع على أولئك الرجال الذين يستغلون بجمالة الفاسقات من النساء ويستسلمون، دوغماً قيد، إلى شرب المسكرات، مثلهم مثل جيرانهم الكنعانيين والفلسطينيين عبدة الأوثان، لأن «روح الفسق والفجور والميل إليهما قد أغوتهم فكفروا بالرب، وحنثوا في إيمانهم، على قمم الجبال يقدمون الأضحيات وعلى الهضاب يحرقون البخور...» «لا تكن ذا بأس تجاه الخمر، فإن الخمر أهلكت كثيرين، الاتون يمتحن الحديد الممهي، والخمر تمتحن قلوب المتجبرين في القتال. الخمر حياة للإنسان إذا اقتصد في شربها. أي عيش لمن، ليس له خمر. أي شيء يعدم الحياة: الموت. الخمر في البدء خلقت للانبساط لا للسكر. الخمر ابتهاج القلب وسرور النفس لمن شرب منها في وقتها ما كفى. الشرب بالرفق صحة للنفس والجسد. الإفراط من شرب الخمر خصومة ونزاع. الإفراط من شرب الخمر مرارة للنفس. السكر يهيج غضب الجاهل لمصرعه، ويقلل القوة ويكثر الجراح. في مجلس الخمر لا توبخ القريب ولا تحقر في سروره». إنهم أمثلة تدفع بمحتذيتها إلى الفساد، فبادرت الشريعة إلى تحذيرهم بلسان الرب: «... إذا عكفت بناتكم على الفسق والفجور، وإذا زنت عروسكم الصبية، فلسوف لن أعاقب

بناتكم لعكوفهن على الفجور، ولا زوجاتكم الصبايا لاقترافهن الزنى...»
 النساء الزانيات والفتيات الفاجران لن يعاقبهن الرب، بل الشريعة هي
 التي تنزل بهن القصاص إذا ما اضطر من حُباً وشغفاً بعشاقهن «أولئك
 الذين يملكون أعضاء كأعضاء الحمير، ونظفاً كبذار الخيول...» إلا أن
 الرجال يندسون اسم الرب بمعاشرتهم للمومسات، فهم يقترفون
 الفاحشة، لا لأنهم قد استسلموا إلى لذة آثمة فحسب، بل لأنهم أيضاً
 يعرضون أنفسهم، من جراء هذه اللذة، لغواية عبادة الأوثان وخدمتها..
 بل من المحتمل أيضاً أن ينجروا فيشاركوا في العريدات التي ينظمها كهنة
 بعل وعشتارة، إلهة الحب عند الفينيقيين، تلك الإلهة التي تضحى
 عابداها النهمات بعذريتهن بالقرب من المذابح، ويضاجعن، في حرم
 المعبد، كل مجهول يلتمس منهن ذلك.

والحال هذه فلا مناص، في نظر بني إسرائيل، من عقاب الرب الذي لا
 يرحم للتكفير عن الخطايا، فالرب وحده من يعرف وزنها وتقديرها حق
 قدرها. ولا يفرض هذا الرب الواحد الأحد التوبة، إنه لا يتوق إلى
 الأضحيات، إذ جاهر أنبيأؤه: «الطاعة خير من الذبائح» وقد أملى على
 الأنبياء أوامره: «لقد أبغضت أعيادكم وردذلتها ولم تطب لي احتفالاتكم، إنني
 إذا أصعدتم لي محرقاتكم وأضحياتكم لا ارتضي ولا التفت إلى ذبائح السلامة
 من مُسمّئاتكم، أقص عني زجل أغانيك فإني لا أسمع نغم عيدانك، بل ليجر
 القضاء كالمياه والعدل كنهري لا ينقطع».

الحق والعدالة ليسا هبة من السماء بواسطتهما كشف الرب لعبده
 موسى الجوهر، وبواسطهما وضعت التوراة القوانين وأرستها. حدد القانون
 المسموح به المنهي عنه، ويصح ذلك على الرجل والمرأة كليهما. ولكن

أليست الشريعة مهددة، إن أسلم الشعب قياده، أثناء محنته، إلى أحد الملوك؟ أو ليس الرب وحده ملك إسرائيل؟ إن النبي صموئيل قد أوجب على الشعب ألا يمنح ثقته إلا للرب وحده، وحذره من عبادة آلهة غريبة إن أراد هذا الشعب التغلب على ما يحكيه الفلسطينيون. فنصح بني إسرائيل بالعدول عن تولية ملك عليهم في خطبة وصفت بأمانة أخلاق ذاك العصر: «... هذه سنة الملك الذي يملك عليكم، يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لعجلته وفرسانه، فيركضون أمام عجلته. ويتخذ لنفسه رؤساء ألف ورؤساء خمسين وأكراً لحرثه وحصاده وصناعاً لآلات حربيه وأدوات عجلاته ويتخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات. وحقولكم وكرومكم وأفضل زيتونكم يأخذها ويعطيها لعبيده. ويأخذ عشوراً من زرعكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وإماءكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم في شغله ويعشر ماشيتكم وأنتم تكونون له عبيداً. فتصرخون في ذلك اليوم من ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم، فلا يجيبكم الرب في ذلك اليوم».

وعلى الرغم من تحذيرات صموئيل تولى الملك شاؤول القائد المقدم، لكنه «تمرد على شريعة الرب» ولم يسمع لصموئيل. وتخلّى روح الرب عن شاؤول «ليحل روح الشر من لدن الرب، وأخذ يهذي في داخل بيته». «ثم إن داود الفتى اليافع ذا العينين الجميلتين والقامة المشوقة» قد مسح صموئيل من بين أخوته فحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً، فصار ملكاً عظيماً وانتصر في ميادين القتال وجمل أورشليم التي جعلها عاصمته. لكن لم يمثل بسلوكه للمشيئة الإلهية على الدوام، ففي شبابه كان موسيقياً يعزف على الكنارة كأحسن ما يكون العزف، وتغلب داود على جليات الفلسطيني العملاق، وصرعه ثم قطع رأسه وجاء به إلى ملكه،

وأحبت ميكال ابنة شاؤول داود الذي دفع ثمناً لشرائها مئة قلفة^(٥) من الفلسطينيين. وبعد أن هرب من حميه تزوج داود، دون أن يردعه رادع، بامرأتين آخرين، في الوقت الذي أعطى شاؤول، الذي تعلقت نفسه بنفس داود وأحبه كما يحب نفسه: «قد ضاق ذرعى عليك يا أخي يوناتان لقد كنت شهياً إلي جداً وكان حبك عندي أولى من حب النساء وقد أحبيتك حب أم لابنها الوحيد».

واستحثت داود رغبة مطلقة العنان في العيش والتمتع بالحياة، فدفعته دفعاً إلى إنتهاك الشريعة بلا انقطاع ليستسلم إلى غرائزه الجموح. كان يرقص بكل ما أوتي من قوة، شبه عار، أمام تابوت العهد، حيث تحفظ كتب الشريعة الخمسة، ثم إنه رأى ذات يوم، بينما كان واقفاً على مشرف منزله، امرأة رائعة الجمال تستحم، فأرسل رسله في طلبها، فجاءت إليه ونام معها، دونما حياء أو رادع. كان اسمها بتشايح وهي زوجة أوريا الحثي، والملك داود يعرف ذلك، ويعرف أنها كانت تستحم لتتطهر من دنس دورتها الشهرية. ثم رجعت إلى بيتها. وحملت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنني حامل، فسارع داود واتخذ تدابير به بأن وجه أوريا حيث يكون القتال شديداً.. «وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت» وقتل أوريا، ونما إلى بتشايح خير مقلته و«ناحت على بعلها». ولما تمت أيام مناحتها أرسل داود وضمها إلى بيته فكانت زوجة له، وولدت له ابناً.

ساء ما فعله داود في عيني الرب. وضرب الرب المولود الذي ولدته امرأة أوريا لداود حتى يئس منه «تضرع داود إلى الله من أجل الولد

(٥) طلب أبو شاؤول مهراً لابنته مائة قلفة إلا أن داود قدم له مئتي قلفة، حسب ما جاء في

بنو إسرائيل

وهام وبات مضطجعاً على الأرض، فلما كان اليوم السابع مات الصبي. ونما الخبير إلى داود، فنهض عن الأرض واغتسل وأدهن وغير ثيابه ودخل بيت الرب فسجد ورجع إلى بيته وطلب فوضعوا له طعاماً فأكل». ذلك أن داود قد أدرك عدم جدوى أبنائه ونواحه في نشر ابنه وإحيائه «عزى داود بتشايع زوجته ودخل عليها واضطجع معها فولدت ابناً فدعاها سليمان وأحبه الرب».

لم تقتصر مخالفة قانون الأخلاق، في قصر داود الملكي، على داود وحده، بل انتهكه بنوه أيضاً، ذلك أن أمنون ابنه قد تدله في تamar أخته من أبيه حتى سقم، فتمارض وطلب من أبيه أن يرسل إليه أخته لتعني بصحته، ومضت تamar إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع، فأخذت طحيناً وصنعت له كعكاً، وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال: «تعال اضطجعي معي يا أختي...» فقالت له: «لا تدلني يا أخي لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل فلا تفعل هذه الفاحشة. فأما أنا فأين أذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل، والآن فكلم الملك فإنه لا يمنعي منك، فأبى أن يسمع لكلامها ولكن تمكن منها وغضبها وضاجعها». ولما تاب إلى رشده وأدرك عظم فعلته «أبغضها أمنون بغضة شديدة جداً، وكانت كراهيته لها أعظم من الحب الذي أحبها إياه. وقال لها أمنون قومي وانصرفي.. وكان عليها قميص موسى، لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن أقمصاً مثل هذه.. فجعلت تamar رماداً على رأسها ومزقت القميص الموشى الذي كان عليها، ورفعت يدها على رأسها وذهبت وهي تصرخ». خفف عنها أخوها وواساها: «كفي الآن يا أختي إنه أخوك، ولا يأخذ من نفسك هذا الأمر». و«سمع داود الملك بجميع هذه الأمور فاغتاظ جداً، ولكنه لم يحزن نفس أمنون ابنه،

لأنه كان يجبه إذ كان بكره» في حين أن أبشالوم قتل أخاه وهرب ثم إنه أخذ يؤلب الشعب على أبيه، فجمع من الرجال ما جمع، وحارب بني قومه في مواقع عدة إلى أن سقط مضرجاً بدمائه في واحدة من أشد معاركه هولاً.. ولما نما إلى داود الخبر ارتعش وصعد إلى عليه الباب وهو ييكي ويردد: «أبشالوم يابني، يابني أبشالوم، ياليتني مت عوضاً عنك، يا أبشالوم ابني يابني».

حتى يعقوب نفسه لم ينج من عقاب الرب عندما اقرّف الخطيئة، إذ أنزل الله به عقاباً لا يرحم على الرغم من عمق توبته وشدة إخلاصه في خدمة الرب بين أبناء شعبه، وقد رفع العهد القديم من شأن الملك داود دون أن يقلل من حجم خطاياها أو أن يختلق له المعاذير. لقد كان ملكاً عظيماً، مسيح الرب، مختاراً، ولكنه كان أيضاً إنساناً لا يملك مقاومة غرائزه فاستسلم إلى الخطيئة، ذلك لأن الخطيئة جزء لا يتجزأ من الطبيعة الإنسانية، وأن زمن الطهارة^(*) لم يأت بعد، ثم إن سليمان، ابن داود من المرأة الزانية بتشايح، لم يعيش حياته على الشكل الأمثل على الرغم مما أحيط به من مظاهر الأبهة والترف. لقد شرف اسمه، المشتق من كلمة شالوم، التي تعني: السلام، وغدا ملكاً مقتدرًا ذا شأن وسلطان، ووطد في مملكته العدل والنظام، وأسبع على شعبه رغد العيش والحياة المهنية وجمع لنفسه كل غالٍ ونفيس، فبلغ

(*) ويتحقق هذا التطهير الجذري بطقس المعمودية التي تستمد فاعليتها من الصليب، فقد ضحى المسيح بنفسه من أجل الكنيسة ليقدها ويظهرها بماء الاستحمام «بينما كانت الفرائض القديمة لا تحدث إلا تطهيراً خارجياً، فإن مياه المعمودية تحررنا من كل قذارة باتحادنا بيسوع القائم بين الأموات». فالطهارة هي طهارة الروح والجسد معاً - من معجم اللاهوت الكتابي - المترجم -.

بنو إسرائيل

من الثراء مبلغاً عظيماً، واشتهر بحكمته التي صارت مضرب الأمثال. بيد أن ولعه بالمتعة ذهب به كل مذهب، وبلغ به حداً غيَّب وراءه حكمته وثراءه. وأقام لنفسه بيت حريم ضمَّ «سبعمئة من الزوجات وثلاثمئة من السراري والخليلات».

وقضى حياته في بيت الحريم مستسلماً فيه إلى ألوان الحب، وأي حرد ذلك أن سليمان كان ماهراً في فن الهوى الرهيف والمتعة الرفيعة. يُعد نشيد الأناشيد من أجمل القصائد التي نظمها بنو البشر. وقد تأثر بنو إسرائيل بهذا النشيد غاية التأثير فأدرجوه في الكتب المقدسة، على الرغم من أن موضوعه مجاهرةٌ صريحةٌ بما يختلج في قلب العاشق. كانت خطيئة آحاز وحواء الأصلية باعثاً على إقصائهما من الفردوس، غير أن الحب. خارج جنة عدن، قد أجزى لبني الإنسان، شريطة ألا ينتهكوا، بما يعرفونه من متع، شريعة موسى، لكن سليمان نصَّب نفسه فوق الشريعة ورأى من حقه، بوصفه ملكاً، أن يطالب بامتيازاته فيعشق ويُعشق على مثال الملوك. كانت النسوة، بين أحضانه، يتنهذن متلهفات:

«قبلني بقبلات فمك، لأن حبك أطيب من الخمر، أدهانك طيبة العرف واسمك دهن مهراق فلذلك أحبتك العذارى. أنا سوداء لكني جميلة يابسات أورشليم كأخبية^(٥) قিদار كسرداق سليمان، لا تلتفتن إلى كوني سوداء فإن الشمس قد لوحتنى. قد غضب عليّ بنو أمي فجعلوني ناطورة للكروم والكرم الذي لي لم أنظره. أخبرني يامن تحبه نفسي أين ترعى وأين تربض عند الظهيرة. لماذا أكون كمن يغمى عليه في إثر قطعان أصحابك.

(٥) الأخبية هي الخيام، وقيدار اسم لقبائل عربية - المحرر -.

- هو: ما أجمل خديك بسموط وعنقك بخرز.
- هي: صرة المر حبيبي، بين ثديي مبيته، حبيبي عنقود فاغية لي في كروم
عين جدي.
- هو: جميلة أنت يا خليلتي، جميلة أنت وعيناك كحمامتين.
- هي: جميل أنت يا حبيبي وعذب وحجلتنا ذات أزهار، جوائز بيوتنا أرز
وروافدنا سرو».

وفي النشيد الثاني نقرأ:

- «هي: أنا وردة الشارون وسوسنة الأودية،
- هو: كالسوسنة بين الشوك، كذلك خليلتي بين البنات،
- هي: كالتفاح في أشجار الغابة، كذلك حبيبي بين البنين.
قد اشتهيت فجلست في ظله، وثمره حلو في حلقي
أدخلني بيت حمرة، ورايته عليّ محبة
أسندوني بأقراص من الزبيب
أنعشوني بالتفاح فقد أسقمني الحب
شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني
- هو: استحلفكن يابنات أورشليم بظباء الصحراء وأيائلهما أن لا تنهضن
ولا تبهن الحبيبة حتى تشاء».

«صوت حبيبي هو ذا مقبل، وهو يظفر على الجبال ويقفز على التلال...
إني نائمة وقلبي مستيقظ، إذا بصوت حبيبي قارعاً أن افتحي لي
ياأختي يا خليلتي يا حامي يا كاملتي فإن رأسي قد امتلأ من الندى،
وغدا تروي من قطار الليل، قد نزعت قميصي فكيف ألبسه. قد غسلت

بنو إسرائيل

رجلي فكيف أوسخهما. حبيبي أرسل يده من النافذة فتحركت له أحشائي، فقامت لافتح لحبيبي وكانت يداي تقطران مرأً وأصابني تجري بالمر على مقبض المزلاج.. حبيبي أبيض وأشقر علم بين ربوة. رأسه نضار إبريز وغدائره كسعف النخيل حالكة كالغراب. عيناه كحمامتين على أنهار المياه، تفتسلان باللبن وهما جائعتان في وقيهما. خداه كروضة أطياب وخضيلة رياحين، وشفثاه سوسن تقطران مرأً ذكياً. يدها حلقتان من ذهب. وجسمه عاجٌ يغشيه اللازورد. ساقاه عمود رخام. وطلعته كلبنان جليل كالأرز.. حلقة أعذب ما يكون بل هو بجملته شهى».

ويستجيب الرجل، في سكرة عشقه وانتشاء هيامه، لرغبات المرأة الوهى الفاقدة الرشد، فيتغنى بجمها ويمتدح مفاتها: «جميلة أنت يا خليلتي جميلة أنت وعيناك كحمامتين من وراء نقابك، وشعرك كقطيع معز يبدو من جبل جلعاد. أسنانك كقطيع مجروز قد طلع من الاغتسال كل واحدة منه متم وما فيه عاقر. شفثاك كسمط من القرمز ونطقك عذب.. خداك كفلقة رمانه من وراء نقابك. عنقك كبرج داود.. ثدياك كخشفي طيبة توءمين برعيان بين السوسن. كلك جميلة يا حبيبتى ولا عيب فيك.. شفثاك تقطران شهداً أيتها العروس، وتحت لسانك عسل ولبن.. وعرف ثيابك كعرف اللبان. أختي العروس جنة مقفلة ينبوع مقفل وعين محتومة».

«دوائر فخذيك كحلي صاغتها يد صانع حاذق

سرتك كأس مدورة مزاجها لا ينقصُ

ويطنك صبرة حنطة يُسيجها السوسن

قامتك مثل النخلة وثدياك مثل العناقيد...»

(في نشيد الإنشاد «أو نشيد الأناشيد» وجهات نظر ثلاث مختلفة):

- الرأي الأول ينظر إلى السفر نظرة حرفية تاريخية ويقول: إن هناك ثلاث شخصيات رئيسية هي: الراعية شولميت وحببها الراعي الشاب والملك سليمان الذي يحاول أن يجذبها إليه، بما توفرت لديه من مغريات، إلا أن الفتاة بقيت وفية على محبتها لخطيبها إلى أن يتزوجا في النهاية، والذين يقولون بهذا الرأي يرون أن القصة موضوعة على شكل رواية ذات فصول ومناظر ستة.

- أما أصحاب الرأي الثاني فإنهم يقصرون القصة على اثنين فقط وهما: شولميت وسليمان، إلا أن هذا الرأي لا يفسر ما جاء في هذا النشيد من إشارات إلى الحبيب الراعي والمراعي والجبال، مما لا يتفق وحياة سليمان الذي نشأ في أورشليم وعاش فيها.

- أما الرأي الثالث فهو الرأي الرمزي أو المجازي، وذلك أن هناك معنى خفياً في كل دقيقة من دقائق النشيد، فكل محبة إنسانية بشرية صحيحة في رأي الرمزيين والمجازين إن هي إلا رمز لمحبة الله لشعبه وانعكاس لهذه المحبة الإلهية.

وقد أخذت هذا التفسير الرمزي الكنيسة المسيحية وفسرته بوصفه تعبيراً عن محبة المسيح للكنيسة التي لا يمكن أن تنفصل عنه مهما كانت إغراءات العالم).

وقد اختلف المفسرون أيضاً في مؤلف النشيد، فبعضهم يقول إنه سليمان، وبعضهم الآخر يعتقد أن هذا السفر كتب عن سليمان. (ملخص ما جاء في قاموس الكتاب المقدس - المترجم -).

إن العهد القديم كتاب صارم بحكمه متمزمت بأخلاقه. يُعزّي، دونما مواربة، خطايا الإنسان الذي لا يسي، لضعفه وتمرده، ينتهك أوامر الرب

بنو إسرائيل

وشريعته، ويجني على نفسه فيصب الرب عليه جام غضبه وشديد قصاصه. ومع ذلك فإن الكتابات المقدسة تلك تصف لنا، بصراحة مؤثرة أخلاق بني إسرائيل وتقاليدهم، الحميدة منها والفاصلة. أما نشيد الإنشاد^(*) فإنه أغنية إنسانية تشيد بالحياة ومسراتها وتدعو الرجال والنساء معاً إلى الشبع والإرتواء وممارسة الحب.

^(*) يعود نظم (تأليف) هذا النشيد إلى النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد - من قاموس المؤلفات العالمية. - المترجم -.

الجزء الثاني

الحضارتان

اليونانية والرومانية

الفصل السادس
الإغريق

تسلسل زمني

الثقافة الكريتية المسيانية	ق.م	نحو ٢٦٠٠ - ١١٥٠
مينوس	ق.م	نحو ١٨٠٠
حرب طروادة - الاجتياح الدوري	ق.م	نحو ١٢٠٠
(؟) ليكورغ (ليكورغوس)	ق.م	القرن العاشر
هوميروس	ق.م	نحو ٨٠٠ (؟)
إقامة أولى الألعاب الأولمبية	ق.م	في عام ٧٧٦
هزيود	ق.م	نحو ٧٠٠
صولون	ق.م	نحو ٦٤٠ - ٥٦٠
طاليس وميليت	ق.م	نحو ٦٤٠ - ٥٤٧
سافوليسبوس: الكايوس	ق.م	نحو ٦٠٠
انكساغوراس	ق.م	نحو ٥٠٠ - ٤٢٥
بيريكليس	ق.م	نحو ٤٩٥ - ٤٢٩
		نحو ٤٨٤ إلى ما يقرب
هيروdot	ق.م	من عام ٤٣٠
بروتاغوراس الأبديري	ق.م	نحو ٤٨٠ - ٤١٠
سقراط	ق.م	نحو ٤٧٠ - ٣٩٩
فيدياس	ق.م	نحو ٤٥٠

الجميل غير والخير جميل

الكيبباد	ق.م	نحو ٤٥٠ - ٤٠٤
أفلاطون	ق.م	في ٣٤٧-٤٢٧
الحكم على اسباسيا	ق.م	في ٤٣٢
ملهاة أرسطوفان ليسيستراتا (ولد نحو	ق.م	في ٤١١ - ٤٤٥ ق.م)
أرسطو	ق.م	٣٢٢-٣٨٤
الاسكندر الأكبر	ق.م	٣٢٣-٣٥٦
براكستيل	ق.م	نحو ٣٥٠
أصبحت مقدونيا ولاية رومانية	ق.م	١٤٨
دمار كورنثه - نهاية استقلال بلاد الإغريق	ق.م	١٤٦

«العبقرية لا السوقية هي الأمر الشائع في اليونان، فلم يحظ شعب
بعاقرة يمثل ما حظي به الشعب اليوناني برغم ضآلة عدده، وحسبه انه كان
له من العاقرة نحو من خمسمائة في قرن واحد. عاش سكان هذا العالم الصغير
على ونام مع بيئتهم بعد أن عمروها بأهنتهم الذين عاشوا معهم على ألفة
مكينة. إن الكون اليوناني هو أبلغ صورة لوحدة الفكر والعقل معاً».

(عملاق ماروسي. هنري ميلر. المترجم)

«الجميل خير والخير جميل»

«كريت بلد تتلاطمه أمواج يم سحيقة الغور، وأرض خصيبة تأنس بها النفس، وتحيط بها المياه من كل جانب، وفيها خلق كثيرون يخططهم العد...» بهذه الكلمات يتغنى هوميروس بجزيرة كريت، إلا أنه لم ينقل إلينا كيف كان يعيش سكان مدنها التسعين، بل راق له، بالمقابل أن يعث الحياة في حلقات الرقص التي كانت تدور في أيام الأعياد في قصر كنوسوس الملكي، وفيها نرى فتياناً بعمر الزهور «وفتيات يُحتفى بهن لجمالهن» يرقصون وقد تشابكت أكفهم.

لم تكن جميع الرقصات في الرسوم الجدارية التي استخرجها المنقبون من أطلال كنوسوس رقصات رزينة حيية، ذلك أن هؤلاء الفتيات «المحتفى بهن لجمالهن» الرقيقات الخصور والضامرات البطون، واللائي انتقلن إلى الخلف على شكل تماثيل صغيرة خلاصة، كن يُبرزن للعيان، بفتون طلق، نهودهن الكاعبة، من دون حياء أو خجل. أما ثيابهن الفاخرة فقد فصلها خياط ماهر لتحجب عن الأنظار مكامن سحرهن، من جهة، وتبرز، من جهة أخرى، الجيد والكتفين، وتجعل منها جوهره بين ما تتحمل به النسوة من جواهر ثمينة، فالحدود مخضبة، والشفاه محمرة، واستدارة الحاجبين خطتها يد ماهرة، والأهداب الطويلة الثخينة تبعث الحياة والألق في نظراتهن، وتدلل الرسوم الجدارية أيضاً على أن النساء في

كريت كن يشاركن الرجال في أعمالهم ومعيشتهم من دون تكلف أو إكراه، وإن الرجال لم ينهوهن عن أمر، ولم يذيقوهن قهراً أو يتفضلوا عليهن، بل منحوهن حقوقاً مثل حقوقهم، ان لم تكن أفضل، وذلك إن نحن اعتمدنا، في استدلالنا هذا، على المكان^(١) الذي كن يحتلنه بين مشاهدي الألعاب التقليدية التي كانت تنظّم بمناسبة الأعياد السعيدة أو الاحتفالات الشعائرية.

وكان الرجال في كريت يتحلون ويتجملون، كما النساء، بالأساور والسلاسل والخواتم، ويلبسون المآزر والتنانير القصيرة التي لا تبلغ كعابهم إلا في المناسبات الخاصة، وكانوا يعاملون نساءهم بكل المودة واللباقة، ويفغازلونهن ويتوددون إليهن بأدب جم. لكننا ما برحنا نجهد مرامي هذا التودد، ترى أبقصد الزواج هو أم أنه لا يعدو معاشرة عابرة باعثها المتعة وترجية الوقت؟

وتدل نتائج التنقيبات كافة على أن الكريتين قد عبدوا إلهة عليا؛ إنها إلهة الطبيعة التي كانت تقهر الموت بولادتها لحيوات جديدة: إن الإنسان والحيوان والنبات يدينون لها جميعاً بحياتهم ونمائهم ورحائهم. لكن الولادة تقتضي جماعاً، وعليه فإن الكريتين يرون أن القوة المذكرة تتجسد في كل من الثيران والأفاعي، ومنه فإن قضيب الثور الخارق القوة وشكل الأفعى المنتصب كانت رموزاً ذكورية محترمة وجميلة. ويدل كشحا الإلهة الأم المستديران وثدياها المنتفخان على سحايها واستعداداتها الطبيعية للحمل والولادة والرضاعة. لكن هذه الإلهة لا تكتمل إلا بالأفاعي التي تلتف حول جسدها وتنجس من شعرها.

^(١) في تقديري إن المكان الذي تحتله النساء بين المشاهدين لا يعكس مكانة المرأة الكريتيّة ذلك لأن الغالبية العظمى ممن يوم هذه الاحتفالات من النساء كن من بنات الهوى والعشيقات والمخطوبات وهؤلاء جميعاً محط اهتمام الرجل وتدليله، أما المرأة الزوجة والأم والجدّة فهن لاريب قابعات في بيوتهن يرزحن تحت عبء المعاملة القاسية والواجبات الأسرية المرهقة. - المترجم -.



كانت هذه الأم
المجهولة قد ولدت في
إحدى المغارات الإبن
الإلهي فولكانوس، ونحن
نجهل من كان أب هذا
الإله الذي يبجله الكريتيون
بوصفه تجسيدا للطوبى
المخصصة؛ ففي كل عام
يذوي مع ذبول النبات
ليبعث من جديد مع ارتداء
الأرض حلتها الخضراء^(١).

وقد عظم دور هذا
الإله في عقول المؤمنين
عندما عزوا إليه قدرة الثور
المذكرة. ترى هل ضائع،
وهو على صورة ثور،
باسيفاي زوجة ملك
مينوس الأسطوري فولدت
له المينوتور المسخ: ثور
مينوس؟

المرأة ذات الأفاعي، ١٦٠٠ ق.م. وُجد التمثال في
كنوسوس، ولعله تمثال لإلهة أو ملكة أو أميرة

وتشهد أطلال مملكة
كريت على عظمتها وتألقها،

^(١) لاحظ القرابة بين هذه الأسطورة وأسطورة تموز، المترجم.

لكنها جزيرة بلا تاريخ يدون لها سجلها، كما إن ماضيها قد ضاع في الأسطورة وتاه. ترى أئمة ملك يحمل اسم مينوس أم ان مينوس هو لقب ملكي فحسب؟ هذا مما لا نعلمه، ذلك أن هوميروس كان قد نقل إلينا أخبار مينوس بعد ترقيته في عالم الجحيم «قاضياً على الأموات» تكريماً ومكافأة له إذ كان في حياته الدنيا العادل والمنصف لرعاياه.



تمثال نصفي لهوميروس، نسخة رومانية عن عمل يعود إلى الفترة الهيلينية، نهاية القرن الرابع ق.م

أما رجل التاريخ الإغريقي توكيديد (توكيديديس^(١)) فقد كتب: «كان مينوس، حسب ما تناقلته الروايات المأثورة، أول من أحدث أسطولاً بحرياً، مما أدى إلى سيطرته على القسم الأعظم من البحر الذي ندعوه بالبحر الإغريقي، وهو لكي يستطيع أن ينعم، وفق هواه، بما غنم وكسب، سعى جاهداً

^(١) يختلف لفظ الأسماء اليونانية عنه في اللغة الفرنسية، وعليه فإننا سنحاول أن نقرن أحياناً أسماء الأعلام باللغتين معاً، المترجم.

حسبما تصور، إلى تنظيف البحر من القراصنة والقضاء عليهم».

وقد استطاع مينوس، سواء أدل هذا الاسم على ملك ما أم دل على أسرة ملكية حاكمة، أن يستغني، بفضل أسطوله، عن تحصين مدنه، وأن يعفي نفسه من تجنيد الجيوش وإعالتها. وعليه فقد صار بمقدوره ومقدور شعبه أن ينعموا بحياتهم وأن يزيدها رخاء. كانت قصور الملك فاخرة البناء، وكانت لبيوت مدنه طوابق عدة تتصل فيما بينها بسلام وأدراج سهلة العبور، ومن هذه الأشياء وغيرها من أدوات الاستعمال اليومي والمحتويات التي أمكننا العثور عليها نقف على ما كان يتمتع به أشد الكريتيين تواضعاً من مجبوحة وهناء.

كان الكريتيون يختلفون إلى المسارح والمدرجات لمشاهدة ما يدور عليها من ألعاب في الملاكمة والمصارعة، وبخاصة مصارعة الثيران الشعائرية ذات المكانة المتميزة، وفيها نرى أشد الرجال بأساً وهم يتصدون للثيران، رمز الذكورة ومثالها، وفتيات يافعات يشاركنهم ألعابهم هذه، فالرسوم الجدارية تظهرهن للمشاهد وهن يتواثبن ويقفزن بخفة لا تخطر على بال فوق ثيران هائجة.

لقد صور الكريتيون الأزهار والنباتات والحيوانات ولكنهم لم يخلفوا لنا أعمالاً، لا في النحت ولا في التصوير، تدور حول الحب. ترى هل كان من غير اللائق أن يصوروا نساء عاريات كلياً أو رجالاً منهمكين في متع الحب ولذائذه؟ وهل كان جمال الذكور والإناث الشهواني طاهراً حقاً؟ أم ان أخلاق الكريتيين الرفيعة المرهفة تهاهم عن رسم الشهوانية الفاحشة فاضحة وصریحة؟

واستمرت أساطير الجزيرة، وما ارتبط بها من خرافات، حية في أذهان الناس على الرغم من دمار قصورها وخراب مدنها التي اجتاحتها جحافل الأعداء والتهمتها ألسنة النيران. ومن أشهر هذه الأساطير التي تروي لنا مغامرات باسيفاي الجميلة وابنتيها الفاتنتين أريانة وفيدرا اللاتي دارت حولهن قصص حب كانت تزينها على الدوام تفاصيل جديدة. لكنها حافظت، على الرغم من ذلك، على متانة لحمتها وتماسكها، مما ساعد في أن يعير الإغريق، هذه القصص، قيمة

تاريخية امتدت زمناً طويلاً، وتزامنت مع إيمانهم بالقصص التعليمية التي كانت أساس السلوك الأخلاقي وعماده، وانتهت في الوقت الذي ذهب فيه الإيمان بالآلهة والأبطال الذين ابتدعتهم مخيلتهم الخاصة بهم.

وحتى القرن السابق للميلاد، رأى الأثينيون في مينوس، ملك كريت في حياته و«القاضي بين الأموات» في مماته، شخصية تاريخية. ثم إن المركب الذي أبحر بملكهم الأسطوري تيزه (تيسوس) إلى شواطئ كريت ليعود منها سالماً منتصراً نراه مصوراً في تذكارات للنصر أمام أحد المعابد.

حتى أرسطو، الذي لم يتناول أحداث الأقدمين إلا بعد تدقيق وتمحيص، كان قد درس مصير باسيفاي دراسة تناولت القصة المختلفة وكأنها حقيقة واقعة. وبناء على زعمه فإن مينوس أراد أن يجد من ازدياد عدد السكان، ذلك لأن أراضي جزيرته وضيق رقعتها كانت عاجزة عن إطعام أعداد أخرى من السكان. وفي سبيل تحقيق هدفه في توفير الطعام لشعبه، أدخل الشذوذ الجنسي ليحول دون إخصاب الرجال للنساء مع عدم حرمانهم، في الوقت نفسه، مما في العلاقات الجنسية من متع وملذات. وعليه فإن مينوس لم يرم إلى التخفيف من غلواء شهوانية المتع وجماليتها، تلك المتع التي يتوق إليها الكريتيون، ولكنه أراد أن يروي شهواتهم بطريقة مغايرة.

لم يبين لنا أرسطو ما إذا كان السكان في جزيرة كريت سعداء. عما استحدثه ملكهم، لكن النساء آيين ذلك واستنكرنه وعلى الخصوص باسيفاي زوجة الملك مينوس التي تحدثنا الأسطورة عنها بتقديم تفسيرات أخرى لحياتها وعدم وفائها: إذ يحكى أنه لما ولد للملك، جراء مغامراته العاطفية مع العديد من نساء المملكة، نسل من المسوخ والحيات والعقارب، تجنبت باسيفاي التي أنجبت للملك أطفالاً أصحاء معافين، أن يكون لها مع الملك علاقات جنسية، مخافة أن تحمل وتلد مسوخاً مشوهة ومخيفة، ولكن أين لها أن ترفض الإرادة الملكية وتمنع نفسها عن معاشرته؟ هنا يهرع أحد الآلهة لنجدة الملكة التي كانت، هي أيضاً،

من أصل إلهي، فيخلصها ولكن بطريقة جاءت على غير ما كانت تتمناه. ذلك أن بوسيدون (بوزايدون)، إله البحار، قد أخرج من أمواج اليم، بناء على التماس من الملك، ثوراً إلهياً، ليقدمه الملك قرباناً له، فما أن رأى الملك الثور حتى أعجب به أيما إعجاب، لقد كان ثوراً جميلاً، أبيض اللون ورائعاً، قوياً وسميماً، لم ير البشر له مثيلاً، فأراد أن يحتفظ به لنفسه وقدم للإله ثوراً بديلاً دون أن يحصل بالعواقب. أما بوسيدون فقد رأى في تصرف الملك إهانة لشخصه وإذلاً لجلاله، فاستشاط غضباً وعزم على الانتقام من مينوس.. وطلب من إله الحب أن ترسل بسهامها الدافئة نحو صدر باسيفاي التي أحست على الفور برغبة جامحة نحو الثور الإلهي. يقول أوفيد في كتاب فن الهوى ساخرًا:

«لكم تآقت باسيفاي الملكة شغفاً أن تصبح يوماً للثور خدينة. وكم حقدت على البقرات الوسيمة تنفرسهن حاسدة واجدة. وما بوسع كريت التي تضم مائة مدينة أن تنكر ما كان وإلا كذبت. فلقد قيل أن باسيفاي، كانت تجمع بيديها المرهفتين الأعشاب الغضة من أنحاء المرج تعلق بها أسر قلبها، ولم ينشأ عنها أن تنخرط في القطيع ما كان لزوجها من مكانة.

وهكذا أتاحت لثور أن يتغلب على مينوس المليك. لم تعد ثياب الملك الأرجوانية ذات جدوى لك يا باسيفاي. أتتجملين بها وحبيبتك ثور لا يلقي بالاً للزينة؟ وما غناء المرأة عندك، آبقة بين القطعان، على سفوح الجبال؟ أتخالين أيتها العاشقة أن جمال جدائك المصفورة يلفت إليك معشوقك. هلا ردتك إلى وعيك مرآتك! وهل تراءيت فيها غير واحدة من البشر... لا البقر؟ كيف عميت أيتها الملكة أن ينبت بجبينك قرنان؟ أي باسيفاي، تبغين الزنى وأنت المعجبة بزوجك مينوس؟ وإذا كان لا معدى لك عن أن تفجري، فلتختاري لك فاجراً من البشر...»^(١).

(١) ثروة عكاشة - الإغريق بين الأسطورة والإبداع.

وحسدت باسيفاي الإلهة أوربا أن ضاجعها جوييتير في هيئة ثور، وتمنت لو مسخت بقرة شأن ايو عندما واقعها رب الأرباب. ثم أتاحت للثور الفاتن، رمز الذكورة الحي، أن يجامعها ويودعها نطفته، حين خدعته مستخفية في بقرة من خشب صنعها ديدالوس، ونسلت منه دنساً لوثت به سلالتها، فجاء مسخاً نصفه رجل ونصفه الآخر ثور، المينوتور المروع.

ونحن لا ندري ما إذا كان مينوس قد علم بمصابه فور وقوعه، فهذا مما لم تكشف لنا عنه الأسطورة. وإلى ديدالوس العظيم، وهو الذي لجأ إلى جزيرة كريت في ذلك الزمن الغابر، هرع الملك مينوس يطلب عونه، فقد كان من أمهر أهل زمانه وأحذقهم، فاستجاب إلى طلبه، وساعده على أسر المينوتور الرهيب وسجنه في متاهة عجيبة (اللابيرنت) شيدها ديدالوس ليدرأ عن البشر بليته، ويدفع عنهم أذيته وشروره. ثم إنه نُمي إلى الملك أن ديدالوس هو الذي هبأ السبيل إلى باسيفاي لمضاجعة الثور الذي عشقته وهو الذي ساعدها في إشباع رغباتها الشاذة، فأمر بحبسه وابنه في المكان الذي يعيش فيه المينوتور. لم يكن ديدالوس المبتكر والمهندس المعماري والنحات فحسب بل كان أيضاً صانعاً ماهراً واسع الحيلة بارعاً في كل الأعمال. وبفضل دهائه اكتشف منجراً.. اتخذ لنفسه ولابنة أجنحة من الريش والشمع وطارا بها بعيداً متجاوزين جدران المتاهة وحواجزها، وحلقا فوق البحر متجهين صوب الغرب. يقول أوفيد يصف لنا فرار الأب وابنه:

«كم من كارثة فتقت أذهاناً عن حيل مبتكرة. أو يمكن أن نعقل أن الإنسان يطير! دايدالوس صف رباشاً في أبرع صورة، شكل منها جناحين كمجدافين، وثبت هذا التكوين الهش بخيوط من تيل، ثم أسال الشمع المذاب على الأطراف لتماسك، انظر، ما أعجب هذا الإبداع إذا اكتمل بناؤه! غلفت الدهشة وجه إيكاروس إذ أمسك بأجنحة الريش، لم يك يدري أن سوف تشد على كتفيه. وقال أبوه: انظر هاك سفينتا عليها نقلع، نفر بها من مينوس ونعود

إلى أرض جئنا منها. لم يبق لنا غير الأفق ملاذاً بعدما أوصدت في أوجها كل الطرقات. خذ صنع يدي هذا واجهد أن تعلقو في الجو وستنجح حتماً. لكن حذار من برج العذراء وكوكبة الجبار حامل السيف رفيق راعي الشاء. غض الطرف ولا تتلفت لهما واتبعني بجناحيك إبداع يدي. سأكون القائد والهادي، فلتمض في اثري غير هيباب، وتصلن بإرشادي في أمن كامل. واحذر أن تعلقو قرب الشمس. قد ينفد صبر الشمع أمام توهجها، أو تهبط صوب البحر فيبتل الريش بيزيد الموج. طر بين الاثني وخذ حذرک من ریح منطلقه، فإن حملتك الأنسام انشر في التيار جناحيك لتدفعهما»^(١).

أخذت نشوة السفر في الفضاء ايكاروس، على الرغم من تحذيرات أبيه، فمي غمرة الفرح والسعادة، نسي نصيحة أبيه، وأخذ يعلو ويعلو بعيداً عن سطح البحر، وظل يرتفع ويرتفع ظناً منه أنه قادر على أن يصل إلى قبة السماء وأن يلمس يديه جدرانها المضيئة.. اقترب من الشمس.. وذاب الشمع وتفكك الريش وأصاب الوهن ذراعيه، وهوى من عل وهو يصيح.. أبتاه.. أبتاه...، وارتطم جسده بالأمواج المتلاطمة. أما أبوه فقد هبط في صقلية بحرص شديد، وراح يعلم سكان الجزيرة المضيفين ما كان قد مارسه في اليونان من فنون، فازدهرت الجزيرة بما نقل إليها من ثقافة كريت الصناعية والفنية.

أما المينوتور فما برح مقيماً في المتاهة يترب ضحاياها، وما كان على الملك، والحال هذه، إلا أن يوفر له الطعام.

وشاءت الأقدار أن تقع حرب بين كريت وأثينا الناشئة الفتية، فقهر مينوس بأسطوله أسطول أثينا الحديث العهد، وفرض على الاثينيين جزية قوامها سبع فتيات وسبعة فتيان يقدمونها له كل تسع سنوات، ليرمي بها إلى الوحش طعاماً سائغاً. ففي كل تسع سنين، كنا نسمع نجيب أباء هؤلاء الضحايا

(١) ثروة عكاشة - الإغريق بين الأسطورة والإبداع.

الأحداث البائسين وأمهاتهم، ينعون مصير فلذات أكبادهم المروع، ويتألمون مما أنزل بمدنتهم من عار القصاص. فلما حل الموعد الثالث للوفاء بهذه الجزية المذلة عمل تيزيه الوسيم على أن يكون هو نفسه من بين الشبان السبعة، ورضي ايجيوس بذلك على كره منه شديد، فقد قرعزم تيزيه على قتل المينوتور. وبرفقة فتية آخرين نذروا أنفسهم للوت، قصد شواطئ كريت.. أشفقت أريانة (ارياندي - أدريديني) على الأمير الأثيني، وأحبت فيه جماله وذكورته، وراحت تحف إلى سجنه تزوره في ظلمة الليل مأخوذة به هائمة بهواه، وصارت خدينته.. وقدمت إليه سيفاً مسحوراً وبكرة خيط، وأوصته أن يثبت البكرة قرب المدخل.

انطلق تيزيه على رأس فتيات أثينا وفتيانها، بعد أن لف على معصمه الخيط الصوفي، حتى وجد الميتوتور فصرعه، ثم عاد أدراجه على هدي من الخيط الذي كان قد حله بعناية، حتى جاء أريانة واصطحبها معه عرفاناً منه بجميلها، إذ آل على نفسه أن يتزوجها إن هو استطاع الفرار من كريت.. ولما وصل إلى جزيرة نكسوس تزوجها وفاءً بوعده ولكنه مالث أن غدر بها، إذ أقلع هو ورفاقه من الجزيرة عندما كانت العروس، الحديثة العهد، على سرير الزفاف، تنال قسطاً من الراحة في إغفاءة لذيذة، تاركاً للقدر خليعة أيام طوال وعروس ليلة واحدة.

وعلى شاطئ ناكسوس لقي ديونيسوس، إله الخمر، أريانة الحزينة المقهورة بعد أن هجرها تيزيه، فأعجب بها واتخذها زوجة له، فولدت له الكثير من الأبناء، ثم رفعها بعد موتها، إلى السماء، وصارت الكوكبة المعروفة باسم «الإكليل» هذا ما ترويه، في الأقل واحدة من الأساطير، ففي رواية أخرى نجد أريانة وقد قضت عليها الإلهة ارتيميس بطلب من ديونيسوس الذي أراد التخلص منها.

يختلف مصير الشخصوس الأسطوريين تبعاً لشطحات خيال الشعراء ورجال الدين، وطبقاً لما على القصص أن تغرسه في أذهان المؤمنين من دروس وعبر. فإن رأى القصاصون، أنه من الأنسب أن تواسي الآلهة وتكافئ من غرر بهن من النساء المهجورات تعويضاً لهن لما عانينه من عذاب وآلام، فذلك لكي يتأثر

المستمعون والمستمعات التأثر الحسن، ولكي يحذوا حذوهن. وإن رأى الرواة أن من الملائم وصف من خدع الرجال من النساء واغتصبوهن وغدروا بهن وصفاً دقيقاً فذلك لأن أشد خدع الأبطال صفاقة، وأبلغها أذى، لن تمس، لا من قريب ولا من بعيد، شهرة هؤلاء الأبطال وسمعتهم الراسخة الأركان في المأثور والموروث. فمهما بلغت خسة أعمال هؤلاء العظام، فإنها أعمال حميدة أبداً، أو أنها، في الأقل، مما يمكن الصفح عنه وتبريره، ومادامت منزلتهم تسمو بهم، بوصفهم أبطالاً، فوق البشر جميعاً، فإن عجزهم لن ينال، في كل حال، من عظمتهم وجلالهم. وقد لعب ما أسبغه الإغريق من سعة العقل على حركات الرجال والنساء وسكناتهم دوراً حاسماً في أساطيرهم، ووسم، بقوة، عادات هذا الشعب المتعدد الألوان وتقاليده، إذ وصفه أفلاطون بقوله: «لقد نزلنا في شواطئ البحر كما تنزل الضفادع حول بركة ماء».

وقد كان هؤلاء الإغريق جميعاً: سكان شبه الجزيرة، وسواحل آسيا الصغرى، وصقلية وإيطاليا وجزر بحر إيجه الكثيرة العدد، يرون في سلوك الآلهة وأنصاف الآلهة وأبطال أساطيرهم وفي طريقة حياتهم وموتهم، مثلاً يحتذى وقدوة تنتظم وفقها عاداتهم وتقاليدهم. فنسبوا إلى الآلهة التي يعبدون فضائل ومثالب إنسانية، لذلك فقد فهموها وأحبوا أن يسلكوا سلوكها. وهم لكي يزيدوا في بهاء صورتهم الذاتية وسناها، عزوا إلى الإنسان صفات الآلهة وملاحظها، ليرتد، من ثم صداها في شخصهم هم، فجاءت حياتهم وحجهم وكراهيتهم صورة، طبق الأصل، عما أضفوه على الآلهة من حب وكرهية وما منحوه لها من حياة. ثم انهم نقلوا إلى قصص منشئهم عداوات الأزمان الغابرة وأحكامهم المسبقة لكي يمنحوا مشاعر حقدهم الدفينة حربتها ويطلقوا العنان لها. وعليه فقد قدر الأثينيون، إذ فرض مينوس على أسلافهم التضحية بأبنائهم وبناتهم، أسطورة الأميرة الكريتية فيدرا، التي تزوجت تيسيوس بعد أن هجر أختها أريانة، ثم ان فيدرا، الشبيهة بأماها باسيفاي التي هامت، فيما مضى، بالثور

المقدس فاستوقد الوجه ضلوعها، قد كلفت هي الأخرى، بابن زوجها هيبوليت (هيبوليتوس) وتدلّت به فضرم الحب أنفاسها، وقد رأى الأثينيون في ذلك عقاباً عادلاً نزل بتيسوس إذ اقترن بفتاة من أعداء مدينتهم، أما الأب المطعون في شرفه الزوجي، فقد توجه إلى بوسيدون يرجوه هلاك ابنه، فانبحس على الفور، من أمواج اليم، ثور دب الرعب والفرع في جياذ هيبوليت، فهاجت وانطلقت تعدو بحر وراها جثة هيبوليت. غير أن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت، وظهرت براءة هيبوليت فانتحرت فيدرا. وهكذا فإن حالة زوجة الأب التي لم يستحب ابن زوجها لهاها كحال زوجها العمه الذي اتهم، باطلاً، ابنه البرئ، إذ خفي عليه ما كان يستوجف فؤاد زوجته المذنبه من شبق مجنون.

كان للعلاقات بين الرجال والنساء وبين الآباء والأبناء والاخوة والأخوات الدور الرئيس والأهم في عقائد القبائل التي اكتسحت الأرض الإغريقية عنوة، أو تلك التي استوطنت فيها بسلام. وقد اتحد قادة هذي القبائل من الملوك ورجال الدين، واشتركوا معاً في الإيمان بأسطورة الخلق هذه، إذ أدخلوا عليها أهم ما فيها، فامتزج ما أدخلوه، في نسيج واحد، مع صور الشعب الهليني الأسبق الدينية. فمن عماء فراغ كان يغشى العالم ومن خواء لا حدود له خرجت الأرض ذات الأنداء الواسعة العريضة وخرج معها ايروس. «الأجمل بين الخالدين قاطبة»، سيد فكر الآلهة وبني البشر وسلطان قلوبهم جميعاً.

في البدء كانت الرغبة. وأورانوس، قوة التناسل السماوية، ذلك الأفق اللازوردي الشاهق اللامتناهي، لم يستطع كبح جماح ما اعتراه من رغبة في الجماع. وما كان من جيا، الأرض، إلا أن تستسلم بدورها لنداوته الدافئة وإغرائها، وفتحت نفسها تحضن عناقه المستعر وتودعه في داخلها، فولدت، إذ لقمحت، «قوت الحيوان ورغيف الإنسان»، وولدت معهم التيتانوس - أولئك الذين اشتق اسمهم من الفعل «انتصب» الذي يوحي بقضيب الذكورة المنتصب - والسيكلوب ذوي العين الواحدة، والعمالقة ذوي المائة ذراع الذي تتجسد فيهم

القوى الطبيعية، فألقوا بقوتهم أورانوس الذي سارع فألقى بهم في أعماق أعماق الأرض، في وهدة تارتاروس، ووضع الأغلال في أعناقهم تحرزاً مما يمكن أن يدهمه من أخطار، لكن جيا، الأم الحنون، ضاقت ذرعاً بتصرفات أورانوس، الأب، الذي لم يبال، في يوم من الأيام، بما كانت تكابده من حزن وشقاء، فنزلت بنفسها، بعد أن يمست من استرحام زوجها، إلى وهدة تارتاروس، وراحت تحرض أبنائها على الثورة لتنال ممن حشر نسلها في أحشائها ملحقاً الضرر بها متسبباً في أذيتها. رفض الجميع دعوتها باستثناء واحد منهم، إنه أصغر أبنائها كرونوس المتكتم، فقد ثارت ثائرتة وأعلن عن استعداده لم يد العون لها، مصمماً على الانتقام من والده وانتزاع صولجان الملك منه.

أطلقت الأم سراحه وسلحته بمنجل رهيف، وزودته بنصائحها وأرسلته ليضع حداً لجيروت أبيه. راح كرونوس، الزمن، يترصده أباه في عتمة الليل، ويحصى عليه غدواته وروحاته، إلى أن حانت ساعة الثأر، وذلك حين كان أورانوس يستعد لافتراش الأرض جيا في عناق ليلي لذيد. خرج كرونوس من مكمنه وعاجل أباه بطعنة قاتلة بترت مذاكيره العملاقة فتناولها كرونوس وقذف بها خلفه. فاضت دماء أورانوس على وجه الأرض، غزيرة مثل مياه جدول منحدر المجرى، فنفذت إلى جوفها وأخصبته في لقاء وداعي أخير، فولدت إلهات الانتقام والعمالقة وجميع شياطين الشر. أما قضيب أورانوس فقد سقط في مياه البحر وهو ينزف، ومن زبد نطفه الإلهي الأبيض خرجت أفروديت إلهة الحب والجمال.

لم تَرُقْ أسطورة «ولادة أفروديت من دون أم» لكل الكهنة والكاهنات الذين كانوا يقدمون الأضحيات في المعابد إلى الإلهة المولودة من زبد البحر التي كانت «ملكاً للشعب كله». وهذا ما دفعهم إلى تخصيص هذه الإلهة، التي تستثير شهوات الرجال والنساء الجنسية وتوحد فيما بينهم، بأصل أجمل يليق بها. وأفروديت هذه لم تكن وليدة بذار عضو مبتور. وإنما جاءت من التحلد لذيد

الجميل خيبر والخيبر جميل



وسعيد يليق بسحرها السماوي، وعليه فقد اشتهرت بوصفها ابنة ديونة بنت تيتان الأوقيانوس، الذي احتضن الأرض بمياهه ولججه، صحيح أن أفروديت مولودة من زبد الأمواج، لكن أبها ليس أورانوس بل هو زيوس الابن الأصغر لكرونوس الذي أحب ديونه حباً رقيقاً.

لما يولد زيوس بعدُ عندما خصى كرونوس أباه أورانوس وانترع منه سلطانه المطلق. اتخذ كرونوس غب انتصاره أخته ريا زوجة له فأنجبا خمسة أبناء: ثلاث فتيات: هستيا وديميتر وهيرا، وولدين هما: هاريس وبوزيدون، لكن كرونوس كان يخشى أبناءه وبناته، ذلك أن أمه جايا وأباه أورانوس أنبأه بأن أولاده سيجردونه من امتيازاته، ولكي يفلت من المصير الذي فرضه هو نفسه على أبيه، إلتهم كرونوس أبناءه، لكن ريا التي حملت منه من جديد أرادت إنقاذ وليدها الأخير، فقدمت لزوجها وأخيها الفظ الغليظ القلب بدل المولود الجديد حجراً ملفوفاً بالأقمطة، أسوة بالإلهة الكريتية الأم، فابتلعه.

وترعرع زيوس سراً في المغارة، ثم أكره كرونوس على لفظ ما ابتلع من الأخوة والأخوات، وعلى التخلي عن سيادة العالم والتنجي عن العرش. وقام زيوس بما قام به أبوه. وتزوج هو أيضاً باخته هيرا التي كان لها معه علاقات جنسية قبل الزواج. ولم تصبح هيرا حامية الزواج فحسب، بل غدت أيضاً حارسة للعشاق الذين لا ينتظرون احتفالات الزواج الرسمية لينعموا قبل الزواج بمثلذات الحب، فما من أحد كان يطعن في سلوك هيرا بوصفها أختاً لزوجها، ويعيب انخراطها معه في علاقات جنسية استوجبت الذم والاستنكار في زمن لاحق. وراحت الألسن تلهج بالثناء عليها، بوصفها مثلاً للزوجات، والمحقة لآمال العذارى. كانت غيرتها الحادة وسورات غضبها، التي تستثيرها انحرافات زوجها، إنسانية، بل إنسانية بإفراط. فلماذا لا تشاير إلهة الزواج على مراقبة إخلاص زوجها الإله ووفائه للروابط الزوجية حتى لو لم تنجح هي في أن تضمن ذلك لنفسها؟

كان زيوس أبو الآلهة، ورب الأولب - مقر إقامته السماوي الحريز على بني البشر - وسيده بلا منازع، قد احتفظ بالأولب لنفسه عندما اقتسم العالم مع أخويه مانحاً بوزيدون مملكة البحار، وهاديس جوف الأرض (العالم السفلي)، ومد الأخوان يد العون لأخييهما في صراعه ضد كرونوس والتيتان، دون أن ينازعه، جراء عونهما، هيمنته على الأولب، ومنحهما بدوره حرية التصرف بمملكتهما شريطة ألا تتعارض سلطاتهما مع أهدافه ومخططاته، أما ديميتر أخته «أم الأرض» فقد وهبته جسدها، أسوة بجيا، وأنجبت منه ابنة اسمها برسفوني اتخذها هاديس زوجة له واصطحبها معه إلى الجحيم بموافقة كبير الآلهة، شريطة ألا تتجاوز إقامتها في كل عام ثلاثة أشهر ذلك لأن ديميتر ستحجم عن تدبير شؤون الانتاش الربيعي إن لم تغادر العالم السفلي. أما الأخ الثالث بوزيدون فقد غازل بدوره ديميتر وطارحها الغرام، واتخذ شكل حصان فحل ليبي بها بعد أن اتخذت لهذه المناسبة شكل فرس.

كانت حياة العشق بين الآلهة أخوة وأخوات نشطة وفعالة، مثلها في ذلك كمثل حياة بني البشر الغرامية على الأرض، أولئك الذين كانوا يؤمنون بهذه الآلهة والآلهات، ويسرون بالاعتداء بمجونها وتهتكها ليستسلموا بدورهم لغرائزهم الخاصة في كل مناسبة.

وحدها هستيا، إلهة النار والمأوى الزوجي، لم تنجر وراء المغامرات الغرامية فكانت «العذراء السماوية» التي تأبت على المتع الجسدية لتنجز دونها موانع مهامها الأسرية. وكانت الفتيات العوانس على الأرض يندرن لها (بخصصنها) بحنان لا يعرف الحدود، وود شديد التسامح: «إن هناك في الأولب أيضاً كائناً أنثوياً محروماً من إلفه».

كان زيوس، بالنسبة لسكان اليونان قاطبة، المثال الذي لا يضاهي، فهو الذي يدير شؤون مملكته وما عليها من آلهة وبشر بحكمة ورجاحة عقل، وهو الذي يدين له الكون بنظامه الأخلاقي. وكان بوصفه الحامي للأسرة، لا يرضى

إلا بإكرام الأبناء للآباء، ولا يسكت عن نكران الابن لأبيه. وكان يحتمي الغريب، والمنفي، إذا ما حل في أرض غريبة، يتذرع باسمه طلباً للضيافة، قوته وإقدامه لا نظير لهما، بيد أنه لا يشكو إلا من ضعف واحد: الحب، ولا يجبن إلا خوفاً من زوجه، فقد كان عليه أن يقف إلى جانب زوجه هيرا لإنقاذ الزواج وحمايته، ولكنه، خلافاً لذلك، كان يخون رسالته في كل فرصة سانحة، بل كان يتفنن على الدوام في خلق فرص جديدة إرواءً لعطشه الصدي للحب.

افتن زيوس، قبل اقترانه بهيرا، بجمال ميتيس الحكيمة ابنة التيتان (المردة) فحاولت عبثاً الإفلات منه بتحولاتها العديدة والمتنوعة، لكنه نجح في امتلاكها على غرة، وعندما حملت تبأت جيا لحفيدها زيوس ان أبناء ميتيس سيسلبونه سلطانه كما فعل هو نفسه مع كرونوس. فابتلع زيوس عشيقته الحامل وابتلع معها حكمتها، لكن النطفة التي أحصبت رحم ميتيس كبرت في زيوس فتعاظمت وتاقت إلى الحياة، مما اضطر زيوس إلى شق جمجمته لتأتي إلى العالم أثينا إلهة الحكمة.

ولكن هذه العملية المؤلمة لم تكن زيوس عن عزمه ولم تثبط همته، بل راح يطارد نساء السماء بدون كلل. ففتن تيميس، أخت أبيه، وبنى بها، فولدت له الحوريات (HORES) آلهات الفصول. وخادن منيموسينا التي أنجبت له ربات الفنون السبع «MUSES» ومن ليتو «LETO» أيضاً كان له توأمان: أبولو إله الشمس، وأرتيميس إله الصيد.

أما هيرا فقد منحت هذا الزوج المتقلب المزاج والعاطفة بنتين وصبيين: البكر أريس إله الحرب، الذي نعته دعاة السلام تحقيراً في وقت متأخر «ملتهم البشر»، والابن الثاني الأعرج هيفايستوس، الذي اكتسب شهرة واسعة لمهارته في صناعة المعادن وسبكها وتنفيذ كل أنواع الحدادة، وطرق سيوف الآلهة والبشر ودروعهم وخوذهم على سندانه.

كانت ايليثيا الابنة البكر تساعد أمها هيرا في تخفيف آلام مخاض نساء الأرض، وتعمل على تسريع ولادتهن، في حين كانت أختها الصغرى هيسة Hébé تخدم الآلهة على موائدهم وتسقيهم شراب الخلود وطعامه. وافتن زيوس، في وقت لاحق، بالمراهق الجميل غانيميد «GANYMIDE»، فاقناده إلى الأولمب ليروي بهذه الطريقة أيضاً رغباته الجنسية التي لا ترتوي. وكان على هيسه أن تقسم وغانيميد الساقى مهمتها في خدمة الآلهة على موائدهم.

وفي واحدة من جولات زيوس العديدة في الأرض، أخصب زيوس حورية الجبال مايا MAIA، فولدت في أحد الكهوف ابناً دعتة هرمس «Hermés» للتذكير بكومة الحجارة التي استخدمتها مهدياً له. وأظهر ابن الآلهة المبتكر هذا منذ نعومة أظفاره براعته وكفاءته في المواقف مهما بلغ شأوها. وقد بلغت كفاءته من الكثرة حتى إنا لنرى فيه إلهاً للتجارة والرعاة والعابرين والمسافرين. إن حذائه المنحني المثبتين في عقبه يدلان عليه بوصفه السريع «رسول الآلهة»، يعمل على خدمة أبيه وإخوته وأخواته. كان إلهاً عطوفاً يهب البشر النوم العميق والأحلام اللذيذة، ولكن على المحيطين به الاحتراز من أصابعه الرشيقة السريعة في اختلاس الأشياء التي يرغب. كان يعشق الطيران ويتلذذ بخداع محدثه بعبارته المعسولة والحاذقة ويستفيد من إضراره بالآخرين. كان يحمي من كان على شاكلته من البشر، لكنه كان يعمل على تنمية مشاريع أولئك الذين كانوا ينصبون له التماثيل ويعمل على إنجاحها، وتماثيله كانت عبارة عن أعمدة حجرية مربعة الزوايا بلا ساقين ولا ذراعين، يتوجها رأس رجل ملتج ويتوسطها عضو الذكورة المنتصب. ومن يمتلك هرماً هذه صفته يعلن لكل غادٍ بأنه سيكون، في حقله وميدانه، السيد بلا منازع، بفضل حارس كحارسه هذا الذي سيعاقب دونما شفقة كل من تسول له نفسه أن يمس أملاكه أو امتيازات فحولته.

ومن نخيلة الإغريق المتوثبة انبثقت الكثرة الكثيرة من آلهة الأولمب، التي زاد زيوس في عددها جراء مغامراته العاطفية مع بني البشر الفانين. فمنحوا ما كانوا

يلحظونه من ظواهر طبيعية مبهمة وما يصدر عنهم من نزوات لا يمكن تفسيرها أسماء إلهية. وكانوا يصوغون الآلهة ويفصلونها على صورة البشر. فكان عالم آلهتهم كما أرادوه هم ورغبوهم. وانطلاقاً من هذا الواقع كانوا يشعرون باتحادهم مع هذا العالم الذي يوفر لهم الأشياء وفق رغباتهم. ولكي يبرروا حبهم الجامع للحياة وحاجتهم النهمه للملذات كانوا يهبون آلهتهم مسرات الوجود وشهوانية كانوا يتمنونها لأنفسهم: كانت حياة آلهتهم انعكاساً لأحلامهم.

كانت القبائل الإغريقية جميعها تعتمد تقاليد قديمة، جعلت منهم، على الرغم من تعدد الأمهات، ذرية لزيوس. إن قدرة الإغريقي على التباهي هكذا بالأصل السماوي، وعلى اشتقاق اسمه الشخصي من أسماء أنصاف الآلهة، وعلى أنه الوليد المباشر أو غير المباشر لزيوس، كانت تدغدغ حواس الإغريق جميعاً وترضي حب الذات في جبلة كل واحد منهم.

كان الإغريق فخورين بوصفهم ذراري هجينة وأبناء زنا الآلهة والأبطال. فكانوا جراء ذلك لا يتورعون عن أن يتصرفوا تصرف أسلافهم المقيمين في السماء، وسواء أكان ذلك بالمباغته أم بالحيلة والخداع وهذا أفضل، راح الرجال يجعلون من النساء أو الفتيات اللاتي حملتهم الصدفة على ملاقاتهن، أمهات لذريتهم غير الشرعية.

إن قصة اريكتونيوس، ملك الأثينيين الأسطوري، تشهد على أهمية الإيمان بأصل إلهي. ذات يوم ذهبت أئينا لملاقة هيفايستوس ليضع لها لأمتها (عدة المحارب). وبينما كانا يتبادلان بضع عبارات تملكك هيفايستوس رغبة جامحة لامتلاك أئينا. فولت أئينا الأدبار، فطاردها وأوشك على اغتصابها. لكن أئينا دفعته بعيداً عنها فتفجر منيه على ساقها. وباشتمزاز وقرق مسح الإلهة بسبيخة من صوف ما علق بها ورمت بالسبيخة الملوثة على الأرض، ومن هذا المنى الساقط على الأرض ولد اريكتونيوس الذي ربته أئينا سرّاً لأنها أرادت أن تجعل منه ملكاً خالداً على المدينة التي خصّته بها.

والأغرب منها أسطورة أغديتيس. لقد حدث لزيوس أن احتلم فقذف بمنيه ليسيل حتى يبلغ الأرض، فولد كائناً بأعضاء جنسية مذكرة ومؤنثة. هذا الكائن الخنثى (الثنائي الجنس) كان أغديتيس. لكنه ماعتم أن صار أنثى بعد أن استأصلت الآلهة أعضاء ذكورته، كان الفريجيون سكان آسيا الصغرى يعبدون اغديتيس أو سيبيل، «الأم الكبرى». فمن أعضائه المتبورة انبعثت شجرة لوز تحمل ثماراً. ونانا، ابنة الإله - النهر، كانت تخفي حبات لوز هذه الشجرة بين نهديهما، تحت صدرها، فتلقت بها. واحتاج اغديتيس - سيبيل حب جارف تيمها بأتيس، الابن الذي ولدته نانا، فأقلقت فكر الفتى الجميل، الذي كان على وشك الزواج بأميرة، وبلبلت لبه إلى حد دفعه إلى إخصاء نفسه. وتوسلت أغديتيس إلى أبيها زيوس ليعيد إليها عشيقها ولكن دونما جدوى.. إنما زيوس وعدّها بأن جسد الفتى، الذي نرف جراحه ففقد كل دمه، لن يفسد أبداً وسيبقى لها خنصره حياً ليتحرك كرمى لها، ولكن مغامرة أبي الآلهة التي يستذكرها اليونانيون بسرور عظيم هي مغامرة «الليالي الثلاث» التي أمضاها مع ألكمين، زوجة الملك أمفيزيون، بعد أن اتسم بسماة أمفيزيون الغائب وملاحمه. هل ألكمين الجميلة مذنبه زانية على الرغم من جهلها أن عاشق الليالي الثلاث، الذي لا يكل ولا يمل وشبيه زوجها في كل نامة وحركة وصورة هو شخص آخر؟ هل كان لها أن تحزر أنه من المحال على أي فان كان أن يحب كما أحبها زيوس؟ ويمتدح البشر أمفيزيون لصفحه عن زوجته الخائنة دون علمها. وتحلم النسوة بعشق فيه لبس وإبهام مثل عشق ألكمين. إنما الكمين سلكت ما يتوجب على كل امرأة شريفة أن تسلكه، ذلك لأنها إن لم تهب جسدها لزيوس عندما شاركها فراش الزوجية بوصفه زوجها الشرعي، فإنها ستكون بذلك مقصرة في واجباتها الزوجية تقصيراً خطيراً.

كان لابد لليالي الغريبة هذه من أن تنجب شخصاً غريب الأطوار: هرقل (هيراكلس). وكان نصف الإله هذا الذي عانى آلام البشر وأنجز مهاماً تفوق

قدراتهم وطاقاتهم، معبود الإغريق، فخصّوه باثني عشر عملاً أسطورياً برهنت تفاصيلها المتحددة على الدوام ان قوته لاتقهر، وإن دهاءه لا حدود له. لكن هذه الأعمال في الواقع تمثل أساس النشاط الإنساني وجوهره: تحويل مجاري المياه وبنائيعها، وتجفيف التربة واستصلاحها، وإبادة الوحوش الخطرة المقيمة في الغابات. وهكذا تعزوا القبائل اليونانية إلى هرقل، السلف الغابر المزعوم للعديد منها، أعمالاً أنجزتها تلك القبائل نفسها عبر العصور المفرقة في القدم.

وعلى الرغم من استدعاء زيوس هرقل (نصف الإله) للعيش في الألب في أواخر حياة عاشها عبر أشغال مضنية، فإن هرقل أحب وتألّم كما يحب البشر ويتألّمون. إن أي إنسان، مهما بلغ شأنه في القوة والدهاء، سيجد نفسه ضائعاً تائهاً أعزل السلاح لا حول له ولا قوة، ما أن يستعبده هوى مجنون لامرأة. وكان هرمس قد باع هرقل لأومفال ملكة ليديا بناء على أمر من أبيه زيوس لامتهانه حرمة معبد أبولو. وتنعم برعاية أومفال إلى حد تخليه عن كبرياء الرجال في سبيل إرواء رغباته الجنسية، في الليل كان الإلف الملائف الذي يرضي عشيقته ويسعدّها، وفي النهار كان يفزل بمغزله كما المرأة، كان الخرع والرخو والمخنت في ثيابه الأنثوية. سنة بكاملها ذهبت هباء ليضحى بها كرمى لشهوات امرأة ومفاتها من دون أن يخطر ببال أحد أن يتهمه بخيانة الرجولة، ألم يكن هو دون غيره الذي فض في واحدة من مغامراته، بكاره خمسين عذراء في أسبوع واحد؟

كانت أخلاق الإغريق الجنسية، نساء ورجالاً، رخوة ومتوانية، مثلهم في ذلك كمثّل أخلاق آلهة الألب الجنسية، فالكل لا يخضعون إلا لنزواتهم ورغباتهم. عدد من ذوي الاختصاص يرجعون مصدر عقيدة الإغريق هذه في عشقهم للحياة وللعهم بالمتع إلى شعيرة الموتى التي لم تفرض على الرجال والنساء إلا ما قل من المحظورات لتسمح لهم، في المقابل، بكل أنواع التهنك والفجور. وتؤكد الحفريات ان المأوى الذي دفن في أسفله الأموات في وضعية القرفصاء، صار

مذبحاً مقدساً، حوله يجتمع أقرباء الميت من الأبناء والبنات والأحفاد وأحفاد الأحفاد، للاحتفاء بذكره، تكريساً لتهدئة روح الأجداد وإسعادها بالأضحيات والصلوات، فهم القادرون، إن أرادوا، على صنع الخير أو الشر للأحياء. وفي هذه الاحتفالات الورعة يمتدحون بإفراط مزايا الأموات، فيغدو المتوفى من المحاربين البسطاء بطلاً مغواراً، ويجلون نفاذ بصيرة فلان فوق الطبيعة ولم يكن في حقيقة أمره إلا من متوسطي الذكاء والفتنة، إن مثل هذه المبالغات التي لم تصدر إلا عن قلوب غلبها التأثر والانفعال، تسببت في منافسات جذية دارت بين القبائل والأسر. فكل منها كانت تعمل على تأكيد أفضلية أسلافها وتفوقهم، ومع انتقال التقليد من جيل إلى جيل كانت تنضاف إلى مزية الخلف واستحقاقاته مفاخر جديدة تجعل من الأسلاف المرحومين آلهة تحمي القبائل والأسر.

زد على ذلك ان هذه الأسر والقبائل قد توحدت فيما بينها واندجت، مما أدى إلى اعتراف السكان أجمعين بالأغلبية العظمى من الآلهة، على الرغم من اختلافهم في تقدير شأنها. وكانت القرابة لزيوس، القرية منها أو البعيدة، أو لما أنجب هذا الإله من أبناء وبنات، هي التي تحدد المكانة التي يمنحها كل فرد إلى هذا البطل أو ذاك من أنصاف الآلهة، ويتمنى تأكيد انتسابه إليها.

ولكن تقاليد الإغريق وعاداتهم لم يملها إيمانهم بآلهة الأولمب العظام أو بذراريهم، ذلك ان للإغريق حساً فنياً استثنائياً وموهبة استمتاع مدهشة بالاستعراضات التي كانت تقدم لهم. فلم يقنعوا بالنهوض بكافة القوى التي تتجلى في المشاهد الرائعة إلى مصاف الآلهة فحسب، بل راحوا يقصدون أيضاً أدق المظاهر وأرقها. فكرسوا شعيرة، ليس للقوى الكبرى فحسب، بل للنافه من الأمانى أيضاً. ان كل ماتدركه حواسهم وكل ما يثيرهم أو يفرهم، يبدو لهم حياً بفعل نسمة فوق طبيعية، فاستشعروا ان هناك تحتها روحاً طيبة ومخلوقاً سماوياً محسناً أو شيطانياً رجيماً مقلعاً أو وحشاً بحرياً غداراً. وحول هذه الظواهر التي اخترها

الإغريق أو ارتابوا بنعمها وأخطارها، نُسجت الخرافات والأساطير. لتتردد هذه التقاليد على شكل أمثال سائرة أو تنتشر عبر صيغ وتضرعات سحرية.

كانت الآلهة عند الأغلبية العظمى حليفة للحيوانات، تتجسد فيها أو تتقاسم معها هذه أو تلك من المزايا، وهكذا سميت هيرا «تلك التي لها عينا بقرة» واشتهرت البومة بوصفها شعاراً لـ بالاس أثينا. أما رموز التناسل، التيس والجددي فقد كرسا لأفروديت إلهة الحب والمتعة، إضافة إلى الأرنب لكفاءته في التزاوج السريع، وعصافير الدوري التي تتقاتل حباً دونما انقطاع، والحمامة التي سماها الإغريق، بعدّ تعرفهم على عبادات آسيا الصغرى، عصفور عشّار الإلهة الغريبة التي تشبه إلى حد ما أفروديت. وفي مغامراته العاطفية انتحل زيوس بطيب خاطر مظاهر ثور، وبغية سفادها، كان يحوّل موضوع رغباته إلى بقرة. ومع ليدا (Léda)، زوجة الملك تاندار، اتحد زيوس بها تحت هيئة بجمعة. وباضت ليدا بيوضاً خرجت منها هيلين الجميلة وكليتمسترا والديوسكير: كاستور وبوليكس. وكانت مذابح أفروديت تزين بالأس والريحان، ويلقى على أرضها بالتفاح، فإن قدم أحد العشاق تفاحة أفروديت إلى إحدى الصبايا فهذا يوازي طلباً بالزواج: «إني أرمي إليك بهذه التفاحة، فإن أردت محبتي، تناولها وامنحيني بكارتك، وإن لم ترغبي، خذي التفاحة، لتعلمي لكم الصبا سريع الزوال».

حتى زيوس نفسه كان خاضعاً لجميل أفروديت، ولو كان خضوعه هذا خضوعاً غير مباشر. فإن لم تنعم إلهة الحب على المرأة المشتهاة بلمسة من السحر المثير، فإن أبا الآلهة لا يستسيغ حباً يعوزه السحر. كان لأفروديت حزاماً ثميناً يخفي بين طياته رعشات اللذة بكل صورها، وتوقد الشهوانية ونهمها. وعندما تحلت هيرا بكل ما في الصبا والجمال من محاسن، وهبت نفسها لزيوس، ولكنه لم يشته جسدها ولم يطمع بها إلا عندما أعارت أفروديت زوجة أبيها هذا النطاق «طلسم الحب والرغبة أسر قلوب الآلهة الخالدات والبشر الفانين» وافتتن

زيوس أيما اقتتان وخضع إيما خضوع لسحر هيرا التي اتحد بها بشغف شديد أنساه الكون وما عليه.

كانت أفروديت معبودة، ليس بوصفها إلهة الحب فحسب، بل بوصفها ربة الجمال الأنثوي أيضاً. لقد كان جسمها بالغ الروعة إلى حد تشييد معبد خاص له قُدّم هدية للإلهة «ذات العجيزة الرائعة» وبنى هذا المعبد لأفروديت «حسنة الكفل» أختان اثنتان لأنهما تدينان بسعادتهما الزوجية لجمال استدارة مؤخرتيهما عطية الإلهة أفروديت وهبة منها.

كان المجامل من الكهنة والشعراء يروي بسرور قصة زنا أفروديت، زوجة الأعرج هيفايستوس، لمواساة النساء والتأثير فيهن تأثيراً حسناً أو لتثقيفهن، لقد كن نساء مرغوبات ولكنهن كن أيضاً محرومات من متع العلاقات الزوجية ولذائدها، إما لأن أزواجهن لا يلبون حاجاتهن وإما لقصور جسدي في جملة هؤلاء الأزواج. إن مسؤولية إخفاق هذا الزواج المبرم في السماء، لا تقع على أفروديت وحدها، ذلك لأن تهالك حداد الآلهة المتطرف في عمله، على حساب همته الزوجية، رأى فيه الكثيرون المسؤول الأول عما آلت إليه حال أفروديت. فلو أنه خصص لزوج من الوقت والاهتمام ما يرضيها لضربت صفحاً عن ساقى هيفايستوس المعوجتين ولتغاضت عن وجهه الذي دهمه السخام لتتظر بعين الرضى إلى سعة صدره وجبروت ساعديه. لكن هيفايستوس صرف كل اهتمامه في عمله ولم يكثر بزوجه العطشى للحب. في حين كان لأريس إله الحرب من فراغ وقت كان الصانع المجهد يشغله في صنع أسلحة أريس. اغتتم أريس وحدة أخته ووحشتها وراح يخطب ودها ويطارحها الهوى. فأهاجت رغبة أريس شهوة أفروديت، وصارا زوجين يلتقيان في الخفاء، وارتسمت مباحج الحب وطيباته جمالاً وحسناً على أفروديت إلى درجة أثارت دهشة آلهة الأولمب، في حين كان الزوج المخدوع آخر من يعلم. ومع ذلك فإنه لما أدرك مصيبتة عزم على الثأر منهما، لكنه لم يسلك سلوك رجل شريف من البشر اكتشف مهاتته،

بل كان يُدخل في روع الآخرين أنه جاهل بما يدور حوله وراح يتحين الفرص لضبط الأخ وأخته وهما يرتكبان عملهما المشين، ولينزع عنهما القناع جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد، بالمعنى الحقيقي للكلمة، ومن أجل هذا الغرض صنع شباكاً غاية في الدقة. وفي لحظة عناقهما الحميم أطبق بشبكته على العاشقين بقوة، وأحكم قبضته عليهما فلم يستطيعا الفكاك أحدهما عن الآخر، وسعى في طلب آهة الأولب جميعاً لكي يهزأوا من العاشقين وهما في هذه «الوضعية المشيرة للسخرية». لم تسخر آهة الأولب من آريس وأفروديت وإنما من هيفايستوس الذي عرض بوقاحة ورعونه بلايا حياته الزوجية، حتى إن أبولو الذي لم يحتقر متع الهوى، راح يسأل بجنون رسول الآلهة: «أي هرمس، أنت ابن زيوس ومراسله، وموزع الجميل من الأشياء، أيروق لك أن تكون هكذا مكبلاً بقوة وترقد في مضجع أفروديت الذهبية؟» فأجابه رسول الآلهة السريع، وهو لم يكذب القول هذه المرة: «أيا! حبذا لو يتحقق ذلك.. حتى لو قيدتني شباك لا نهاية لها تفوق تلك ثلاث مرات، حتى لو كنتم جميعاً آهة وآلهات ترنون إلي، نعم لكم أشتهي أن أنام مع أفروديت الذهبية». إن إطراء كهذا لا يبد من أن يشجع الإلهة ويدفعها بقوة إلا الاستسلام للمذات المحب. فاستجابت لهرمس ولبت رغبة أطلقها العاشق بصراحة لا لبس فيها. وتولعت بأدونيس، المراهق الجميل، مثلما شغفت عشتار بتموز، وتمتعت بمذات أدونيس الجسدية العذبة طوال فصلي الربيع والصيف، وأراحها أدونيس العذب من غزوات عشيقها آريس وعنف فحولته، لكن إله الحرب الغيور تحول إلى خنزير بري وقتل أدونيس، وبات لزاماً على أدونيس اللحاق بالعالم السفلي، فراحت بيرسفوني تنازع أختها على هذا الحبيب الفتان. ورفعت الأختان شكواهما إلى أبيهما زيوس، وزيوس بدوره شاء ألا يرفض لكل منهما طلبها موضوع أمنيتهما، وعليه فقد قرر أن على أدونيس من الآن فصاعداً أن يمضي نصف سنة (سنة اشهر) عند بيرسفوني، وأن يصعد في النصف الآخر من السنة إلى أفروديت لكي يسعداها

ويثلج صدرها وصدور النساء اليونانيات اللاتي يندرن له الزهور في نهاية كل صيف ويرثين موته القادم، وفي الربيع ينتظرن أوبته بحنين.

وفي سبيل البرهان على أنها توزع ملذاتها ومسراتها على الرجال والنساء بعدل وإنصاف ولدت أفروديت لعشيقها هرمس مولوداً ذكراً وأنتى في آن معاً، وأطلقت على هذا الكائن الثنائي الجنس اسماً يحمل اسمي الأب والأم معاً: هيرمافروديت، وكان لهذا اليافع أعضاء جنسية مذكرة ولكنه في الوقت نفسه يتمتع بنهدين رائعين يستحضان على المداعبة، وقد بلغت شعبيته حد إقامة تماثيل له في كل مكان، إنه المعبود بوصفه صورة للثنائية التامة المتكاملة. وتكشف الخنثا رمزياً عن حقيقة يعوزها حتى الآن الأساس العلمي، لكننا نستشعرها ونذكرها: يحمل الرجال والنساء جميعاً خصائص الجنس المقابل وعندما يجترجان في اتحاد جسدي يجد كلا الجنسين نفسيهما من جديد، وفي رحم الأم يتحد الاثنان في وحدة واحدة، والولادة وحدها هي التي تقرر إلى أي جنس ينتسب المولود الحديث الولادة، إن نداء خفياً يدعوننا حال الولادة، ومن الآن فصاعداً، لنصبو طوال حياتنا إلى الجنس الآخر، وهكذا فإن المخنث بالنسبة للرجال والنساء على السواء هو دعوة خفية إلى مراعاة النظام: على الجميع ألا ينسوا أن كل فرد منهم يحمل في ذاته خصائص جنسية مذكرة ومؤنثة، الجسدية منها والمعنوية، وأن أحاسيس الرجال والنساء أحاسيس قابلة للتبادل.

أثمرت علاقات أفروديت الغرامية اللاهية فولدت من أريس إيروس، الصبي المخنح «الذي يخترق بسهامه قلوب البشر والآلهة معاً». صحيح أن ايروس «كان موجوداً من زمان» إلا أن عناق أريس لأفروديت بعاطفته المشبوبة نبهته، وهو في أحشاء أمه، إلى شكل جديد من أشكال الحياة. ومنذ ذلك الحين لم يرض قط بتشجيع الرجال والنساء على الولادة فحسب، بل راح يحملهم على طلب المتعة وعلى الاهتمام باللذة الشخصية، وعلى إسعاف الإلف والعمل على زيادة حدة المتع الجنسية. وراح ايروس يفقد على كلا الجنسين بهداياه بفضل سهامه،

فصار، إذا ما كان الوقت مناسباً، يسهل علاقات الحب المثلية (الجنوسة - اللواط)، وعدّها شيئاً مباركاً، وكان يوزع ملذات الجسد، حتى انه هو نفسه كان مولعاً ببسيشه (Psyché) الروح الإنسانية أياً كان جنسها.

ومن إله الخمر ديونيسوس، الذي تذوقت معه نشوة الخمر ومتعة الجسد، كان لأفروديت ابن جلف وفاحش، إنه برياب (Priape) التحسيد المقدس لعضو الذكورة في حالة انتصابه، فلم يغيب هذا الإله الصغير قط بل كان حاضراً في كل اتحاد جنسي. وكان يروق لليونانيين التندر والضحك من هذه الشخصية الغريبة، ولم يعرف الرجال ولا الناس قدراً لجماله. ومع ذلك كان على برياب الإسهام في كل علاقة حميمة، لأنها بدونه ستبقى علاقة ناقصة وغير مكتملة، كان العشاق يمتدحون «موزع اللذة» هذا، أما المتظاهرون بالحشمة فإنهم لم يستطيعوا نكران دوره بل اعترفوا به واحداً من آلهة الخصب الكثيرة العدد. إضافة إلى ذلك فإن عضو الذكورة (Phallus) الهائل الذي يمثل برياب ويستخدم في شعرته كان العشاق في أعياد الخصب يحملونه بمظاهر الانتصار والجلال، حتى خصوم برياب أنفسهم كانوا يعرضونه في حدائقهم لإفزاز الطيور وطرده للصوص. أما سكان الريف فكانوا يقدمون له العسل أو شحم الخنزير، ذلك لأنهم يرون فيه حارساً لمربي الخرفان والماعز والنحل، فمن أراد أن يحظى بنعم برياب، ويتمتع جيداً بجسده، كان عليه أن يقدم له حماراً، ومما لاشك فيه أن الحمير كانت تعد من فحول الحيوان وذات طاقة جنسية جبارة. إن برياب، الصفيق وغير الرصين، والفاجر الداعر، كان سر أبويه فعلاً وحقاً. فمن دونه لكانت حياة أفروديت ناقصة، ولكان أبوه بحاجة إليه بين أفراد ثلثه الطروب. لقد كان برياب رمزاً للتسالي جميعها التي تلي الاحتفال بتدشين حمر جديد.

على الرغم من احتلال ديونيسوس المقام الثاني بعد إله اليونانيين المفضل زيوس، وعلى الرغم من تأثيره في أخلاقهم أكثر من الآلهة الأخرى جميعاً، فإن هذا الإله لم يكن وليد مخيلة الإغريق، بل كان إلهاً أجنبياً قدم من الخارج مهاجراً

إلى اليونان. وكانت الأعياد لا تقام والاحتفالات لا تبدأ والمدائح لا تصدح إلا عندما تبرعم الكرمة ويتذوق الرجال والنساء عصير العنب المختمر، فيتملكون ويغيبون عن المكان، ويصيرون «entheos» «العامرة قلوبهم بالإله» والمأخوذون بالحمية الإلهية.

وما أن تجنس هذا الإله القادم من الخارج وصار إغريقياً بات عليه أن يعد ابناً لزيوس، وبما أن الكرمة تثبت من الأرض توجب على الأم إذن أن تحمل به في داخل الأرض وجوفها، فكيف اتفق ان كانت أمه هي بيرسيفونى دون غيرها، وهي التي أحصبها زيوس قبل أن يخطفها أخوها هاديس إلى الجحيم؟ كان قد سبق لها أن استكرت حب زيوس لأختها ديمتر Déméter، لكنها استشاطت غضباً وخرجت عن طورها عندما بيرسيفونى نفسها (ثمره علاقات زوجها الآثمة مع ديمتر) ولدت «طفلاً أقرناً» ثمره علاقاتها مع أبي الآلهة. فاستثارت التيتان (أبناء أورانوس وغايا) وحرضتهم على قتل هذا الطرح غير المرغوب فيه، ولكي يدفع عنه شر التيتان وينقذه من موت محقق حوّل زيوس الطفل الأقرن إلى تيس، لكن التيتان كشفوا خديعة زيوس وأوقعوا بأدونيس في الفخ وأمسكوا به ومزقوه إرباً. كانت أثينا على علم بخن أبيها وحبه للطفل الأقرن. فأنقذت قلب التيس ليعهد زيوس به إلى سيميله Sémélé الأميرة الفانية التي وجدت نفسها عشيقة لزيوس وهي تجهل أن الرجل الذي استسلمت له هو ملك الأولب. واكتشفت هيرا ان سيميله كانت حاملاً بقلب الطفل الأقرن. وها هي هيرا الغيري من ديمتر ومن بيرسيفونى قبلها تكاد الغيرة من سيميله تمزقها، «فأقسمت أن تنزل العقاب بالفتاة نفسها، لاسيما أنها تحمل في أحشائها دليل جرمها، ثم نهضت عن عرشها وتلفعت بسحابة ذهبية واقتربت من عتبة دار سيميله، ولم ترفع عنها السحابة حتى كانت قد تحفت في صورة عجوز يغطي الشيب فوديتها، وتملاً التجاعيد بشرتها، وقد احلودب ظهرها، واهتزت، وارتعش صوتها من أثر الشيخوخة، وبدت في صورة شبيهة تماماً بمرضعة سيميله، وأخذت تتحدث إلى

سيميله حديثاً طويلاً عرجت في نهايته على زيوس قائلة: لكم أتمنى أن يكون زيوس حقاً هو الذي منحك هذا الجنين فإن شكاً كبيراً يؤرقني، وكم من رجل تسلل إلى فراش فتاة بريئة منتحلاً لنفسه شخصية الإله. وأياً يكن فإن ادعائه بأنه يزوس لا يكفي، ولا بد أن يقدم الدليل على حبه، فاطلبي إليه أن يظهر لك في صورته الإلهية مجللاً بهالة عظمته ومجده التي يظهر بها لهيرا في السماء، ودعيه يضمك إلى صدره بعد أن يرتدي ثياب ربوبيته..» وهكذا سألت الفتاة زيوس أن يعدها بتحقيق طلب لم تكشف عنه فوعدها الإله فقالت له: «فلتظهر لي كما تظهر لهيرا ساعة تطارحها الغرام، وحاول الإله إمساك شفيتها عن الكلام، غير أن عبارتها العجلى كانت قد طفرت من شفيتها وانتشرت في الهواء، فرئى لها زيوس بعد أن فات الوقت.. وحرص الإله على حمل أقل قدر ممكن من قواه، فتخفف من حمل النيران مستبدلاً إياها بصاعقة أقل ضراوة، ودخل زيوس دار سيميله بهذه الصاعقة، غير أن جسد سيميله البشري لم يقو على تحمل الإشعاعات المنبعثة من صاعقة الإله فاحترقت وأصبحت رماداً، وأسرع الإله فانتزع الجنين الذي لم يكن قد اكتمل نموه وأخرجه من بطن أمه، وأفسح له مكاناً في فخذة وهو ما يزال مضغمة ثم خاطه عليه حيث بقي شهور الحمل، ثم حضنته خالته اينو حتى عهدت به إلى حوريات نيسا اللاتي نجبنه في غارهن وأخذن يغذيانه باللبن...»، إن كلمة حورية *Nymphe* تعني «عذراء». وقبل أن يدرج ديونيسوس ويشب بينهن، اشتهرت الحوريات، بنات زيوس، المترددات إلى الجبال والأشجار وينابيع المياه وأمواج البحار «بالعرائس الطاهرات». وسرعان ما ارتبط إله الخمر المتقلب بصداقة مع الشهواني بان بن هرمس وإحدى الحوريات، ومع سيلين الذي يرى فيه السكرارى مثلاً يحتذى وإليه يضرعون كان لبان جذع إنسان وله من التيس قرناه ولحيته وقدماه وذيله (نصفه إنسان والنصف الآخر تيس). وكان ينزو على الماعز ليزيد في عدد القطعان، ويفترع الحوريات، ويواقع الرعيان إذا ما نازعته رغبته التي لا ترتوي.

كان ديونيسوس يطوف الحقول والغابات، وحيداً أو مشيعاً برفقة الساتير ذات القائمتين وشياطين الغياض والجبال بمظاهرها الحيوانية، في موكب جميع أفراد من السكرارى والمتهتكين. كانت شهوات ديونيسوس النهمة تعكر صفو حياة الحوريات وتقض مضاجعهن، لقد كان هو وبطانته الماجنة يلوثون طهارتهن ويغتصبون بتولتهن، ولكن سرعان ما كانت هؤلاء النسوة الأثريات يتخلين عن تحفظهن ورزائتهن أمام مشهد السرّينده (Sarabandes) والرقصات العنيفة الداوية لهذه المخلوقات الغلما والشهوانية المواكبة لديونيسوس وقد لعبت بها الخطافات السكر والعريضة فذهبت بها كل مذهب. ولم يكن لرياب أن يتغيب عن حفلات القصف هذه قط، فهو إما أن يُبرز للعيان فحشه ويتباهى بفجوره، أو أن يتوارى مؤقتاً، إذا ما فرضت عليه آداب السلوك الكياسة واللياقة وحسن الأدب، متحياً أولى الفرص ليظهر من جديد ويفعل ما يفعل لتأكيد فحولته.

واحتفاء بديونيسوس وتكريماً له ولبطانته، كانوا يحملون على رأس الموكب، إبان أعياد قطاف العنب، قضيماً مقدساً (Phallos) هائل الحجم، رمزاً للخصوبة. وكان قاطفو العنب يحتفلون بالإله، التيس الذي مزقته التيتان في الأمس البعيد، وهم يخفون وجوههم خلف أقنعة على شكل رؤوس التيس، بغية استسلامهم لغرائز اللذة، ومن دون المخاطرة بالكشف عن هوياتهم. فالقناع ينزع عن الإنسان هويته، ويخلصه من كل حياء، ويحيله شبيهاً ببيان أو بأحد الساتير أو بسيلين أو بيرياب.

وهكذا كانت تشور ثائرتهم غير الموكب برفقة أعداد أخرى من مريدي ديونيسوس، وهم يصدحون بأغانيهم السفهية، ويمتدحون ملذات الخمر والحب والجسد. وفي بعض المناطق كانت تتواكب في أعياد قطاف العنب العروض الأسطورية مع طقوس العريضة الجنسية. وكان المريدون ينتحبون بصخب ينعون موت الطفل الأقرن الذي قتلته التيتان ومزقته إرباً، ويطلقون صرخات الابتهاج

الإغريق

المدوية مرحبين بانبعث ديونيسوس وليد حب زيوس وسيميله. كان موته رمزاً للشتاء: وحفلات العنب تجف هي أيضاً في فصل الصقيع هذا. ولكن عندما تزهر الكرمة في الربيع وترعم، فإن زمن الانبعث يكون قد آن أوانه. وللاحتفاء بالربيع الوافد - المتجدد - هذا، كانت أمهات ونساء وقتيات قاطفي العنف يصعدن إلى فراديس الكرمة ويحتسين الخمر إلى أن ينخطفن في نشوة وحشية. وتكريماً للإله كن بمزقن تيساً ويتلغن دمه ويلتهمن لحمه نيشاً تعبيراً عن الرغبة الحماسية في الاندماج الكلبي في الإله ديونيسوس وفي تمثل شخصيته، وهؤلاء النسوة اللاتي استخفت بأرواحهن النشوة كان يطلق عليهن كاهنات باحوس نسبة إلى الاسم الذي كان يحمله ديونيسوس في تراقيا. وكانوا يُسمُونهن أيضاً المينادات «الممسوسات» وكن لا يسمحن لأي كان من الرجال بمشاركتهن رقصاتهن المجنونة، بل كان قاطفوا العنب يرضون لنسائهم، دوغما شعور بالغيرة، أن ينغمسن في شعيرة الإله المتهتكة هذه.

ومادام ديونيسوس هو الذي يقدم هن النبيذ، فمن الملائم تدارك سخطه، والفوز بنعمه الحميدة بإقامة الصلوات والأعياد والمشاركة في المواكب وتقديم الأضحيات.

كان ديونيسوس الوافد الجديد إلى عالم الآلهة اليونانية. وكان يقال أنه أتى من وراء البحار، عندما سبق لآلهة الأولمب وشكلت، منذ أمد بعيد، أسرتها العظيمة والجليلة، التي كان أفرادها يتحلقون حول مائدة واحدة، ويرقدون في سرير واحد. فلم يكن في الأولمب ثمة نبيذ.. وكانت الآلهة تشرب الكوثر (شراب الآلهة)، وتقتات من طعام الآلهة، الطعام الذي يمنح أفرادها الخلود. أما بالنسبة للجانين من بني البشر، فقد كانوا يرضون، إلى حد ما، بالنبات غذاء. مرات ثلاث في اليوم كانوا يأكلون الفاصولياء حساء أو عصيدة، ومن طحين القمح أو الشعير ينضجون خبزهم أو يطبخون حساءهم. وكان اللحم من الكماليات النادرة، فسواء كان مشوياً أو مسلوقاً أو مملحاً ومدخنأ، فإنهم لا يأكلونه قط إلا

بعد تقديمهم للأضحيات، عندما تبدو الآلهة سخية كريمة، وتطفى على الكهنة الأريحية والسخاء. لكن هذه الوجبات البسيطة والخفيفة لم تكن لتؤثر في حب اليونانيين للحياة وفي تمتعهم بها، فمنحوا أهتمام بطيب خاطر مادبها السماوية شريطة أن تمنحهم بدورها المتع التي تروق للآلهة والبشر على السواء.

تروي أوديسة هوميروس وإلياذته بأسلوب نبيل وشاعري تاريخ أوائل الإغريق «في عصرهم البطولي». صحيح أن هوميروس لم يذكر إله الخمر ولكنه أبرز لنا بطانته وآثارها التي تفعل فعلها في العقول فتستثير الأحاسيس وتبلبل أفكار الأبطال ونسائهم، كما تكدر الآلهة والإلاهات وتلقي بذور الفتنة بينهم.

كان الآخيون المتهالكون على الانتقام والغزو، والطرواديون المحاصرون والمغلوبون في نهاية المطاف، أنسباء ينتمون إلى عرق واحد - العلم أكد ذلك - . لقد كانوا يؤمنون بالآلهة عينها، وكان لهم الطباع والأخلاق المتشابهة، وكانت معتقداتهم ومبادئهم التي اعتمدها في الموت كما في الحياة قد انتقلت إلى الدوريين الذين اكتسحوا أرض اليونان بعد سقوط طروادة، تلك المبادئ والمعتقدات التي حافظ عليها الأيونيون الذين عرفوا كيف يذودون عن مدنهم ويدافعون عن مواقعهم ضد الغزاة. وعندما كان هوميروس يولف إلياذته كان جيروت الممالك ومجدها قد اندثر منذ زمن بعيد، تلك الممالك التي انحدر منها أغامنون قائد الآخيين العام إبان حصار طروادة، وأخوه منيلاس زوج هيلين الجميلة المخدوع.

وكانت المدن الملكية مثل: ميسينا وتيرانشه وبيلسوس خرائب وأطلال من رماد، في حين استمرت عادات الآخيين وتقاليدهم حية في القصائد الهوميرية وفي حياة الناس أيضاً. وقد انسحمت هذه العادات تمام الانسجام مع البلدان والبشر إلى حد اضطرنا لانتظار عصرنا هذا لنكتشف، حصيلة للحفريات ولنتائج

التنقيبات، إن الآخيين لم يكونوا من المسيبيين، بل كانوا قبيلة من بين العديد من قبائل السيلت الشقر، الذين دمروا، قبل مجيء الدورين على الأرجح، الحضارة المسيبية، لكنهم تبنا جزئياً أخلاق المغلوبين.

وفرت تنقيبات ميسينا وطروادة شهادة متنوعة لماض عظيم الثراء، ولكنها، في ذات الوقت، لم تقدم لنا مايكفي من القرائن والأدلة التاريخية. ترى ماذا حدث في داخل طروادة وإزائها؟ ولم نشبت الحرب الموصوفة في الألياذة؟ إننا لا نملك وثيقة أياً كانت لتأكيد تلك الوقائع. إن الإلياذة والأوديسة قصص أسطورية وسير لآلهة وأبطال، مزدانة، لا ريب، بتفاصيل شديدة الواقعية لدرجة تدفعنا إلى أن نعزو ما جاء فيها إلى حقيقة تاريخية. فلم يكن الآخيون وحدهم من دك مدينة طروادة، ذلك لأن المدينة التي استطاعت بأسطوها أن تحول دون دخول الهيلسبونوت «Hellespont» إليها كانت في الماضي البعيد نهياً لغارات الأعداء يدمرونها فيعاد بناؤها من جديد، إن الذكريات المتوارثة لصراعات الأبطال الذين كانوا يتقاتلون بمساعدة الآلهة أو ضد مشيقتها يشكلون لحمة القصائد الهومييرية التي أثرت تأثيراً حاسماً في ديانات الإغريق وطبائعهم.

كانت مدينة طروادة أكثر من ميدان للمبارزات البطولية والتلاحمات الجسدية الدامية، لقد كانت مسرحاً لمناوشات ومشادات تدور بين آلهة وألهات نسجت بلهوها المتقلب هذه الحرب الضروس الدامية، وكما يفعل البشر بمناسبة الأعياد عندما يدعون أحد الحكام لاختيار المرأة الأجل في الحفل، قررت الآلهات: هيرا وأثينا وأفروديت التنافس فيما بينهن، ونصبن حكماً لم يخترنه من بين الآلهة الخالدات، بل اخترن واحداً من غير المحايين من بني البشر، فكان حكم هذه المباراة الإلهية باريس، وهو أمير طروادي جميل القوام والطلعة. كانت أمه قد حلمت قبل أن تلده بأنها ستلد جذوة من نار، مما دفع والديه إلى هجره فوق هضبة إيدا.. وكان على باريس أن يقدم التفاحة الذهبية المنقوش عليها «إلى

الأكثر جمالاً» إلى الجديرة منهن بهذا اللقب، ولبت باريس حائراً مشدوهاً وهو يستمع إلى حجج الآلهات الثلاث: رأى في ميرا امرأة كبير الآلهة ذات الهيبة والسلطان، وفي أثينا ربة الحكمة والأمر بالمعروف، لكنه ما ان وقع نظره على أفروديت بجمالها الفتان ولفقاتها الساحرة حتى مال إليها، وزاد من ميله وعدها إياه بأن تزوجه أجمل سيدة على وجه البسيطة، فإذا هو يؤخذ بهذا وذاك ويقدم في غير وعي واضعاً التفاحة الذهبية بين يديها على الرغم من تحذير حبيبته أونونيه - إحدى عرائس البحر - إياه. وما ان قبضت أفروديت على التفاحة الذهبية حتى أخذت تختال في زهو لتكيد بذلك أثينا وهيرا.

ومكافأة لباريس على إثارة لها بالتفاحة الذهبية، وجهته الإلهة أفروديت لملاقاة هيلين الجميلة، زوجة الملك مينيلاس، الجدير بالاحترام، والتي سبق لها أن وضعت بنتاً.. ونزل باريس ضيفاً على الملك بغية إغواء زوجته.

كان كل من الرجل والمرأة، جراء سطوة أفروديت وسحرها، يضربان صفحاً عن كل وازع أخلاقي، فغدا باريس عاشقاً للزوجة الملكية غير آبه لواجبات الضيف نحو من أكرمه ورحب به في منزله، وانتهكت هيلين بدورها حرمة الزواج بصفافة لا يردعها رادع، لقد أحسست بنفسها، وقد غيبتها سحر أفروديت، تنجر عنوة نحو باريس، فسلك الفانيان ما كان يمكن لآلهتهما الخالدات أن تسلكه دوغماً تخرج أو كتمان. وغدا الاثنان عاشقين مدلهين، واحتطف باريس هيلين وحملها إلى وطنه طروادة. وكان هذا الزنا مناسبة لاندلاع حرب طروادة، وهو سبب تافه في ذاته، فضلاً عن أنه قابل للصفح، وذلك لاستسلام المذنبين، وهما لا حول لهما ولا قوة، لسحر أفروديت وسلطانها.

انتهك باريس حرمة التقاليد الآخية انتهاكاً مضاعفاً، فقد نال، من جهة أولى، من قدسية الزواج، وألحق الضرر والأذى، من جهة ثانية، بجرمة الضيافة وهذا أخطر. وحمل الآخيون السلاح للدفاع عن قوانينهم ومبادئهم، ولعلمهم باشروا بأعمالهم العدوانية - التي ستكلف المغلوبين، في النهاية، حياتهم جميعاً،

والمتصرين حياة معظمهم - لدوافع أخرى نجهلها. ولعل هذه المناسبة رائجة بين
استجابة لطموح كان يدغدغ أحلامهم منذ زمن بعيد، فقد كانوا يحملون حقد
بالقضاء على الهيمنة الطروادية و سطوتها، والاستيلاء على منفذ حر يصل بهم إلى
شواطئ البحر الأسود الخصيبة عبر الهيلسبونت (الدردنيل - م). وكانت هذه المنية
الدافع الفعلي للحرب، فليس من المعقول أن يجتمع كل هذا الحشد من ملوك
الإغريق وأبطالهم للدفاع عن شرف الملك الزوجي والتأثر له.

ولا نعتقد ان الملوك والأبطال الذين غادروا لقتال طروادة، أمراء من
ذوي السلطان، أو أسياد من ذوي السعة والرخاء. فلم يكن الملوك الآخيون إلا
بمجرد فلاحين غلاظ، يعيشون على ما يزرعون وعلى ما ينتجون. فالأرض التي
يجرثونها يتعذر استصلاحها. لقد كانت أرضاً حصباءً وسبخةً أو أرضاً مغطاة
بكثيف الغابات. وقد صور هوميروس قلق المزارعين إثر إخضاعهم للطبيعة
العذراء بمساحة من الأرض حرثت حديثاً،... عندما «يحمل سيل جارف، زاده
الخريف امتلاءً وجبروتاً، الجسور في مجراه المتسارع.. وحبك (أسيجة من قصب)
الحقول المخضوضرة لا تحول دون تدفق لجته الهادرة» لا مرأى أن الماشية كانت
ترعى في المراعي، ولكن كم كان على الفلاح أن يبذل من الجهد والعناية
لـ«مضاعفة القطعان»! ففي هذا البلد الفقير كان الغني فيه فقيراً، وكان
الكثيرون، حتى أمراء السلاح منهم، صياغاً لأسلحتهم الخاصة يطرقونها بأيديهم،
ونجارين يصنعون الكراسي والطاولات والأسرة يُزودون بها بيوتهم. أما ذلك
الذي لا يمارس مهنة كتلك، فقد كان بمقدوره الطلب إلى جاره أن يصنع له
ذلك. مقابل مال يدفعه، أو كلمات طيبة يمتدحه بها. وعليه فإنه إذا ما سنحت
لأحدهم فرصة التذرع بحجة مقبولة ونعم بشيء من رغد العيش بقوة السلاح،
لأوجب على نفسه، كائناً ما كان، تجاه أسرته وقبيلته ونفسه، أن يجني الفوائد
من الطعان والمبارزة، بدل أن يعمل في سبيل ذلك معتمداً على جهده وعرق
جبينه. وعليه فإن الآخيين، ملوكاً وأمراء، قد اتفقوا سريعاً على الشار لاختطاف

هيلين الجميلة. وعلى إنزال العقاب ليس بباريس وحده، بل بطروادة كلها أيضاً. وأتخذ القرار، وأدار الأبطال الشراب، إن ولائم كهذه تكون في العادة، بسيطة ومتواضعة، وفيها لا يستعملون الشوكة ولا الملعقة، بل كانوا يتناولون اللحم بأيديهم بعد تقطيعه بالسكين. وكان نسيج الثياب بسيطاً وبمجيكونه في أماكن سكنهم. وكان الرجال طوال القامة أقوياء البنية ولهم شعر مرسل طويل ولحي كبيرة، وكانت أعظم هدية يستطيع الرجل أن يهديها أن يقص شعر رأسه ويقربه قرباناً أمام كومة الحطب التي تحرق عليها جثة صديقه. وكان النساء والرجال يغطون أجسامهم برداء مربع يطوونه فوق الكتفين ويشبكونه بدبوس ويصل إلى قرب الركبتين. وتضيف النساء إلى هذا نقاباً أو حزاماً ويضيف الرجال غطاء للحقوين. وكانت النساء صارخات الجمال يسلبن العقول بكل ما في هذا التعبير من معان، حتى إن المناطق المسكونة بالآخيين كان يطلق عليها «Kalligynaix» (الغنية بالنساء الجميلات)، فإذا كانت الكسوة بسيطة ومتواضعة، فلا تعدم الخفة والتأنق والغنج المرأة من الفوز بحقوقها، وكان من الشائع أن تدهن الزوجة جسدها بالزيوت المطيبة بالورود لإرضاء زوجها.

كان جمال المرأة شرطاً لا غنى عنه، لكنه غير كاف للزواج. وعلى الرجل الراغب في الزواج أن يشتري عروسه من أبيها، بيد أنه لن يقدم على ذلك إلا بعد تحديد البائنة قبل العرس وهي الأهم من «ثمن الشراء» الذي يتكون من الماشية إجمالاً، فشراء العروس، في جوهره، كان مقايضة بقطعان من الماشية، والرجل الذي يقبني امرأة كان يتسلمها علاوة على الصفقة، فإن هي وهبته أطفالاً، زيادة على ذلك، تكون قد حققت أحلامها كلها في الحب والزواج، وصارت رفيقة زوجها في السرير كما في الحياة. وكان بإمكانه الاعتماد على إخلاصها، حتى لو كان هو نفسه يتمتع بحريات واسعة، وفي الزواج تغدو المرأة جزءاً لا يتجزأ من أملاك الرجل، مثلها في ذلك كممثل الخيول والأبقار والأغنام والخنائير، ومثل ما كان يقبنيه من الخطايا اللائي يقدمهن بسخاء إلى ضيوفه، إذا

ما عن له ذلك، لكي يتمتعوا بهن. كان الرجل سيد البيت، وربّه الذي لا ينازع، فكان يكن لزوجته الشرعية الاحترام الواجب عليه حيالها شريطة ألا تخيب آماله في السرير، وألا تقطع عقبه لتوكيد استمراره في نسله.

وكان بمكنة النساء الأخيات الدفاع عن حقوقهن على الرغم من رجحان مقام الرجل. فإذا ما زوجها والدها احتلت الصدارة في حفل الزفاف العائلي والاجتماعي معاً، وكان من مظاهر الاحتفال كثرة الطعام، والرقص والمرح، الذي تنطلق فيه الألسنة. وكانوا يسيرون بالعروسين في وهج المشاعل من حجراتها ويخترقون بها المدينة وسط أغاني العرس المألوفة، وكان الشبان يرقصون وهم يدورون، وتعلو بينهم نغمات الناي والقيثار. وكان العروس أقرب أقرانها يفارقونها إلا بعد الوصول بها إلى سرير الزفاف.

ومتى تزوجت المرأة أصبحت من فورها ربة بيتها ونالت من التكريم بقدر ما تنجب من الأبناء. وتحول قضية الزوج الذي كان يلحق بعروسه، بعد الزواج، ببعض الأذية، من شأن خاص إلى شأن عام يتناوله الأب والرجال في العائلة، بل وتتداوله الألسن في المدن والأماكن المنذورة للآلهات وكهنتها أيضاً. وكانت المرأة تُهَيَأ للأمومة، وما أن تلد الأم وليدها حتى يدرك الأب أن اليوم الذي «لا يتعرف فيه الابن على أبيه»



عازفة الناي

ليس ببعيد، ولا يحتفظ الآخيون إلا نادراً بذكرى غامضة عن العصر الأمومي هذا، إن كل شخص كان يرفع بناظره إلى السماء، ناحية الأولمب، كان يعلم أن أبا الآلهة يتصرف بالأمانة الزوجية على هواه، بيد أنه كان يكن لزوجته هيرا احتراماً يليق بها.

وعليه فإن من الحكمة للفاني من البشر ألا يعامل النساء باستخفاف فمن يمكنه المجازفة بتعريض نفسه لسخط أثينا، إلهة الحكمة، بل والأدهى من ذلك لأفروديت التي كانت تستطيع، بدافع الانتقام، أن تمنع عن الرجل التمتع بضروب الحب قاطبة، وأن تحرمه من إرواء غليله وإشباع شهوته؟ كانت أفروديت تصفح عن الإضرار البريء بالزواج، وعن شطط لا ذبول له يرتكب في اللحظة الملائمة، وفي مكان مريح، ومع إلف مناسب، وتغض الطرف عن طيش عبادها، ومع ذلك فإن بعضاً من الفطنة والاحتراس مطلوبان، إن لم يشأ الرجال أن يكونوا عرضة لغضب أرتميس (Artemis) العذراء، إلهة الصيد، إن أي شخص يراود فتاة عذراء، رغماً عنها، يستوري على نفسه حتماً غضب أرتميس وانتقامها الأشد تنكيلاً، لاسيما وإن أخاها التوأم أبولو سيمد لها يد العون، وهو الذي كان يقف إلى جانب أخته مجاملاً في دفاعه عمن يتضرع ملتمساً العفو، وذلك لأنه هو نفسه كان يعشق المتعة والمحظور منها بخاصة. فمن كان يرغب في التمتع بحياته ووجوده، وفي العيش طويلاً، عليه أن يكشف للآلهة حقيقة أمره، وأن يلتمس غفرانها ويفوز بحظوتها بما يقدمه إليها من أضحيات.

وليس من السهل دائماً أن يصنع الفاني ما يروق للآلهة حقاً، أو أن يتمتع عن القيام بما يكدرها. فليس بمقدور أحد، كائناً ما كان، أن يعرف المصير الذي اختارته الآلهة له. إن امرأة أو رجلاً هذا شأنه هو بريء حقاً لكنه، رغم ذلك، مذنب، وذلك لأن أحد أسلافه كان قد أهان الآلهة وعجز عن الوفاء بالتزاماته نحوها، إن أي شخص سليل أحد الفانين ممن تنقل كاهلهم لعنة نزلت عليهم من السماء، يرث منزلة سلفه وأمواله معاً، ولكنه يرث أيضاً عواقب اللعنة التي

تسببت بها آثام هذا السلف. لقد كان أجمنون، القائد العام للملوك الآخيين، والذي غادر بلاده لقتال طروادة ومعه أخوه مينيلاس، يجهل أنه مرغم على التكفير عن آثام كل من تانتال (تنتالوس) والد جده وبلوبس جده وأتره (أثريوس) أبيه.

كان تانتال (تانتالوس) يزرع تحت وطأة وزر مضاعف، إنه ابن زيوس من الحورية بلوتو، والأقرب إلى قلب أبيه الذي أحاطه بحبه ورعايته، وأولاه اهتماماً منقطع النظير، ومنحه الجاه والسلطان، ونصبه ملكاً على ليديا. سمح له أن يروح ويغدو بين آلهة السماء، وشرفه بمشاركة الآلهة طعامها وشرابها. لكن تانتال الجاحد العاق أفشى أسرار السماء وآلهة الألب وأباحها لبني البشر، فسرق شرابها وطعامها سر خلودها. كان زيوس سيصفح له اختلاساته وفتلات لسانه غير المتحفظة، لكن الوليمة المروعة التي أولمها تانتال لأبي الآلهة وسكان الألب الآخريين، أثارت نفور الضيوف النبلاء واستنكارهم إلى حد استوجب الحكم على تانتال بقصاص صارم لا رحمة فيه. والحقيقة هي أن تانتال كان قد شوى ابنه بيلوبس بعد أن قطع أوصاله وفصل رأسه. وقضى القصاص وأوجب على تانتال أن يعاني في الجحيم آلاماً تذهب مثلاً: ... وتقرر أن يعيش تانتال في العالم السفلي إلى الأبد وهو يقاسي ثلاثة أنواع من العذاب، العطش الأبدي والجوع الأبدي والخوف الأبدي. وذلك بأن يقف وسط بركة غير عميقة تغطي المياه جسده حتى الخصر، ويرتفع الماء حتى يبلغ أسفل فمه فإذا حاول أن يشرب غاض الماء ثم عاد ليعلو من جديد، ومن فوق رأسه تتدلى قطوف دائية ما يلبث أن يمد يده ليظفر بثمرتها منها حتى تطوح الريح بها بعيداً، ويظل على هذه الحال يكويه جوع وعطش أبدين، وأرسلت الآلهة صخرة تعلق فوق رأسه على الدوام وكأنها على وشك السقوط لتسحقه فيعيش في رعب أبدي. وأحيا زيوس بيلوبس الذي ضحى به أبوه بصورة مروعة، ورمم الكتف التي التهمتها ديميتز المذهولة حزناً على فقد ابنتها بيرسيفونى. سمي بيلوبس جزيرته بيلوبونيز باسمه.

لكنه كان على شاكلة أبيه يطرب لخداعه الآخرين، أحب ييلوبس الفاتنة هيبوداميا، وبادلته الحب، بيد أن أباهأ أونيومايوس ملك إيليس كان يرفض تزويج ابنته وريثة ملكه إلى كل مطالب بالزواج يعجز عن التغلب عليه في سباق العربات، أضف إلى ذلك ان الخاسر في السباق يخسر حياته أيضاً. اثنا عشر منافساً من الفتيان تحتم عليهم دفع حياتهم ثمناً لولعهم بهيبوداميا.

كان الملك ينطلق بعجلته السحرية التي يقودها ميرتيلوس السائق المخنك، ويجرها زوج من الخيول السريعة، فيلحق بمنافسه الشاب ويطلق عليه حربة سامة يفرزها في ظهره فتقضي عليه في الحال. تنبته الآلهة إلى الخطر الذي أصبح يهدد بلاد الإغريق، وأرادت أن تضع حداً لغطرسة أونيومايوس، وأن تحطم غروره، فأرسلت إليه شاباً إغريقياً جسوراً، إنه ييلوبس الذي قابل هيبوداميا وتبادل الحب معها، ولضمان فوزه في السباق رشى مير تيلوس، سائق عربة الملك، ووعدته أن يقتسم وإياه المملكة وسرير العروس بعد أن عاين تيتهم بهيبوداميا وتلفه لامتلاكها.

استبدل ميرتيلوس المسمارين الفولاذيين اللذين يثبتان العجلات بالقاعدة بقطع من الشمع.. وقتل الملك. احتفل ييلوبس بليلة زفافه مع عروسه هيبوداميا من دون ميرتيلوس لأن ييلوبس قذف به في اليم ناكثاً بوعوده، وراح ميرتيلوس يردد قبل أن يفرق في اللج، عليك اللعنة يا ييلوبس، عليك اللعنة يا ييلوبس، عليك اللعنة وعلى ذريتك أجمعين.

كان لبيلوبس من هيبوداميا ولدان توأمان: أتريه (أتريوس) وثيست (ثويستيس)، أغوى ثيست ايروبي، زوجة أتريه، على الرغم من كونه متزوجاً. ونمى إلى أتريه خيانة زوجه وأخيه فدعا أخاه إلى وليمة، وقدم له أولاده الثلاثة طبقاً رئيساً في الوجبة.

أكل ثيست حتى شبع وشرب حتى ثمل. فجأة أوماً أتريه إلى الخدم إمساء ذات معنى. أحضر الخدم على الفور وعلى صحاف من ذهب رؤوس أبناء ثيست الذبيحة.

لعن ثيبست أترية وولى الأدبار. لكن الآلهة لعنته هو أيضاً كما لعنت أخاه. ذهب ثيبست إلى نبوءة دلفي. يستطلع رأي الإله أبولو. ونصحته النبوءة أن ينجب طفلاً من ابنته بيلوبيا، لأن هذا الطفل سيأثر له. فاغتصب بيلوبيا التي ما لبثت أن أصبحت عشيقة أترية ومن ثم زوجته، فقد سبق لأترية أن قتل زوجته ايروبي أم ولديه أجامنون ومينيلاس، وولدت بيلوبيا ابناً من ثيبست اعتقد أترية أنه ابنه.

وسمي هذا الابن ايجيست (إيجستوس). ونمت إليه جرائم أترية فانتقم منه ونار لضحاياه. ولم يشارك في حملة الآخيين، ومكث في أرغوس بالقرب من كليتمسترا، أخت الجميلة هيلين وزوجة أجامنون، وكان لها ثلاثة أولاد: الكترا وايفيجيني وأورست.

إن قصة زنى أترية وارتكابه المحارم، وقصة اللعنة التي تعقبت ذريته، ازدادت مع الزمن ثراء بما تضمنته من تفاصيل مختلفة كان الغرض منها تفسير المصائب التي حلت بأجامنون وبأسرته. لم تصدر من أفعال أجامنون، على النقيض مما ارتكبه أسلافه من فظائع، إلا زلات طفيفة، وهفوات معقولة، ولكن كان من الضروري إقامة الدليل والبرهان القاطع على أن خداع الآلهة، وقتل الأبناء، والاعتصاب، تجر على مرتكبيها عقاباً من آلهة الأولمب لا يرحم، وعلى أن هذا القصاص أو هذه اللعنة لا تستثنى أبناء المذنب وأحفاده، حتى لو كانوا على جهل بالجريمة وبريقين منها. فلا يمكن التكفير عن شر موروث يجري في عروق أسرة إلا بدم مسفوح، ولا وجود لوسيلة ناجعة تؤثر في قدر مستحق على الجميع ومحتوم، ولكن من الممكن لكل مؤمن، إذا ما توفر له حق اختيار قاطع وأكد، أن يلتمس من الآلهة النصيحة بوساطة الكهنة والكاهنات. ففي العديد من المعابد الإغريقية، رجال «مستنبرون» يعرضون، مقابل تعويض مناسب، خدماتهم في قراءة النجوم، وتفسير الأحلام، وتمحيص أحشاء الحيوانات، ومراقبة طيران الطيور، بغية التنبؤ بمستقبل زبائنهم السذج. لكن نبوءة أبولو في دلفي

وفيما كان الرجال يقاتلون، كانت نساء طروادة ينجزن مهمتهن اليومية. كن يتحملن ويحضرن وجبات الطعام لاستقبال المحاربين العائدين من المعركة. مما يليق بهم من حب وتبجيل، وكن «وفيات وفاء» لرجالهن. ويرجأهم كما يبدو، كانوا هم أيضاً مخلصين، فما عرف أن كان الإله يريهم يسيرون خطأ، باستثناء باريس، الذي لم تغفر له زوجته ايونيا. لقد كانت ايونيا تهمد بهجرانها ليلوذ بالجميلة هيلين. إن سعادة أبناء بريام الزوجة التي هي في الحقيقة ابنة على الدوام، مثلاً سائراً بين الأزواج في اليونان».

وبعد خراب المدينة، كانت فتيات ملك طروادة العزباوات قد وقعن سبايا في أيدي الآخيين المنتصرين، عذراوات. لقد افتنن الإله أبولو ندرأ، لكنها أبت أن تستسلم له، فهي لا تحبه، وهو لا يستطيع الزواج بها. عسى أبولو، بعد أن صدته عنها وخاب أمله فيها، أن تستحيل موهبتها في كسوف الغيب، التي أنعم بها عليها، إلى نقمة تقض مضجعها، فلکم تنبأت لمواطنيها وحذرتهم من مصيرهم المفجع، فعمل أبولو على ألا يصدق أحد نبوءاتها. وعندما نهب الآخيون طروادة، راحت كاسندرا تبحث عن ملجأ لها بالقرب من تمثال الإلاهة أثينا، وهناك وجدها البطل أجاكس (اياس) واغتصبها، لتؤول من ثم إلى أغاممنون عند اقتسام مغام الحرب، وتدخل في عداد عبيده.

كانت كاساندرا تحذر، على الدوام، إخوتها وأخواتها وزوجات إخوتها، ولكنهم جميعاً لم يصدقوها، وعبئاً كانت تردد على مسامعهم ان حياة الطرواديين الزوجية السعيدة لم ولن تلزم الآلهة بحماية المدينة التي حكم عليها بالخراب، لقد ضاعت «اليون المقدسة» على الرغم من انتصارات هكتور المتواصلة، وعلى الرغم من مرتجاه في دحر المهاجمين، وردهم إلى البحر. ففي الوقت الذي جنبدل فيه هكتور حظي آخيل، بتروكل الأجدد، واستولى على شكة (عدة المحارب) آخيل التي يلبسها صديقه، كان آخيل، المنزوي في خيمته رافضاً القتال آنشد، قد

تصالح مع أغاممنون. لكن مظاهر الحزن على العشيق الأعز أيقظت في آخيل حمية المحارب وغلواءه، فراح، وقد لبس لأمة (عدة المحارب) جديدة صاغها له هيفايستوس، بناء على تضرع أمه الإلاهة، يزرع الرعب والفوضى في صفوف الطرواديين، كان هكتور وحيداً آنذاك خارج أسوار ايليون، فطارده آخيل حول أسوار المدينة وقتله بعد معركة دامية، ثم شد جثمان عدوه الصريع إلى عربة القتال وجره حتى معسكر الآحيين.

ونظم آخيل أثناء ماتم بتروكل المباريات الرياضية تكريماً للميت، وقص شعره وضحي باثني عشر طروادياً من الأسرى عربون صداقته لبتروكل وتعبيراً عن حزنه عليه. ولكن قسوة آخيل البائس المروعة دفعت به، مع ذلك، للإذعان إلى نزعاته النبيلة، عندما طالبه الملك العجوز بريام بجثة ابنه هكتور، فسمح للأب الحزين أن يجلس إلى جانبه ليتناول العشاء معه. ثم يأمر آخيل فتغسل جثة هكتور وتطيب بماء الورد، ثم تلف في نسيج من كتاب مصر الغالي الثمن، ويعود بريام إلى أهله حاملاً جثة ابنه وتشعل النار لإحراقها، وترتفع الأصوات باكياً، فلقد بكاه والداه وإخوته وزوجته وأصدقاءه أحر بكاء.

كان البطل الحقيقي يمتاز بسورة غضبه الصارمة والجامحة في حومة الوغى، ومع ذلك فإنه كان من المناسب واللائق أن يؤدي التحية الأخيرة، تحية الوداع، للمغلوب الصريع.

إن الميتة الشجاع لعدو مقدم تستدعي احترام المنتصر للميت وتبجيله، فالشجاع الشهم يستحق أن يوارى جثمانه مع كل آيات التقدير والاحترام، فتلك هي رغبة الآلهة وما تستدعيه العادات التي تحوم فوق رؤوس المتحاربين وعداوتهم.

بعد مقتل هكتور تلقى الطرواديون المحاصرون والياثسون، بتدبير من العناية الإلهية، نجدة حلفاء أتوا من بعيد.

أبولو. وإذعاناً لأمر العراف وحرصاً منه على انتصار قواته، أعاد أجامنون الفتاة إلى أبيها الكاهن، ولكنه لم يرض بالحرمان من صاحبة تدفئ فراشه، فطالب بريسيس (Briséis) فغادرت خيمة عشيقها الحانق لتقيم في خيمة القائد أجامنون. وذهبت احتجاجات آخيل الفضوب سدى: «خيامك زاخرة بكل نفيس، والعديد العديد من النساء في خيامك، نساء مختارات، فما أن نستولي على مدينة، حتى يقدمهن الآخيون لك أولاً على الدوام».

لم يكن أجامنون الوحيد بين أقرانه ينعم بلياليه بين أحضان السجينات الجميلات، لقد وجد معظم الأبطال بدائل لزوجاتهم، باستثناء مينيلاس الذي لم يجد من يحل محل زوجته، فكان من المحال، بالنسبة له، لأي امرأة، أياً كانت هذه المرأة أن تضاهي الجميلة هيلين، كان يتمنى استرجاعها هي دون غيرها.

ما كان لأي امرأة، أياً كانت، أن تبهج آخيل وتسعد ليليه بعد أن حرمه أجامنون من بريسيس (بريزيسيس). لزم آخيل خيمته معتزلاً للحرب، تنهشه كراهيته لأجامنون، قانعاً بصداقة باتروكل (باتروكليس) الرقيقة، صديقه المفضل. في السنة التاسعة من حرب طروادة، اتفق الآخيون والطرواديون، بعد أن أريقت دماء غزيرة، وذهب المرض والحنين إلى الوطن بحماس المحاصرين وحبهم للعراك، على أن يضعوا حداً للضغائن والنزاعات في مبارزة تلور بين مينلاوس وباريس، وللسلاح الفصل بين المتبارزين، الزوج والعاشق، والبت في أيهما الأفضل والأقوى، والفائز من ثم بهيلين إلى أبد الدهر. تغلب مينلاوس على باريس، لكن أفروديت غيبت حظيها عن الأنظار، ونقلته، بعد أن طيبته بالزيوت الثمينة، وعقصت شعره بمهارة، إلى «سرير العاشق» الذي يجمعه وهيلين، فطلبت الحسناء من باريس أن يبين عن رجولته في مكان آخر غير السرير، ودعته لتحدي مينلاوس مرة أخرى. ولكن باريس كان يتحرق شوقاً لامتلاك عشيقته، فاستتارت أفروديت أحاسيس هيلين لتندفع مستسلمة إلى رغبة فاتنها. وروحت المداعبات عن باريس وعوضته هزيمته وإخفاقه، وعملت أفروديت على أن لا

ينال الأسى من هيلين لتساعحها، ولكن نار الحرب الضروس استعرت من جديد، فتلك هي أمنية الآلهة والآلهات باستثناء زيوس الذي كان يميل نحو السلم.

كان يحكم المدينة المحاصرة، التي يدعوها أهلها اعتزازاً «إيليون المقدسة» الملك بريام. وهناك خلف أسوارها الحصينة كان الملك قد وضع في حرز أمين ما حصله الطرواديين من ثروات بالتجارة والمكوث. وجمع أكداً من المؤن كيلا يعوز الطرواديين والطرواديات شيء أثناء الحرب. فمازالت حظائر القصور والبيوت، بعد تسع سنوات من الحصار، تؤوي الأبقار والنعاج السمان، وكانت الأقبية طافحة بالخمور، والأفران عامرة بالأرغفة المقرقشة، وكانت الجياد «تقتات بالعلس (الحنطة الرومية) و«الشعير الذهبي» وهي تنتظر بسروجها المحاررين الذين كانوا لا يألون جهداً في حماية أرواحهم الغالية بفضل عربات القتال مثار حسد المهاجمين الغزاة. كان لبريام خمسون من البنين. «تسعة عشر ابناً من بطن واحدة، أما البقية الباقية، فقد أنجبتهم من خليلات لي يعيشن في منزلي» وكان الوليد الأول، بين أولاده التسعة عشر، الذين ولدتهم هيكيوبيا، هيكتور «ذو الخوذة المزينة بالريش» «ذو الخوذة البراقة»، الذي يجمعه وزوجته أندروماك حب رقيق، فكان لها الأب والأم والأخ و«الزوج الممتاز». توسلت أندروماك إلى «بطل الشعب المقدم» ترجوه ألا يعرض حياته للخطر خارج الأسوار الحصينة، وتضرعت إليه أن يشفق عليها وعلى الابن الذي ولدته له: «لا تجعل ابنك يتيماً وزوجك أرملاً»، لكن هيكتور أعرب عن تهيئه وكشف عن عظيم تخوفه من: «رجال طروادة ونسائها بذيولهن السابغة» إذا ما هرب من حومة الوغى هروب جبان رعديد. «لن ينجو أبداً الفاني من بني البشر من قدره، بدءاً من اللحظة التي تحمل به امرأة، سواء أكان نبياً هذا الإنسان أم وضعياً حقيراً». وراح هيكتور ينصح أندروماك بتزجيه الوقت في العمل: «عودي إلى منزلك وتفرغي لأشغالك، وتناولي مغزلك، وارجعي إلى نولك، ومري خادماك واستهضيهن للانكباب على عملهن».

كانت الأكثر شهرة بين التنبؤات جميعاً، والتنبؤات التي تدلي بها بشيئا دلفي كانت تجيء، في الأغلب، على شكل أقوال غامضة ومتفككة يفسرها الكهنة كإجابات على استشارات الحجاج حول مصائرهم ومشاريعهم، ومن يحزر معاني هذه التنبؤات ويفسرها بدقة يمكنه التأكد من أن أبولو يعطف عليه ويوجه خطاه.

لم يكتف الإغريق بالاعتقاد أن بمقدور الآلهة التأثير في الأعمال الإنسانية قاطبة، وأن العمل الذي تباركه هو وحده الصائب دون غيره. فرأوا أن لا مفر لهم من وقاية أنفسهم من الأرواح الشريرة لأن «صغار الجحش» موزعون في كل مكان، فمن الممكن طردهم أو تحييدهم، على أقل تقدير، شريطة أن يحافظ المرء على «طهارته» ليس بالاعتسال وحده بل بتجنب كل دنس وعدم الاقتراب منه، وعلى كل من ينزل بيتاً فيه ميت مسجى، أو مريض طريح، أن يُنضح بماء مبارك كي يبرأ من أرواح الموت أو المرض. وإضافة إلى ذلك دون غيره من التبعات الضارة التي يتسبب بها الطمث وقذف المني. ولا يستطيع اليوناني، إذا ما قابل مجنوناً فاقد الرشد، أن ينجو من آثار هذا اللقاء المؤذية إلا إذا «بصق هلعاً على ثيابه التي يرتديها». وعليه، إذا ما اعترضت طريقه قطة، ألا يتابع طريقه قبل أن يقذف خلفه بثلاث حصى. كان الخوف من الأشباح واسع الانتشار إلى حد أن المتطيرين تحرزاً واحتراساً، كانوا ينتضحون كل صباح بالماء المبارك من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، ويضعون في أفواههم طول النهار ورقة من الغار. ولكنهم كانوا يرون أن التطهر على أيدي الكهنة من أكثر التحرزات ضماناً.

وإن العبارات السحرية هي الترياق الأكثر فعالية وكان المختارون الذين يشاركون الآلهة في «كشف الغيب» (التبصير)، محط احترام الناس وتبجيلهم إلى حد اعتبار تنبؤاتهم قانوناً، وكلامهم كلاماً صادراً عن الآلهة، حتى إن الملوك أنفسهم أخضعوا أحكامهم إلى حكم العرافين، فليس من خطر يعادل خطر التصرف ضد إرادة الآلهة ورغباتها.

كانت الآلهة أحياناً تشفق على البريء من البشر الفانين، لكن تلك التذبذبات في العواطف ماهي إلا نزوات عابرة تدخل في أصول لعبة سكان الأولمب. وقد تصفح الآلهة الخالدة عن عدوها، إن اختلط أبناء المصائر البشرية فيما بينهم إلى حد يستلزم إصدار عفو يشمل الجميع، أو أن خلاصاً قضت به الآلهة قد استلزم انقلاباً ما. لقد عرف هوميروس أن يمزج فنياً نزوات آلهة الأولمب في مجرى الأحداث.. وعليه فقد اقتضى الوضوح في سير الأحداث أن يضحى أجاممنون بابنته ايفيجيني «Iphigénie»، ويقدمها قرباناً للإلهة اريتميس لتصب عليه زوجته كليتمسترا جام غضبها وكرهيتها.

كانت التضحية التي فرضها أحد العرافين على أجاممنون قصاصاً لقتله أيلة الإلهة اريتميس، ورغبة منها في معاقبة الصياد الأخرق، منعت الإلهة العذراء أسطول الآخيين من مغادرة المرفأ والإقلاع نحو طروادة. فكان على أجاممنون أن يضحى بابنته ايفيجيني، التي استقدمها إلى أوليس بدعوى زفها إلى المحارب آخيل (أخيلوس)، لتضى الإلاهه فتسخر لهم ريحاً مواتية. لقد تنكر أجاممنون لواجبات الأبوة حين ضحى بابنته ونذرهما للموت، لكنه قام بواجبه قائداً. وكان شديد الأسى ولكنه كان متيقناً بأنه عمل بما يمليه عليه الواجب. وسواء اقرن جوراً أو ارتكب خطيئة، فإنه كان على جهل بذلك، بل وأكره، قبل أي شيء آخر، على الانصياع إلى متطلبات عادات بلده وتقاليده خيراً كانت هذه العادات أو شراً.

وعندما رست سفن الآخيين الشراعية، وهي في الطريق إلى طروادة، على اليابسة للتزود بالماء والطعام، اختطف المحاربون أيضاً عدداً من الصبايا. كان الحرمان الجنسي عذاباً مبرحاً يحاول الجنود في الميدان التحرر منه بسبي النساء واستباحتهن، وبما أن أجاممنون هو القائد الأعلى، فمن حقه الاستئثار بأجملهن، فاستولى على الشقراء كريسييس. وكان على آخيل، المولود من رجل فان وإلهة بحرية، أن يرضى بالشقراء بريسييس. لكن أحد العرافين هدد أجاممنون بانتقام أبولو: كريسييس هذه، التي اختطفها واغتصبها، هي ابنة كاهن من كهنة الإله



مقطع من معركة تدور بين الطراديين والآجيين، على موهريه من كورنقة، القرن السابع ق.م

لقد كانوا جماعة من الفرسان الغريبة غير المألوفة، زرعت الرعب في قلوب أعتى الآخيين وأشدهم صلابة: إنهن نساء يمتطين الجياد على أردانها، ويرمين بسهامهن، ويقذفن بمزاريقهن (رماح قصيرة)، ويقاتلن بضراوة تفوق ضراوة الرجال. إنهن الأمازونات (امرأة بلا ثدي) اللاتي ينقضن، بقيادة ملكتهن ثنيسيليا، على الآخيين الذين ما استطاعوا التغلب عليهن إلا بعد مقتل «الضارية» بنثيسيليا، في مبارزة لها مع آخيل. وتروي الأسطورة أن آخيل قد جن جناً بالملكة المقاتلة عندما أزاح قبالة حوذة القتيلة كاشفاً عن وجهها.

هؤلاء الأمازونات من أين جئن يا ترى؟ هل هن شخصيات نسجتها بنات أفكار هوميروس الذي ألفناه يتحدث عن الرجال بخاصة، وقد تخلين عن جنسهن بانسحابهن من الحياة الزوجية؟ أم هل هن، فتيات وأخوات، أرامل قبائل السكوذيون «Seythes»، تلك القبائل المتوحشة التي يحكى عن أفرادها أنهم يشربون دماء أعدائهم ثم يمسحون شفاههم بجلود سلخوها عن جماجم الموتى؟ ويرى أن هؤلاء العمالقة الملتحين، الذين نذروا حياتهم للقتال، قد ضربهم الوباء باستثناء نساءهم اللاتي بقين على قيد الحياة، فتابعن اصطياد الرجال ممتطيات صهوات جياد أزواجهن الموتى، ويقال أيضاً أنهن لا ينفككن عن مقاتلة أعدائهن مادمن عذراوات، وأنهن لا يضحين ببيكارتهن إلا بعد أن تصرع الواحدة منهن ثلاثة رجال على الأقل. «.... وتلك التي اختارت زوجها تنقطع عن ركوب الخيل مادامت الحرب العامة لكامل شعبها لا تحول دون ذلك، ومع عزوفهن عن ممارسة الجنس مع الرجال فقد كن يقمن بحملات مضاجعة لذكور الأقاليم المجاورة، يستهدفن بذلك الإنجاب حفاظاً على تجمد نسلهن، فإذا أنجبن ذكوراً ترددن بين خنقهم في مهودهم أو الرجوع بهم إلى آبائهم، غير أنهن يسعدن بما ينجبن من إناث يدربنهن منذ نعومة أظفارهن على التصدي والعراك، ويجرقن لهن الثدي الأيمن بقضيب من النحاس أعد خصيصاً لهذا الغرض، حتى يكتسبن مزيداً من الحرية والمرونة والقدرة على استخدام القوس وقذف الرمح».

مع غنائمه من طروادة، ليقوم أورست بن أغامنون وكليتمنسرا بقتل الأم والعشيق معاً. فبات على أورست أن يحمل، إضافة إلى اللعنة التي نزلت بسلالته منذ بيلوبس وأتريه، وزر جريمته هو أيضاً، لكن الإلهة أثينا برأت ساحته وطهرته من جريمة قتل الأم. لقد أنجز ما على الإبن من واجب لا يرد، يدفعه الثأر لأبيه، حتى لو كانت المذنبه والزانية الخئون هي أمه.

إن خصال أبطال هوميروس المتكاملة، وآراءهم حول الخير والشر، واختبارهم للحكمة والشنار، تقدم للإغريق جميعاً ما يحتاجونه من تعاليم ضرورية، حتى إلى ما بعد غارات الدوريين التي شطرت القارة الإغريقية إلى معسكرين متخاصمين، ومع ذلك فإن اشتراكهما في الأسطورة واللسان غير كاف لتندمج أخلاق الأيونيين، الذين صدوا الغزاة، مع أخلاق غزاة قساة كانوا يعرفون بأنفسهم وباعتزاز بوصفهم أحفاد هرقل «هيراكليدس». إن تشريعات متغايرة كلياً طورت عادات وأعرافاً متغايرة عند كل من أحفاد الدوريين المقيمين في البيلوبونيز مؤسسي أسبارطة من جهة، وعند الأيونيين ومركزهم الروحي أثينا من جهة ثانية. كان كل فريق منهما يتصور الآلهة نفسها بصورة تختلف تمام الاختلاف عن صورة الفريق الآخر، وأفروديت إلهة الحب مثلاً يؤكد ذلك، تماثيل إلهة الحب في أثينا تعرض عارية بلحمها ودمها وبكامل جمالها الحسي، أما في أسبارطة فكانوا يحجبون مواطن فتنها، ويزودونها بسيف في جنبها الأيمن، ويضعون القيد في قدميها، القيود الرمزية تحد من حرية حركة الإلهة، والسيف سلاح القتل، يذكر المشاهد بالمعارك التي وقفت الإلهة إلى جانبها وراهننت عليها، ويعلن لرجال أسبارطة ونسائها إن على العلاقات الجنسية ألا تهدف إلى المتعة الشخصية، بل يجب أن ترمي إلى ازدهار الدولة المقاتلة التي خلقها المشرع ليكورغ. ونحن لا نملك عن هذا الليكورغ الذي يعني اسمه «رسول النور» أي دليل تاريخي، والتقليد يريدنا أن نعلم أنه كان قريباً من بيت أسبارطة الملكي، وأنه تلقى من الآلهة أنفسهم القوانين التي أعادت تنظيم «لاسيديمونا المتمنطقة

بالهضاب المحيية إلى النفس»، هذا ما يقوله هوميروس. وتشكلت أسبارطة، المدينة «المتناثرة» من اتحاد قرى خمس كانت تنتشر في سهل مشمس على ضفتي نهر ايروتاس، وعلى سفح جبل تايجيت القائم المكلفة قممه بالثلوج الأبدية، وهناك كانت تقيم واحدة من القبائل الدورية على أثر غزو البيلوبونيز، كما هو حال الآريين، إلى حد ما، في وادي الأندوس (نهر السند - م -).

ونصبوا أنفسهم أسياداً على البلاد، فلم يستسيغوا، وقد تغلبوا على أهل البلاد، العمل هم بأنفسهم، فاستعبدوا المغلوبين، وأسموهم الهيلوت، نسبة إلى مدينة هيلوس التي دكوها دكاً، وأتوا على الأخضر واليابس فيها. ولم يُبدِ الأسبارطيون إلا قليل اهتمام بما كان يجري بين هؤلاء الرجال والنساء من العبيد المستعبدين، ولم يداخلهم القلق لا من أخلاقهم ومعتقداتهم، ولا من علاقاتهم الغرامية، شريطة أن ينجز هؤلاء الهيلوت ما خصص لهم من أعمال، وأن يسلموا نتاج أعمالهم إلى أسبارطة. إضافة إلى ذلك كان الهيلوت ملزمين بالخدمة العسكرية، فإن هم رفضوا ذلك حكم عليهم بالموت، أما إذا برعوا في الحرب وفنونه، فمن الممكن أن يفوزوا بحرياتهم، ولكنهم، مع ذلك، لا يصيرون أسبارطيين، أي أعضاء في طبقة الأسياد، المفضلة عند الآلهة. إن كل تقارب وكل مؤاخاة بين الهيلوت والأسبارطيين يعدان جريمة. وإضافة إلى الهيلوت كان يوجد في مملكة أسبارطة، التي ما برحت تمتد وتتسع، البيرييك (المرتدون).

وكان مرخصاً لهؤلاء العمل في الحقول، ورعي قطعان الماشية في القرى الجبلية أو في أطراف الدولة على الحدود. وكان بمكنتهم ممارسة التجارة ومختلف المهن إن هم دفعوا ما كان يفرض عليهم من ضرائب، وخضعوا لفروض الخدمة العسكرية. ولكن كان عليهم ألا يتمتعوا بما منحوا من حريات إلا فيما بينهم، فكان يحرم عليهم أن يرتبطوا بمصاهرات مع الأسبارطيين وإلا كان جزاؤهم الموت، مثلهم في ذلك مثل الهيلوت.

الجميل خبير والخبير جميل

لم تعد تحلو له منذ فترة طويلة، فما هوذا في المغارة المقوسة يرقد ليلاً بجانبها وقد خلا فؤاده من كل حب «والإلاهة الوهلى تلزمه باحترامها وولائه لها».

هل كانت كالييسو تنوي الثأر لنساء أغتصبن فأذعن لرغبات أوليس وصحبه الآخيين؟ أم أنها كانت تشبع رغباتها الليبيدية (الشهوانية) النهممة مع أفضل رجل يمكن لها أن تقابله؟ وهل كانت تنحو منحى نساء الأزمان الغابرة اللائي كن يستسغن السيطرة على الرجال؟ أم أنها كانت رمزاً للرجال وعبرة تدعهم إلى عدم الخضوع للنساء؟ إن كل من كان يتمتع بأفضال النساء ومحاسنهن يخاطر بأن يصير عبداً تكيله أغلال الحب، مثله في ذلك مثل صاحبنا البحار القوي الشكيمة، ضحية فحولته الطاغية، الذي انتهى باستنزال اللعنة عليه.

سمحت كالييسو لأوليس بالرحيل، ومع ذلك فإنه لن ينجو من قدره، صحيح أن دهائه وحضور بديهته عادتا عليه بالنفع، فتخلص من كهف السيكلوب (عملاق بعين واحدة) بوليفيم، بعد أن فقا له عينه الوحيدة وحرقتها، وصحيح أنه نجح بنفسه عندما تهددته مخاطر أخرى عديدة، من بينها غناء عرائس البحر الوحشيات الشديد الأذى، لكنه اضطر، مع ذلك، أن يسلم من عمره سنة بكاملها في خدمة حورية الماء العذب سيركه الفاتنة، قبل أن توافق على إطلاق سراحه لينتهي به الأمر ويجنح إلى بلاد الفياسيان، وهناك تولت به العذراء ناوسيكاً وهماً شديداً، فاضطر الأب إلى عرض يد ابنته على الغريق الذي أنقذوه.

أتمه حب جديد سيكبله؟ أم إن إرادة امرأة ستستعبده مرة أخرى، فتلزمه، مقابل استسلامها له، بالتنازل عن طموحات الفحول من الرجال؟ ولكن أوليس سيد المخادعين بلا منازع، سينفذ نفسه هذه المرة بالنطق بالحقيقة، فقص على أبي ناوسيكاً رواية قدره، فرق الأب لحاله، وأطلق سراحه، وسمح له بالإبحار إلى ايتاكا.

ها هو المسافر المجتهد يؤوب إلى دياره، ولكن هل هو يا ترى رب هذا البيت حتى الآن؟ إنه يبحث عن مأوى يؤويه، فيلجأ إلى خصص (كوخ من قش) راعي خنازيره، لأن في قصره عشرين من طالبي الزواج يرتعون ويقصفون،

ويطمحون جميعاً إلى الزواج من امرأته بنيلوبا، لكنها لم تمنح محاسنها إلى أي منهم، ورفضتهم جميعاً دونما استثناء، ثم راحت تماطلهم، فادعت أنها «سوف ترجئ البت في هذا إلى ما بعد إعدادها كفناً لوالدها الشيخ المشرف على الموت. وإذا كانت بنيلوبا غير جادة فيما اعتذرت به وكان هذا منها حيلة، فقد أخذت تنقض في ليلها ما نسجته في نهارها من غزلها الذي اتخذت له مكاناً قصياً حتى لا تقع العيون على ما تفعل، وحتى تكون بعيدة عن صحب المختلفين إليها وضحيجهم، إذ كانوا يملؤون عليها البيت، يطعمون ويشربون ويلهون صحباً وغناء، حتى إذا ما لعبت الخمرة برؤوسهم كادوا تتخطفها عيونهم».

وسلم أوليس - ومن كان معه ممن يصغون إلى رواية مغامراته البطولية - بأن سعادة الإنسان، حتى أكثرهم ذكاء وفطنة، وأوسعهم حيلة، وأعظمهم موهبة، منوطة بدوام حب الزوجة له، حب عاشقة مخلصه وفية، إن الذي يخسر حب زوجته معرض أيضاً لفقدان كل أملاكه، ليس ما يملك فحسب، بل أملاكه ومعها أسرته أيضاً. ولا مرأه أن بنيلوبا ربت وليدها كما لو كان الأب حاضراً أبداً كي يتزعزع ويشب جديراً بأبيه، ومع ذلك، لم يكن من السهل على القادم الجديد، بعد أن قتل طالبي الزواج المتغطرسين جميعاً، أن يهدئ من روعها ويقنعها بأنه زوجها فعلاً وحقاً، ذلك لأن الزمن والأحداث قد غيرته، في حين مازالت هي على حالها، فكان لزاماً عليه، والحال هذه، أن يجهد في الفوز بها من جديد. يهيمن على قصة تيهان أوليس وعودته إلى الديار، على امتداد الأوديسة، انتصار المرأة وتأكيده سيادتها في ميداني الحكمة والمتع الجسدية.

كثيرات هن النساء اللواتي لم يسلكن، إذا ما غاب أزواجهن، سلوك بنيلوبا الذي لم تشبه شائبة، فحصدن شرور أفعالهن. وهذا ما يكشفه لنا مصير كليتمنسترا. لقد خانت زوجها وغدرت به مع ايجيست (ايجستوس)، وهي لم تشأ، وقد عاد زوجها، هجران عشيقها، فقتلت ايجيست زوجها اغامنون «في حمامه اللذيذ الدافئ، حمام العودة إلى الديار» وقتلا معه كاساندرا التي عاد بها

هل كانت الأمازونات حقاً سليلات نساء قبائل السكوديون (سكِيثيون) اللاتي ورثن حمية الرجال فأقاموا شكلاً من أشكال المجتمع الأمومي؟ أم ان هؤلاء المحاربات قد قدمن من آسيا الصغرى واتحدن تحت حماية الإلهة ارتيميس للتححرر من وصاية الذكور على ألا يخضعن، في أي شيء كان، للجنس القوي؟ وهل الأساطير وسير الأبطال في روايتها لمعارك الأمازونات تستعيد ذكرى صراعات قديمة وقعت ضد قبائل البوادي الآسيوية ذات البنى الأمومية. لقد أسند إلى الأمازونات إدارة أقدم معبد من معابد الإلهة ارتيميس في افيسيا «Ephése». وقد شاء التقليد ألا تتفرغ النسوة للأعمال المنزلية ولا للعناية بالأطفال، بل كان يخلو لهذه الأعمال ماكن قد اخترته من الرجال لكي يشاركوهن الفراش ويعملوا على خدمتهن، فلا يمكن، لمثل هذه القوانين، المتناقضة كلياً مع أخلاق الآخيين وأعرافهم، أن تكون محط ثناء الخلف وتقديرهم، وعليه فقد كان من الضروري أن ينتصر آخيل وصحبه في المعركة وأن يقطعوا دابر هؤلاء النسوة اللاتي اغتصبن سلطة الحرب وقيادتها. إن العالم الإغريقي عالم يخص الرجال وحدهم، فهم الذين يشغفون بالنساء ويغورنهن، وهم الذين يتزوجون بهن مقابل مهر مناسب، وهم الذين يصفحون عن خياناتهن وفي الوقت الذي يشاؤون، مثلما صفح مينلاوس عن الجميلة هيلين بعد سقوط طروادة. وكان لابد أيضاً من أن تكون الحسنة لطيفة ومحبة إلى النفس مثل هيلين. لقد كشفت تلك الحسنة عن «نهدين كاعيين كما التفاحتين» وعرضتهما لزوجها المسحور بمرآهما، وهي تقسم، ويدها فوق قلبها، أنها كانت تعاني آلاماً مبرحة أنزلتها بها أفروديت: «إنها افروديت التي حملتني إلى هناك، بعيدة عن وطني وعن ابنتي وعن فراش زوجي، وعن زوجي الكامل النبيل، النبيل في جسمه، والنبيل في روحه».

كرست الأوديسة، وهي تنمة الإلياذة، لرواية مغامرات أوليس الواسع الحيلة وأوبته إلى دياره، لم يكن المقصود بها قطعاً ملحمة بطولية تروي مآثر ذاع صيتها لتمجيدها، بل قصد بها وصف ماغاناه أوليس وكابده، والمخاطر التي

تتهدد حتى المنتصرين الذين كانوا شرارهم تليد لهذا، بل تقوم به الزوجات أثناء غيابهم، فيبل كين مخاضات يا ترى؟ أم أنها حين يسعين وراء الرجال ليحظون بالمثل لأبوابهم، من كان مقدوره، بعد مرور سنوات طوال، التنبؤ بما كان يجري في الوطن؟ من الممكن المستطاع أن ينقض على الوطن أعداء متغطرسون وقحون، كما انقض الآخيون أنفسهم على المدينة من كل جانب، وعلى العديد من المدن والأقطار. وهامو أوليس يروي بلا حياة تلك الساعة السلب والنهب لم يوفر أحداً، بل راح يتبجح مفاخراً بما فعله من... حينذاك فتكت بالمدينة وذبحت أهلها، لكننا تقاسمنا الصبايا وكل ثمين يانصاف» فليس من المتعذر إذن أن ينقض على مدينة يتاك (Tahaque) من عرس الهالكين تهالكه، فيختطف زوجته بيناً ما ويعتصمها، ويقتل من ثم، ابنه يماك (Télémaque) (تليماخوس)، وبسبب أن كنهها كلها، وبأنها... الأخصر واليابس.

كان الغم والحنين يلازمان أوليس في جولاته وتيهاناته، وكادا أن يجهر بشجاعته إلا مبادرة أثينا، إلهة الحكمة، وحماتها له. في المعركة أقام الدليل على مروءته وعنف رجولته، ومن الصعاب والمكائد مهما بلغت كان يتخلص بواسع حيلته، ومن سار على هدي مشورته ذل على عظيم نهايته. كانت قد تكشف عن أوليس، أثناء الحرب، فنون الحيلة والحذاعة والكتمان، فارتفعت به إلى مستوى المواقف قاطبة، ومنحته تفوقاً جلياً على محدثة مهما بلغت فصاحته. أما الآن، وقد غرقت سفينته لتتقاذف رجولته أنواع شتى من الحن، فإن عليه البرهان على أصالة معدنه. ولولا مساعدة أبي الآلهة وعونه لم يكن في وسع أثينا التي كان يحلو لها الإشادة بـ«الداهية الأريب ذي المكائد التي لا تخيب»، أن تخلصه من محنته يضوي فيها ويدنف سنوات مديدة. والحقيقة هي أن أوليس وجد نفسه رغماً عنه، والضرر الذي أصابه، عاشقاً للإلهة كالييسو، سيدة الجزيرة التي آل إليها. فكانت له معها حياة لا أحلى ولا أعذب، ولكن الحورية

يبدو أن هذا التمييز العنصري الظالم لمختلف الطبقات كان ذا نفع، لولا وجهة نظر محددة، وهي ان الهيلوت والبيرييك كانوا يتكاثرون بشكل خطير، فعلى الرغم من ضروب النواهي السياسية والاجتماعية المفروضة عليهم، فإن هؤلاء العبيد ضاعفوا من أعدادهم حتى إن الإسبارطيين لم يشكّلوا أكثر من عشر عدد السكان الإجمالي. ولكي يفرضوا إرادتهم على هؤلاء الرعايا، بل ولكي يتغلبوا على جيرانهم أيضاً، كان لابد لهذه الأقلية من الإسبارطيين أن تزداد جلدًا وقسوة إلى حد يمكن الإسبارطي من الصمود بمفرده أمام عشرة من خصومه، بل وأكثر من ذلك. وكان في ذلك ضرورة لا مناص منها لطبقة الأسياد إذا ما أرادت الاحتفاظ بسيطرتها والتوسع بها. وقد استوجب ذلك خضوع الرجال والنساء لقواعد أخلاقية تدفع عنهم كل أشكال التخثث، وتعزز لدى كل فرد منهم كمال نموه الجسماني وصلابة بنيته وجلدها. فواظب الإسبارطيون على الفكرة القائلة: إنهم يصنعون من أسبارطة مدينة «الأخيار».

إن الكلمة الإغريقية المرادفة لـ«الأفضل» هي «أريستوس Aristos». لقد أعلن ليكورغ ان الأرستقراطية، حكم الأفضلية (النخبة)، يجب أن تقوم على الكفاءات الخاصة بالصفوة، وإن تناسلاً يحكمه العقل لا بد أن يخلق مواطنين مؤهلين للخضوع لنظام صارم، وراح ليكورغ الذي كان يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج يقول: «... إنه لمن بالغ الجنون والعمه الأعظم أن نقتدي بقوانين أناس آخرين، فيناهم يستجلبون أفضل الفحول لسفاد كلباتهم وأفراسهم، مقابل تعويضات يدفعونها للمالك، أو كلمات طيبة يمتدحونه بها، نراهم يوصدون الأبواب على نساتهم، ويسهرون على رقابتهم، ليختصوا بهن في إنجاب أولادهم، حتى لو كانت نفوس هؤلاء الرجال مضطربة مختلة، وأعمارهم بالية، وأجسامهم واهنة عاجزة».

كان على زواج الإسبارطيين أن يركز على قوة الزوجين وعلى صحتها، وكان يقال عن الزواج هاربازين، والمعنى الحرفي للكلمة «الإمساك، السيطرة».

فعلى الأسبارطي أن يمتلك الفتاة التي وعد بها عنوة واقتداراً، والفتاة بدورها عليها أن تعنف في مقاومة فتاها، فبقدر طول مقاومتها، يعظم شأنها في نظر من اختطفها ليخصبها، والاتحاد الجنسي لا يهدف إلى اللذة وإنما يرمي إلى الإنجاب. ومع ذلك إذا ظهر على الوليد، الحديث الولادة، تشوهات خلقية، ولم يبشر بأسبارطي رياضي أو بأم قوية، حتى للوالد أن يقتله، بل وكان يؤتى به، فضلاً عن ذلك، أمام مجلس من مجالس الدولة مكون من مفتشين، فإذا ظهر أن الطفل مشوه ألقى به من فوق جرف في جبل تايجيت ليلقى حتفه على الصخور القائمة في أسفله. وكان ثمة وسيلة أخرى للتخلص من ضعاف الأطفال نشأت من العادة التي جرى عليها الأسبارطيون، وهي تعويد أطفالهم تحمل المشاق، والتعرض لمختلف الأجواء. فكان يجب ألا يعيش سوى الأفضل، ولا يكبر ويجمع إلا النخبة لإنجاب الصفوة المختارة.

كان البوليس السري المسمى كرييتيا *Krypteia* يُكره آباء المراهقين والمراهقات على عدم القبول بتزويج أبنائهم إلا إذا كان هذا الزواج يبشر بإنجاب ذرية نبيلة. فلم يكن ثمة احتفالات زفاف، ولم تكن العروس تشترى، وليس ثمة مهر ولا بائنة. يروي بلوتارك إن ليلة الزفاف، على أية حال، لا تبدأ على الدوام بالشجار: «كان الزواج يتم باختطاف الفتى لصبية بالغة غير صغيرة اكتمل بلوغها، وصارت أهلاً للزواج، وكان هناك ثمة خادم مهمتها الاعتناء بالعروس، فكانت تستقبل المختطفة، وتقص شعرها، وتلبسها ثياب الرجل ونعليه، وتضعها على محفة من قش، لتتركها وحيدة في العتمة، ويدخل العريس الشاب بكامل وعيه غير ثمل، وغير منهك بالقصف، بل هو لم يذن من الشراب قط، ولم يأكل إلا ما اعتاد أن يأكله في يومه مع صحبه جلساء المائدة، ليندس خلصة إلى جانبها، ويحل حزامها، ويحملها إلى مضجعه وبعد أن يمضي معها وقتاً قصيراً، وبعد أن يجامعها (يوافقها) يغادرها باحتشام، لينام في مكانه المعتاد برفقة شبان آخرين. وكان يكرر في غده ما قام به في أمسه، يمضي نهاره بين رفاقه وينام معهم ليزور

عروسه سرّاً باحتراس وحيطة شديدين، لأنه كان يستحي من افتضاح أمره ويخشى أن يضبطه أحدهم في منزله. وكانت العروس تساعد في تحقيق مقصده، وتعرف على الدوام تدبر أمر اجتماعهما في الوقت المناسب ومن دون علم الآخرين، وهكذا تتكرر لقاءاتهما السرية مدة طويلة، وقد تمتد هذه اللقاءات حتى يغدو الشاب أباً لعدد من الأبناء من دون أن يرى زوجته في وضوح النهار. إن زواجا كهذا كان لا يساعد في التدرب على التعفف والاعتدال فحسب، بل كان يعزز الإخصاب أيضاً، لأن الأزواج والزوجات كانوا يتعانقون بشوق شديد دائم الجدة والندوة، ماداموا يحتفظون بعد كل لقاء بجذوة من نار المودة والحب المتبادلين، بدلاً من أن يرتووا فيسقمهم الوهن بتكرار المتعة وتواترها. ولكن الحنو والحب لا يوحدان ولا يقيدان هؤلاء الأزواج الذين يمتلكون بعضهم بعضاً في الظلام. وكان من الشائع أن يشارك الإخوة والأقارب أو الأصدقاء الأزواج في نسائهم، ليكونوا من ثم على ثقة تامة ان الحمل قد تم، وان الدولة ستحني ثمار هكذا اتحاد. ولم يكن من اللائق إدانة علاقات الأخيار مع الأخيار الجنسية وتجريمها بالزنا. وليس من المقبول إطلاقاً هجران الزوجة للزواج بأخرى أكثر شباباً وجمالاً، فما أن يقع الاختيار حتى يكون اختياراً قاطعاً ليمتد العمر كله. إن كل شخص يرغب في قليل من اللهو ما عليه إلا التوجه إلى إخوته وأقربائه أو أصدقائه: فإن وجدوه جديراً، وجد هو نفسه، بين أحضان زوجاتهم في العتمة، ما كان يبتغيه من لهو ومتعة (شريطة أن يخدم في لهو هذا الإنجاب).

وهذه العتمة التي تكتنف الضم واللمس والوصال كانت مجرد إجراء شكلي، وتقليد متبع، وقاعدة من قواعد آداب السلوك الخاصة بالعلاقات الجنسية، لأن الرجال والنساء لم يألفوا الحرج من التعري المتبادل، كانوا يتخالطون وهم عراة، وكان من المألوف أن يشارك الجنسان في الرقص والاحتفالات العامة دونما ثياب حتى أخفها تستر أجسامهم: فالفتيات يرمين إلى منح الرجال فرصة التعرف على أجسادهن، وتحريضهم على الاختطاف الزفافي،

والرجال لأنهم كانوا يجهلون كل مظاهر الحياء لاعتيادهم على الظهور عراة في الألعاب والتمارين الرياضية منذ نعومة أظفارهم. وحدهم الرجال العازبون لا يحق لهم حضور المواكب العامة التي يرقص فيها الفتيان والفتيات عرايا، حتى ان العزاب أنفسهم كانوا يُرغمون على أن يمشوا بين الجماهير عرايا صيفاً وشتاء ينشدون نشيداً فحواه أنهم يقاسون هذا القصاص العادل جزاء لهم على مخالفة قوانين البلاد. وكان الذين يصرون على عدم الزواج عرضة لأن تهاجمهم في أي وقت من الأوقات جماعات من النساء يؤذينهم أشد الأذى. ولم يكن العار الذي يلحق بمن يتزوجون ولا يلدون ليقل كثيراً عن العار الذي يُلحق بالعزاب، إن لم يستطيعوا بفضل شهود مخولين إثبات أن العجز عن الإنجاب لا يعود إليهم، بل يعود إلى عقم نساءهم، وكان المفهوم ان من لا أبناء لهم من الرجال غير خليقين بذلك الإجلال الديني الذي يقدمه الشبان الأسبارطيون لمن هم أكبر منهم سناً.

وكان على الأولاد مغادرة البيت الأبوي في سن السابعة لتتكفل الدولة بتربيتهم في زمر وجماعات، فكان القيم على الأولاد (بايدونوموس) يشرف على التمارين التي تساعد في تقوية عودهم، وتمنحهم قوة ومقاومة استثنائيتين. فكان المراهقون ينامون ملتحفين السماء في كل الأجواء. ولم يكن للمرض ولا للتعب أن يبررا فتور همتهم، إن من يضعف في مواجهة المشاق منذ حدثته سيغدو، وقد نضج وبلغ، عاجزاً عن مواجهة كل موقف، وقاصراً أمام كل صعب، كان الجلد والشجاعة والاستعداد لتحمل أسوأ المشقات، هدف التربية الأسمى. إن أدنى علامة جبن كانت عاراً وشناراً، ولكي يتعلم الأولاد تحمل الألم بصمت، كانوا يُجلدون بالعصي والسيور الجلدية حتى يتزفون، ففي كل عام كان يجلد جهازاً وعلى رؤوس الأشهاد، أمام مذبح الإلهة أرتميس، عدد من تلاميذ النخبة المتفوقين في المنافسات الطقسية: الجري والملاكمة وقذف الرمح أو رمي القرص، وعندما يتزفون وتخضب دماؤهم الحجارة دون أن تصدر منهم نأمة من شكوى، يكونوا قد اجتازوا الاختبار النهائي. وكانت إلهة هذا المذبح العذراء تدعى

«ارتيميس المنتصبة»، ويقال إنها استحقت هذا النعت، المشتق من الكلمة «أورتوس» (منتصب)، لأنها كانت تعاقب الفتية البالغين بجلدهم بالسياط عندما تبدأ أعضاؤهم الذكرية بالانتصاب مهددة عذرية الفتيات، هذا التفسير يؤكد التقليد الذي يلزم الغلمان والبالغين، إذا ما أقيمت حفلات الرقص وبدأت التمارين الرياضية العامة، بسحب الحشفة قدر المستطاع وعقدها برباط، منعاً لاستثارة الرغبات الجنسية وما تلحقه هذه الاستثارات من أضرار بنتائج المباريات البدنية. وقد جرت العادة أن يرتبط المراهقون بعلاقات حميمة مع رجال بالغين. ففي معسكرات المضارب وجماعاتها التي يدخل في عدادها، ليس جماعات الأولاد أثناء تربيته فقط، بل الأسبارطيون كافة منذ بلوغهم سن الثلاثين حتى الستين من العمر أيضاً، كانوا يرتبطون بصداقات ذكورية تؤدي بالضرورة إلى علاقات أكثر حميمية وأرق من العلاقات الزوجية القسرية. كانت قوانين ليكورغ صريحة وقاطعة: «... وما من أحد يستطيع أن يصير مواطناً صالحاً إذا خلا مضجعه من الصديق» وقد عبر خصوم اللواط عن تشككهم في صحة هذا الزعم؛ في حين كانت اللواط في أسبارطة تفرض نفسها طبيعياً لأنها تسهم في تكوين الشباب اجتماعياً وعسكرياً.. وقد زعم بلوتارك أن ما يتسبب به جمال المراهقين من اكتفاء جنسي لدى الكبار لا يستثير رغبات لبيدية (شبقية) ولا يدفع إلى اتصال جنسي، وبالمقابل، فإن كل بالغ يفتصب غلاماً أو مراهقاً تحت الحماية يفقد شرفه وتسوء سمعته.

إن ما مجوزتنا من علاقات تدور حول المودة المتبادلة بين الرجال والمراهقين تثير تفسيرات كثيرة ومتنوعة تبعاً لوجهة نظر كل فرد، فمنهم من يتحامل على اللواط لأن فيها مظان وأحكام مسبقة، ومنهم من يرى فيها رؤيته للعلاقات الجنسية الغيرية، فمن الممكن أن تصدر من غريزة طبيعية سوية.

وهكذا فإن أفلاطون ينفي أن تكون المودة المجردة من الجنس فكرة مقبولة، وثمة مؤلفون آخرون، في المقابل، يعتقدون أن بوسع رجال أسبارطة أن يعجبوا

بجمال الأولاد، فتعجبهم بجمال التماثيل، وإن العديد من الرجال يتعلقون بمراهق واحد، وأن مراهقاً واحداً تتعلق بالعديد من الرجال من دون أن يصلوا بتعلقهم هذا حد العلاقات الجسدية. فلا الأعمال التشكيلية ولا الوثائق المخطوطة تسمح لنا بالكشف عن شكل التقارب الجسدي أو العلاقة الجنسية التي بلغت مساكنة البالغين والمراهقين في أسارطة. ومع ذلك فإن ما كان يتمتع به الرجال والنساء من حريات في علاقاتهم الجنسية تسمح لنا بأن نخلص إلى أن الرجال لم يفرضوا على الرجال أي حظر كان، وانهم لم يسلموا قيادهم إلا إلى غرائزهم. وكان لا بد للصدقة المشبوبة العاطفة، التي كانت تنشأ بين الرجل والحدث قسراً، عندما يُعجب الأصغر ويتمنى الاقتداء بالأكبر، وعندما يجهد الأكبر في إتمام تثقيف الأصغر، من أن تؤدي في أغلب الأحيان إلى تقارب جسدي. إن حياة التقشف الطوعي لا تستثير رغبات شهوانية قطعاً لأنها تحول بينهم وبين ما ينشأ في عهود السلم من تدهور وانحطاط، فكان يحرم عليهم «أن يقضوا حياتهم في البيوت، وأن يناموا على الفراش الوثير، ويطعموا الطعام الشهوي، ويسلموا أنفسهم إلى أيدي أمهر الطهارة، يتخمونهم في أركان الدور كما يتخمون الحيوانات الشرهة، فلا يفسدون بذلك عقولهم فحسب، بل يفسدون أجسامهم أيضاً، فإذا ما انحطت قواهم بسبب الانهماك والافراط، أصبحوا في حاجة إلى النوم الطويل والاستحمام بالماء الساخن والتحرر من العمل؛ وجملة القول أنهم يصبحون لا يعنون بعمل شيء ولا يشرفون على شيء وكأنهم مصابون بعلة دائمة لا يبرؤون منها». ولم تكن تلك طريقة الأسبارطين، فحياة التقشف ونكد العيش كانت واجباً مفروضاً على الأسبارطين جميعاً بلا استثناء، وكان لا بد من تعليم الأولاد الحرمان وقهر الذات، وكان محظراً على الرجال شرب الخمر والتزين، فالجميع يرتدي الشملة نفسها وقميصاً من الصوف للوقاية من تقلبات الجو، فلثياب نعم وأما للحلي والزينة فلا، لأن كل فائض عن الحاجة كان مقيتاً، فكان لا بد من ترسيخ الاعتدال والقناعة في أذهان الفتية، والسعي حصرًا إلى جعلهم أشد قوة

وأكثر حيوية وأعظم شجاعة من البيريك والهيلوت الذين يحكمونهم، ومن رجال الدولة المجاورة التي تحتم عليهم منافستها في الحرب وفي المباريات الرياضية.

إن إيديولوجية هيمنة الأخيار (النخبة) كانت تفرض على الرجال حياة بائسة بما فيه الكفاية، على الرغم من احتفاظهم بالسلطة المطلقة في المملكة الأسيديمونية... والأكثر سعادة هن النساء اللاتي كن «يتدبرن بأنفسهن شؤون بيوتهن»، كان مركز المرأة في أسبارطة بصفة عامة خيراً منه في أي مجتمع يوناني آخر، فقد احتفظت فيها أكثر من سائر المدن اليونانية بمكانتها الهوميرية العالية وبالمزايا التي بقيت لها من أيام المجتمع القديم الذي كان الأبناء فيه يُنسبون إلى أمهاتهم.. ومع ذلك يقول بلوتارك إن النساء الأسبارطيات كن يمتزن «بالجرأة والرجولة وبالتشامخ على أزواجهن.. وكن يتحدثن بصراحة حتى في أهم الأمور»، وكان من حقهن أن يرثن ويورثن، وقد آلت هن على مر الوقت نصف الأملاك الثابتة في أسبارطة بفضل ما كان هن من سيطرة قوية على الرجال.

وكن يعشن في بيوتهن عيشة الترف والحرية، على حين كان الرجال يقاسون أهوال الحروب التي لا تنتهي أو يطعمون الطعام البسيط مع سائر الرفاق؛ ولقد تعودت النساء كما الرجال على الجلد منذ طفولتهن، ما خلا لزومهن المنزل الأبوي، فالنساء، بعد الزواج، مرخص هن القيام بما يحلو هن، فكان باستطاعتهن التلذذ بما يفضلنه من الطعام، وارتداء ما يروق هن من الثياب وما يستثرن به شهوات الرجال. وهكذا فقد أبدعن دُرُجة التنانير المشقوقة، وكانت القلة القليلة من الأجانب الذين استطاعوا زيارة أسبارطة يعاملون النساء «عارضات الأفخاذ» باحتقار. لقد فازت المرأة الأسبارطية بأوسع النفوذ، فأثرت في الأعمال العامة، وفرضت كلمتها في المسائل الجوهرية، وراحت إضافة إلى ذلك، تقلد أخلاق الرجال اللوطية. يذكر بلوتارك أن الحب بين النساء في أسبارطة كان أمراً مألوفاً وشائعاً: وهكذا انتهى الأمر ليرسخ في أسبارطة، المغرقة في الذكورة حسب زعمهم، شكل بديل عن النظام الأمومي القديم.

وبقي تشريع ليكورغ على حالة لقرون عدة دوغما تبديل يذكر، ممتنعاً عن كل تطور؛ ولقد ترسخ نهائياً ان على الأسبارطين كافة، رجالاً ونساءً وأطفالاً أن يعيشوا على الدوام في حالة استنفار مقيم «استعداداً للأسوأ». وكان الموت في ساحة الوغى هو الشرف الأسمى الذي يستطيع الأسبارطي بلوغه، والسعادة الأكمل التي بمقدوره أن يؤول إليها. كان الأسبارطي يعيش ليموت، في حين كان الأثينيون يمتدحون «ليس الحياة فحسب، بل الحياة الجميلة والرغيدة أيضاً». إن التعارض بين أخلاق الدوريين وأخلاق الايونيين المتجسدة في أعنى تشكيلتين سياسيتين على الأرض الإغريقية، أسبارطة وأثينا، تخف حدته في جزر المتوسط وشواطئه التي يقطنها أحفاد الدوريين والأيونيين معاً، وهناك تغلب حب التمتع بمباهج الحياة الطبيعية لدى المهاجرين الدوريين غير المتكيفين مع الشروط الجديدة على ما كان لهم من عادات وأعراف في وطنهم الأم، فتشبه الدوريون خارج القارة الإغريقية بالأيونيين واندمجوا معهم، ليستفيق فيهم حب الحياة الذي كانت تكبته في أسبارطة الرغبة في موت كريم. إن البغضاء المحبوة التي تكنها الدولة الأسبارطية والأثينية أخرجت من دون أن تمتع اندماج اليونان كلها في وحدة هيلادية (هيلاد = هيلاس = وسط اليونان، ويقابلها البيلوبونيز = اليونان كلها لاحقاً - م) هيمن عليها حب الحياة.

ولم يكن اكسانوفون يمل من الثناء على أساليب الأسبارطين، كما لم يكن أفلاطون وأفلوطرخس يملان من الثناء عليهم. ولا حاجة إلى القول بأن أسبارطة هي التي وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسة لمدينته الفاضلة، التي طمس معالمها بعض الشيء إغفاله العجيب للمثل العليا. وشرائعها بعد أن ملوا ما في الديمقراطية من انحطاط وفوضى وأوجسوا في أنفسهم خيفة منها.

والحق أنهم كانوا يستطيعون الثناء على أسبارطة لأنهم لم يضطروا إلى المعيشة فيها، ولم يروا عن كتب مسافي أخلاق الأسبارطين من أنانية، وبرود، وقسوة، ولم يتبينوا ممن يرونهم من الصفوة التي التقوا بها منهم، أو من الأبطال الذين يمجدونهم عن بعد، ان الشرائع الأسبارطية كانت تخرج جنوداً بواسل ولا

شيء غير الجنود، وانها جعلت قوة الجسم وحشية مرذولة لأنها أمانت الكفايات العقلية كلها تقريباً. ذلك أنه لما أصبح لهذا القانون المقام الأول في البلاد أصاب الموت فجأة جميع الفنون التي ازدهرت قبل سيادته، فلم نعد نسمع بعدئذ عن شعراء أو مثالين، أو بنائين في أسبارطة بعد عام ٥٥٠ ق.م، ولم يبق فيها إلا الرقص الجماعي والموسيقى لأن فيهما يمكن أن يتحلى النظام الأسبارطي وأن يختفي الفرد ويضيع في المجموع. ولقد كان أثر حرمان الأسبارطيين من الإتجار مع العالم ومنعهم من الأسفار، وجهلهم بعلوم بلاد اليونان وآدابها وفلسفتها الآخذة في الظهور والنماء، أن أصبحوا أمة من الجنود المشاة المدرعين الثقيل، لا ترقى عقليتهم فوق مستوى الذين قضوا في هذه الجندية حياتهم كلها: ولقد كان الرحالة اليونان يعجبون من هذه البسيطة الخالية من البرونق والبهاء، ومن هذا القدر الضئيل المقيد من الحرية، وهذه المحافظة الشديدة على كل عادة وكل خرافة، وفي الشجاعة التي كانت موضع الإجلال، وذلك النظام الصارم، وهذا الخلق النبيل، وذاك الفرض الدنيء الذي لا يؤدي إلى غاية. وعلى بعد لا يزيد على مسيرة يوم واحد على ظهور الجياد كان الأثينيون يشيدون من آلاف المظالم والأخطاء صرح حضارة واسعة المدى، قوية في أعمالها، تقبل كل فكرة جديدة، حريصة على الاتصال بالعالم، متساعمة، متنوعة، معقدة، مزفة، مبتدعة، متشككة، واسعة الخيال، شعرية، مشاعبة، حرة، إن ما بين أثينا وأسبارطة من التناقض هو الذي صبغ التاريخ اليوناني بصبغته المعروفة ورسم خطوطه الرئيسة.

إضافة إلى الرابطة الأسطورية واللغوية، عرف الإغريق هوى مشتركاً: الرياضة وفي مقدمتها الرياضة البدنية التي كانت تجري في الأولمبيا كل أربع سنوات. فكان الرسل قبل شهر من الشروع بالمنافسات التي كانت تقام على شرف زيوس أبي الآلهة، ينادون في المدن الإغريقية قاطبة مطالبين بوقف الاقتتال، لكي يتسنى للمتنافسين والمشاهدين الشروع بالسفر دون أن يخامرهم القلق، كما لو كانوا في حجج إلى الأماكن المقدسة. وكان تعليق أشكال البغضاء والعداوات

كلها قبل الاحتفال وإبانه عادة مقدسة تعود إلى أزمان هو ميروس البطولية. فمن كان يجعل زيوس سيداً على العالم، ويحترم شرائعه ويمثل لها، عليه أن يتجنب الغدر وإراقة الدماء. لأن القصاص الإلهي يضرب كل من ينتهك الهدنة الأولمبية. ولا تقوم المنافسة على المهارة والتفتن في ألعاب الحرب مثل السيف والقوس.. بل تقوم على الحيوية والخفة البدنيتين، محط احترام، ليس أسبارطة وحدها، بل الأصقاع الهلينية كلها أيضاً، بوصفهما شرطين لا بد من توافرها في كل محارب مقدم. وكانت كل مدينة توفد إلى أولمبيا نخبة من مواطنيها الفتيان، يتم اختيارهم لاتزانهم وقوتهم ولـ«روعة فحولتهم» أيضاً. ولم يكن بمكانة الجميع بلوغ ذلك، ولكن كلاً منهم كان يحظى بإعجاب الجميع وثنائهم لكمال جسمه. وقد جرت العادة أن يتدرب الأبطال المختارون للمشاركة في الألعاب على أيدي مدرّبين رياضيين محترفين، وأن يؤدوا اليمين لزيوس جهاراً ويقسموا بأن يحترموا قواعد المباريات وأصولها. وكان على اللاعب أن يتصدى لخمسة ضروب من المنافسات، وأن يربح ثلاثاً منها على الأقل ليفوز من ثم بلقب بطل المباراة الخماسية. كانت المباراة تبدأ بالوثب الطويل من دون قوة دافعة، يلي ذلك تبعاً رمي القرص، والقذف بالرمح، والجري حول الملعب، لتختتم المباراة الخماسية بالمصارعة من وسط الجسم. وينال الفائزون جميعاً أكاليل من أغصان الزيتون، فتلك كانت الجائزة الوحيدة المخصصة في الأولمبيا. ولكن المدينة التي حمل إليها الفائز شرف النصر كانت تحتفي بالبطل بمواكب الابتهاج والفرح، وتتدبر من ثم العناية به مدى الحياة. وقد خلدت الأغلبية العظمى من الفائزين بالجوائز فأقيمت لهم تماثيل تنسخ جمال أجسامهم المقتولة العضلات، وهكذا كان باستطاعة النساء حتى المتزوجات منهن والمحظرت عليهن حضور الألعاب الأولمبية ومشاهدتها، تأمل هؤلاء الفتية الرائعي الجمال والقوة.

ولم تكن الفتيات ولا النساء، خارج أسبارطة، يشاركن في التمارين البدنية. إن كلمة «Gymnas» تعني العاري؛ فليس من اللائق إذن أن ترى النساء

رجالاً أغراباً في عريهم الطبيعي، ولكنهن نلن كفايتهن من الفرص فشاهدن أشكالاً لا تحصى من أعضاء الذكورة، بتأملهن التماثيل والرموز القضيبيّة المنتصبة في الأحراش المقدسة، وأمام بوابات المدن، وأمام رموز اللذة الجسدية هذه كن يمارسن فروضهن الدينية، ويتضرعن للآلهة يلتمسن إخصاباً ميموناً، ويقدمن الأضحيات بغية الفوز بحلول يوم مسرات الجسد. وكن يحتفظن أيضاً بتمائم منحوتة على صورة برياب، هذا الإله القزم الداعر وليد أفروديت وديونيسوس. وكان يحظر هلى النساء، تحت طائلة العقوبة الصارمة، اختلاس النظر إلى العراة من المراهقين والبالغين المنكبين على تمارينهم البدنية من غير مآزر ولا شملات. كانت النسوة الإغريقيات مبعديات عن عالم الرجال، لقد عهد التقليد بهن وباطراد، إلى البيت الأبوي، ومن ثم إلى بيت الزوج، ليعتكفن أخيراً في جناح الحريم داخل البيت، المكان الوحيد الذي أعد خصيصاً لهن، فلم تكن الزوجة تدخل غرفة الزواج، ولا تدنو من المائدة المشتركة إلا إذا رغب الزوج في ذلك وسمح به. فالزوج يمضي جل وقته خارج البيت، ولم يرض قط بأن تشارك زوجته في المآدب التي كان يدعو إليها أصدقاءه.

كانت الوجبات اليومية متواضعة، ولكن الطهارة المحترفين، إكراماً للمدعوين، كانوا يعدون ما يقدمه سيد الدار مما لذ طعمه وطاب، وكان المضيف نفسه يحافظ على ترتيب الأطباق، ويراقب طريقة إعدادها، ويطمئن باعتزاز إذا ما قيل له بأنه سيد بيت ممتاز؛ فيقدر ما تكون الوليمة فاخرة، والخمرة في الدنان راقية، يغدق المدعوون المديح على المضيف، فلا يكتفي صاحبنا بماء بطونهم، بل كان يشنف آذان أصدقائه ويطربهم، فهناك على مقربة منهم يقف عازفو وعازفات الناي والقيثارة يواكبون المآدب، وكأننا في احتفال عام، وهكذا كان الأولاد والمراهقون يؤهلون لفن الموسيقى، فليس من اللائق دعوة فتيات رخيصات إلى بيت فاضل. وكان الجو المحمل بالعطور النافذة وروائح الخمر المتغلغلة في المكان، تستثير الحواس. وفي خضم هذا الاحتداد، كان بمقدور من

تملكته رغبة في الرقص أسرة أن يلهو مع الموسيقيين أو رفاق المأدبة من دون أن يخامرهم الخجل إذا ما تجاوز حدود الحشمة، مادامت المرأة غائبة عن المكان فتوجه إليه اللوم. ولم يكن الجنس الضعيف رفيقاً أنيساً يُفرّج الغم ويُلقى على مسامعه نكات ماجنة أو يلعب معه لعبة الكوتابوس (هذه اللعبة الخفيفة تقوم على قذف محتويات القدر بمهارة، ومن مسافة معلومة، لتصيب هذا الشيء أو ذاك)، والنساء عاجزات عن تأليف الأشعار أو حل الألغاز، وأنى لهن تعلم ذلك، والمكان الذي نشأن فيه يخلو من كل أشكال الثقافة؟

وإذا وصل الخط من قدر الزوجات والإضرار بهن إلى هذا الحد في أئنا بل وفي اليونان كلها ما خلا أسبارطة، فإن هزيود، الفلاح البيوسي في مزرعة، قد تطرق في قسم من أشعاره إلى هذا الواقع؛ وكان لقصيدته المسماة تيوغونيا (نسب الآلهة) تأثير غير مألوف، ففي هذه الأشعار، التي كان ينشدها في المباريات الشعرية القروية، أكبر المستمعون بساطتها وحسها الديني، وقدم الشاعر من خلالها عالم آلهة الأولمب المختلف الألوان، وعرف أن يقارن فيما بين التجارب الإنسانية على الأرض وحركات الآلهة وسكناتها في السماء، وهذا ما لم يفعله هوميروس. واكتسب هزيود شهرة شعبية واسعة بما كان يردده من حكم وأقوال: إن زيوس «راعي العدالة القدير» لا يحمي كبار القوم من البشر فقط، بل والحقير منهم أيضاً، الفلاح وما يعانیه من عناء وضحك، والأجير الراضح تحت سطوة سيده. كان هزيود، على مثال هوميروس، يروي ما ترتكبه الآلهة من فواحش وما تقوم به من مغامرات عاطفية عابرة، لكنه أضاف إليها تفاصيل مؤثرة تثير الشجون. فكان ينصح الرجال بالعدول عن الإقتداء بهذه الآلهة المفرطة في آدميتها؛ فعلى الرجال أن يمنعوا عن نسائهم ما هو مسموح به لآلهات السماء، ولم يستطع هزيود أن يقطع برأي في الزوجات، وما من شك في أنه كان عازباً أو أرمل، لأن من كانت له زوجة حية لا يتحدث عن المرأة بهذا الغل الشديد، نعم إن الشاعر يبدأ في آخر القطعة الباقية من قصيدته ثبناً بأسماء النساء كله

سامة و... نرى على مسامعنا قصص تلك الأسيام الخوالي التي كان عدد البطولات فيها لا يقل عن عدد الأبطال وحين كانت أكثرية الأرباب من النساء، ولكنه يذكر في كتابه الكبيرين في اغتباط الحاقدا الشامت إن معظم الشرور التي في العالم من فعل بندورا الحسناء، وإن زيوس لما غضب على بروميشيوس حين سرق نسر من السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية يونانية إلى الرجل: «فأمر هيفيستوس أن يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته، وأن يجعل وجه الفتاة الحسناء جميلاً كوجه الآلهات الخالدات. ثم أمر أثينا أن تعلقها كيف تنسج القماش المتين، وأمر أفروديتي الذهبية أن تنشر حول رأسها الرشاقة والشهوة الملحاح، والقلق الذي يتلف الأعضاء، ولكنه أمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلاً كعقل الكلاب وأخلاقاً كلها تحتل ودهاء. وأطاعوا كلهم زيوس.. ووضع رسول الآلهة في جوفها صوتاً جذاباً، وسمى هذه المرأة بندورا لأن كل الساكنين في البيوت الأولمبية قد أهدوا إليها هدية لتؤدي بها الرجال المبدعين»⁽¹⁾.

«ثم يقدم زيوس بندورا إلى إيميشيوس، وقد حذر أخوه بروميشيوس من قبول هدايا الآلهة، ولكنه رغم هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع للجمال هذه المرة. وكان بروميشيوس قد ترك مع إيميشيوس صندوقاً خفياً عجباً وأوصاه ألا يفتحه بحال من الأحوال. وغلب على بندورا حب الاستطلاع ففتحت الصندوق فطار منه عشرة آلاف شر أخذت تنفص على الناس حياتهم، ولم يبق فيه إلا الأمل وحده. ومن بندورا، كما يقول هزيود، نشأ جنس النساء الرقيقات، ومنها نشأت سلالة مؤذية، وتسكن طوائف النساء الشديديات الأذى مع الرجال وهن لا يُعْنَهُم على الفقر المدقع بل يعنهم على التخمّة، وبهذه الطريقة وهب زيوس الرجال نساء ليكن مصدر الشر والأذى».

⁽¹⁾ من قصة الحضارة - ترجمة: محمد بدران.

ثم يقول الشاعر المذنب بعد ذلك في حسرة ولوعة ان العذوبة لا تقبل شرًّا عن الزواج لأن الشيخوخة مع المرأة شقاء أيما شقاء، ولأن أملاك من لا ولد له تعود بعد موته إلى عشيته، فإذا كان من مصلحة الرجل أن يتزوج - وإن كان عليه ألا يتزوج فإنه من الثلاثين سنة من مصلحة أن يكون له أولاد - وإن كان الواجب ألا يتزوج فإنه من ربه واحد حتى لا تنفست ثروته بعد موتها. وفي نفس البيت له «الأعمال والأيام» وبأشعار غير موزونة، يمتدح هزيود حياة الفلاح الذي يقنات، باستقامة، بما يجنيه من عمل الحقير الضئي. كان يعلم الإنسان الحر: «إذا ماتوا جرح النضج فخر رجولتك، فخذ بيدك بيتك زوجة راضية، وخير سن الزواج هي سن الثلاثين، فلا تنقص منها كثير ولا تزد عليها كثيراً.. واحترها عذراء حتى تطبع الأخلاق الطاهرة صدرها بطبع الحب القائم على الحكمة والعقل. ولتكن الهدية التي تهدي إليك فتاة من حيرتك معروفة لك، ولتكن حذراً غاية الحذر لئلا تسيء الاختيار فتكون أضحوكة لجميع من يسكنون حولك. وخير ما تهبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة؛ وشر ما يصيب الإنسان زوجة صغيرة تقضي كل وقتها في الطعام والشراب. إن هذه المرأة لتحرق بغير نار متقدة جسمك الذي أنهكته المتاعب، وتشعل النار في عظامك القوية التي في داخل جسمك، وتسبب لك الشيخوخة وأنت لا تزال في عنفوان الشباب».

إن أمثالاً كهذه ستروق بالطبع للرجال؛ فالعفة واجبة على النساء الشريفات جميعهن، والتقيّد بأداب الزواج وأعرافه يستحيل الخروج عليها، والرجل إذا ما طلب الزواج عليه أن يناقش موضوع قرانه مع أهله، أما زوجة المستقبل فتكاد لا تعرف طالب الزواج، فإن كان «الرجل المناسب» حصل على بائنة الفتاة. وآلت عقود الزيجات إلى صفقات بحتة، مما اضطر صولون، رجل الدولة الأثينية الأعظم، إلى استصدار قانون عاجل ليحول دون تحول الزواج «المكسر لإنجاب الأولاد واقتزان الرجل بالمرأة» إلى قضية مالية، وندد أفلاطون

بعد قرنين من الزمان بالتعسف الجائر الذي يكره الخطيبين على ألا يعرف أحدهما الآخر قبل الزفاف إلا لماماً، ودعا إلى «اختلاط حر» يتم بين أزواج المستقبل لتجنب إخفاقات ما بعد الزواج، فكان عليهم أن يترأعوا عرايا «بقدر ما تسمح به الحشمة واللباقة»، ولكن مثل هذا «الاختلاط الحر» للخطيبين يتعارض وما لأئينا من أعراف، فالرجال فيها يريدون من النساء الظهور بمظهر أمهات المستقبل الصالحات، فكان لزاماً عليهن أن يتحلين بالعفة والزناة، وأن يسرعن في الأشغال اليدوية بأنواعها، سواء أكان ذلك لممارسة هذه الأعمال أم لتعليمها إلى خادماتهن، وكان يكفي أن تعنى الأم بأولادها وأن تحسن تربيتهم لتعد زوجة صالحة، كما كان عليها ألا تتلم شرف زوجها أو تحط من سمعته، كأن تظهر بمفردها في الطرقات مثلاً. وكان عليها على الدوام، وتلك كانت مسألة مهمة، أن تكون أصغر من زوجها بكثير، لأن قوة الرجال تدوم طويلاً، في حين أن نضارة المرأة تذوي سريعاً.

يُعد الشتاء من أفضل فصول الزواج وأحسنها. وكانوا يقدمون قبيل الزواج الأضحيات إلى كل من هيرا وزيوس مع الحرص على استئصال صفراء الأضحيات للربة أفروديت الذي يأتي في المحل الثاني. وما أن تبدأ أنشودة الزفاف حتى ينشأ الحب لا محالة بين العروسين؛ عندها سيفترع إله الزواج (Hymen = إله الزواج = زواج = غشاء البكارة - م) العروس ويسلبها عذريتها.

كانت النسوة في الماضي يدللن على قبولهن بالزواج بأن يتخلين عن حزامهن على مذبح المعبد، ويتناولن من ثم حبز الزفاف الطقسي. وفي ثيابها الزاهية الغنية بالألوان، ووشاحها الذي يغطي رأسها، تحتل مكان الشرف حول مائدة الزفاف بين الزوج وصديقه الأثير، وحيدة بين ثلة من الرجال. ثم يقودها المدعوون على ضوء مشاعل الزواج، ووقع غناء المنشدين، وأنغام الناي، حتى يصلوا بها إلى باب المنزل حيث ينتظرها فراش الزفاف الموشى بالأزهار والرياحين.

وكان على العروس الصبية أن تقاوم الخطيب إذا ما جتاز بها عتبة الدار محاولاً حملها بين ذراعيه. وما أن يغلق الباب من الداخل بالمزلاج، حتى تعلق أنشودة الزواج تردها أصوات جمهورية كيلا تطرق مسامعهم صرخات جذع العروس وآلام تضحيتها بعذريتها. وشيئاً فشيئاً يسود الصمت لتبدأ ليلة يكتنفها الغموض، وتضع حداً لصبا العروس وأيامها الخوالي، وهذا الغموض تكشف عنه (من جهة أخرى) أغنية الزفاف: «العذراء التي تضحى بزهرة عفافها نسوف يحتقرها الصبية ويتجنبنها الفتيات» والمرأة المتزوجة لا عشاق لها ولا أصدقاء. لقد أصبحت زوجة راضخة صاغية، وسيدة بيت يقظي. وهذا المصير وصفه لنا الشاعر يوربيدس بدقة بالغة في مسرحية (مأساة) ميديا عندما تعلن البطلة: «لم أر بين جميع الأشياء التي تنمو ويسيل منها الدم، شيئاً تهشم كما تهشمت المرأة... إن علينا أن نقدم ما جمعناه من الذهب وادخرناه لهذا اليوم الوحيد لنتاع حب رجل، ولكننا نتاع به سيداً ليتصرف بأجسامنا! وهذا العمري أشد ما يؤلنا في هذا العمل المشين ولا نعرف بعد ذلك هل سيكون هذا السيد إنساناً خيراً أو شراً، وذلك هو خطر يتهددنا طوال حياتنا.. إن بيتها لم يعلمها أحسن وسيلة تهدي بها ذلك الشيء الذي ينام بجانبها سبل السلام.. وان التي تجدد بعد جهودها المضنية الطويلة وسيلة تجعله يحسب لها حسابها، فلا ينفص عن ظهره عبأها بعنف، تعد نفسها سعيدة. أما التي تعجز من النساء عن العثور على تلك الوسيلة فلتتمن الموت. إن زوجها إذا مل رؤية وجهها في داخل المنزل غادره، وذهب إلى مكان أروح من المنزل وأحب منه إلى قلبه، أما هي فقد كتب عليها البقاء حيث هي، لا تقع عيناها على نفس واحدة، ثم يقولون بعدئذ أنهم هم الذين يلبون نداء الحرب، على حين إننا نجلس في عقر دورنا وفي حمايتها بعيدات عن كل خطر! إن هذا لسخرية وبهتان! ولأن أنزل ثلاث مرات إلى ميدان القتال، أخوض المعارك وترسي في يدي لأجب إليّ من أن أحمل طفلاً واحداً».

وكان لا بد من مواساة الرجال الذين تعوزهم الوسيلة للارتواء من الزواج، وقد تحسّب تشريع صولون لمثل هذا الأمر. فكان المشرع الحكيم يؤكد ان النظام الاجتماعي الجديد مبني جيداً على مبدأ مساواة بني البشر الأحرار أمام القانون. بيد أنه لم يكن صديقاً للنساء، وكان يرى فيهن «عبئاً ثقيلاً» فأبى أن يكره العازبين على القبول بأعباء الزواج. وانطلاقاً من رغبته في التخفيف عن الرجال المتزوجين، نهى النساء أن يكون هن من الملابس أكثر من ثلاث حلل: حلتان يمكن غسلهما وارتداءهما بالتناوب داخل البيت، أما الحلة الثانية فتخصص للقداس الإلهي. ولكن صولون لم يمنع النساء، بالمقابل، من التطيب بالعطور والزيوت ومن دهن أجسامهن، لأن تقييداً كهذا قد يكدر الفقراء من الأزواج الذين اقتصرت علاقاتهم على زوجاتهم حصراً دون غيرهن لإنجاب ذرية معترف بها شرعاً: على «الوالدات» أن يؤدين رسالتهن وألا يُنفرن أزواجهن ويكدرنهن. ولكن الرجال يحظون بمسرات الحب ومتعه، وبلذة المداعبات المتحررة من كل قيد لدن صواحبه المتحررات كلياً من إنجاب الأولاد ومن أعباء الزواج، وأقام صولون بأموال الدولة المواخير العامة، لتعود أرباحها إلى بيت المال. وكرس معبداً خاصاً لأفروديت تطهيراً للدعارة المهنية وتقديساً لها، وأطلق على أفروديت بهذه المناسبة أفروديت بانديموس «Pandimos»، أي إلهة الشعب كله. كانت النسوة اللعوبات المحظيات ممن يمارسن مهنتهن في المواخير العامة، يلتمسن العون من أفروديت بانديموس لتدفع عنهن خطر النسوة اللعوبات اللائي يستسلمن من تلقاء أنفسهن إلى حب يباع ويشترى في أحياء الميناء. كان الأثينيون يمتدحون أفضال ولي نعمتهم (صولون) الذي كان حكيماً في تحسبه لمتطلبات أجسادهم واحتياجاتها: «طوبى لك يا صولون! لقد ابتعت الموسسات لخير المدينة، ولوقاية أخلاق المدينة الغاصة بالشبان الأشداء، ولولا تشريعك الحكيم، لضايق هؤلاء الفتيان فضليات النساء ونشروا في المدينة الفساد والاضطراب». لقد صان صولون حقاً شرف النساء الفاضلات بسنّه قانوناً يقضي بدفع غرامة قدرها مائة دراهما

على كل من يعتدي على عرض امرأة حرة. لاشك ان هذا المبلغ يزيد كثيراً على ما كان يدفعه طالب اللذة ثمناً لتمضية وقت ممتع بين أحضان امرأة من بيوت الدعارة العامة. وقد أدرك صولون، بوصفه عالم رياضيات ممتاز، ولخسرانه كل شكل من أشكال الرومانسية خلال الكثرة الكثيرة من مغامرات شبابه المضطرب، إن كل رجل عاقل سليم الحس لا ينحدر وراء ميوله ليرتكب أعمالاً وحشية باهظة التكاليف إن كان بمقدوره الحصول على ما يريد من اللطافات بأقل الأثمان.

وإن كان صولون قد عدَّ البطالة جريمة، ومنع عن المواطنين ممارسة كل نشاط سياسي، فإنه لم يُعمل قانوناً ضد اللوطة قط، بل اكتفى بمنع الأحداث من الاتجار بمحاسنهم، فإن هم انتهكوا هذا القانون وقعت المسؤولية على الأباء. وفيما يتعلق بكرام الرجال الراغبين في حب الغلمان، فقد أوصاهم، إذا ما أرادوا الفوز بمرادهم وغاية أمانهم، بأن يقدموا لهم هدية دجاجة أو أرنباً، أما بالنسبة للإكرامية التي كانوا يمنحونها بعد إرواء غليلهم فهذا أمر يعود إليهم وحدهم. لعل حكمة صولون الطاعن في السن لم تمل عليه ما يجب من التسامح، ومع ذلك هل يستطيع هو نفسه أن يدين جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد ممارسة اللواطيين، والشعب كله يعرف أشعاره معرفته لقوانينه؟ أو لم يصف ما كان يشعر به هو نفسه عندما قال: «أحلم بفخذ المراهق واستدارته، و... الرقيقة الناعمة؟» ثم ألم يأخذ أبو الآلهة زيوس الغلام جانيميد إلى الألب لكي يتمتع بظرافة شبابه وحلاوته؟! ففي أتنا تجهل الحواس القواعد كلها، والغرائز لا تعرف قيدها ولا رادعاً، مادامت الطبيعة التي تحب الإنسان بنعيمها خيرة طيبة.

كان صولون أول مشرع في التاريخ لم يدع كما ادعى غيره ان إلهاً ما قد أنزل عليه هذه الشرائع، وهذا العمل في حد ذاته مما يكشف عن مزاج ذلك العصر ومزاج المدينة ومزاج صولون نفسه، ولما طلب إليه أن يجعل نفسه حاكماً بأمره مدى الحياة أبى وقال إن الدكتاتورية «مُقام جميل حقاً، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه»، وكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يسوِّ بين الناس في الملك

والسلطان، والمحافظون ينددون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصة القضاء، حتى إن صديقه انكرسيس قد سخر من دستوره الجديد وقال في ذلك إن الحكماء قد أصبحوا يترافعون، والحمقى يحكمون وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يمكن أن تقوم بين الناس عدالة دائمة لأن في وسع الأقوياء والمهرة أن يُحوّروا أي قانون يُسن كي يتفق مع مصلحتهم الخاصة، ولأن القانون أشبه بيت العنكبوت يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير. وقد أجمع مواطنوه على وضعه في عداد الحكماء السبعة ومع ذلك فإن صولون لم يهمل الحياة الخاصة للأفراد فهذا أمر لا يفكر فيه إغريقي مهما كان:

«سعيد حقاً من له أولاد يحبهم وحيول لها صهيل وكلاب تتمتع بحاسة حادة في الشم وأصدقاء يمحرون البحر» وفي مكان آخر يقول:

«حبيبة إلى نفسي أفعال القبرصية (أفروديتي) وديونيسوس وربات الفنون، فهي تجلب إلى السرور والمتعة».

يجمع صولون هنا بين غريزة الجنس وشرب الخمر وصناعة الشعر كوسائل محببة إلى نفسه لأنها تجلب إلى قلبه المتعة والسرور، وصولون، لا يكره الشيخوخة ولا يخشاها ويتمنى أن يعيش حتى الثمانين بل يرى أنه كلما تقدمت به السن توسعت معارفه^(١).

وقريباً من الوقت الذي منح فيه المعبد الأثيني تفويضاً كاملاً لصولون، تم إبعاد الشاعرة سافو، التي حيا فيها أفلاطون «ربة الشعر العاشرة»، من مدينة ايريسوس مسقط رأسها، ونفيها إلى لسبوس لاشتراكها في دساتن سياسية.

يقولون إن ربات الشعر تسع، ألا ما أكثر غباؤهم

(١) أحمد عثمان - الشعر الإغريقي - عالم المعرفة.

فليعلموا إن سافو اللبوسية هي العاشرة! (٢)

كان ألكايوس المتواطئ معها شاعراً مشبوب العاطفة يُفضل سلاح الكلمة على سلاح المعركة، ومع ذلك فقد تغنى بالحرب على إيقاعات مستحدثة، لكنه كان يوصي بالثمالة أنجع الأدوية طراً لمعالجة كل داء: «ينزل مطر زيوس، وفي السموات العلاء تثور العاصفة ويمسك البرد بقبضته الثلجية مجاري المياه.

إذن فقم! وتغلب على الشتاء، وأشعل النار عالية، عالية

وامزج الخمر الكثيرة حلوة كشهد النحل

ثم اشربها ولقاعة الصوف المريحة قد لفت حول صدغيك.

إن علينا ألا نستسلم للأحزان أو نضني أجسامنا بكثرة

المشاغل التي تذهب بقوانا؛

لأن الحزن ياصح لا يعود علينا بأقل نفع

ولا يصلح حالنا بأي حال

أما خير دواء لنا

فهو الخمر نظرد بها الأفكار» (١)

وكان ألكايوس عاشقاً لسافو التي كتب إليها: «أي سافو: أيتها المقدسة:

يا ذات الشعر البنفسجي والبسمة العذبة، يامن أحترمها قدر خشيتي منها، إنني

أتلهف إليك بيد إن الحياء يمنعني».

لكن سافو تتجنب عروضه الحبية لتعرض إليه مبادلتها الأشعار لا القبلات:

(٢) أفلاطون.

(١) قصة الحضارة.

«إن كانت الرغبة في قلبك من أجل الخير والجمال فحسب

وإن كان لسانك عفاً لم ينبس ببنت شفة خبيثة

فإن الحياء لن يحجب عنى بريق عينيك».

وعلى الرغم من ارتباط اسم الشاعرة لاحقاً بالجنوسة النسوية (الحب المثلي عند النساء - السحاق) فإن سافو لم تصد الرجال جميعاً، بل واقرنت، في المنفى، بأحد التجار الأثرياء لتعيش معه حتى مماته، ونحن نجهل ما إذا كان زواجهما سعيداً أم لا. وبعد أن آلت إليها أملاك زوجها المتوفى صار بمكنتها الاستسلام كلية إلى حبها للترف والمتع السريعة التي كانت تحبها قبل إبعادها. ولدى عودتها إلى لسبوس، أسست الأرملة الثرية مدرسة الفتيات الصغيرات.. وكانت تدعو تلميذاتها بـ«النساء» و«الصواحب»، وغدت «الصواحب» أنداداً للرجال، وبرهن بما بلغنه من مستوى فكري أنهن جدريات بذلك؛ فالرجل الذي لا يقدر المرأة التي يريد الاقتران بها حق قدرها، لا يستحق أن يكون زوجها لها، والرجل الذي يفضل صحبة الغلام وحبه على حب فتاة مثقفة ما عليه إلا أن يبقى عازباً، ذلك لأنه لم يصنع للزواج، وليس من الأفضل للمرأة أن تبقى عزباء من أن تكون زوجة بائسة عطشى؟ لم تتضمن أشعار سافو إلا بعض التلميحات إلى ميلها الجنسي، ومع ذلك تدل مناجاتها العاطفية وانفجارات غيرتها المشبوبة على ما كانت تكنه لصواحبها من عواطف رقيقة، لقد ترعرعن في مدرستها و«شاركنها شعورها في العذوبة والرقّة والجمال» ولكن الأشعار التي تدل على أن سافو كانت تشتهي من أحبتهن جسدياً كانت نادرة.

لكننا نقرأ في قصة الحضارة:

«لم تشتهر سافو بجمالها، فقد كانت صغيرة الجسم، ضعيفة البنية، وكان

شعرها وعيناها، وبشرتها أسود مما يحبه اليونان، ولكنها كانت تسحر الناس

برشاقتها، ورقتها، ودمائة أخلاقها، وحصافة عقلها الذي لم يبلغ من «السفسطة» درجة تخفي رقتها وحنانها». ومما قالته هي عن نفسها: «إن قلبي كقلب الطفل» ويستدل من شعرها على أنها كانت ذات عواطف جياشة، وأن ألفاظها «كانت تمتزج باللهب» لقد أحببت سافو تلميذاتها واحدة بعد أخرى، وقد قالت في إحدى القطع الباقية من أشعارها: «لقد هز الحب قلبي كما تهز الريح القوية أشجار البلوط» وتقول في إحدى القطع الأخرى: «لقد أحبيتك يائئس من زمن بعيد، حين كانت أنوثتي كلها أزهاراً، وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة». فلما تقبلت أئيس حب شاب من متليبي، عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تبدو فيها قوة العاطفة:

«إنه ليبدو لي هو والآلهة سواء، ذلك الرجل السعيد الذي يجلس ويرك بعينه أمامه، فهو يجلس بالقرب منك ويستمع إليك وهو معقود اللسان يتحدثين حديثك الفضلي وتضحكين ضحك الحبيب في غير صوت عال. إن هذا، هذا وحده، ليكفي لأن يثير قلبي المكلم في صدري ويبعثه على الاضطراب! لأنني إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتي من فوري، وانعقد لساني، وسرت في ضلوعي نار تلظي يُسمع من حولي حسيستها، ولا تبصر عيناها منها شيئاً.. ويتصبب جسمي عرقاً فيجري أنهاراً، وترتجف جميع أعضائي، ويصبح لوني أكثر اصفراراً من لون الكلاً في الخريف، وتتأبني آلام الموت المترصد لي فاضطرب وأضل في سكرات الحب».

وبكت أئيس بكاء مرأً لفراقنا وقالت: «واحسرتاه ما أتعس حظنا، وأقسم لك ياساف إن فراقني إياك كان على الرغم مني» فأجبتها: «سيري في طريقك منشحة الصدر ولكن اذكريني لأنك تعرفين هيامي بك. فإذا لم تذكريني، فإني سأذكرك، بما تنسين، ألا ما أعز وأجمل الأيام التي قضيناها معاً: لقد كنت تزينين غداثرك المتماوجة بتيجان القرنفل والورد الجميل وأنت إلى جانبي، وتزينين

جبينك الرقيق بعقود مجدولة من مئآت الأزهار، وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليقة بالملوك دهنت إهابك الأبيض النضر وأنت بين ذراعي، ولم يكن في المكان كله تل، أو موضع مقدس، أو غدير ماء لم نذهب إليه.. لن أرى أئيس بعد اليوم ولا فرق عندي بين هذا وبين الموت»^(١).

لم تكن الكلمة الإغريقية هيتايراي (Hétaïrai – مومس رفيعة المستوى) تدل على النساء المكلفات بالتزويج عن الرجال، وبيع مفاتهن السهلة المنال بما فيها من الشهوانية وحسن المعاشرة، مقابل هبات أو مبالغ مالية، إلا في تاريخ لاحق؛ فلم تكن مومسات سافو للبيع، وإذا كن قد تتقفن وتدرين على فن إثارة لواعج الهوى، فلم يكن ذلك إلا بدافع الميل إلى الحب. لقد تدربن على تليين أجسادهن وتلطيفها في الرقص، وعلى استعمال الآلات الموسيقية برفقة، وعلى النطق بكلمات الحياة الاعتيادية البسيطة بفن ومهارة، ولم يكن يتطلعن إلى مستقبلهن ويتحسبن له تحسب الفتيات الإغريقيات جميعهن، فتهيأن للحياة الزوجية المعزولة والخانقة، إذ كانت الزوجات الإغريقيات سيدات البيت الخدومات، وصواحب الفراش العديمات الشأن، محط ازدراء الأزواج واحتقارهم، يُنفرون أزواجهن ويضجرنهم، حتى إن لقب أم لم يمنحهن بعضاً من التقدير أو الاعتبار.

وقد نأر ذكور الأجيال التالية لأنفسهم من سافو بأن نقلوا عنها، أو اخترعوا من عندهم، قصصاً وروايات، فجعلوا منها «سحاقية» شهوانية، وامرأة فاحشة تشبع غرائزها الجنسية بـ«Tribeï – الاحتكاك» المتبادل بامرأة أخرى. إن هذا الزعم يتناقض، من جهة أخرى، مع الأسطورة التي تزوي إن سافو ماتت قتيلة هيامها برجل لم ييادها الحب. لعل هذه الخرافة قد ابتكرتها الثريات من مومسات مختلف المدن الإغريقية اللاتي كن يتخوفن من نعتهن بـ«السحاقيات»

(١) قصة الحضارة - ترجمة محمد بدران - المترجم.

ويحترزن من الارتياب فيهن «لمطاردتهن الفتيات بلحافظهن الناعسة» فمن الحري بنا أن نرى ساحة سافو التي أحدثت في لسبوس، على الرغم من كل شيء، أول مدرسة نسوية في التاريخ، وتطلعت إلى النهوض بالمرأة لتصل بها إلى المصاف الذي يحتله الرجل.

وتقول الروايات المتواترة إن سافو عادت فتعلمت حب الرجال. وهاهي ترد على اقتراح عرضه عليها أحدهم بأن تتزوجه فقالت: «لو ان ثديي قد بقيا قادرين على إرضاع الأطفال، ولو ان رحمي قد بقي قادراً على حملهم، لجئت إلى فراش الزوجية بقدمين ترتجفان، ولكن الزمان قد حط على جسدي خطوطاً كثيرة، والحب لا يسرع إلا بما يحمله من هدايا الآلام».. وتراها في آخر قطعة لها تلوم في غير عنف من لا يُقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول:

إنكم يا أطفالي تجللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون:
«ستتوجك ياسافو الحبيبة، يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغاني وأشجاها، ألا تعرفون إن إهابي كله قد تجعد من طول العمر، وان شعري قد استحال من أسود إلى أبيض؟ وكما ان الليل ذا النجوم يخلف حتماً الفجر ذا الذراع الوردية، وينشر الظلام في طول الأرض وعرضها، كذلك يقتفي الموت آثار كل حي ويمسك بتلابيبه آخر الأمر»^(١).

كان المواطنون في المدينة الايونية ميليت، القائمة على شاطئ آسيا الصغرى، يكثر من الترحال، ويهتمون بكل شيء، ويعرفون العالم على سعته، وكانوا يفخرون كل الفخر بكون مواطنهم طاليس الأول بين الحكماء السبعة. ومدينة ميليت هذه كانت تجهل أي شكل من أشكال الأحكام المسبقة التي تحد من حرية الحياة الجنسية. كان علم الطبيعة المسمى فيزيولوجيا يقيم الدليل على أن مظاهر الانحرافات نفسها الدخيلة على ما يسمى بالسلوك الطبيعي كانت

(١) قصة الحضارة.

أموراً طبيعية. وكان لابد للبيان الروحي العظيم الذي شيده مدينة ميليت من أن يصبح قاعدة للفلسفة الإغريقية. لقد زعمت الفلسفة إنها تدرس «بداية البدايات» ونهاية الحياة بمعزل عن العقائد التقليدية.. وكان طالس قد أعلن انه «من أرقى أشكال العدالة الإنسانية هو... ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله»، وسئل عن أصعب الأشياء، فأجاب بقوله الحكيم الذي جرى بحرى الأمثال: «أن تعرف نفسك» ولما سئل عن أسهل الأشياء قال: «أن تسدي النصح».

كان الأحرار في ميليت لا يلومون في الآخرين إلا ما يختلقونه من عوائق محتملة على الحرية. إن هذا التسامح إزاء الضعف الإنساني يمتد ليطول الميادين كلها. وقد بلغ الميليتيون (نسبة إلى مدينتهم) ما بلغوه من البجوحة ورغد العيش بما امتازوا به من براعة مهنية ومهارة في استخدام الموارد التجارية. إن كل بضاعة تجد من يشترئها تستحق صنعها وتوفيرها.. ففي مصانع الغزل والنسيج وفي المدابع كانوا يحولون صوف خراف آسيا الصغرى الناعم إلى ملابس تمشى والدرجة الرائجة، ويحولون إهاب (جلد غير مدبوغ) الحيوانات إلى جلود رقيقة رفيعة الذوق. وكانت نساء أثينا ونساء الجزر المجاورة من أفضل الزبائن؛ فإليهن كانت ورشات ميليت تصنع أشياء خاصة فريدة من نوعها، مصنوعة من جلد ناعم طري ومن صوف مضغوط توفر للنساء المنبذات من أزواجهن أو من عشاقهن التمتع بملذات الجسد بعيداً عن أحضان الذكور. إن أعضاء الذكورة المصنوعة في ميليت، وبكافة القياسات التي يمكن تخيلها، وما جاء منها تحفة فنية أو حاكى الأصل جيداً، كانت بضاعة مرغوبة تحتفظ بها النسوة في بيوتهن، وتباع للرجال أيضاً لتمد لهم يد العون في حال عجزهم الجنسي. إن أمثال أدوات اللذة الذاتية (olisbos) هذه، كانت عزيزة على السحقيات، إما لعجزهن عن الاستغناء كلياً عن الشركاء الذكور، أو لانعدام الرغبة في العدول عنهم نهائياً، والملاهي الشعبية لم يفتها الحديث عن ذلك بصراحة مطلقة على خشبة المسرح، أضف إلى ذلك ان النساء الفاضلات العاقلات كن يحصلن على

بديل ليرياب (إله جنسي داعر) دوئما تخرج يذكر لاطراد طموحهن إلى الاستقلال كلياً عن الرجال، أو لضعف إيمانهن المطرد بالأمر الإلهية التي بدأت الفلسفة بتبديدها.

ومن ميليت وفدت إلى أثينا في عصر بيريكلس، المسمى بالعصر الذهبي، امرأة شابة سرعان ما أصبحت ملكة المدينة دوئما تاج، عندما كانت المدينة في ذروة مجدها. كانت هذه المرأة تدعى أسباسيا، مجهولة الأصل والنشأة. لكننا من مظهرها الخارجي نعرف أنها «ذهبية الشعر» و«مقوسة القدمين صغيرتهما»، وكانوا يمتدحون صوتها «الفضي الرنة». تُرى من أين حصلت أسباسيا على وسائل تأسيس مدرسة نسائية للخطابة والفلسفة؟ فالمرورث لا يبين عن شيء أياً كان.. لكن معاصريها حتى أعداءها كانوا يمتدحون شجاعة «الموس المهاجرة» التي انتصرت للأثينيات المهملات المرذولات وشرعت في تربيتهن.

لم تكن ميول أسباسيا لمجتمع الذكور بخافية، كما إن خصومها لم يتهموها ويتقولوا عنها أنها سحاقية، ولكنها «موس من ميليت» قدمت إلى أثينا لتزيد في ثرائها بالدعارة، ولتهيئ الفتيات الصغيرات اللاتي يترددن إلى مدرستها للعيش في مواخير أثينا وغيرها. ولكن مامن أحد ينكر خيرة أسباسيا الواسعة في فنون العشق وأهليتها الاستثنائية في تعليم الحب. كانت دروس أسباسيا ذات وقع وتأثير، وكان يتردد إلى مدرستها نساء الأسر المرموقة وفتياتها، فلم يكن من اللائق أن تشارك المرأة الرجال في تعلم الفلسفة. وكان يتردد عليها أيضاً فلاسفة بدافع الفضول للوقوف على ما كانت تقوله امرأة مثل أسباسيا حول مشاكل الفلسفة العالقة والقابلة للجدال. وكان يقال إن انكساغوراس نفسه كان في عداد المستمعين، وهو الذي شكك في كتابه عن الطبيعة بألوهية الشمس واصفاً إياها بأنها شبيهة بكتلة من نار قوامها «نطاف» ملتبهة. بل كان يقال بأنه كان أستاذاً لأسباسيا مثله في ذلك مثل بروتاغوراس الذي أعلن في بحثه الفلسفي عن الآلهة: «وعن الآلهة لا يمكننا بأي حال أن نعرف ما إذا كانوا آلهة حقاً أو لم

يكونوا، لأن هناك أشياء كثيرة تمنعنا من معرفة ذلك: أضف إلى ذلك غموض الشيء في ذاته مثل قصر حياة الإنسان».

وإلى منزل أسباسيا المضيف كان يتزدد أيضاً سقراط. وكانت أسباسيا تخشى من ترداد تعاليم اكسينوفان المنتهكة للمقدسات ومن إثارتها والتعليق عليها، فقد أعلن أن هوميروس وهزيود وصفا الآلهة بكافة الأوصاف التي هي في رأي بني البشر مخجلة بل ومرذولة مثل: «السرقعة، والزنا، والخيانة المتبادلة» فالآلهة في رأيه ليست كما يراها بنو البشر. وفيدياس أيضاً «نحات الكمال» كانت له مع أسباسيا علاقات حميمة، مثل بيريكلس الذي شغل من أجل الشعب وباسمه، منصباً مرموقاً في الدولة، وشيد أروع المعابد وبني أفخر المباني تكريماً للآلهة.

وماذا بعد؟ ماهي الأشياء التي لما يروونها عن أسباسيا بعد؟ كانت ألسن السوء تزعم ان سقراط كان عشيقها المفضل، قبل أن تهب محاسنها إلى بيريكلس، الذي طلق امرأته ليقترن بـ«فتاة اللذة المهاجرة»، فتعرض زواجهما لهجوم عنيف شنه أعداء رجل الدولة، إذ رأوا أن مقام الزوجة يتعارض مع نبالة الزوج، وإن رفعة محنت الأثيني لا تنسجم مع أصل أسباسيا الغريب وماضيها المريب، بل وتنادوا في هجومهم وعتوها بالقوادة. وقد قيل إن تأثيرها في بيريكلس ونفوذها عليه يعود إلى ما كانت تتحفه به من مومسات أشرفت بنفسها على تربيهن. وللهرب مما أثير حوله من فضائح انسحب بيريكلس من الحياة العامة لينزوي مع أسباسيا داخل داره لا يخالط إلا الخلف من الأصدقاء، في حين كان يستخدم كل ما في حوزته من سلطات لكي يوفر للأثينيين حياة سعيدة واسعة النعمة، فبنى «مسرح ديونيسوس» وراح يُعوض لمن يحضر من المواطنين عما ينفقوه من وقت لمشاهدة العروض المسرحية. ففي رأيه إن الرجل المثقف هو المواطن الوحيد الذي يستحق كامل حقوقه، وإن على كل مواطن يرغب في خدمة الصالح العام أن يكون واسع الثقافة، ذلك إن تحسين الحياة وإصلاحها، بالنسبة له، هو أن تزيد في جماها. وقد حسن هو نفسه وبفضل

أسبانيا حياته وجمالها باستقباله في عقر داره وفي أكثر حناياها ألفة فحول الشعر وكبار المفكرين، يؤلف بينهم ويجمعهم حب مقيم لا يزول... بينما كان الحساد يضمرون الحقد لهما إلى حد ملاحقتهما قضائياً متهمين أسبانيا بالإلحاد.. ودافع بيريكلس عن المتهمه أمام مائة وخمسين من المخلفين ليفوز بتبرئتها. ولكن أكثر الافتراءات صفاقة ما انفكت تلوكها الألسن حتى نالت من مكانة رجل الدولة وأطاحت بنفوذ. إن نكران الشعب لجميله، ذلك الشعب الذي كرس له سني حياته، انتزع من بيريكلس حبه للحياة ليموت بعد ثلاث سنوات من مرافقته، فتقرن أسبانيا برجل عديم الشأن، لتسقط هي نفسها في عالم النسيان مع بقاء نفوذها واستمرار تأثيرها.

وبقيت أسبانيا (أسبازيا) في نظر الهيتايراي مثالاً لا يبارى، لقد كانت زعيمة قضيتهن بلا منازع، وكان على الراغبات من النساء في التشبه بها أن يبذلن الكثير من الوقت والجهد للفوز بمكانة شبيهة، ولكنهن يقين بمعدات عن حياة الرجال اليومية، وعن مجريات الحياة في الساحات العامة، أو في التدريبات الرياضية وأماكن الاستحمام التي تستخدم عادة صالات للتمارين الرياضية وتدريباتها. ولم يغير التقدم الثقافي شيئاً في وضع المرأة اللون، وبقي المجتمع محافظاً على مبادئه القديمة نفسها، تلك المبادئ التي لخصها جيداً أحد الخطباء الجماهيريين قائلاً: «فتيات اللذة لإمتاعنا، والخليلات كفايات يومنا لا يبد منهن لأجسادنا، أما بالنسبة لزوجاتنا، فإنهن الوالدات لأحفادنا الشرعيين، والحارسات الأمينات لبيوتنا». وكانت النساء يُشَبَّهن بـ«أفروديت شبيقة مأجورة». وكن ينتقمن من وضعهن هذا بأن يطالبن بأجور مرتفعة لقاء عملهن. ولكي يحصلوا أجوراً أفضل من أجور فتيات الشوارع الوضيعات أو مومسات المواخير، كان على الهيتاير اللاتي يمارسن مهنتهن بحرية أن يفضلن زميلاتهن. مما يقدمنه لربائتهن، فكان عليهن أن يخلين أبواب الرجال بكل الوسائل الممكنة، وأن يبرعن في طلي وجوههن بالمساحيق (المكيحة)، وأن يتدعن الدرجه (الموضة) في الزي

والشكل والسلوك. كانت الهيتاير يستخدمن مساحيق التجميل والأصباغ من كل نوع، ويضعن على رؤوسهن شعوراً مستعارة يثبتنها بالمشابك، وكن يتحملن بالقلائد، ويتطيبن بالعطور المتقنة الصنع، ويُزين ثيابهن بشرائط أرجوانية لتمييزهن من غيرهن من النساء، وكانت المومس (الهيتايراي) تأتي مناداتها في وسط الشارع، حرصاً منها على سمعتها. فمن كان يصبو إلى وصالها عليه أن يحصل على توصية من أحد الأصدقاء، أو يشرك إحدى القوادات لتحديد ثمن اللقاء المشتهى.



وإذا ما أصابت الهيتايراي نجاحاً، فالشرف كل الشرف لمن يخطى بلقائنها ووصالها. فكانت لا تمنح جسدها لأي كان، وهناك وسائل تعود إلى تلك الحقبة تدل على أنه كان من العسير الوصول إلى الهيتاير في الذائعات الصيبت. فكن، إن لم يرق هن طالب اللذة ليلية واحدة، يطالبنه بأجر يتجاوز إمكاناته التي تعرف الحسنة تقديرها بنظرة واحدة. إن معرفتهن الرجال حق المعرفة، وبراعتتهن في التلهي بهم كانت موضوعاً تناوله معاصروهن من الشعراء وتغنوا به.

أما ذلك الذي كان يفضل على سرير الزوجية، وعلى الوحدة

سقراط (قبل 469-399 ق.م)
أحد أعظم المفكرين اليونان



تمثال الإسكندر الكبير (نحو ٣٣٠ ق.م) نسخة رومانية

ووحشتها، صحبة امرأة بارعة، ليس في ممارسة الحب فحسب، بل وفي العلاقات الجنسية الالهية والمتعة أيضاً، فإن عليه أن يدفع ثمن ذلك.

حتى سقراط الحكيم كان يتردد على مومسات الهيتاير، وفي حديث له مع المومس تيودوتا «التي كان لها نهدان يفوقان كل وصف»، أعلن أن الجمال وحده لا يكفي للفوز بأصدقاء أوفياء، فلا بد من أن نجتمع الجمال مع التسامح والرقّة في عطية من النعم والمحاسن المنتقاة جيداً.

كان أفلاطون من أفضل تلاميذ سقراط، ومن أنجب تلاميذ أفلاطون كان أرسطو الذي غدا بدوره أستاذاً للاستكندر الأكبر.

زعم أرسطو أنه أكد «علمياً» تفوق الرجل ومزاياه، وأظهر من ثم دونية المرأة، ثم أوضح ذلك بقوله إن بين الرجل والمرأة العلاقة نفسها التي بين الشمس والأرض، وتلك العلاقة هي علاقة الطاقة بالمادة. إن مني الرجل يهب الحياة ويمجد الشكل، أما المرأة فإنها على الرغم من إسهامها في تشكيل الطفل بدم الحيض «مني غير ناضج» لا تتساوى مع الرجل في فعل الإنسال. ولكن أرسطو، على الرغم من هذه التأملات النظرية، لم يحتقر الجنس الآخر ويزدرجه. وقد أكدوا، دونما مرأى، إن له من إحدى المومسات واسمها هربيليس ولداً اسمه نيكوماك، وأنه قد أحب تلك الخليفة حتى وفاته، «لقد وجدت احتياجات الفيلسوف فيها التعاطف المرغوب». وقد قيل عن أرسطو هذا، أرسطو الذي أراد البرهان «علمياً» على دونية المرأة، إن الهيتايراي الجميلة فيليس كانت تتلهى به بأن تجعل منه دابة تضع على ظهره البرذعة وتشد عليه السرج كما يشد على البهيمة، ليمشي على أربع قوائم. وقد راق لكثير من الفنانين أن يصوروا هذه الطريقة المسلية فرسموا الجمال ينهال على الحكمة ضرباً بالسوط.

ولا ندري ما إذا كان ثمة تعاليم أعدت خصيصاً للهيتاير، على الرغم من سيطرتهم على حياة اليونان الجنسية لقرون عدة، جراء براعتهم في فنون الحب الشهواني وحسن المعشر إلى حد أنهم كن يجمعون بين حسن الشكل والسلوك

من جهة والحزم والصرامة من جهة أخرى، مما دفع رجال الدولة والشعراء والنحاتين على اختلاف مشاربهم إلى الارتباط بهؤلاء السراري، سواء أكان ذلك بدافع العشق أم الصداقة. وما كان للكاتب مثل لوسيان وألكيفرون وأريستانتوس أن يجمعوا مذكرات «العاشقات المدلّهات والمعشوقات المدلّهات» إلا بعد مرور قرون عديدة، لينشروها على شكل محادثات ورسائل وأقوال مأثورة للشهيرات من سيدات الهوى وغير الشهيرات: تاييس ولايس ونيكوس وكريسيس وميرتال وميلتيا ومليا وغناتلينا...

واختلط في المقتطفات الأدبية هذه الواقع مع الخيال، وأقتبس هذا الواقع مما كانت تتضمنه المسرحيات الإغريقية من مشاهد تدور حول الأخلاق والأعراف، تلك المسرحيات التي اشتهرت بشعبيتها في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وجاء الشعر ليساعد على إتمام الصورة المقبولة التي كان الكاتب يرغب في تقديمها إلى معاصريه. وكان هؤلاء الفتيات من النساء الملائفات يخضعن دونما ريب إلى حوافز نفعية ومألوفة، كما أن أحاديثهن ومناجاتهن لا يخفى سرها على أحد: «بالمال وحده أقيس درجة حب الفتيان، لا أعرف برهاناً على الحب أفضل من برهان المال.. كنت أستمع مراراً إلى أختي وهي تقول إلى أصدقائها وهي محقة في ذلك: أنتم تحبون الجمال، وأنا أحب المال، فلنشبع إذاً رغباتنا المتبادلة وبلا حجل» فلا شيء بلا ثمن: اللذة مقابل المال، ولا أجر من دون عمل. هذا ما كانت تلقنه أم أرملة لابنتها غير العذراء (الشيبة)، التي كان بمقدورها إطعام تلك التي ولدتها، فضاقت بالألم سبل العيش في حين استأثرت ابنتها لنفسها بالخلي الجميلة والثياب المبرقشة والعييد: «يكفيك من ذلك أن تعرّدي بصحبة الشبان، أن تنامي معهم للحصول على المال.. ولا غضاضة في ذلك!» ألا يكمن النجاح في حياتك مومساً في «أن تعاملي الرجال جميعاً بما يليق من أدب من غير أن تخدعي أولئك الذين يأتون لرؤيتك أو يسعون في طلبك، ولكن دون أن تتعلقي بواحد منهم؟ قد تجدين بينهم الأقوى أو الأجل ولكنك لن تجدي ذاك الذي

يجمع في بينته الميزتين معاً وذلك القوام الرائع الجمال، ولكن تلك التي تنام مع مثيله بالتمام والكمال ستفوز لا بد بأفضل الصلات. إن أقوياء البنية من الرجال يتطلعون إلى الاستيلاء على كل شيء اعتماداً على طلعتهم البهية، فحري بك أن تحرصي كل الحرص على أن تفوزي برجل هذا شأنه أكثر من حرصك على الفوز بالأسخياء من العشاق....»

وكان لا بد لها أيضاً من أن تتعلم بالتفصيل كيفية الفوز بالرجال، فعلى الهيتايراي أن تحسن التصرف وأن تكون لطيفة المعشر بأن تخفف من جذلها وأن تحذر من زهوها باحتراس خلاب، وألا تغرب في الضحك أو يستخفها الطرب فتمثل، فلا شيء يجعل منها أضحوكة أكثر من ذلك «فالرجال يحتقرون المنهومات بالخمر والنهات اللائي يحتمس دوتما حدود. إن المرأة الحريصة على الظهور بمظهر حسن ترتشف الخمر ارتشافاً ولا تعبها، وتتحدث دوتما إسفاف، ولا تسخر من مدعوويها، فلا تنظر إلا إلى ذاك الذي يدفع لها. وإذا ما حان وقت الذهاب إلى الفراش، فعليها ألا تخلع العذار دفعة واحدة من دون أن تظهر بمظهر المرأة الباردة على الإطلاق، وألا تصبو إلا إلى هدف واحد: أن تجتذب إليها حبيب الفراش وتستثير شهوته». كانت هذه النصائح تخص المبتدئات فاقتصرت على قواعد المهنة الأولية. فكان على كل هيتايراي أن تكمل هذه المبادئ وتثريها بما تختبره في حياتها من تجارب مريرة، ولكن بمقدورها أن تأمل في الحصول على الاعتبار والثراء مثل الهيتايراي فرينه التي كانت، في أعياد الإله أبولو، تنزع ثيابها على رؤوس الأشهاد قاطبة وتسدل شعرها على جسمها، وتنزل البحر لتستحم، ووقفت هكذا عارية أمام النحات براكستيل العظيم لينحت على صورتها أفروديت كنيدي. وقد أثرت فريني من عشاقها إثراء أمكنها من أن تبدي استعدادها لإعادة بناء أسوار طيبة إذا وافق الطيبون على نقش اسمها على هذه الأسوار، ولكنهم أصروا على رفض هذا العرض. ولعلها تغالت فيما طلبته إلى يوثياس من أجر لها، فثار لنفسه منها ياتهامها بالإلحاد، ولكن أحد

الإغريق

أعضاء المحكمة كان من زبائنها، كما كان هيريدز الخطيب من عشاقها المفتونين بها، ودافع عنها هيريدز ولم يستخدم في هذا الدفاع بلاغته فحسب بل شق أمام المحكمة جلبابها وكشف عن صدرها. ونظر القضاة إلى جمالها وبرؤها من تهمة الإلحاد في الآلهة.

وصار النزاع الحاد الذي كان يدور بين الهيتاير للفوز بالزبائن مضرِباً للأمثال، فكانت كل واحدة منهن تجهد على الدوام في إقصاء منافستها وتعمل على اجتذاب أثرياء العشاق إليها وحدها. ورحن يحفظن عن ظهر قلب الأشعار ليردنها على مسامعهم، ويتعلمن العزف على القيثارة أو الناي، وكن يدفعن للقوادات ويكافئنهن أو يمنحن أجسادهن لأحد أصدقاء بعض الأثرياء للإفادة منه وسيطاً يصلهن بهم. ولكن عندما يتكشف لهن إخفاق مساعينهن، يهرعن إلى معبد برياب حاميهن. فيقدمن الأضحيات لنوال حظوة الإله «الوديع بتأثير المداعبات النسوية».

كانت أسفل طبقة من العاهرات هي طبقة البرنابي، ويسكن معظم أفرادها في مواخير عامة يسهل على الجمهور الاستدلال عليها بصورة قضيب برياب المعلقة عليها. وكان رسم الدخول إلى هذه المواخير أوبلة واحدة، وكان الداخل يجد فيها البنات في أثواب لا تكاد تستر منهن شيئاً، ولذلك يسمين الجمناي (العاريات)، وكن يجزن لمن يريدون ابتاعهن أن يختبرونهن كما تختبر الكلاب في بيوتها. وكان في وسع الرجل أن يعقد الصفقة التي يريدها والزمن الذي يبتغيه، ويتفق مع ربة البيت على أن يستأجر منها بنتاً تعاشره أسبوعاً، أو شهراً، أو سنة. وكانت البنت أحياناً توجر بهذه الطريقة لرجلين أو أكثر من رجلين في وقت واحد توزع وقتها بينهم حسب مواردهم المالية. وتلي هذه الطبقة طبقة العازفات على القيثارة، وأولئك يستخدمن، كما تستخدم المسامرات في اليابان، في الليالي الحمراء يرحن ويعزفن، ويرقصن رقصاً فنياً أو خليعاً مثيراً للشهوات ثم يتن مع من يريدنهن من الرجال. وكانت قليلات من عجائز العاهرات يدرأن

عن أنفسهن شر الفاقه بإنشاء مدارس لتدريب تلك البنات العازقات، وقد حرصت الروايات المتواترة على أن تحتفظ العاهرات جيلاً بعد جيل، احتفاظ الإنسان بأئمن تراث، بالطرق التي يلهين بها القلوب، كالتظاهر بالحب بعقل وروية... ولكن بعض العازقات، كان لهن قلوب رحيمة رقيقة، وكن يعرفن الحب الحقيقي، ويضحين بأنفسهن من أجل عشاقهن كما ضحت بنفسها كامي. وكانت أرقى طبقات العاهرات الأثنيات هي طبقة الهيثايراي: «يبدو أن لئس الكورنثية كانت أجمل من أية امرأة وقعت عليها العين، وتتنازع شرف مولدها مدن لا تقل في عددها عن المدن التي تتنازع شرف انتساب هوميروس إليها. ويتوسل إليها المثالون والرسامون أن تقف أمامهم لينحتوا تماثيلها أو يصوروها، ولكنها تتمنع حياءً وخجلاً، ثم يتغلب عليها ميرون العظيم في شيخوخته فتقبل طلبه، حتى إذا خلعت ثيابها نسي وقار شعره الأبيض ولحيته وعرض عليها أن ينزل لها عن كل ما يملك إذا أقامت معه ليلة واحدة، فتبسمت ضاحكة من قوله، وهزت كتفيها المستديرتين وتركته دون أن ينحت التمثال. وفي صباح اليوم الثاني اشتد به الوجد، وعادت إليه نشوة المراهقة، فصفف شعره، وحلق لحيته، وارتدى ثوباً قرمزي اللون، وتمنطق بمنطقة ذهبية،.... وتختتم في جميع أصابعه، وحرر خديه، وعطر ثيابه وجسمه، ثم ذهب وهو على هذه الصورة يطلب لئس ويعلم إليها انه مقيم بها. فنظرت إلى صورته المسوخة وعرفت من هو، ثم أجابته بقولها: أيها الصديق المسكين، إنك تطلب ما أبيتته على أيبك بالأمس».

وأعجب من هذا الوفاق بين البغاء والفلسفة اعتراف اليونانيين من غير حياء بالانحراف الجنسي. لقد كان أكبر من ينافس العاهرات هم غلمان أثينا، وكانت العاهرات اللاتي يسربلهن العار من قمة رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن لا يفتأن ينددن بما في عشق الذكور للذكور من فساد خلقي شنيع! ولقد كان التجار يستوردون الغلمان الحسان ليبيعهم لمن يدفع فيهم أعلى الأثمان، وكان

هؤلاء يستخدمونهم في أول الأمر لقضاء شهواتهم ثم يتخذونهم فيما بعد أرقاء. ولم تكن أسبارطة أقل استهتاراً من أثينا في هذا الشذوذ الجنسي. وكانت الشرائع الأثينية تحرم من يمارس رذيلة اللواط من الحقوق السياسية، ولكن الرأي العام كان يتغاضى عن هذه العادة ويميزها وهو هازل فكه، ولم يكن أهل كريت أو أسبارطة ينظرون إليها نظرة استنكار. وكان أهل طيبة يرون أنها معين لا ينضب للشجاعة وحسن النظام العسكري.

ترى كيف يفسر الإنسان انتشار هذا الشذوذ الجنسي في بلاد اليونان؟ فأما أرسطوطاليس فيفسره بخوفهم من أن تزدحم بلادهم بالسكان، وقد يكون هذا سبباً من أسباب هذه الظاهرة، ولكن لا جدال في أن ثمة علاقة بين انتشار اللواط والدعارة في أثينا من جهة وعزلة النساء من جهة أخرى.. وقلما نتاح للذكور فرصة في طور تكوينهم وفي الفترة التي لم يشعروا فيها بعد برحلتهم، يدركون فيها جاذبية الحنو النسوي. كذلك كانت حياة الغلمان الجامعة في أسبارطة، واشتراكهم في الطعام، واجتماعهم في الأسواق العامة، والملاعب الرياضية، وفي مدارس الألعاب في أثينا، وحياة منظمات الشباب، كانت هذه كلها لا يرى فيها الشبان إلا صور الذكور. وحتى الفن نفسه لا يكشف عن الجمال النسوي قبل عهد براكستيل. وقلما كان الرجال في حياتهم الزوجية يجدون في البيوت رفقة عقلية، ذلك بأن عدم انتشار التعليم بين النساء يحدث نفرة بين الجنسين فيضطر الرجال إلى البحث في خارج البيوت عن أسباب المتعة التي حرموها من الحصول عليها.

لم يكن على الهيتايير أن ينافحن ضد من يراهنهن من النساء فقط، بل كان عليهن أيضاً إقصاء من ينافسونهن من الذكور، صبياناً وغلماًناً، أولئك الذين كانوا يراهنونهن في حب الرجال. كان القانون يحمي الهيتايير ويحسن الدفاع عنهن، لأنهن كن يدفعن ماعليهن من الضرائب المترتبة على أجور الحب التي يتقاضينها، ولكن غرائز العديد من اليونانيين وميولهم الجنسية المثلية (الجنوسة)

كانت تلحق الضرر. بمتاجرة النساء بمفاتنهن وأرباحها. وكن يدافعن عن أنفسهن ما أمكنهن الدفاع. ويقال، إذا ما أخذنا بما جاء في بعض القصص ومختلف التلميحات، إنه كان يوجد في أثينا وفي المرافئ الإغريقية الأخرى مواخير يمكن استجارها لوضع ساعات أو الليلة واحدة بمضيها الراغب مع عدد من الأولاد المراهقين.. وقد أحدثت مواخير اللواطة هذه لخدمة الرجال الراغبين في إشباع رغباتهم، ليس مع الفتيات فقط بل ومع الأولاد أيضاً، ولم تكن هذه الترتيبات لتستثير استنكار اليونانيين وسخطهم. ولكن الشعراء والمفكرين، أولئك الذين عرفناهم بميولهم للصغار من الجنسين، لم يترددوا إلى تلك الأماكن إطلاقاً، وكذلك فإن الشروحات الفلسفية حول ميل الإنسان الطبيعي إلى جنسه لم تأت على ذكر تعابير فاحشة مشتقة من الجذر Paid (ولد صغير - غلام) والجذر Tribein (حك) إن كل ما بقي لنا من هذه الشروحات، في الواقع، لا يعدو مجرد كتابات وأحاديث اقتصرت على الكلام عن الميل الروحي يرافقه، على أكثر تقدير شكل من أشكال الميل الحسي.

كان جمال الصبية الذين تربوا في المنشآت الرياضية (gymnases) - منشآت عامة خصصت في البداية للتمارين الجسمانية، ثم تحولت لاحقاً إلى مراكز للحياة الثقافية - م) يستثير حماسة البالغين الذين يشاركونهم تمارينهم الرياضية لاستنهاض همهم والسهر عليهم. كان الشباب الرياضيون عرايا وكانت أجسادهم مرنة ومطواعة رشيقة وكان ظرفهم وخفتهم تروق للمشاهدين، وحماستهم للتعلم تبهر معلمهم. فلم يكونوا (kalos)، جميلين فحسب، بل كانوا صالحين (agathos) أيضاً. كانت كلمة (Bon) تعني الصالح أو الفاضل، وتنطوي على التزام ضمني بالقيام بما يؤدي إلى حياة العدل والاستقامة وتستجيب للأخلاق وتُمسِك عن كل ما يصرفها عن ذلك. إن على المواطن الصالح منذ البدء أن يتدرب على الكياسة التي عليه أن يطبقها في تعامله مع نظرائه. وكان عليه أن يُدخل في روعه، تلقائياً أو

بتوجيه من يكبره، أنه مدعو للانتماء إلى مجتمع الرجال في سبيل خدمة الوطن والصالح العام. وأن يجهد في تحميل حياة الجميع وفي تحسين حياته نفسها أيضاً.

كان على كل رجل بدافع الواجب والرغبة أيضاً أن يسهم بنصيبه في تربية الأولاد والمراهقين، وكان يطيب ويستعذب إن وحد بين المفيد والمتع، وإن خامر المعلم إحساس بالعاطفة نحو ربيبه. وغالباً ما كان الأب هو الذي يعهد بابنه إلى أحد الأصدقاء. ففي نص نعى إلينا يقول وكيل الأب: «يا بني، إن تثقيفك الثقافة اللائقة هي من أجلّ اللذات وأمتعها، ومثلما استلمت منك من أبيك، فمن واجبي أن أردك إلى نفسك».

كان هذا التجرد قضية شرف، ولكن غالباً ما كانت الغلبة للغواية على الإرادة الطيبة، وهناك ثمة جملة من الأشعار تكشف لنا ذلك: «ما إن يتراءى لي جمال الولد حتى يسبق السيف العذل، وأتدله عشقاً، فيا لسعادتي في أن أقضي بين ذراعي هذا الفتى وهو في ريعان شبابه وميعة صباه وكامل عذوبته» ونسمع أيضاً: «أنت أيها الغلام، يا من لعينيك لحاظ فتاة ناعسة، إنني أشتهيك»، أو أيضاً: «من عينيك يشع أوار يسقميني، وبريق لحاظك يبهرنني....».

ويقول الشاعر نفسه معترفاً: «أحب الأولاد ذوي البشرة البيضاء الشفيفة، وأحب أيضاً، السمر الإهاب والبشرة البرونزية، وأحب الشقر وذوي الشعور السود أيضاً، وتروق لي الحدق الزرق بلون السماء».

كانت جذوع الفتيان الجميلة تستثير إعجاباً يستحيل إلى صداقة ومن ثم إلى عشق متوقد، وعلى أحاديث الفتيات الفارغة، تلك الفتيات اللاتي هيئن للحياة المنزلية في جناح الحريم حصراً، كان الناضج من الرجال يفضل تبادل الأحاديث مع من يمثل جنسهم أولئك الذين تتقفوا في المدارس. فكانوا يجوبون تبادل الأفكار معهم، والتعبير عن آرائهم والمثابرة على ما استحدثوه هم أنفسهم من تقدم روحي. ألم يعلن أفلاطون أنه ما عرف سعادة قط أعظم من سعادته

بمراهق في إهاب الرجل الذي يجب، ولا أعظم من سعادته بهذا الرجل إلا لأن في طباعه الولد الذي عليه أن يحب. «وذلك لأن الذي يجب أن يهدي الرجال الراغبين في أن يعيشوا عيشة أخلاقية نبيلة، لا وجود له في أي مكان آخر حتى ولا في الحب.. وهل من واجبي أن أقول لكم ماهو؟ إنه الإحساس بالخنجل إزاء الأشياء القبيحة والتطلع إلى ماهو جميل وصالح، فمن دون المشاعر الأخلاقية هذه فلا الرابطة السياسية ولا المواطن المنعزل يستطيعان صنع شيء عظيم وصالح»، وهكذا فإن حب المراهقين يهدف إلى ماهو جميل وخيرٌ.

وسقراط أيضاً كان يعد ميل الرجال للفتيان طبيعياً بصورة قاطعة. ووصف لنا كيف أنه هو نفسه قد انبهر بمشهد أحد الفتیان: «الجميع يلا استثناء، وهذا ما بدا لي، قد افتتنوا به. وما أن دخل حتى هزهم الانفعال، وصدر منهم صخب عظيم.. أما بالنسبة لنا نحن الرجال فليس ثمة ما يدعوننا إلى الدهشة بما جرى، إلا أنني لاحظت الانفعال نفسه عند الأولاد، لقد رأيت كل واحد منهم يشيح بوجهه عن كل شيء ماعداه، وكان الجميع يرنون إليه كما لو كان تمثالاً لأحد الآلهة».

كان يقال إن أجمل فتیان أثينا طراً هو ألقبياداس (ألسبيادس) الذي صرف، مراهقاً، الرجال عن نسائهم، ليصرف بعد زمن النساء عن رجالهن، وفي واحدة من المسرحيات كانوا يتلهون بذلك: «إن ألقبياداس الذي لم يكن رجلاً في البداية، هو الآن رجل النساء جميعاً وبلا استثناء»، وكان سقراط قد رغب في تعليم ألقبياداس، متوخياً أن يجعل من هذا المراهق ذي الاستعدادات الباهرة رجلاً كاملاً، فقالوا عنه أنه متيّم بالفتى الرائع الجمال، وكذبوا فيما زعموا، لأن سقراط لم يكن ذلك العاشق. وإن لاحظ ألقبياداس برود سقراط، راح يعلم أستاذه الحب، الحب اللواطى، وما لبث ألقبياداس أن أقر بفشله، فعلى الرغم من جميع المساعي التي بذلها التلميذ لاستشارة سقراط، وتحريضه على الدنو منه عاشقاً، أمضى المعلم وحظيه ليلتهما تحت رداء واحد من دون أن يلمسه: «قسماً بجميع

الآلهة والآلهات، نهضت بعد أن نمت هكذا مع سقراط، تماماً كما لو أنني نمت مع أبي أو أخي الأكبر».

كان ألقبيداس، قبل أن يُعرض معلمه للأخطار في مستقبل الأيام، يحب سقراط ويهيم به هيام الواله المتيم، ويقول فيه: «إنا إذا سمعنا متحدثاً غيرك، وإن كان من أحسن الناس حديثاً لم يكن لألفاظه أثر قط إذا قورنت بألفاظك، أما نتف ألفاظك أنت يا سقراط ولو لم نسمعها منك أنت بل نقلت إلينا عنك مهما أخطأ فيها الناقلون، أما هذه التتف فإنها تغلب الأبواب وتستحوذ على نفس كل رجل أو امرأة وكل طفل يستمع إليها».

ومع نهاية العصر الذهبي، كان ميل الرجل للرجل عاطفياً، ذلك الميل الذي كان الفلاسفة المعاصرون يدعونه الحب «الإنساني» لتمييزه من اقتزان الرجل بالمرأة الوضع، قد فقد مريديه وأبطاله الروحيين. وكان سقراط هدفاً لتهكمات أرسطوفان وسخرياته، بسبب فلسفته وطريقة عيشه، حتى قبل اتهامه بمخالفة القوانين الأخلاقية. «وبما أنه يفسد الشبيبة ولا يبجل آهتنا وفقاً للتقاليد المرعية بل آلهة أخرى مستحدثة». وبعد تناوله كأس سم الشوكران بزمن طويل، وتنسمة مكاناً في بانثيون الفلاسفة، اتهمه ثمامون تفهون أيضاً بأنه ما رغب في يوم من الأيام لا في تحسين حياة الإنسان ولا في تجميلها.

أصاب كتاب المسالي نجاحاً عظيماً في تقديمهم لوحات جماهيرية ساحرة تدور حول الانحلال الخلقي والتعسف السياسي وتجاوزاته، في حين لم تنل لغة كبار كتاب المأساة النبيلة استحسان السواد الأعظم من الجمهور الذي لم يجن أي فائدة تذكر من ترده على مسرح ديونيسوس. كان المواطنون يتطلعون إلى شيء آخر غير الجمل الرنانة، وقد رغبوا، جراء هلعهم من الحروب والقلاقل، في أن يكونوا على بينة بما يجري دونما حياء أو تمويه، أضف إلى ذلك أنهم كانوا تواقين إلى الضحك في المسرح مادام المسرح يتيح لهم فرصة التنفيس والتعبير عن شكواهم من الحياة اليومية.

وغالبا ما كان هؤلاء الرجال المتكبرون نساء أو أولئك الذين يتصرفون تصرف النساء، من أكثر الشخصيات إثارة للضحك على المسرح. إن الأسئلة والأجوبة الملتبسة والمتبادلة بين الشخصيات لم تدع مجالاً للشك في جنس الممثل، فإن كشف هذا الأخير عن هويته بإبرازه لخصيسته الجسدية فليس ثمة ما يصدم أو يمس الآداب المرعية، كان الفالوس (عضو الذكورة) يشكل جزءاً من لوازم المسرح. وقد وصف أريستوفان هذا الشيء الذي لا بد منه بدقة متناهية: «شيء من جلد، ضخمة وثقيل ورجراج، معلق في مقدمة المسرح، ونهايته حمراء بلون الدم ليكون مثار ضحك من يراه من الأولاد الصغار».

لم يكن ثمة أي شعور بالختل يتسبب في إرباك الممثلين أو إزعاج المشاهدين، فقد كانوا يبرزون هذا النموذج المحسم الفاض عن الحاجة، ويتأملون ما أنعمت به الطبيعة على الإنسان، ويظهرون من دون حرج غرض استخدامه. كانت إحدى الشخصيات من الذكور أو الإناث (كان يمثلها على خشبة المسرح رجل على الدوام) تارة ترسل قبلة إلى هذا الشيء، وتارة أخرى تشير بإصبعها إلى ذلك الجزء من جسمها المتعلق بهذا الشيء، وطوراً تنبئ، دوغماً لف أو دوران، بالممارسة الجنسية التي ستجري. وكان هذا الموضوع المفضل عند الجمهور (الحب بمختلف ألوانه وأشكاله) يُدرج في الحدث المسرحي أو يتم إخراجه وتمثيله فعلياً. فمن كان لا يرغب في المشاهدة فإنه غير مكره على التطلع، ومن كان لا يريد أن يسمع فإنه غير مكره على الإصغاء. كان موضوع الحياة الجنسية أقل سخونة أو خطورة من الموضوع السياسي، وكان الساسة ممن يتعرضون لهجوم المسالي أو لانتقاداتها لا يرون أي ضمير في هذه الفواحش ما بقيت سمعتهم الشخصية نظيفة لم تتلصق. ومع ذلك فإن أريستوفان وزملاءه لم يتناولوا العلاقات الجنسية بالتفصيل والتمحيص كان الممثلون ينفخون مؤخراتهم بطريقة مثيرة، وكان الاحتضان وتبادل المداعبات الرقيقة بين الرجال والنساء تعرض على المسرح دوغماً حياءً يذكر، ولكن ممارسات العشق بين الذكور بقيت غائبة عن المسرح.

كان لا بد لحب المراهقين من أن يستثير الكثير من الاعتراضات، فالعلاقات اللواطية كانت تبدو كشكل من أشكال تبديد قوة الإنجاب وطاقاتها، لكن الأنصار المقتنعين بحب الصغار من الجنسين (Pédophilie) ردوا على ذلك متذرعين بحجة موروثه من الزمن الأسطوري: إن البذار الذكوري يحمل في طياته الفضائل الذكورية ويجلب للفتيان كما للمرأة الإخصاب وفائضاً من الطاقة والسمو النبيل، واستدركوا قائلين: «أضف إلى ذلك أن الآلهة لم تكن لتعرب بالطبع مثل هذا الجمال الحسي إلى أرداف الفتیان إن هي لم تتطلع إلى غاية جنسية». وكان أبطال اللواط هؤولاء يمدحون أيضاً ضيق العضلات القابضة اللذيذ الذي لا نظير له عند النساء اللاتي يفتقرن أيضاً إلى «رائحة البشرة الطبيعية المحببة إلى النفس» كما أن النساء «محرومات تماماً من ذلك الشيء الذي يمكنك أن تضع عليه يدك التائهة».

ومع أقول عظمة أئينا وانحلالها ازداد الصراع حدة بين الهيتاير والمراهقين، لأن هؤولاء الأخيرين «لم تكن لتكفيهم قطعة من البسكويت، أو قرص من حلوى العسل»، بل كانوا يطالبون بالمال والهدايا مقابل مداعباتهم. وراحت أعداد من الرجال تتحول إلى خنثاء، لكن أعداد الهيتاير كانت وفيرة، مما زاد في نفوذهم وساعد في سيطرتهم على الحياة الاجتماعية. وراح الناس يتساءلون: «أليست الهيتاير شيئاً ظريفاً أكثر من الزوجة؟» والجواب الذي كان يفرض نفسه هو: «بالطبع، إنهن محبيات إلى النفس أكثر من المرأة بكثير، لأن الزوجة تحتل مكانها في البيت بالقوة، في حين أن الهيتايراي تعرف كيف تجتذب الرجل بما يتوفر فيها من مفاتن ومن فنون العيش».

في ملهاته ليستسراتا، أخرج أرسطوفان فاصلاً مختصراً يبطل هذا التطور، ولكن الفاصل كان يرقى إلى الزمن البائد. فلا وجود لزوجة ترتدي ثياباً بلون الزعفران، وتتطيب بالعمور، وتتعل الأحذية الفاخرة المديية، وتستخدم بقول التطيب للزينة، والقمصان القصيرة الشفافة. كانت ليستسراتا استثناء، هذه المرأة

الخبيرة في تطويع الرجال كانت تجهد في وضع حد للحروب الدائرة بأن منعت عن الرجال هي وأترابها من النساء، متع الحب جميعها حتى يعقدوا الصلح مع العدو، وأرسلن رسولاً إلى نساء أسبارطة يدعوهن إلى معاونتهن في حملة السلم الجديدة. كانت النسوة الأثينيات يطالبن بحقوقهن الزوجية بكبرياء من دون أن يبذلن أي جهد كان لاستمالة أزواجهن وإغوائهم، في حين كان الهيتاير دون غيرهن يعنتين بمرط شعورهن وإضرام رغبة الرجال بافتعالهن العواطف الجياشة، وبراعتهم في الزوغان والمراوغة.

احتجت ليستراتا على غياب الرجال الذاهبين للقتال مخلفين النساء في خدورهن، في حين لم يترك الرجال، إبان السلم نساءهم قط، فكانت النساء «أولاء اللاتي يلدن» والهيتاير، كما لاحظ أرسطو، «يطلين بزيت الأرز ومرامهم الرصاص الممزوج بزيت الزيتون ذلك الجزء من الرحم الذي يقذف عليه الرجل نطافه» أضف إلى ذلك أن أجسام الهيتاير لا يشوهها الحمل، ونهوهن كاعبة ممتلئة، وبطونهن ناعمة لطيفة الاستدارة، وبشترتهن ملساء لا يقبحها شعر ولا زغب، وكن يهلبن (ينتفن) أيضاً الشعر الذي يزحم «عتبة اللذة»، ويعطرن شعورهن بالزيوت الزكية. إن الاعتناء بالجسد كان أمراً ضرورياً إن لم يكن واجباً. فليس بكاف أن تكون الهيتايراي جميلة بصورة طبيعية فحسب، بل كان عليها أن تبرز جاذبيتها الطبيعية بكل الوسائل التي يمكن تخيلها أيضاً. وكانت تنوع ما تستعمله من خلاصة العطور بما ينسجم مع الوقت والمناسبة، وتعرف كيف تستهوي ليس النظر واللمس فقط، بل والأحاسيس الأخرى كلها أيضاً، وكيف تبعث التمتع بالحب والحياة. وقد أفاد أحد معاصري ذلك الزمان مبنياً استسلام مواطنيه إلى الملدات كليا: كان الفتية يمحضون كل أوقاتهم مع الفتيات وعازفات الناي، بينما كان من يكبرهن سناً يستسلمون للعب والفجور.

وإذا ما تحدث الشعراء الغنائيون عن الحب فإنهم يعنون به في العادة الرغبة في إشباع الشهوة، والقصص التي تروي أخبار فتيات يمتن من فرط الوجد، نادرة

أو تكاد تكون معدومة، ولكننا حين نرى ثينو زوجة فيثاغورس تصف الحب بأنه «مرض النفس المشتاقة» نحس بقوة الحب الروائي الحقيقي، ولما زادت مشاعر اليونان



رقة وأحلت الشعر مكان حرارة الجسد، كثر ذكر العواطف الشعرية الرقيقة، وأصبح طول الفترة التي تضعها الحضارة بين الرغبة وإشباعها مما يتيح للخيال فرصة يخلع فيها المحاسن على الحبيب المأمول.

وقد ظل اسخيلوس نفسه هومييري النزعة في معاملته للنساء، ولكننا نستمتع في سوفوكل عن «الحب الذي يحكم الآلهة بإرادتها» وفي شعر يوريديز مقطوعات كثيرة في وصف قوة ايروس إله الحب:

إذا اشتبك الحب في نزاع
كسب المعركة لا محالة،
رأس سوفوكل، مؤلف نحو ١٢٠ قطعة مسرحية،
لم يبق منها سوى سبع مسرحيات

والحب يسلب الأغنياء متاعهم!
وهو يبئس سهران طول الليل
بخديه الناعمين على وسادة العذراء،
يبحث عن فريسته على متن البحار
وينقب عنها بين ملاجئ الرعاة
وليس في وسع الآلهة أن تفر من سلطانه

وهي التي وهبت الخلود

فكيف بنا نحن الذين لا تطول حياتهم أكثر من يوم! ^(١)

وكانت هذه الشؤون وأمثالها في عصر اليونان الزاهر تؤدي إلى صلات الجنسين قبل الزواج أكثر مما تؤدي إلى الزواج نفسه. ذلك بأن اليونان كانوا يعدون الحب الروائي صورة من «تقمص الشيطان للجسم» أو من الجنون، وكانوا يسحرون إذا ذكر لهم إنسان أنه وسيلة يهتدي بها إلى اختيار الزوج الصالح أو الصالحة. وكانت الزوجة عادة تقبل التسري وتصير عليه صبر الشرقيات، لأنها تعرف أن «الزوجة الثانية» متى فارقتها فتنة جمالها أصبحت في واقع الأمر جارية في المنزل، وإن أبناء الزوجة الأولى دون غيرهم هم الذين يعدون أبناء شرعيين.

ولم يكن الزنى يؤدي إلى الطلاق إلا إذا ارتكبه الزوجة، وكان الزوج في هذه الحال يوصف بأنه يحمل قرنين، وكان من واجبه بحكم العادة أن يخرج زوجته من بيته. وكان القانون يعاقب الزانية، والرجل إذا زنى بامرأة متزوجة، بالإعدام، ولكن اليونان بلغوا من التساهل في الأمور الجنسية حداً يمنعهم من التشدد في تنفيذ حكم هذا القانون، فكان عادة يترك للزوج المعتدى عليه أن يأخذ بحقه من الزاني بالطريقة التي يختارها - فتارة يقتله في حالة التلبس، وتارة يرسل له عبداً يقتله، وتارة يكتفي بأن يأخذ منه تعويضاً، وإذا افترق الزوجان بقي الأطفال مع أبيهم حتى إذا ثبت الزنى عليه.

وجملة القول إن العادات والشريعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال والنساء كانت كلها من صنع الرجال، وهي تمثل النكوص على المستوى الذي وصل إليه المجتمع في مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها في عصر هوميروس.

^(١) قصة الحضارة، المترجم.



إناء من ميديشي، القرن الأول ق.م،
لعل النحت يمثل التضحية بإيفيجينيا

وكان أكثر ما يقوم عليه سلطان المرأة هو جمالها أو إنجاب الأبناء الظرفاء وتربيتهم، أو انصهار روحها وروح زوجها في بوتقة التجارب والواجبات المشتركة، إلا أن عصراً يستطيع أن يصور شخصيات ظريفة مثل أنتيغونا، والسستيس، وإفجينيا، وأندروماك ويصور بطلات مثل هكيسا، وكاساندر، وميديا، إن عصراً يستطيع أن يفعل هذا لا يمكن أن يجهل أسمى ما في المرأة وأعمق مافيهها. لقد كان الأثيني العادي

يحب زوجته، ولم يكن على الدوام يحاول أن يستر هذا الحب، وإن الألوان الجنائزية لتكشف عن حنو الزوج على زوجته وحنو الآباء على أبنائهم في داخل جدران المنزل، وهو في كلتا الحالتين حنو يثير الدهشة: «في هذا الحجر وارى مرثو نيز نيقوبوليس، وروى صندوقها الرخامي بعبراته، ولكن هذا لم يجده نفعاً. وهل ثمة فائدة تعود على رجل فارقت زوجته، وبقي هو وحيد على ظهر الأرض؟».

كان مواطنو أثينا في القرن الخامس رجالاً متوسطي القامة أقوياء البنية، ملتحنين، ولم يكونوا كلهم من الوسامة كما صورهم فيدياس. وكانت النساء كما تراهن على المزهريات رشيقات الجسم، وتظهرهن صورهن على الألواح الحجرية حسناً ذوات وقار، وهن في التماثيل بارعات الجمال. أما نساء أثينا في حقيقة أمرهن فكن يضارعن في الجمال أخواتهن من نساء الشرق الأدنى ولا

يفقنهن قط، وقد كانت عزلتهن التي تكاد تشبه عزلة النساء الشرقيات سبباً في نقص نموهن العقلي. واليونان يعجبون بالجمال أكثر مما تعجب به سائر الأمم، ولكن هذا الجمال لا يتمثل قط فيهن بأكمل معانيه، وكانت نساؤهم كغيرهن من النساء يرين أنهن لم يبلغن حد الكمال في هذه الناحية، ولهذا تراهن يُزدن طولهن بنعال عالية من الفلين، ويصلحن ما في أجسامهن من العيوب بالحشايا، ويضغطن مازاد فيها بالأربطة، ويرفعن أئداءهن بحاملات من القماش.. وشعر اليونانيين أسود عادة والشعر الأشقر نادر وإذا وجد كان موضع الإعجاب، وكانت كثيرات من النساء يصبغن شعرهن ليكسبنه هذه الشقرة أو ليخفين شيبهن إذا كبرن، وكان بعض الرجال يحدون حدوهن هذا، وكانت المرأة ذات الشأن تدهن وجهها وصدورها بزيت النخيل وحاجيها وشعرها بالبروقوش، وعنقها وركبتيها بخلاصة الصعتر، وذراعيها بخلاصة النعناع، وساقها وقدميها بالمر، وكان الرجال يحتجون على هذه الأسلحة المغرية ولكن احتجاجهم لم يكن له من اسنح أكثر من احتجاج أمثالهم في عصر من العصور.

كان الأثيني العادي رجلاً شهوانياً ولكنه رجل ذو ضمير حي، ولا يرى خطيئة في ملاذ الجسم ويجد فيها الجواب العاجل للتشاؤم الذي يخيم عليه في فترات تفكيره، وهو مغرم بالخمر ولا يستحي أن يسكر بين الفنية والفينة، ويجب النساء حباً جنمائياً لا يكاد يشعر بأن فيه خطيئة ما، ولا يجد حرجاً في أن يعفو عن نفسه بعد أن يرتكب خطيئة الاختلاط الجنسي الشاذ، ولا يرى أن تنكب طريق الفضيلة كارثة لا يمكن النجاة منها.

تبدو أثينا إبان مجدها شرقية أكثر منها أوروبية في أخلاق أهلها، كما تبدو كذلك في حروفها الهجائية، وفي مقاييسها وموازينها وسكتها وملابسها وموسيقاها وفلكها وطقوسها الصوفية.. ففي الأخلاق يعترف الرجال والنساء اعترافاً صريحاً بأن العلاقة الجنسية هي أساس الحب، ولذلك لم يكن شراب العشاق الذي تعصره السيدات المشتاقات يقدم للرجال المهملين لأغراض

أفلاطونية خالصة. لقد كانوا يطلبون إلى النساء المحترمات أن يكن عفيفات قبل الزواج، أما الرجال غير المتزوجين فلم تكن تفرض على شهواتهم الجنسية، بعد أن يبلغوا الحلم، إلا القليل من القيود الخلقية. وقد كانت الأعياد الكبرى، وهي دينية في أصلها، صمامات الأمان لما طبعت عليه البشرية من شهوة جنسية مختلطة؛ فكانوا في هذه المناسبات يتغاضون عن التحرر من القيود في العلاقات الجنسية لاعتقادهم ان هذا ييسر لهم فيما بقي من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة. ولم يكن الأثينيون يرون أن في اتصال الشبان بالخليلات من آن إلى آن شيئاً من العار، ولقد كان في وسع المتزوجين أنفسهم أن ييسطوا حمايتهم على تلك الخليلات، ولا ينالهم لهذا السبب عقاب أخلاقي أكثر من تأنيب زوجاتهم في بيوتهم وشيء قليل من سوء السمعة في المدينة.

وهكذا كان رجال اليونان جميعاً يسعون إلى التمتع واللهو والتسالي، ليس في المدن فقط، بل وفي الريف أيضاً، وليس في قصور الأثرياء فحسب بل وفي أكواخ الوضاع كذلك.

وكانت الاحتفالات الشعبية توفر الفرص المناسبة، ففي مختلف الأماكن، وفي كل شهر تقريباً، كانوا يحتشدون للاحتفالات الدينية، ويجتمعون في أعياد الربيع، وفي مواسم القطاف أو الحصاد، ولم يطرأ على الطقوس المواكبة لهذه التظاهرات، وعلى امتداد قرون عدة، أي تغيير كان، وكان يتقدم مواكب قاطفو العنب فاللوس (عضو الذكورة) عملاق، أما الرقصات والمنافسات المحلية التي كانت تمهد للألعاب الأولمبية فقد بقيت على حالها دون تغيير، لم تكن مظاهر التهتك المواكبة لأعياد ديونيسوس الريفية (Lenaia) وبقاً على الجمهور السعيد المشارك فيها فحسب، فقد غلب على تلك الأعياد مشاهد الهزل «Komos» وغدت أناشيد التيوس (ragos)، والمقاطع الغنائية المتعاقبة والمستمدة من التقليد القديم، أساساً للمآسي (Tragédie) التي كانت تمثل مسرح ديونيسوس.

ولكن الملذات التي تعقب الاحتفالات بقيت امتيازاً ينعم به سكان الريف وحدهم.

وبعد الانتهاء من الطقس الرسمي الرامز للحياة والموت، وللخلق والفناء، أو بعد تقديم الأضحيات إلى آلهة الأولمب، وعلى أثر الأعياد كلها تقريباً، سواء تلك الأعياد التي كانت تمجد الأساطير القديمة أو تلك التي كانت مكرسة للعبادة، ينخرط الرجال والنساء، أو الرجال فيما بينهم، أو النساء مع النساء، في علاقات من العشق الحميم والدافئ.



لاوكون وابناه، يعتصرهم أفعوانان،
تمثال من الرخام، ٥٠٠ ق.م.

كانت الديانة الإغريقية ديانة حب وتوقان إلى الحياة ومتعتها. وكان كهنتها ييسرون العبادة على المؤمنين، فكان يكفي المؤمن أن يتقدم بأضحيتيه إلى هذا الإله أو ذاك حتى يفوز بما يريد.

وإذا ما أراد نوال نعمة آلهة الأولمب كان عليه أن يهيم حباً بما فيها من طبيعة حية، وإن لفي إقتدائه بالآلهة ضماناً لرضاها وانتماء إلى قوتها. وكان باستطاعة كل مؤمن أن ينعم بملذات الآلهة بما يتفق ومقامه المتواضع، فالآلهة لم تطالب يوماً بكبح الغرائز الجنسية، لأن بمقدور الجميع التيقن

الإغريق

من ذلك إن هم تأملوا الرموز القضيية التي يحملها الجمهور إكراماً للآلهة يقدمونها إبان الاحتفالات.

جعل الإغريق من الحياة والتمتع بها فناً، فأشادوا بالصالح الجميل، غاية وجودهم الرئيسية، وراحوا يعلمون فن العيش، والإحساس بالخير والجمال، الشعوب التي كانوا يتعايشون معها، والشعوب التي تغلبت عليهم، وهكذا قدم الإغريق للخلاص كامل معناه ليتبادلوه فيما بينهم ومعهم الأعراب الأجانب: «chaïre» (ابتهج وتمتع!).

الفصل السابع
الأتروسك والرومان

«ليس على ظهر الأرض أو تحت قبة السماء بلاد تماثلها في جمالها وروعة مناظرها»

بالبني الأكبر

«هنا الربيع الدائم والصيف حتى في غير أشهره، هنا تلد الأنعام مرتين في العام، وتثمر الأشجار مرتين»

فوجيل

«وهل في العالم بلاد أنجبت من العاقرة مثل ما أنجبت الأمهات الإيطاليات طوال الثلاثين قرناً التي يشملها تاريخ تلك البلاد؟ وهل في العالم بلاد غير إيطاليا كانت قطب رحى التاريخ - في نظم الحكم أولاً ثم في الدين، ثم في الفن؟ لقد ظلت روما مدى سبعة عشر قرناً - من كاتو الرقيب إلى ميكل أنجلو مركز العالم الغربي»

قصة الحضارة - ويل ديورانت -

ترجمة محمد بدران

تسلسل زمني

هجرة الاتروسك	ق.م	نحو ١١٠٠ (?)
تأريخ تأسيس روما الأسطوري	ق.م	٧٥٣-٤-٢١
الجمهورية	ق.م	نحو ٥١٠
بداية الصراع الطبقي بين الباتريسيين (الأشراف) والبلبيين (العوام).	ق.م	نحو ٥٠٠
قانون الألواح الإثني عشر	ق.م	القرن الخامس
خراب فييس	ق.م	عام ٣٩٦
الكلت (السلت) في روما	ق.م	عام ٣٨٧
«انتصار بيروس» في هيراقليا وأسقولوم	ق.م	بين عامي ٢٨٠-٢٧٩
استيلاء الرومان على آخر معقل اتروسكي	ق.م	عام ٢٦٥
الحرب البونية الأولى	ق.م	بين عامي ٢٦٤-٢٤١
تيتوس ماكيوس بلاوتوس	ق.م	نحو ٢٥٤ - ١٨٤
الحرب البونية الثانية	ق.م	بين عامي ٢١٨-٢٠١
سييل، دخول ماغنا ماتر (magna mater)	ق.م	عام ٢٠٤
رسمياً إلى روما وماغنا ماتر هي الأم الكبرى - الإلهة العظمى - أم الآلهة.		

الأتروسك والرومان

صدر مرسوم ضد الباحوسات	ق.م	عام ١٨٦
Bachanales panaitios بانايتيوس		
فيلسوف المدرسة الرواقية الأول (أسسها		
زينون نحو عام ٣٠٠ - زينون الذي		
كتب بوضوح وصراحة للقراء الرومان).		
الحرب البونية الثالثة - خراب قرطاجة	ق.م	بين عامي ١٤٩-١٤٦
(قرطاجنة)		
خراب كورنثة (قورنثة)	ق.م	عام ١٤٦
صيلا	ق.م	بين عامي ١٣٨-٧٨
اغتيال تيبريوس جراكوس	ق.م	عام ١٣٣
انتحار كايوس جراكوس	ق.م	عام ١٢١
كراسوس	ق.م	نحو ١١٤-٥٣
بومباي	ق.م	بين عامي ١٠٦-٤٨
قيصر	ق.م	بين عامي ١٠٠-٤٤
فيدرا تعلم الفلسفة الأبيقورية في روما	ق.م	نحو ٨٥
كاتول	ق.م	نحو ٨٤ - ٥٤
ماركوس انطونيوس	ق.م	بين عامي ٨٢-٣٠
فيرجيل	ق.م	بين عامي ٧٠ - ١٩
كليوباترا	ق.م	بين عامي ٦٩-٣٠
هوراس	ق.م	بين عامي ٦٥-٨
كايوس أوكتافيانوس (اغسطس لاحقاً).	ق.م	بين عامي ٦٣-١٤
كلوديوس بولكر وعيد بوناديا	ق.م	عام ٦٢

مدينة فينوس

أوفيد	ق.م	بين عامي ٤٣-١٨
معركة فيليبس: الانتصار على قتلة قيصر.	ق.م	عام ٤٢
معركة أكتيوم: انتصار أوكتافيانوس على ماركوس أنطونيوس.	ق.م	عام ٣١
إنيادة فيرجيل	ق.م	بين عامي ٢٩ - ١٩
كايوس اكتافيانوس صار الإمبراطور قيصر أوغسطس.	ق.م	عام ٢٧
أوغسطس ينفي ابنته يوليا (المولودة في عام ٣٩ ق.م).	ق.م	العام الثاني
«آرس أماتوريا» لأوفيد	ق.م	العام الأول
نفي أوفيد ويوليا الفتاة	بعد الميلاد	العام الثامن
قانون الزواج والأخلاق	بعد الميلاد	العام التاسع
الإمبراطور تيبير	بعد الميلاد	مايين عامي ١٤ - ٣٧
خراب بومباي (بومبي)	بعد الميلاد	عام ٧٩

الأتروسك والرومان

يروى شاعر من العصر الإمبراطوري ان الأميرة الملكية ريا سيلفيا «Rhea Sylvia» المنورة للبتولة، كانت غافية على ضفة ساقية مخضوضرة، عندما مسَّ النسيم نهديها العارين، ولم يكن هذا التسيم سوى نفحة صادرة من إله الحرب، الذي أسره جمال المرأة الشابة وحركت مشاعره مفاتن الأميرة الغافية، فهبط إليها وأخصبها.

كان لهذا الوصال العابر آثار وذيول لا تنسى. ذلك ان هذه العذراء، التي كانت قد كُرسَتْ لفستا، إلهة النار المقدسة المكلفة بحماية الدولة والسهر على بيت الزوجية، كيلا تخبو النار في المعبد أبداً، أنجبت توأمين: رومولوس Romulus الذي أسس روما، وريموس الذي قتله أخوه لأنه سخر منه. كان ملك ألبالونجا قد اغتال اخوة ريا سيلفيا، وأغرق في نهر التيسير الأم الشابة التي دنست نذر البتولة المقدس، ووضع الطفلين الصغيرين على رمث وأسلمهما لمجرى النهر. لكن إله النهر أنقذ ريا سيلفيا وتزوجها، وحمل بأواجه الطامية الولدين إلى اليابسة، وتروي الأسطورة ان ذئبة خيرة أرضعتها من حليبها.

بيد أن العبارة اللاتينية التي تعني ذئبة «lupa» تدل أيضاً على مواسم الشوارع أو المواخير. كما ان ثمة قصة مختلفة تزعم ان زوجة أحد الرعيان هي التي وجدت الوليدين وأرضعتها، وان الذئبة «Lupa» ما هي



رومولوس وريموس، التوأمان الأسطوريان اللذان أسسا روما

الأتروسك والرومان

إلا هذه المرأة التائهة بحثاً عن العشاق مثل ذئبة طالبة للسفاد. وهذا المعنى للعبارة يفسر معنى كلمة «lupanar» التي كانت تعني بيوت الدعارة السيئة السمعة في روما.

فالأسطورة في روايتها الأولى تقدر الذئبة، وفي الثانية تجعل من المرأة اللعوب محترفة الحب مرضعة أول ملك من ملوك روما الذي جعل منه مواطنته إلهاً. وهذه الازدواجية تتجلى في أوضح صورها في اللبس الأخلاقي الذي كان يخلط في المدينة الخالدة ما بين السامي والعظيم من جهة، والدعارة والتهتك من جهة ثانية. إن مصدر هذا التناقض هو طبيعة الرومان المزدوجة، وليس هو كما كان يعتقد ولمدة طويلة تأثير الإغريق الذي ما انفك مع ذلك، ضئيلاً جداً حتى غزو الرومان للأرض الإغريقية، ولكنه أدى في نهاية المطاف إلى غلبة أخلاق المهزوم على المنتصر. إن الموقف الحرج ومأزق الاختيار بين المتعة والزهد بها بدأ منذ تأسيس المدينة المؤرخ سنة ٧٥٣ ق.م. وعلى الرغم من أن غراميات ريبا سيلفيا مع إله الحرب - مارس عند الرومان وأريس عند الإغريق - تذكرنا بالعديد من مشاهد العشق في الميثولوجيا الإغريقية، بيد أنها لا تتطابق تمام التطابق مع المفاهيم الهلينية. لقد فقدت ريبا سيلفيا بكارتها وهي نائمة وعليه فإنها لم تشعر بأية لذة كانت، وهذا ما يجعل منها أميرة إغريقية خالصة، وعن طريق جدها، البطل الطروادي «Enée» ايناس، تحدرت ريبا سيلفيا من أفروديت (فينوس عند الرومان) التي كانت كثيرة التساهل مع الملك آنكيز أبي ايناس. ومن هذا النسب الخالد ورثت ريبا سيلفيا مفاتنها الساحرة، وهذه المفاتن هي التي أغرت الإله مارس وأسرته وليس براعتها في فنون العشق والغرام، وعليه واطب المؤمنون على تكريمها بوصفها العذراء الساذنة للنار المقدسة، وعلى تبجيل بتولتها الخالدة على الرغم من أمومتها. لقد كانت في نظرهم امرأة قدوسة (في منتهى القدسية). ومع ذلك لم تكن عفتها بمنأى عن كل ريبة، بل شاع عنها أنها انتهكت الحرمات ودنستها، حتى إن الإله الشهواني برياب الذي أثار بحجونه الصفيق اهتمام

الرومان، رجالاً ونساء، كان له معها بعض النجاحات، وكاد يقضي وطره منها لو لم يفزعه نهيق حمار فيحول دون فعلته.

إن قصة تأسيس روما من قبل رومولوس هي من اختصاص الأسطورة، ومع ذلك كان الرومان يعيرون هذه القصة قيمة تاريخية ويؤرخون الأحداث بدءاً من هذا اليوم: «A. U. C = ab urbe condita» أي (ابتداء من تأسيس المدينة). وكان أشرف روما يزعمون أنهم أحفاد آباء «Patres» أسرة روما الأول، وكانوا يطالبون بالزعامة لأسرهم بوصفها حقاً من حقوقهم القديمة التي تعود إلى مؤسسي المدينة، وهم يريدون الدفاع عن هذا الحق بكل السبل الممكنة.

فمن هم يا ترى هؤلاء الآباء؟ ومن أين جاؤوا؟ هنا يتفق التاريخ والأسطورة ويريان في هؤلاء الآباء أحفاداً لعشائر ثلاث. أقامت جماعات من اللاتين والسابين والأتروسك في سبعة مرتفعات تطل على السهل الذي يرويه نهر التيبر. فجمع رومولوس هذه القرى المنعزلة في مدينة واحدة - كما سبق وتشكلت إسبارطة من قرى متناثرة - وكان يحيط بالمدينة أسوار لحماية مزرعاتها. ومن أجل اعمارها استقدم رومولوس أعداداً من المنفيين واللاجئين، فكانوا الطليعة التي مهدت الطريق للعظمة الرومانية. ولكن هؤلاء المزارعين (المؤاكرين) الذي أسكنهم رومولوس روما كانت تعوزهم النساء، فتدارك رومولوس على الفور هذا الأمر دونما تحسب للعواقب، فنظم مباريات رياضية شبيهة بتلك التي ربما كان قد تعلمها من الأولمبياد الإغريقية، ووجه الدعوة إلى جيرانه السابين، للقدوم بصحبة نسائهم إلى المدينة ذات الهضاب السبع والاشترار في الألعاب التي ستجري في ميدان الألعاب العامة المسور، وأثناء مباريات المتصارعين استولى الرومان على نساء ضيوفهم وسبوهن وطرردوا رجالهن. وهكذا غر المضيفون المخادعون بزوجات السابين وأخواتهم وبناتهم طوعاً أو كرهاً فأصبحن جدات لأسر الأشراف. لقد كن جديران بما حظين به من مظاهر الاحترام والتقدير لإسهامهن في تدليل ما ولده اختطافهن من نزاع انقلب إلى

صراع مفتوح. ولكن عزوفهن عن كل ضغينة نحو أزواجهن الجدد ألف بين قلوب الرجال من الفريقين المتنازعين، وفرض تحالفاً بين السابين والرومان الذين اتحدوا بدورهم مع اللاتين في دولة مشتركة. وفي كتاب فن الهوى لأوفيد نقرأ حول خطف السابينات:

«كنت يارومولوس أول من نشر الفوضى في هذا الموقع.

عندما أمست نساء قبيلة «سابين» المخطوفات سلوى لرجالك الأعزاب

حينذاك، كان المسرح المرمرى مازال يفتقد الخيام الثمينة،

ولم تكن ردهاته تتوهج بعد بلون الزعفران الذهبي الوردي

بل تنتشر عليها عفواً أوراق أشجار البالاتينوس،

على حين ظلت المنصة عارية من كل زينة

وقتها، كان القوم يجلسون على درجات معشوشبة،

تغمر شعورهم الشعثاء أوراق الشجر المتساقطة

ويتلفت كل منهم يمناً ويسرة،

يحتضن بعينيه امرأة يتشهاها،

يتأملها في حنايا قلبه.

في ذلك اليوم المشهود [يوم اختطف الرومان السابينات]،

هب الراقص يضرب أرض المسرح بقدميه مرات ثلاث،

وبدأ عازف الناي يرسل ساذج أنغامه

دوى التصفيق خشناً مجلجلاً

وأرماً الملك لأتباعه المتلهفين إيماءة البدء لخطف السابينات، فما أسرع

ماوثبوا مثل وحوش كاسرة، يتحشرج في حناجرهم الشيق العارم، وأيديهم

تهوي، لهفة نهمة، على مفاتن أجساد العذراوات؛

كنَّ يمامات مذعورات ينشدن الإفلات من بين مخالب صقور جارحة،
أو هملان رضع يلمحن الذئب المفترس الجائع،
فزعات يهرولن هرباً بفرائص مرتعدة، وفي أعقابهن البرابرة المختطفون.
ومن فرط الخوف شحّين، وغاض لون البشرة
تولاهن جميعاً خوف واحد، وإن اختلف مسلك كل منهن مع الرعب:
فالبعض على الأرض ذاهلات لا يتحركن
واحدة تنتحب في صمت،
وثانية تصرخ عبثاً «يا أماه»،
وثالثة تحبس دمعتها وتُنهنه،
وفتاة تتخلف، بينما تولي أخرى وتفر
والموكب يمضي بعرائسه الأسيرات، يزددن فتنة رغم الذعر
وحين تحاول إحداهن أن تتأبى على آسرها، يحتويها وهان في صدره،
يرفعها بذراعيه إلى أعلى ويناجيها
«لم تطمسين سحر عينيك بالدمع،
وأنا لن أتجاوز ما فعل أبوك بأملك».

أي رمولوس
لك تهنتي
كنت فريداً...»^(*)

في نهاية حياته رُفِعَ رُمولوس إلى السماء، وصار إلهاً يعبدونه باسم
كوبرينوس. وبعد هذا الصعود اختار رؤساء الأسر الكبيرة (Senatores) أعضاء

^(*) من كتاب «فن الهوى» لأوفيد، ترجمة الدكتور ثروة عكاشة.

مجلس الشيوخ) السابيني نوما بومبيليوس ونصبوه ملكاً على روما. ويقص علينا المؤرخ تيت - ليف Tite-Live حياة هذا الملك على الشكل التالي: «.. انصب اهتمامه في المقام الأول على أن يُدخل في روع الرومان الخوف من الآلهة، وأن يجعل ذلك الخوف أقوى أثراً في قلوب الأقسام الهمج، وإذا كان موجهاً إلى حكمة غير حكمة البشر، فقد ادّعى انه كان يلتقي في الليل بايجيريا الحورية المقدسة، وانه يعمل بنصيحتها حين ينظم الطقوس والمراسم الدينية التي هي من أحب الطقوس إلى السماء، ويعين الكهنة لكل إله من كبار الآلهة». لم تكن ايجيريا إلهة عظيمة الشأن، بل كانت مجرد حورية بسيطة من حوريات النيايع. وسرت شائعة تقول إنها كانت خدينته، بل ربما كانت زوجة نوما بومبيليوس. كان الرومان يقدرون زوجاتهم حق قدرهن، وهذا ما كان يدفعهم إلى استحسان استشارته لزوجهم وتهيئتها قبل أن يتخذ ما يخص مدينته من قرارات.

تحتل الزوجات الرومانيات لادن أزواجهن مكانة مرموقة، ففي البيت المسمى «domus» كانت كل واحدة منهن السيدة (domina) بلا منازع. ومع ذلك ما برحت المرأة تعد ثروة تغتصب، فهي لا تتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الرجال، وذلك لأنه كان قد توجب على الرومان منذ البدء التشدد في رقابتهم خشية هروبهم. وقد ترك هذا الاحتراز آثاره في التشريع، فما برح الزوج أو الابن أو الأب سيد المرأة الأعلى حتى بعد الاختطاف بفترة طويلة، وتأقلم المخطوفات وبناتهن وحفيداتهن في المدينة روما. والمرأة إذا ما تزلزلت ومات عنها زوجها لم ترث من ماله شيئاً، كانت المرأة «Manicipium» أي ملكاً لرب الأسرة وتحت سلطته، حتى إن هذا الأب يحتفظ بسلطته الأبوية على ابنته المتزوجة إن لم يسلمها بنفسه إلى زوجها... (cum manum - باليد)، ففي هذه الحالة فقط تغدو ملكاً لزوجها، وكان باستطاعة الزوج الحكم بالموت على زوجته إن هي خانته الأمانة الزوجية، أو سرقت من ماله، وكما هو الحال في إسبارة كان للأب هنا السلطة المطلقة على أبنائه، إذ كان بمقدوره ان يقتل كل

وليد ذكر مشوه، وكل وليدة أثنى إذا ما رأى أنه قد نال كفايته من البنات. وإذا ما لبى الولد احتياجاته يُعترف به رسمياً بعد ثمانية أيام من ولادته، ليكون من الآن فصاعداً عضواً في العشيرة بحيث ينم اسم العائلة المشترك عن التضامن القائم. وكان من حق الأولاد الذين يرتدون في نهاية سنتهم الخامسة عشرة رداء البلوغ الأبيض، التصويت في المجلس الشعبي، ومن واجبهم الانخراط في الخدمة العسكرية؛ ويتميز الأولاد فيما بينهم بأسمائهم الأولى، في حين تحتفظ الفتيات حتى المتزوجات منهن باسم عائلاتهن. فإذا ما تزوجت الفتاة كان يقال «in matronium ducere» أي قيادتها إلى الأمومة.



رأس فتاة رومانية، روما

ان على كل رجل في روما القديمة، كما في إسبارطة، أن يعقد زواجه ويتدبر شؤون ذريته. وإذا ما بقي أحد الكهنة عازباً كان يخلع من منصبه. وكان يعتقد أن روح الميت يحكم عليها بالتيهان دوغما أمل وإلى ما لا نهاية إن لم يُعن برمسه أحد من ذريته، ثم إن كل رجل لا ولد له يكون محط احتقار وخارجاً على القانون ومنذوراً لتيهان أبدي. وهذه الفكرة كانت تزيد في أهمية العائلة وقيمتها. في الماضي لم يتدبر الرومان الأول بأنفسهم شؤون البيت الصعبة وأعمال الحقول الشاقة.

لقد كانوا يمتلكون إضافة إلى

الماشية عبيداً كانوا أيضاً «manicipia» ملكاً للأسياد بصورة مطلقة، لأن بمقدور هؤلاء السادة استخدامهم ونقل ما يمتلكونه منهم كيفما شاؤوا، كما كانوا يستطيعون التصرف بهم واستغلالهم بتعسف وبلا رحمة، ومع ذلك فإن ثمة قواعد (l'humanitas) (احترام الكائن الإنساني والإنسانية) مسلم بها منذ بدايات روما إجمالاً. صحيح ان هناك تجاوزات للقانون، ولكن قواعد الإنسانية هذه كانت تحمى من اللجوء إلى القسوة والعنف بحق الرجال والنساء ممن استعبدهم الديون أو مخاطر الحروب أو ممن أمكن شراؤهم بالمال، لقد كانوا يمثلون المزايا الجسدية نفسها التي لأسيادهم. وأما فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية، فليس ثمة ما يسيء إلى سمعة الرجال المنتسبين إلى العشيرة إذا ما اشبعوا غرائزهم مع العبيد من كلا الجنسين. وكان يحظر على النساء بالمقابل، وتحت طائلة الحكم عليهن بالموت، ان يتعرضن للحمل بنطاق وضعية لرجل غير حر. وإذا ما ارتبطت الرومانية بعلاقات جنسية مع أحد العبيد يحكم عليها بصورة لا رحمة فيها، في حين كان من الممكن للزوج أن يصفح عن علاقات زنا الزوجة مع رجل كريم المحتد إن رأى الزوج فيها نزوة، أو أمل من وراء هذا الانحراف الحصول على الذرية المرغوبة.

كان يروق للبعض أن يعزوا إلى الرومان طبعاً بارداً ونفعياً. صحيح ان مخيلتهم كانت أغنى من مخيلة الإغريق الذين يقارنون بهم في أغلب الأحيان، ولكنها كانت مخيلة من نوع آخر. كان الإغريق على الدوام يصفون على آلهتهم ذكوراً وإناثاً. مظاهر إنسانية، ويصورونها بسنمات وأجساد شبيهة بسنماتهم وأجسادهم هم. أما بالنسبة للرومان فإن هذه الآلهة نفسها أو الشبيهة بها لم تكن بشراً خارقين للطبيعة أو ناساً وهبوا قدرات استثنائية، بل هي أرواح غير مرئية، ولا يمكن إدراكها، كانوا يدعونها «numina» نوميئا. كانوا يجلسون فيها ويعبدون قواها غير المادية التي تبعث الحياة في الوجود الأرضي وتواكبه. كان رب الأسرة هو الرجل القادر الذي يحدد مصير أسرته لأنه هو من يحمل في ذاته

الـ«genius» (القوة التناسلية) التي تنتقل بوساطة بذاره إلى زوجته التي توجهها جينو (هيرا اليونانية). وتنجب «الوالدة» لزوجها الأولاد الذين يبجلون فيما وراء الحياة الأرضية قوة التناسل الأبوية؛ الروح التي تستمر فيهم على الرغم من مغادرتها لهم. إن كل نشاط، وكل خطر في روما كان يرتبط بخطوة الروح أو بفقدان حظوتها وبعطفها أو بسوء نيتها.

وإن لهب الموقد يدين بأواره ونوره إلى فيستا - جوبيتر، الذي يعود اسمه المبجل، دون ريب، إلى «Diuspater» أبي السماء الذي كان يرمز إلى الشمس والقمر، ويجود بالمطر، ويدوي مع الرعد، ويفني بصواعقه، إنه إله خطر وإليه يتوجب تقديم الأضاحي لتهدئته وإخماد سورته واستمالة عطفه. ففي نظر الرومان الأول لم يكن من الممكن وفي أي حال أن ينحط جوبيتر مثل زيوس لينخرط في غراميات عابرة. لقد كان جوبيتر أكثر نبلاً وجلالاً من أن يخطر في بال أحد ويربط اسمه مع التهتك والفجور أو الرغبات الشهوانية. أضف إلى ذلك انه لم يكن منذ البدء زوج جينو التي تسهم بالروح فقط في علاقات جميع النساء الزوجية.

إن كل ما هو مفاجئ ومحير ويتكرر مع ذلك في الحياة الإنسانية كان روحاً يطلقون عليها اسماً. كان السبات يسمى «Cuba» كوبا، وكان يعد شيطاناً يوزع وفق هواه الراحة أو الليالي المضطربة. أما «Fabulina» فابولينا فكانت تعلم الأطفال الكلام. وبومونا «Pomona» كانت تشرف على الحدائق. والماشية في المراعي كان يجرسها فاونوس «Faunus» وساتورنوس «Saturnus» كان يسهر على البذار، وفولكانوس كان يحول دون انطفاء النار وحمودها. ولا وجود لعلاقات جنسية بدون بريابوس «Priapus»، ولكن الحمل بدون «Tumutus» توؤتس غير ممكن. والويل لامرأة لم تتضرع إلى لوسينا «Lucina» وإلا ستكون عرضة لاضطرابات الدورة الشهرية، أو لإنجاب مولود ميت. وإذا ما بقيت المرأة عاقراً على الرغم من علاقاتها الزوجية الفعالة، فمن

المستحسن أن تولج عضو أحد تماثيل برياب الذكري، فقد كاد يكون لهذا الفعل أثره المؤكد. ترى هل روح الإله القصير هي التي مدت يد العون إلى هؤلاء النسوة حقاً؟ أو ان كهنته هم الذين كانوا يتحكمون بالإخصاب ويشرفون عليه؟ كانت النسوة يجهلن ذلك؛ فليس بمكنتهن معرفة الحقيقة، لأنهن من خلال الشعيرة المقدسة كن يدرن ظهورهن لعضو الإخصاب ويجلسن عليه وهن مفرشات. ويكاد هذا السلوك الديني يمنحهن على الدوام النتيجة المرجوة. كان برياب محبوباً ومكرماً من قبل النساء، كما كان يطيب للأزواج أن يعضوا الطرف عن نسخ هذا الإله العطوف الصغيرة التي تتزين بها نساؤهم، فلم يكن لهذه النماذج التشكيلية المصغرة عن ذكورتهم الخاصة بهم إلا أن ترضي غرورهم.

كانت الأرواح، الخيرة منها والشريرة، التي تؤثر بل وتحدد أعراف الرومان الأوائل وتقاليدهم كلها، كبيرة العدد بحيث يمكننا أن نلاحظ والابتسامه ترتسم على شفاهنا أن في المدينة من الأرواح أكثر مما فيها من البشر. وإن الملك نوما بومبيليوس، الذي سعى إلى أن يدخل في روع مواطنيه الخوف من الآلهة، قد نجح كل النجاح. صحيح أنه لم يخترع بنفسه هذا العالم من الأرواح التي تغذي إيمان الجمهور الجهول وتزيد في تطيره؛ ولكنه أدخل في نظامه السياسي ما رآه ضرورياً لترسيخ وحدة مملكته بتوحيده لتصورات مواطنيه الأسطورية. ففي سبيل أن تحافظ روما على استقلالها الحديث العهد، كان لابد لرجال روما ونسائها من أن يختلفوا عن سكان المدن الأخرى، وكان عليهم أن يمتازوا من جيرانهم بتباين أخلاقهم وطباعهم وتفوقهم في القتال. وراح خليفة نوما بومبيليوس يجتهد في البحث «عن فرص الحرب في كل مكان» فمع مواطنيه الرومان أحال ألبالونجا موطن رياسيلفيا إلى خراب، وورث خلفاءه نزعاته للحرب والطعام. ورسم ملك روما الرابع حدود المبدأ الذي سيوجه التاريخ الروماني حتى الغزو الإمبراطوري: إن على من يريد العيش في سلام أن يؤمن بالتسبب في ضرر الآخرين وفي

مضايقتهم؛ لأن المقاومة السلبية ليست بمفيدة؛ فبدون استعداد للحرب مكين نفقد الحماية الفعالة للسلام. إن فضائل الحرب ستجعل من الرومان نظراء متأخرين للإسبارطيين، ليس الرومان جميعهم طبعاً، بل الأشراف منهم فقط، أولئك الذين يسيطون نفوذهم ويتوسعون فيه ويتمتعون بيسرٍ ما برح مع ذلك متواضعاً. إن عامة الشعب، المؤلف من مواطنين أحرار جاؤوا إلى المدينة وضواحيها، لم تحدر من مؤسس المدينة قطعاً. وهؤلاء العوام ساعدوا الأتروسكي لوسيوس تاركينيوس، الملقب بريسكوس الأقدم، في تسنم العرش، ولقد قدم هذا التركيني، الابن لأم اتروسكية بموجب الأسطورة، من اتروريا إلى روما. وفي خلال ما ينوف على القرن حكم تاركينيوس بريسكوس وصهره ومن ثم ابنه تاركينيوس سربرمُس المدينة التي توسعت إلى حد تجاوز فيه عدد سكانها مائتين وستين ألف نسمة. ولم يشكل الرومان الأقحاح إلا القلة القليلة من رعايا ملوك الأتروسك، في حين كانت الأغلبية العظمى من الساين واللاتين وعلى الخصوص من الاتروسك الراغبين في نقل أخلاق مدن منشئهم وعاداتها إلى روما.

هل كان التركوين الثلاثة: رومولوس أونوما بومبيليوس وخليفته، شخصيات أسطورية؟ هل تم اختراع هذه الشخصيات لاحقاً؟ أو أنهم غيروا الذكريات المتداولة لتسليط الضوء المناسب على القادة اللاحقين، بينما كانت تفسر الصراعات السياسية وتأثير غمط الحياة الاتروسكية في تطور روما؟ لقد درست هذه المعضلة مرات عديدة، ذلك لأن تأثير الاتروسك في تشكل المدينة وفي منشأتها كان يزداد وضوحاً وباطراد، كلما كشفت التنقيبات الأثرية عن وثائق تؤكد أكثر فأكثر ان التفسير الروماني للتاريخ يبدأ من زوال الاتروسك واطمحلاهم نهائياً. ونحن نجهد ما إذا كان المؤرخون قد اختلقوا هذه القصص الخيالية لأغراض سياسية، فذهبت بهم إلى تشويه الحقيقة. ولكن يكفيننا نحن أن نلمس كم كان تأثير الاتروسك حاسماً في أعراف الرومان وأخلاقهم، وكم كان عنيفاً رد الفعل الروماني ضد هذا التأثير، وعندما ضمت روما المقتدرة الجبارة

اليونان إليها، حرب زعماء المدينة دون أي اعتبار وبلا رحمة آخر معاقل الأتروسك، وأبادوا هذا الشعب، ومحو كل أثر مرثي للعلاقات السابقة التي كانت قائمة بين الأتروسك والرومان. ثم راحوا يتجسسون مفاخرين ان من أسس مدينتهم هو أحد أحفاد البطل الطروادي اينياس ابن الإلهة الإغريقية أفروديت التي يعبدها الرومان تحت اسم فينوس. وهكذا توسل الرومان تغيير ألهتهم الخاصة وفق النموذج الهليني، وتبني نمط الحياة الإغريقي.

ويجاء العلم التاريخي الرسمي مجاملاً ان لا شيء يجمع الرومان بالأتروسك سوى ذكرى نزاعات ماضية وسلطان ملكي حرر مدينته لحسن الحظ بمساعدة الآلهة، فمن السهل جداً أن ندعم مثل هذا التأكيد الأسطوري مادامت الوثائق الأتروسكية غير متوفرة، والأعمال الفنية الأتروسكية غائبة عن الأنظار، لكنها مع ذلك محفوظة في اللوحات المطمورة تحت الأنقاض. وهكذا كان علينا انتظار مكتشفات القرون الماضية لكي نتخيل من جهة: حياة الأتروسك المادية والروحية من خلال نبش قبور الماضي، واكتشاف أعمال السيراميك (الخزف) والبرونز والصياغة، ولكي نكمل من جهة ثانية الصورة التي تعكس حياتهم بفضل مقاطع من النصوص القديمة التي تم العثور عليها.

اشتهر الأتروسك منذ زمن بعيد بثقافتهم ورخائهم الاستثنائيين وقد سبق لهزيود ان أشاد بـ«التيرسينيين Tyrsemiens النبلاء الذائعي الصيت»، وهذا، دون ريب، ما حتم على المؤرخ اليوناني هيرودوت أن يتقصى أصول هذا الشعب الغابر. فبنى رواياته على الموروثات القديمة التي اكتشفها في ليديا. لقد عانت ساردس، عاصمة هذه المملكة القائمة في القسم الشمالي - الغربي من آسيا الصغرى، من مجاعة مروعة اكتسحت البلاد بطولها وعرضها، واعتبر الملك آتيس نفسه عاجزاً عن تقديم الحد الأدنى من القوت لرعاياه. وراح الليديون يفتشون عن وسيلة تنسيهم جوعهم بابتكار الألعاب وتنظيمها، وهكذا ابتدع الليديون «لعبة النرد، والكعب، والكرة، وكافة أنواع الألعاب الأخرى.. كيلا يفكروا

بالطعام». فكانوا يأكلون اليوم ويلعبون في اليوم الذي يليه، ولكن ذلك لم يكن سوى حل انتظار لا يعني من جوع، واستمر العوز ليزداد هولاً من الأيام. والحال هذه أزمع الملك على إرسال نصف مجموع السكان خارج البلاد لتسنع للبقية الباقية فرصة البقاء والاستمرار في العيش. وكان علي الحظ أو القدر أن يبت فمن من السكان سيقون ومن منهم سيخاطرون سعياً وراء مجهول غير مضمون تحت قيادة الأمير الملكي تيرينوس «Tyrrhéniens».

وفي خلال عبورهم هذا القسم من البحر المتوسط، المسمى في ذاكرة النازحين البحر التيراني، استطاعوا أن يتدبروا أمور احتياجاتهم.. ثم احتلوا شواطئ إيطاليا الغربية الممتدة بين أرنو والتير، وأسسوا في داخل البلاد المدن القائمة على التلال، وبنوا البيوت، ونصبوا الأسوار، واستعبدوا السكان الأصليين أصحاب الأرض... كانت الأرض خصبة، وإذ حرثوا بطريقة مستحدثة، ونثروا عليها الحبوب التي جلبوها من موطنهم الأصلي وتلك التي حملوها من البلدان التي يتجرون معها، وفرت لهم محاصيل وافرة مكنتهم من مقايضة الفائض منها بكمية من البضائع والثروة. ولم يرو لنا المأثور متى وكيف بلغ التيرينيون (يطلق عليهم الرومان اتروسكي أو توسكي) مثل هذه الدرجة من الازدهار. ولكننا نعرف أنهم كانوا يتبادلون التجارة مع جيرانهم القرييين منهم والبعيديين، ويستصلحون الأراضي الزراعية بعناية فائقة، ويروون بمهارة المناطق التي سيطرت عليها مدنهم. واستحدثوا، قبل تأسيس روما، الأنساب المائبة ووزعوها في مدنهم، وشقوا الطرقات ومهدوها لتسهيل انتقال المسافرين وتبادل البضائع من المدن. ترى هل جلبوا معهم من آسيا الصغرى علم إخصاب الأرياف بالري؟ لقد استثمر الاتروسكيين المناجم، وصهروا النحاس والحديد، واستبدلوا منتوجاتهم بالذهب الوافد من مصر، والعنبر المجلوب من أصقاع الشمال المتوحشة. ومن أسفارهم البحرية والبرية عبر العالم جلبوا المواد الأولية ومعها فن صناعتها، وراقبوا بانتباه كيف كان الرجال والنساء يعيشون

في الموانئ والأرياف المجاورة للمتوسط، ولم يرضوا بالافتداء بما كانوا يرونه، بل راحوا ينتقون ويرتقون بما يروق لهم حد الكمال. كانوا يكتسون كما الإغريق، فكانوا يلبسون قميصاً وعليه عباءة واسعة تحولت إلى حلة رومانية، ولكي يتلهاوا جلبوا مصارعة الثيران من كريت، والمنافسات الرياضية الشائعة في أولمبيا: رمي القرص وقذف الرمح، والملاكمة. ونظموا سباق العربات والجياد. ولكنهم لم يكتفوا، كما الإغريق، بالتمارين غير المؤذية، فعلى الملاعب البيضوية والدائرية التي ابتدعوها، كانوا يتقاتلون بالسلاح الأبيض في تحديات دموية. كانت القسوة إحدى سمات الأتروسكيين، مثلهم في ذلك مثل الإسبارطيين، كانوا يريدون أن يكونوا على أهبة الاستعداد للحرب على الدوام لإلزام العبيد الأكثر منهم عدداً حدودهم.

وليس بالمستطاع إثبات ما إذا كانت الطبقة الحاكمة قد اقتصرت على أسر التيرانيين المهاجرين الأول، أو ان طبقة عليا جديدة قد تشكلت. إن بقايا الأطلال التي حُفّظت لنا والأدوات التي وجدت أثناء التنقيبات تشهد على ثراء النخبة الموسرة وعلى مجدها الغابر، تلك النخبة التي تمتعت بملذات الحياة بكل أنواعها. رسوم جدارية ما برحت ألوانها زاهية تؤكد ان هناك أعياداً فالتة طليقة، ورقصات يشارك فيها فتيات ورجال عرابا يرحون على إيقاع الناي والقيثارة، ويتجامعون متلذذين بمتع الجسد دوغما خفاء، كان الأتروسكيون لا يعرفون الحياء، والعري يبدو لهم طبيعياً.

إن الرغبة في الإنكباب على ما يمكن للحياة أن توفره لهم من كافة أنواع المسرات كانت تزداد حدة مع الخوف من الموت. كان الأتروسك يؤمنون بالجحيم، العالم السفلي الذي يسوسه الزوجان المشؤومان مانتوس ومانتيا. إلا ان بمستطاع روح الميت في العالم الآخر ان تتمتع باللذات نفسها التي عرفها المتوفى في الحياة الدنيا، إن كان بمقدوره تبرئة نفسه من كل عمل شرير ارتكبه في حياته الدنيا.

لا تخضع تيرئة النفس هذه إلى القواعد الصارمة نفسها التي في مصر، وذلك لأن جماعة من الجن الأخيار تساعد أحياناً الأرواح على شرح سلوكها في الأرض أمام كبار القضاة. وقد كان بمقدور المتوفى الاعتماد على غفران المحكمة، وحسبه أن يكون قد جندل الكثير من الأعداء، أو أن يتشفع له الأحفاد والأصدقاء بتلاوة الأدعية وتقديم الأضحيات. وكانوا يحبون، بدافع الحذر ورغبة في تحميل مأواهم، أن يضعوا في بيوتهم تماثيل صغيرة للأرواح الطيبة من البرونز أو الذهب، بحيث كانت ابتسامتها الطيبة تجرد الشياطين الشريرة من أسلحتها. ولكن كان ينبغي ألا يتسبب الإنسان في إثارة سخط تينيا، إله الرعد والصاعقة، وألا يغيظ الآلهة الاثني عشر العظام الذين كانوا يساعدونه، وألا يُغضب لاسا إلهة القدر التي تسجل المستقبل الحتمي المسير للحياة وكانوا يعتقدون ان موت الآخر يمكن أن يكون مفيداً للروح، وقد استخلص الأثرياء وذوو السلطان من ذلك ان من المفيد أن يقتلوا أو يدفنوا رجالاً آخرين وهم أحياء أثناء جنازة واحد منهم. وكانت هذه الممارسة المعهودة شديدة القسوة. ولكن كان يمكن التمتع بمسرات الحياة بعد الموت دوغماً قيد أو شرط، فور إنقاذ روح الميت بالتضحية بأرواح الآخرين. إن الاتروسكيين من الرجال والنساء الذين كانوا ينخرطون في الملذات ويثمنون الممارسات الجنسية نذروا حيواتهم إلى ما فطرت عليه أنواتهم، وإلى أرواحهم بأنانياتها المطلقة والقاسية.

يبدو ان النساء كن نديدات للرجال، وان رابطة القربى كانت تحدها العلاقة مع الأم. وكان يروق للرجال تحميل نسائهم وإكرامهن حتى في قبورهن، فأغدقوا عليهن أدوات الجمال ومنتوجاته من الثياب والمرايا وغيرها.. إن كثيراً من الأعمال التشكيلية تشهد على انسجام الحياة الزوجية وتآلفها يذكرنا بالتآلف القائم بين الأزواج في مصر. ولكن الحب هنا لا يستلزم الإخلاص، فمن الواضح ان الحريات الجنسية كانت نفسها عند الرجال والنساء، لأنه من غير الممكن أن تكون جميع النسوة المستسلمات للمتعة الجنسية في الرسوم الجدارية، والمزهريات،

والأواني الفخارية، وقطع السيراميك المربعة الأشكال، من المومسات، فلا ريب أنهن على الأرجح نساء متزوجات، وهؤلاء الصواحب كن يستشن رغبات الرجال ويتقاسمن معهم الشهوات الماجنة. ومما لا ريب فيه أن النسوة لا يندفعن إلى هذه الدرجة من التساهل لكي يمتنعن عن المتع ومسراتها ويزهدن بملذات يسمحن بها لأزواجهن. يروي لنا المؤرخ الإغريقي ثيوبومبس مجرى إحدى المآدب الأتروسكية: «جرت العادة عند التورينيين ان تكون النساء ملكاً مشاعاً يتمتع بهن الجميع، وكان هؤلاء النسوة يعتنين بأجسادهن عناية فائقة، ويمارسن في أغلب الأحيان الألعاب الرياضية فيما بينهن أو مع الرجال، ولم يكن في ظهور النساء عاريات مايشين، والنساء عادة لا يتناولن الطعام مع أزواجهن، بل مع رجال شاءت الصدفة وجودهم بالقرب منهن، ويشربن، والحال هذه، نخب ذلك الذي يرغبن فيه، ولا تحفى شدة ميلهن إلى شرب الخمر. وكانت وجوههن غاية في الجمال. كان التورينيون يربون من يولد من الأولاد دون معرفة آبائهم. وما ان يشب هؤلاء الأولاد عن الطوق حتى يصنعوا ما صنع آباؤهم، فينظمون حفلات الشراب ويأخذون ما يحلو لهم من النساء، بل ويطيب لهم أن يعشقوا الأولاد جهاراً أو ان يكونوا هم بدورهم محبوبين لأن اللواطه عندهم كانت عادة مقبولة، وهم يجهلون كل شعور بالتحجل حيال الأمور الجنسية، فإذا ما كان سيد البيت يمارس الجنس وجاءه أحدهم ليسأله أمراً ما، أجاب على سؤاله بهدوء واطمئنان ودونما حرج.. بل وكان يصف لك بحرية تامة، وبلا كلفة نشاطه ومغامراته العاطفية. وكانوا يستسلمون للحب والعلاقات الجنسية إما بأن يتأملوا بعضهم بعضاً أو أن يسدلوا الستائر المثبتة على القضبان الحديدية المحيطة بأسرتهم، وكانوا يولعون حباً بالنساء، ولكن ولعهم بالأولاد والمراهقين كان أعظم، ذلك لأن جمال هؤلاء الصبية وهم في ريعان شبابهم لا يجارى، وكان يعتنون بأجسادهم عناية فائقة، ويزيلون بعناية كل شعر فائض، وتلك العادة ممتشرة أيضاً في شعوب الشرق كافة».

هذا الوصف للعادات الاتروسكية يعود إلى الزمن الذي استولى فيه الرومان على الأراضي الاتروسكية بعد تحررهم من الاتروسك، بحيث ان الرومان، انطلاقاً من هذا الواقع، قد أثروا في الحياة الاتروسكية ولكن في نطاق عدم اعتمادهم لها. لقد راق للأسطورة ان ترى في المغامرة العاطفية السبب في إقصاء التاركوين «Tarquin» وفي نهاية الملكية في روما وولادة الجمهورية. وهنا تستحيل الرواية التاريخية أدباً، ويمتزج نثر السياسة بشعر الغرام. يقول ليفي: ان سكستس تاركوين ابن الملك كان في معسكر أبيه في إحدى الليالي يناقش لوسيو كولاتينوس أحد أقربائه في فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى، فعرض عليه كولاتينوس ان ينطلقا على ظهر جواديهما إلى روما ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما في أواخر الليل. فوجدا زوجة سكستس في وليمة مع بعض صاحباتها، أما لكريشيا زوجة كولاتينوس فكانت تغزل الصوف لتنسج منه ثياباً لزوجها. وتاقت نفس سكستس ليجرب وفاء لكريشيا ويستمتع بها. فما كان منه إلا أن عاد في السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لكريشيا وتغلب عليها بدهائه وقوته، وأرسلت لكريشيا تستدعي أباه وزوجها وأخبرتاهما بما حدث لها، ثم انتحرت بطعنة خنجر. وعلى أثر ذلك أهاب لوسيو جونيوس بروتوس أحد أصدقاء كولاتينوس بجميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوين من روما. وكان هو نفسه ابن أخي الملك، ولكن تاركوين كان قد قتل أباه وأخاه، وتظاهر هو بالجنون حتى يُبقي تاركوين على حياته فيشار لمقتل أبيه وأخيه، ولذلك سمي بروتوس أي الأبله. فلما وقعت هذه الحادثة ركب كولاتينوس إلى العاصمة ليقص قصة لكريشيا على مجلس الشيوخ، وما زال به حتى أقنعه بوجوب إخراج الأسرة المالكة كلها من روما. وكان الملك في أثناء ذلك قد ترك الجيش وعاد مسرعاً إلى العاصمة. وعلم بروتوس بهذا وسار إلى الجيش على ظهر جواده وقص عليه مرة أخرى قصة لكريشيا وكسب بذلك معونته وتأييده. وفر تاركوين إلى بلاد اتروريا وطلب إلى

أهلها ان يعيدوه إلى عرشه. وعليه فإن هذا السلوك النبيل من امرأة ثائرة على حب فرض عليها عنوة فجرّ تمرد رجال روما وعصيانهم على الملكية، وحتم سنّ تشريع جمهوري وضع النساء تحت وصاية الآباء والأزواج، وأخضعهن بسلطتهم، وأوجب عليهن إخلاصاً مطلقاً. أما بالنسبة للنساء الرومانيات، فقد انتهى زمن الأخلاق المنحلة التي اقتبسناها من صواحبهن الاتروسكيات، في زمن التاركوين، فبات لا يحقّ لهنّ البتّة، منذ الآن فصاعداً، الاستسلام جهاراً إلى حب طليق كما جرّت العادة عند الاتروسك. وقد استهدف هذا الحظر بصورة أساسية الجنس اللطيف في عائلات الأشراف، ذلك لأن امتياز الولادة الذي جعل من الأرستقراطية قادة للدولة الجمهورية يجب ألا يفسد باختلاطه بدم العامة، ولم يقف القانون عند تحريم العلاقات الحرة ما بين فتيات أو أخوات الأشراف والرجال من عامة الشعب، بل حرم الزيجات المختلطة ما بين الارستقراطية والعامة أيضاً.

إن هذا الحظر المفروض من قبل الأشراف أنفسهم على رجالات عائلاتهم لم يُقدّر حق قدره إلا عندما عزم أحد الأشراف على أن يجعل من الحسناء فرجينيا (وهي امرأة من العوام) صاحبة له بأي ثمن، والحال هذه قتلها أبوها الذي دعا عامة الشعب جميعاً لحماية نسائهم. «وبدافع إخلاصهم إلى مثال الآباء الأخلاقي» توصلوا عنوة إلى أن للعوام، رجالاً ونساء، من الآن فصاعداً الحق في أن يتزوجوا برجال عائلات الأشراف ونسائهم، وقد دعي هذا الزواج بـ«Conjugum» (قران تحت النير عينه)، وهي عبارة مقتبسة من الحياة القروية وما برحت تلعب دوراً رئيساً. ولعل قصة الحب المأساوية هذه لم تكن سوى خرافة كُرست لتأكيد التشريع الروماني المستحدث، قانون الألواح الاثني عشر، ولعل القادة المشرعين آنذاك رأوا ان من الضروري ترسيخ هذا التحول في الاتجاه، عن طريق نشر حكاية مختلقة القصد منها استمالة عقول الجماهير وكسبها.



امراة رومانية

وكان من الضروري حقاً أن يتم إقرار قانون الألواح الاثني عشر، المقتبس من تشريع صولون، وامثال الشعب لأحكامه بوصفه قانوناً محلياً ومن أصل روماني. وقد توجب أن تُعد روما، التي يهيمن عليها الأشراف على الرغم من نفوذ العامة المتعاضم، ومعها الأراضي الرومانية التي تزداد اتساعاً بقوة السلاح والبراعة في إبرام المعاهدات، كياناً يمتد تلقائياً ويشكل كلاً واحداً. وسوف نجهد منذ اليوم ان الرباط الأرجواني الذي يزين حلة أعضاء مجلس الشيوخ قد أخذه الرومان عن الأتروسك، وسنجهل معه أيضاً رموز سلطة الدولة ونفوذها، والشعارات، وأعضاء الذكورة المتدلية حول الفأس التي يحملها معن الأحكام الروماني، وفق سك العملة، وشتى الممارسات التي جلبها الأتروسك من الشرق الأدنى. كان الرومان ينظمون ألعاب المصارعة وسباق الخيل على الطريقة الأتروسكية، ولكنهم كانوا يدعونها «Ludi romani» (ألعاباً رومانية)، وتعلم كهنتهم العرافة من الأتروسك الذين أخذوا بدورهم أسرار السحر هذه عن سكان آسيا الصغرى، وفن قراءة المستقبل (الطالع) في أحشاء الأضاحي من الحيوان. وعندما استولى الغاليون على روما وخربوها، أعيد بناء المدينة على مثال المدن الأتروسكية القديمة، مع الحفاظ على ذكرى الأسلوب المعماري الأتروسكي في أدق تفاصيل الأقواس والزخارف التي وجدناها على حائلها في الأوابد الخارجة من طي النسيان.

وقد حدد تبادل التأثيرات المتواصل مع البلدان الأجنبية نمط الحياة الرومانية، وذلك التبادل الذي لعبه سابقاً مع الأتروسك. إن طباع الرومان الشديدة التنوع قد تبدلت تبعاً لاستبعاد الطباع الأجنبية أو اعتمادها وتمثلها. ولقد أقيمت الدولة في جوهرها وفق النموذج الإسبارطي أساساً، وعهد بالإدارتين السياسية والعسكرية إلى قنصلين اثنين.

كما عهد بهما في إسبارطة إلى ملكين اثنين. وكما هو الحال الـ«gerousie» في إسبارطة، اتخذ مجلس القدماء روما مركزاً له.



سباق الخيول في روما

الأتروسك والرومان

وكان يحق للعمامة أن تجتمع للبت بالاقتراع في قبول القوانين أو رفضها، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد الجيش، وكان على كل مواطن أن يخدم في الجيش، وكان نظام المعارك يستنسخ النموذج الأتروسكي بتمامه وكمالته: كان الفيلق المتراص من الجنود والمؤلف من ثلاثة آلاف جندي يزحف باتجاه العدو موزعاً في ستة صفوف، وتبين لاحقاً أن الحركة أشد تأثيراً من رسوخ هذا الجدار من رجال السلاح المصطفين جنباً إلى جنب، فوزع الرومان جيشهم في وحدات تعداد كل منها مائة جندي، وجمعوا هذه الوحدات في كتائب يتقدمها حامل الراية، وما لبث أن حلَّ الشعار الذي يحمل الكتابة الشهيرة: *Senatus populusque Romanus* محل راية «حفنة من الدريس»^(*) (حشيش يابس). وكان الرجال الذين يقاتلون خلف الراية يؤكدون ما يتحلون به من إرادة القتال والموت في سبيل الشعب ومجلس الشيوخ. وكان المحاربون الرومان على مثال الإسبارطيين يعيشون حياة متقشفة وقاسية. كانوا يأكلون الخبز والعصيدة، ويحتسون النبيذ المخلل، ويتقبلون راضين بشظف العيش، وقد عقدوا العزم على النصر أو الموت في سبيل الوطن. ومن كان ينتمي منهم إلى معسكر الظافرين ينال قسطاً من الغنيمة أو قطعة من الأرض، ومن كان يُقتل يكرم بما يليق بالأبطال، أضيف إلى ذلك ان الخدمة العسكرية كانت مرغوبة من الشعب على الرغم من إلزاميتها، فلقد كان من الأفضل للمرء أن يبرهن على شجاعته بدل أن يتهم بالجنون فيجلد حتى الموت أمام جمع من رفاقه. كان الجنود في الفيالق الرومانية

(*) كان الرومان يطلقون على كل كوكبة اسم «*manipulus*» ومعنى هذا اللفظ في الأصل حفنة من الدريس أو السرخس أو ما إليهما، ويلوح ان حفنة من إحدى هذه المواد مشدودة إلى قائمة خشبية كانت تُتخذُ علماً حربياً قديماً. ومن ثم صار هذا اللفظ يطلق على جماعة من الجنود يظلمهم علم واحد.
- قصة الحضارة - المترجم.

يخشون رؤسائهم أكثر مما يهابون الموت. وهذا الخوف توارثوه جيلاً بعد جيل مما زاد في قوة النظام إلى حد دفع وحدات المئات الرومانية إلى القتال «قتال رجل واحد». وهكذا استطاعت روما أن تكتسح يوماً بعد يوم شبه جزيرة الإيبينين، وإن توحدتها في دولة واحدة طبعتها بإرادتها.

وبينما كانت المعارك هذه تتلى إلى ما لا نهاية، والتي لم يكن ينضوي تحت لوائها إلا فئة محدودة نسبياً، كانت الحياة اليومية في روما وفي المدن المقهورة تسير قدماً. وقد نتج عن ذلك ان اختلطت طباع السكان المحليين مع الأجناب فامتزجت في نمط حياتي موحد ليظهر لاحقاً بصورة نموذج روماني. إن خلف النطاق الصارم للقانون والنظام والحكم تكمن طباع الأقدمين، إذ كان مواطنو روما ومواطناتها يُقبلون على التمتع بمسرات السلام المسموح بها بين كل حربين.

كانت السنة الرومانية تزدان بأكثر من مائة يوم مقدس من أيام الأعياد التي يدعونها «Feriae»، ولم تكن هذه الأعياد جميعها مكرسة لقصف الرجال والنساء، بل كان كثير منها منذوراً لأشباح الموتى وأرواحهم، والتي كانوا يحاولون طردها بأن ييصق الأب من فمه حبيتي فاصولياء سوداوين وهو ينادي: «بهاتين الحبتين أنجي نفسي وأبنائي. اذهبي يا أطياف أسلافي!» ولكن جُلُّ الأعياد كانت تمنح الفرصة الميمونة لبعث العادات الأتروسكية القديمة بأن يوفروا للممارسات الشهرانية كل حرية. وكان لكل عيد ميعاده المحدد وطقسه الذي يراعونه باحترام على الطريقة الرومانية، ولكن الفجور كان يستعيد حقوقه لاحقاً. إن كثيراً من الممارسات الدينية التي تشارك العامة فيها كانت إعلاناً عن بدء حفلات الابتهاج. ففي أثناء اللوبركوسيات (لوبركال - أعياد سنوية داعرة كانت تقام في روما في ١٥ شباط تكريماً للوبركوس إله الخصب) المنذورة لإله الريف حاملي الحقول والقطعان، كان الكهنة يجلدون بصورة رمزية جميع النساء الحاضرات بسيور اقتطعنها من جلود الحيوانات المضحي بها، وذلك لكي يصرفوا

الذئب (Lupus) ويعود عن المراعي. كان الضرب بالمقرعة يستثير الشهوانية والرغبة الجنسية ضمان الخصب. وفي أثناء الفلورالي (Floralies) وهي احتفالات تقام على شرف فلورا (إلهة الأزهار والينابيع)، كان هواة الحب يتلاقون في حفلات شرابٍ وقصف تدوم زمناً طويلاً. ولكن ذلك كان في زمن تحرر المرح والابتهاج من كل قيد، وهذه الاحتفالات الرومانية تشبه إلى حد بعيد احتفالات الإغريق بأعياد ديونيسوس، وفيها كان كهنة وكاهنات ليبر – ليبرا (Liber- libera – إله الكروم وإلهتها)، يتقدمون الجمهور الجذلان وهم يحملون قضيباً (Phallus) هائل الحجم، ليكرس كل واحد منهم نفسه، بعد الاستعراض الرسمي، إلى الإله برياب على طريقته، وأخيراً تأتي أعياد الإله ساتورن التي تعد من أكثر الأعياد الرومانية قصفاً وعريضة. فهي تدوم سبعة أيام ببياضها وسوادها، وتحتفي ببذار السنة الجديدة الميمونة. وهنا تزول الفروق بين الأشراف والعامية والعبيد، فيأكلون حول مائدة واحدة ويتناقمون الأسرة نفسها، إن جميع ضروب الفسق والفجور المسموح بها في زمن الأتروسك وتلك التي لم نأت على ذكرها البتة كانت تُمنح لكل راغب في الإفادة منها، وكان كل فرد يتحلل كلياً من مظاهر الاحتشام والتحفظ لتسود، دونما قيد يذكر، السعادة بالحرية المطلقة والاستسلام لمسرة الحياة ومتعتها.

إن روما هذه التي توسعت بجذر ولكن بثقة لتشمل شبه الجزيرة الإيطالية برمتها، لم تتأثر بالتحويلات الرائعة التي جلبها زحف الإسكندر الكبير الظافر إلا بصورة غير مباشرة. ومع ذلك فإن روما قد استثمرت إحدى تلك النتائج والتحويلات، إن العلاقات بين المستعمرات الإغريقية القائمة على الأرض الإيطالية وبين مدنهم الأصلية تراخت بصورة محسوسة، في حين كانت القوة المقدونية في الشرق تجهد في تغليب أنماط الحياة الإغريقية على أنماط الشعوب الآسيوية المغلوبة، ليتشكل جراء ذلك الأسلوب الهليني (المتأغرق) لقد عُبد الإسكندر في مصر بوصفه ابناً للإله آمون، ورغب بعيد استيلائه على الإمبراطورية الفارسية

المترامية في توحيد مواطني إمبراطورتيه بـ«مقاربة الأخلاق والعادات ودمج الأجناس»، فاقترن بأميرة فارسية ملكية ودفع قاداته ومحاربيه للزواج من فتيات السكان المحليين بغية تذليل الفوارق ما بين مختلف التقاليد بالتزاوج. وأمل أيضاً أن يلائم بين العقائد في البلدان التي استولى عليها: وشبه آمون بزيوس معلناً نفسه ابناً لكليهما. وقد دعا رسول ملك مقدونية الإغريق للاعتراف بالعاهل الذي لا يقهر ابناً لزيوس آمون وإلى القبول بهذا النذر: «ليكن الإسكندر إلهاً مادام يطيب له ذلك». ورأوا في إعزاز الكلي القدرة مجرد نزوة صادرة عن مصاب بجنون العظمة، ولم يحملوا إبعازه هذا على محمل الجد مثل أمه التي سألته وهي تضحك: «وأخيراً متى ستكف يا إسكندر عن إثارة ظنون هيرا تجاهي بدون مبرر؟» لم يكن إسكندر ليرضى بالانتشاء بفكرة آلهته الخاصة به، فكان يشرب بإسراف. وانبرى متحدياً أياً كان من محاربيه في أن يشرب من الخمر مقدار ما يشرب هو، وأفرغ دفعة واحدة قدحاً تحتوي على سبعة لترات من النبيذ. وسقط مريضاً وناء تحت تأثير حمى شديدة الحرارة، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أورث مملكته «للأقوى» والحقيقة ان قواده جميعاً اقتسموا مملكته لتفتت القوة المقدونية الهائلة المتجسدة في الإسكندر إلى أقاليم مستقلة، فتفرق كل في طريقه بدافع الغيرة، ليتجاهل أحدهما الآخر أو ليقنتلا. وهذا، في الأقل، ما حدث في الشرق. أما في الغرب وبعيد نصف قرن من وفاة المقدوني العظيم، سعى ملك إيبيريا بيروس إلى الاقتداء بالإسكندر وذلك بالاستيلاء على الإمبراطورية الإغريقية الإيطالية، وان يزاحم الرومان في سيطرتهم على إيطاليا التي فازوا بها بعد صراعات لاعد لها ولا حصر، وتغلب على الرومان، ولكن هذا الفوز الذي كلفه غالباً لم يكن في صالحه بل ذهب انتصاره مثلاً: انتصار على الطراز البيروسي. وكان غزوه لصقلية أيضاً انتصاراً فاشلاً، لقد نجح في حماية مدينة سيراكوزا وحال دون أن تكون نهياً لمرتزقة قرطاجة القوية المقتدرة، لكنه ما لبث أن حد من حريات الصقليين (سكان صقلية) الذين هب لنجدتهم، فاضطر إلى مغادرة الجزيرة وهو يصيح: «ياله من نصر أتخلى

عنه هنا لروما وقرطاجه» وعلى الأرض الإيطالية اصطدم جيشه بالفيالق الرومانية لينوء تحت عبء الهزيمة، ويعود المنتصر المهزوم إلى ايبيريا لتكون للرومان منذ الآن حرية التصرف على روما والإفادة من ذلك الفائدة القصوى.

وسمحت هذه الهدنة لروما بأن تحقق مصغراً ما لم يستطع الإسكندر الكبير تحقيقه مكبراً. ومزجت فيما بين الأجناس. لم يمثل الرومان لحظة موضوعة مسبقاً لتحقيق ما حققوه، بل اتبعوا تقليداً توارثوه كان يوجه أفعالهم (Ab urbe condita): كانوا يقتلون بغيرهم من الشعوب ويستعرون منها ما كان يلائمهم ويروق لهم. ولم يقف هذا التبنّي وهذا التكيف عند حدود التفاصيل السطحية مثل إقامة الحمامات العمومية، وتنظيم المباريات الرياضية على الطريقة الإغريقية، وتحميل الثياب باستخدام أقمشة ملونة وتحسينها بكل ضروب التفتن والإبداع، بل أترى الرومان حياتهم الداخلية أيضاً. إن الرومان باستيلائهم على المدن قد استولوا أيضاً على الآلهة التي يعبدها المهورون معتقدين ان باستيلائهم على تماثيل الآلهة يفوزون بروح المهزومين أيضاً، واستطاع الرومان بذلك توسيع مساحة ديانتهم. في الماضي، وفي خلال اقتناهم مع الاتروسك، نقلوا إلى روما جونو^(*) مدينة فييس المغلوبة، وشيدوا معبداً لاستقبالها والترحيب بها، كما تبناوا هرمس الإغريق وعبده تحت اسم ميركور سيد التجار والخطباء واللصوص، وصنعوا لأنفسهم أسكليبيوس (Asclépios) إله الطب الإغريقي، وغيروا اسمه وصار اسكولاب esculape، وغدا كهنته، وقد تحولوا إلى عبيد، معلمين للأطباء الرومان، فبنى هؤلاء منشآت للمعالجة وفقاً لمبادئ هيبوقراط (ابقراط)، خصّصت «لنفعه المرضى وخيرهم». وغدت بنود قسم هيبوقراط قواعد يعتمدها فن الطب في روما: «وإذا دخلت بيت إنسان أياً كان، فسأدخله لمساعدة المرضى، وسأمتنع

^(*) جينو (جونو): ملكة السموات وزوجة جوبيتر وحارسة النساء منذ ولادتهن حتى وفاتهن، فلكل امرأة جينوها كما كان لكل رجل جينوه.

عن كل إساءة مقصودة أو أذى معتمد، وأسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أي رجل أو أية امرأة، سواء كانا من الأحرار أو من الارقاء. ومهما رأيت أو سمعت في أثناء قيامي بفروض مهنتي، وفي خارج مهنتي في خلال حديثي مع الناس، إذا كان مما لا يجب إذاعته، فلن أفشيه، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقدسة. ويجب على الطبيب: أن يعنى بمراقبة نفسه، و... ألا يقول إلا ما هو ضروري...، وإذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك، وكن متحفظاً في كلامك، معتنياً بهندامك، صريحاً على استعداد لفعل ما يجب أن يفعل... وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض، وأن تراعي بعناية حال مريضك المالية، وعليك أيضاً أن تقدم خدماتك من غير أجر، وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدي خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال، فقدم له معونتك كاملة، ذلك لأنه حيث يوجد حب الناس يوجد أيضاً حب الفن»

وُضع معبد اسكولاب في روما تحت حماية مينرفا التي كانت هي أيضاً، كما كانت أثينا في اليونان، إلهة للفنانين وأرباب الحرف. وكان المرضى يتقدمون إليها بالأضحيات ويناشدونها أن تلهم الأطباء بوصفهم جزءاً من فئة الفنانين والصناع، ما يمكنهم من شفائهم من دوائهم. وكان كل ألم جسدي يحمل اسم روح شريرة لا بد من طردها أولاً لتكون الأدوية التي يصفها الطبيب ناجعة. وبقي هذا التطير على حاله زمناً طويلاً مع رفض مواطني روما الأحرار، وتأبيهم عن الخضوع للممارسات الوضيعة التي تفرضها مزاوله مهنة الطب. إن العناية بأجساد الغير وإنعاشها بالاغتسال والتدليك بالمراهم كانت في نظرهم نشاطاً حقيراً ومرذولاً، مثله في ذلك مثل أي خدمة أخرى لا يمكن أن يقوم بها إلا العبيد. أضف إلى ذلك أن الفنانين وأرباب الحرف لا يمارسون مهنتهم بأنفسهم قط، بل كانوا يشتررون الأيدي العاملة من سوق النخاسة أو يعلمون عبيدهم ليكون بمقدورهم الاكتفاء بمراقبة هؤلاء العبيد. أما العبيد الذين يتميزون بخدمة سادتهم ويحظون بثقتهم فكانوا يُعتقون مكافأة لهم على خدماتهم، ويصير

الأتروسك والرومان

مكنتهم حينذاك ممارسة مهنتهم لحسابهم الخاص شريطة أن يقتطعوا لأسيادهم القدامى قسماً من أرباحهم، ويصبح أبنائهم مواطنين رومان ليزيدوا في تعداد العامة المفطورة على عدم ميلها للعمل. وكانت العامة فعلاً تستمرى البطالة والتنبلة بفضل ما كانت تخصصه الدولة لهم من إعانات، وما يجود به الأثرياء الذين كانوا يؤثرون تزايد أعداد أنصارهم.

كان في روما نوعان من العبيد: عبيد الدولة ويتوزعون في الأشغال العامة مثل فتح الطرقات وتعييدها، وتمديد المجاري المائية والمجارير، وعبيد البيوت ويتفرغون للأعمال المنزلية بشتى أنواعها وضروبها. وكان من يملك مالاً يستطيع الحصول على هذه البضاعة الإنسانية من أسواق النخاسة القائمة في روما وفي مدن المملكة كلها إلى حد ما. وكان للمشتري مطلق الحرية في استخدام هذه البضاعة واستعمالها على هواه، والثمن الذي يحصل عليه تاجر العبيد (النخاس) مرهون بمظهر الفرد المعروض للبيع وبمكاته. أما بالنسبة للفتاة الحسنة أو الفتى القوي البنية اللذين يمكن استخدامهما واستغلالهما، فقد كان من يريد اقتناء عبد أو عبدة على شاكتهما ان يدفع مبلغاً يزيد كثيراً على ثمن رجل (أو امرأة) قوي البنية قادر على العمل في الحقول أو على الخدمة في المنزل. وكان يقوم بتربية ما أقتني من أولاد بأسعار بخسة مربون محترفون يشكلون هذه المخلوقات الخاضعة لأهوائهم وفقاً لطلب المشتري، فينمون ما فيهم من كفاءات أو استعدادات دفع الزبون ثمناً مرتفعاً لها. وكان الراقصون والراقصات أغلى ثمناً وأرفع مكانة من العبيد، النساء منهم والرجال، المستخدمين في الحياة اليومية، فكانت أسعارهم ترتفع بارتفاع مستوى المعيشة التي تزداد ثراء ووفرة بعد كل نصر أو ضم أراض جديدة.

لقد زادت الحروب المنتصرة على قرطاجة، والاستيلاء على اليونان، في مطالب المواطنين الرومان. أما وقد تعبوا من ويلات زمن الصراع اليائس ضد القرطاجيين، ومن حرمان حروب لا تلين ضد اليونان، فإنهم يأملون، من الآن فصاعداً، أن ينعموا بحياة المنتصرين، حياة لا تقل رخاء عن حياة المغلوبين بل

تفوقها جمالاً ومتعة. كان يفد إلى روما قبل اندلاع الحرب البونية الأولى موفدون من التجار، ولدى عودتهم إلى أوطانهم كانوا يروون إلى الأثرياء من مواطنيهم ان أنواع الطعام التي كانت تقدم لهم في مختلف بيوت النخبة من الأشراف كانت تقدم لهم على الأطباق الفضية نفسها، وان المضيفين، رغبة منهم في استقبالهم الاستقبال اللائق، كانوا يتبادلون استعارة الأواني الفضية فيما بينهم. أضف إلى ذلك أن أنواع الطعام المتداولة في روما لم تفتن قط أذواق الضيوف القرطاجيين المترفة جداً. صحيح ان هناك وفرة من اللحوم والأسماك، لكن تحضيرها كان بسيطاً للغاية. وهكذا فإن الرومان الذين اعتقدوا فيما مضى أن التأنق الذي يجهلونه قبلاً قد أفسدهم، تعلموا من أعدائهم أن الحياة ما برحت تستطيع تقديم الكثير من المتع التي ما فتئوا يجهلونها.

وعلى اعتبار أن روما ما انفكت مدينة صغيرة على الرغم من توسعها المتعظم، في حين كانت قرطاجة عاصمة إقليمية، فإن الرومان حتى الأغنياء منهم كانوا يسكنون بيوتاً قد تكون واسعة أحياناً لكنها متواضعة الأثاث، في الوقت الذي كان فيه أثرياء قرطاجة يرفهون داخل قصورهم الفاخرة الرياش. وكان الرومان خارج البيت يلبسون فوق رداءهم حلة رومانية من الصوف تلف الجسم ويطرح طرفها الأعلى فوق الكتف اليسرى ليمر تحت الذراع اليمنى ويطرح مرة أخرى على الكتف اليسرى. وكان القرطاجيون يستعملون أقمشة ملونة وموشاة لصنع سراويل وسترات مريحة يفصلونها وفق مقاساتهم، ويثبتونها بمشابك ذهبية مزدانة بالجوهر. لقد عاد القرطاجيون من كافة الموانئ التي رست فيها مراكبهم، ومن كل المستعمرات التي أسسوها، بأفخر البضائع المصنوعة في مشاغل حوض المتوسط، أو تلك البضائع التي كانوا يجلبونها من المناطق النائية: الحرير من الهند، والستُر الرقيقة الخيوط من مصانع النسيج الإغريقية، والأشغال الفارسية والمصرية من الذهب والفضة. أما شبه جزيرة ايبيرية (اسبانيا) التي اقتحموها، فقد زودتهم بالذهب والفضة والحديد والنحاس. ولم يُصنع اليونانيون المواد الأولية هذه

بأيديهم بل فضلوا الاتجار بها ومقاومتها بمعادن مشغولة مثل السلاح والحلي.. وما دامت سفن القرطاجيين الشراعية الحربية المتفوقة على أساطيل المتوسط برمتها تسيطر على البحر، وما دامت قوافلها تجتاز الصحراء، فإن ما اعتاد عليه أثرياء القرطاجيين من بذخ وترف سيبقى مؤكداً ومضموناً. أضف إلى ذلك ان القرطاجيين قد عقدوا العزم على عدم التنازل لأي كان عن هيمنتهم التجارية.

كان تعداد مدينتهم، التي يكتنفها من كل جانب حدائق خصيبة، ينوف على مائتي ألف نسمة، وقد ابتكر ملاك الأراضي فن استثمار الأملاك الواسعة التي يقوم بتعهدها العبيد. فزرعوا في تربتهم المروية اصطناعياً كل ما كانت تنتجه الأصقاع الأخرى. وكانت كروم الزيتون تمتد الواحد منها إلى جانب الآخر، وأشجار التين والرمان والكمثرى تصطف بين المنحدرات البهيجة المكسوة بكروم العنب. وفي المراعي المعتنى بها عناية فائقة كانت ترعى الأبقار والأغنام والماعز.

وكانت الحظائر تأوي الخيول والحمير والبغال والفيلة التي جيء بها من سهوب موريتانيا. وكان القرطاجيون يستخدمون البغال والحمير دواباً (للكوب)، والخيول والفيلة مطية للجنود المرتزقة المقاتلين في سبيل قرطاج. وكان التجار القرطاجيون يجنون الحياة الهينة. ويعهدون للأجراء بأخطار المواجهات الدامية ومآسيها، ويكلفونهم أيضاً بمشقات الأعمال الحرفية ولكن في حدود لا يفرضونها على العبيد. وكانوا يؤثرون لأنفسهم بما في الحياة من متع ومسرات، ويعيشون في سعة، ويأكلون ويشربون إلى أن يفقدوا رشدهم. وتدل العبادة التي كانوا يكرسونها إلى بعل — هامان «Baal- Haman»، بمسند قوة التناسل المذكورة، وإلى «ishtar- astarte» عشتار — عشتروت الفينيقيين، على ممارسات مماثلة لعادات عبدة إلهة الحب في آسيا الصغرى، ويروى ان القرطاجيين كانوا يضحون بأطفال أحياء إلى بعل — هامان على أمل تسكين غضبه. وعندما كان القدر يختار الضحية طفلاً لأحد الأثرياء، كان بمسئطاع

الأب شراء طفل أحد الفقراء ليحل محل أبنه. فيلقي به طعمة للئيران دوغما شعور بتبكيك الضمير. وإنما نعلم فحسب ان النساء القرطاجيات كن لا يظهرن في الأماكن العامة إلا محجبات، وأنهن يعشن في البيوت والقصور الفاخرة عيشة الحريم المنعزلة والهادئة وقد أغدق عليهن أزواجهن حلياً ودلالاً.

في بداية الحرب التي ماعتمت ان ارتسمت بإخفاق الرومان المروع، كان لا بد لأتماط الحياة في قوتي حوض المتوسط العظميئين من المجابهة والتحدي. وسرعان ما أدرك الرومان ان الصراع ضد قرطاجة كان بالنسبة لهم قضية حياة أو موت لا يمكن تجنبه. ففي الشمال من أراضيهم التي أراقوا في سبيلها دماء غزيرة، وأجروا مفاوضات واسعة الحيلة، كان الغاليون حلفاء القرطاجيين يتهددونهم، في حين كان جنوب شبه الجزيرة وصقلية عرضة لهجمات القرطاجيين الذين كانوا يستولون أو يُغرقون كل مركب مسالم يقلع باتجاه أحد الموانئ التجارية في غرب المتوسط. وقد منح النظام الفيالق سلطة واسعة على فرق المرتزقة، ولكن كان لا بد لروما من أن توفر لنفسها أسطولاً بحرياً لكي يكون ممكنة قوتها الأرضية التصدي مع احتمال الفوز على قوة قرطاجة البحرية. ودعا مجلس الشيوخ المواطنين الرومان إلى تخصيص أموالهم وجهودهم لبناء المراكب الشراعية اللازمة. وكانت التضحيات المفروضة على المواطنين والمواطنات في روما ثقيلة وجسيمة مما أفقدهم ولمدة طويلة الأمل في تحسين أو حتى تعديل شروط معيشتهم، إن كل ما جمعت النساء من حلي وكل ما اكتنزه الرجال من ذهب كان يقدم حباً وكرامة في سبيل تحقيق المشروع الجري. ووصف أحد المؤرخين الإغريق تعبئة الجهود الرومانية في سبيل المعركة البحرية الوشيكة الوقوع بالعبارات التالية: «... وبهذه المناسبة... يملكنا العجب مما فطر عليه الرومان من سخاء وإقدام.. ويدل هذا الحادث أكثر مما يدل غيره من الحوادث على ما للرومان من جرأة وبسالة إذا ما اعتزموا القيام بعمل خطير... ذلك لأنهم لم يفكروا قط قبل هذه الحرب في إنشاء أسطول، فلما استقر رأيهم على إنشائه

الأتروسك والرومان

بدلوا في ذلك جهد الجبابرة، وهاجموا به من فورهم القرطاجيين الذين ظلوا عدة أجيال سادة البحار لا ينازعهم فيها منازع، مع ان الرومان لم تكن لهم في حرب البحار خبرة ما».

وأقلع الأسطول الروماني باتجاه افريقيا، ولكن المحاربين الموزعين في مائة وخمسين من الجنود في كل مركب قتلوا فور نزولهم من المراكب ووقع قنصلهم ريجولوس في الأسر، وغرق البحارة، وبدا لبعض الوقت أن «السخاء والإقدام» الرومانيين قد ذهباً سدى.

ولكن روما لم تعزف عن المعركة لمثل هذه الأسباب، وها هو أسطول جديد تبنيه تضحيات جديدة. والقنصل الأسير الذي أرسله القرطاجيون إلى روما للتمهيد إلى المفاوضات ينصح مجلس الشيوخ برفض كل عروض السلام القرطاجية، ويعود من ثم، إلى قرطاجية بناء على وعود قطعها قبل قيامه بالمهمة، وقتله الجلادون، بمنعه عن النوم دوغماً انقطاع. وثأر له بنوه: فوضعوا في صندوق مزدان بمسامير من فولاذ سحنيين قرطاجيين ماتاً ألماً وأرقاً، واستمرت الحرب لتنتهي باندحار قرطاجية، لكن الجنود من المرتزقة تمردوا على المدينة فأرسل المبعوثون لإبرام الصلح، ووضعت روما شروطها على الرغم من انهيارها الاقتصادي الوشيك، وضمت إليها، إضافة إلى صقلية سردينيا وكورسيه، وحررت تجارتها من كل العقبات التي كانت تعترضها في المتوسط. لكن هذا الصلح اقتصر على القرطاجيين وحدهم لأن مجلس الشيوخ لم يبرم صلحاً مع الغالين، فترتب على ذلك متطلبات جديدة حالت دون تمتع الرومان بنشوة النصر. وبقيت روما بعد انتصارها كما كانت قبله، وما برحت هي والأراضي التي ألحقها بمملكتهما تشبه معسكراً من المحاربين. وتصدت فيالقتها بنجاح للغالين، وراحت تعد العدة لحروب جديدة ضد قرطاجية مع إيمانها بنصر مبین شريطة أن يخضع رجالها ونساؤها لكل ضروب الحرمان التي تفرضها إمدادات جنودها في ميادين القتال.



مقطع من نحت بارز يمثل معركة بين الرومان والغالين

في خلال عقود هذه المحنة التي تحملوها بإباء على الرغم من بلوغها حداً يصعب احتمالها، تبلورت سمات الجبلية الرومانية وترسخت على نحو ما انتقلت إلى الذراري، وتوسعت روما بحدودها مع طردها للغالين، وبفضل أسطوها الذي أعادت بناء طهرت الادرياتيک من القراصنة ومن سفنهم. أما بالنسبة للتجارة التي بدأت تزدهر فقد منحت الرومان حياة هنية. ولكن كان لابد للمواطنين، وتلك ضرورة لاغنى عنها، من أن يتقشفوا أو يموتوا في سبيل الوطن. فمنع الرقباء الذين شكلهم الشيوخ الرجال من إعداد الولايم، والنساء من اقتناء الحلبي، لتقتصر وجبة الغداء على الخبز مع العسل أو الزيتون، ووجبة العشاء على العصيدة والخضار والفواكه، والنبيذ لا يشرب إلا بعد كسره بالماء، والمواطن الذي لا يخضع لحياة التقشف هذه يعد مواطناً رومانياً سيئاً. وكان على ملاك الأراضي وعبيدهم، ان يزرعوا حقولهم ويرعوا قطعانهم لإطعام الفيالق المنذورة للدفاع عن روما وأقاليمها دون سكان المدن القابعين بأمان وسكينة خلف

الأتروسك والرومان

الأسوار. وبعتراف الجميع كان أعضاء مجلس الشيوخ الذين يتدبرون شؤون الدولة ويوجهون دفة البلاد مثلاً يحتذى، لما عرف عنهم من هدوء واثق ومكين واستعداد أكيد لكل تضحية، وسلوك صارم ووقور «Gravitas».

ومع ذلك كان على الحياة الرومانية أن تأخذ مجراها جرياً على العادة. فكان من الواجب الاحتفال بالأعياد في مواعيدها المحددة، وإبرام عقود الزواج، وإنجاب الأبناء من دون كبح مسيرة الأيام الاعتيادية أو عرقلتها، فإذا ما رغب الرجل في أن يعقد خطبته على فتاة، توجب أن يتم ذلك حسب الشعائر المعمول بها، سواء كان عليه الالتحاق بميادين القتال بعد غد أو لا. وكان يكسر مع خطيبته قذاة برهاناً على الخطوبة، ويُسلِّك في الإصبع الرابعة من يده اليسرى خاتماً من حديد لا من ذهب، فلم تكن الهدية في ذاتها بيت القصيد بل المهم هو العروبة المؤمن في الإصبع الذي يجمع القلبين ويوحدهما.

ولم تكن الخطيبة قط هدفاً للاختطاف أو للشراء من أي نوع كان، وكان المواطن الروماني في زمن الحرب أغلى من العذراء وأكثر منها كلفة، وكان على رب الأسرة الراغب في تزويج ابنته أن يتدبر أمر بائنتها لكي يجعل حياة زوج المستقبل جذابة ومريحة. أما إذا سقط العريس صريعاً في ساحة الشرف فإن البائنة تقوم بأود طفل الجندي الصريع بما يتناسب والمهام الموكلة إليه، أما إذا بقي الزوج على قيد الحياة وطلب الطلاق أرجع البائنة إلى الزوجة. وكانت الاحتفالات بالأعراس تتم في بيت أهل العروس، ويستوفي الزواج شروطه وشرعيته بدءاً من اللحظة التي يرافق فيها أفراد العائلتين والمدعوون العروسين ليصلا بهما على أنغام الناي ووقع موسيقى أناشيد الزفاف، إلى منزل العريس، وعلى سؤال يتوجه به العريس إلى العروس: «من أنت؟» تجيبه الزوجة: «حيث تكون أنت يا جايوس أريد أن أكون أنا جايا». فيحملها ليحتاز بها عتبة الدار، ويسلمها مفاتيح الدار، ولا يتم الاتحاد الجسدي إلا بعد تقديم الزوجة الأضحيات إلى آلهة المنزل الخاصة بعائلتهما الجديدة، وإلى آلهة البيوت. وعندها

ينسحب الزوجان لينفردا في داخل غرفتهما، ويدخل العريس بزوجته، ومن اتحاد الأجساد هذه يولد ما كانت روما بحاجة إليه من أبناء. وإذا ما تم عقد الاقتران الجسدي Sine Manu فإن بمقدور الطرفين فسخه، أما إذا سُلمت العروس لرجلها باليد جرياً على التقاليد القديمة فإن للزوج وحده الحق بطلب الطلاق، أما إذا اقترن الزوجان بحضور العائلتين بواسطة الـ«Confarreatis» (باشترك الجميع بتناول قرص من الحلوى)، فإن الزواج غير قابل للفسخ، وليس بمستطاع الزوج أن يطالب بالانفصال، إن المساواة بين الجنسين لا تتوفر من دون قيد أو شرط، ذلك لأن القانون ينص: «إن أنت باغت زوجتك وضبطتها تخونك بالجرم المشهود فإن بمقدورك قتلها من دون أن ينالك القصاص وبلا اجراءات قانونية، ولكنك إن إنتهكت أنت الأمانة الزوجية، فإنه لا يحق لها أن تلمسك حتى بأطراف أصابعها».



تمثال نصفي فينيال ٢٤٧-١٨٢ ق.م
القائد القرطاجي وعدو روما اللدود

إن قانوناً كهذا كان مكرساً لحماية الجسود الرومان. وما دام الأرواح ينادون حياتهم في سبيل المجموع. فسبحان من مع نسوة من أسيرة تحت زوجهم من روم. إن من و...
... يتحملن بعزة و...
... في الحرمان. لكن القانون تضمن استثناء واحداً لمصلحة النساء اللاتي يستسلمن للأغراب من الرجال إبان عسكرة هانيبال أمام أبواب المدينة «ante portas» في الوقت الذي اعتبرت فيه المدينة مدينة خاسرة لا محالة،

وجرى عندئذ تحييل نساء روما من مواطنيهن كي لا يحملن في أحشائهن ويلدن أولاداً للأعداء في حال اغتصاب القرطاجيين لهن، ولكي يضمنن للمدينة ذرية رومانية، لأن روما بحاجة إلى هؤلاء المتطوعين في السراء والضراء.

وفي الحقيقة كانت الأغلبية العظمى من النساء اللاتي يخالفن القانون الأخلاقي على هذا الشكل (بأن يخدمن أزواجهن للحفاظ على نقاء الدم الروماني)، أرامل من دون علمهن. إن مائة ألف ونيف من الجنود الرومان سقطوا صرعى حروبهم ضد هانيبال، وإن ما يزيد على مائة من أعضاء مجلس الشيوخ ممن ذهبوا طواعية إلى ميادين القتال قد هلكوا في الحرب. والمدينة التي قلبها اليأس والحداد رأساً على عقب وهجرها البقية الباقية من الرجال الأصحاء ليحلوا محل من مات هيمن عليها الذعر والهلوع. وراحت النسوة تلحف على الكهنة وأعضاء مجلس الشيوخ بالتساؤلات: «من هي الآلهة التي تتوجه إليها بالصلاة لإنقاذ روما؟» وفي المبنى المهيب كان يمكث المسنون وحيداً يستثيرون الأسئلة نفسها التي تحير النساء وتقلقهن.

وفي النهاية يستحثون النسوة المدعورات ويجيزون لهن بأن يتوجهن بصلواتهن إلى الآلهة الإغريقية مادامت الآلهة الرومانية ترفض صراحة نصرتهن.

ولعل آريس سيبدو ملائماً، في حين أن مارس وزوجته الفاضلة بيللوني إلهة الحرب يصمان آذانهما أمام توسلاتهم. ولعل جوبيتر الذي يعبرونه سلطات أدنى من سلطات أبي الآلهة الإغريقية، لم يكن بمقام زيوس قدرة. ولعل الآلهة الرومان الكبار كانوا تواقين أيضاً للأضاحي البشرية لتهدئتهم.

وقد أباح مجلس الشيوخ تقديم سجينين غاليين إلى الآلهة ليحرقا على الملاء، وأتبعهما ياغريقيين على أثر تحالف سرقوسة والمدن الإغريقية الأخرى مع هانيبال مطالبين بالحرية للهلينيين كافة.

لم يهاجم هانيبال روما ومع ذلك لم ترسل الجيوش الرومانية المعسكرة في جنوب إيطاليا أنباء عن انتصارها. لقد تجاوز مسرح البغضاء والحروب الأراضي الرومانية، ونزلت الفيالق من الجنود الرومان على شواطئ شبه الجزيرة الايبيرية بقيادة عضو مجلس الشيوخ بيبليوس كورنيليوس سيبين، واستولت على ميناء قرطاجنة فيها، الوكالة التجارية الرئيسية ومركز القرطاجيين الحربي. لقد شجع هذا الانتصار الهام مجلس الشيوخ على متابعة جهوده للحصول على دعم الآلهة الأجنبية ومساندتها، فتوجه الشيوخ إلى الكتب السيبيلية يستطلعون موروث الإلهة الأتروسكية المقدس، إلهة القدر لاسا، وأحسوا بارتياح كبير عندما قرأوا فيه النبوءة المواتية التالية: سيغادر هانيبال روما عائداً إلى افريقيا، إن أنتم جلبتم إلى روما سيبيل أم الفريجيين الكبرى «Magna Mater» وعلى الفور أوفدوا مبعوثاً إلى الملك برغام، فوافق على أن ينقلوا إلى روما الحجر الأسود الذي كان يجسد الإلهة في المعبد.

وفي ميناء أوستيا رحب وفد مؤلف من النساء الرومانيات بشبابهن الاحتفالية بمقدم سيبيل باحتفال باهر، ولكن المركب الذي يقل التمثال (الحجر المقدس) غاص في التيسر، ولم يستطيعوا إطلاقه من الطمي إلا بفضل صلوات عذراء الإلهة فستا «كلوديا» الطاهرة، وأخيراً واكب موكب من المتهللين الفرحين الحجر الثمين حتى معبد الإلهة الرومانية فيكتوريا، ولكن الاحتفال بالشعائر المقدسة لا يمكن أن يتم على الفور على الرغم من الآمال التي يعبرونه إياها، ذلك لأنه ينقصهم كهنة فريجيون، كما أنهم لم يحظوا بأي روماني جدير تتوفر فيه الشروط التي تفرضها عبادة الأم الكبرى، لأن الآلهة الفريجية، والابن الحبيب آتيس الذي خصى نفسه بيده، لا يمكن أن يقوم بخدمتها إلا كهنة حصوا أنفسهم بإرادتهم. ولم يذهب الرومان القابعين في المدينة بتضحيتهم بعيداً، ومع ذلك أجزوا عدداً من العبيد على أن يخصصوا أنفسهم ليشتروا حريتهم، وهكذا يكون بمقدورهم إقامة عيد الإلهة الكبرى.

الأتروسك والرومان

وقد وجد المشاركون في الاحتفال من الرومان الفحول كفاتيمهم من النساء ليجامعوهن في نشوة وانفعال من السعادة والمرح، ووفقاً لمقتضيات الشعيرة. وأحرق الشعب البخور، وغدا طيبها الذي يفوح في الشوارع، من الآن فصاعداً، رمزاً للنصر، لأنه سيزف إليهم عما قريب نبأ تراجع هانيبال وقد غادر الأرض الإيطالية.. وسوف يحتفى ابتداء من الآن وفي كل عام بالـ«Magalesia» عيد الأم الكبرى. ولن يجد الكهنة المخصيون أي ضير كان في تحريض الرومانيين والرومانيات وحثهم على الاقتتان بهم لتكريم الأم الكبرى ومكافأتهم على تضحيتهم التي يتوجب عليهم تقديمها.

بعد مرور ثلاث سنوات على وصول الأم الكبرى إلى روما، كان سيبون قد استولى على صقلية، وهزم هانيبال في معركة حاسمة دارت على الأرض الإفريقية. والسلام المفروض على قرطاجة أعطى روما شبه الجزيرة الايبيرية، وتعويضات حرب ضخمة، وتفوقاً بيناً في حوض المتوسط الغربي. وانتصرت روما بعيد ذلك، على الرغم من خروجها منهكة ضعيفة، على ملك ماسيدونيا، وهيمنت على الأرض الإغريقية مما أكسبها نفوذاً حاسماً على ممالك الشرق الأدنى.

واحتفلت مواكب النصر بعودة الفيالق الظافرة. وقضى العرف المتبع ان يتلقى القادة، وقد لبسوا حلثهم الرومانية الأرجوانية، وعلى رؤوسهم أكاليل الغار المذهبة، تحية الشعب الروماني واعترافه بالجميل. وكان عازفو الناي والقيثارة يتقدمون عربة المنتصر المتألثة البراقة وقد اكتنفتها من كل جانب سحابة من البخور المحروق، وتسير خلفها عربات نقل المساجين الأسرى للتضحية بهم على شرف الإله، كما كان المحاربون العائدون إلى ديارهم يشاركون في موكب النصر، ويتلقون نصيهم مما غنموه، ولكن على الرغم مما كان يتلقاه هؤلاء الذين أرغموا على هجر ممتلكاتهم للدفاع عن الوطن، فإن ما يأخذونه لا يعوضهم ما كانوا قد فقدوه وخسروه. إن الأغلبية العظمى منهم لا حول لها ولا قوة، لقد فقدوا كل رغبة أياً كانت هذه الرغبة، كما انهم لا

يملكون الوسيلة لاستثمار أملاكهم، وحُملوا على بيع أراضيهم للعيش في روما، مستخدمين امتياز المواطنين الرومان، فأدى ذلك إلى تضخم نسبة العوام الذين باعوا أملاكهم بأسعار بخسة إلى ملاك الأراضي أغنياء الحروب الذين زدوا العامة بما يكفيها كيلا تسقط ضحية للبؤس والشقاء، وازداد عدد سكان المدينة وتعاضم إلى حد كبير، وتدفق إلى المدينة، إضافة إلى الفلاحين الذين أفقرُوا، مواطنو المدن الأخرى بحثاً عن وسائل العيش أو أكثر الملاهي تنوعاً، وفي خلال عقود عدة غدت روما ما كانت عليه قرطاجة، حاضرة تجارية ينفق المرء فيها ويحني الكثير من الأموال.

وتوارت أيام الحرمان لتغيب في عالم الماضي. واستسلم الرومان، رجالاً ونساء، بغية استعاضة الزمن الضائع، إلى كل ما يسكر الحواس ويشملها. وما دام مجلس الشيوخ قد توانى عن إلغاء قانون أيام المحنة والضيقة، زمن الحرب البونية الثانية، القانون الذي يمنع النساء من حمل الحلبي والتزين بها، ومن لبس الثياب الملونة، اجتمعت نساء روما في الساحة العامة «forum» وطالبن بالسماح لهن بحمل وارتداء ما يخلو لهن، وبالتزين وفق رغباتهن، ولم يغيب عن الزوجات دواعي المطالبة بحقهن في أن يصرن جميلات. وفي الحقيقة لم يستقدم الأزواج من اليونان الغنائم فقط، بل جلبوا «الرديلة الإغريقية» أيضاً؛ إنه الاسم الذي كانوا يطلقونه في روما على اللواط، ويروي تيت ليف إن الرومان «يفجرون ويتهتكون فيما بينهم أكثر مما يفجرون مع النساء» قاصداً ان الفتيان الإغريقي ممن يبعوا في سوق النخاسة لا يملكون إعالة أنفسهم إلا باستسلامهم لرغبات سيادهم الجنسية. «فإن رفض أحدهم قبول هوانه طواعية يحكم عليه بالموت وكأنه دابة حقيرة». ولاحظ ناقد زمانه المتصلب كاتو: «قد يرتفع سعر فتى جميل ليزيد على ثمن حقل زراعي» وفي منافسة الجنسين هذه، كانت النسوة يتميزن بما يُنفقته ليزددن سحراً وفتنة. وكانت تجارة منتجات الجمال مزدهرة، وصارت العناية بالجسد فناً، وكانت مساحيق الجمال القرطاجية بكل درجاتها،

والصابون الكاوي المجلوب من بلاد الغال لتسمير الشعر الذي دب فيه الشيب، وخلصا العطور والمراهم المصرية لتلين البشرة، تسلاوي وزنها ذهباً.

وراحت النساء الرومانيات يظهرن على الملأ بأرقّ الأنسجة وأغناها ألواناً وتطريزاً، تلك الأنسجة التي كانت مقتصرة حتى حينه على مومسات قرطاجنة، وارتفعت احتجاجات الرجال ولكن دونما جدوى، وعبثاً كانت تحريضات أحد الأعضاء في مجلس الشيوخ ومن جرى على منواله: «إذا ما أكد كل منا حقوقه وامتيازاته أمام زوجته بوصفه رجلاً فإنها لن تسبب لنا الكثير من الهموم...»

تصفحوا مواد القانون المتعلق بالنساء، فبفضلها أراد أسلافنا ردع صلفهن وإخضاعهن للرجال.. فإن أنتم سمحتم لهن بأن يلمسن هذا أو ذاك، وأن ينتزعن من الرجال هذا أو ذاك.. أتعتقدون أن عمقدوركم، بعد هذا، حماية أنفسكم والدفاع عنها؟ فمنذ لحظة شروعهن في أن يكنّ نديبات لكم يصبحن أسيادكم». ولم يُجدِ هذا التحذير نفعاً، ولم يصلح لشيء، مما دفع مجلس الشيوخ إلى رفع الضرائب إلى عشرة أضعافها على استيراد منتجات التجميل والأقمشة الثمينة وبيعها. ولكن النساء الرومانيات، وقد صرن غنيات مع ازدياد ثرائهن باطراد، كن يدفعن ثمن ما يرغبن فيه مهما علا ثمنه، ليس فقط بغية تفوقهن على المراهقين من الفتيات، بل لينافسن بأناقتهن وظرفهن الهيتاير (مومسات رفيعات الشأن)، اللاتي استقدمهن من اليونان أصحاب المطاعم المتوددون إلى النساء ليقمن في بيوت تناسب وعملهن. وكانوا يطلقون على هؤلاء المومسات أسماء متحفظة ودقيقة: «meretrices»، وكانت النساء من اللواتي يتعشن بأجسادهن «*quae corpore merent*» لا يحظين بالاعتبار كما هي حالهن في اليونان. فكن يعشن سجينات في بيوت الدعارة التي يزين أبوابها أحد رسوم الإله برياب المقندر أو مطرقة من البرونز تحمل شكله، وتدل هذه اللافتة ان وظيفة نزيلات البيت هي إشباع حاجات الزبائن الجنسية. ولقد أقر المشرعون بهذه المهنة. وكان ملاك البيوت المغلقة (بيوت الدعارة) يدفعون ضرائب باهظة، كما كان من

حقهم احتجاز النسوة وتأجيرهن في أوقات محددة. وفي مقابل ذلك كان على هؤلاء السهر على رعاية المومسات ومنعهن من إزعاج النساء غير المتزوجات بظهورهن على الملأ. ولم تكن «meretrices» إلا عبيدات لذة منذورات للمدقعين من الرجال أو لأولئك الراغبين في تجنب المشاحنات الزوجية. وتوسعت حقوق النساء الرومانيات إبان الحروب، فكثرت التأويلات وبإطراد حول استعداداتهن وأهليتهن التي ضمنت لهن استعادة بائناتهن بعد موت أزواجهن ليكون بمقدورهن القيام بأود أبنائهن: واستطعن بذلك التصرف بحرية ببائتهن مما عزز مكانتهن في البيت. ويقول كاتو في معرض شكواه من ذلك: «إننا نحكم الرجال، والنساء يحكمنا» والقوانين المتعلقة بالطلاق لا تراعي الزوج دون سواه على الإطلاق.

وكان إبرام عقود الزيجات الدائمة غير القابلة للفسخ في تناقص مستمر، والآباء الذين ينعمون بشيء من رغد العيش يحرصون عند تزويج بناتهم على أن يتمتعن في بيت الزوجية باستقلالية وحرية واسعتين. لا تسمح القوانين بالطبع بأن تتمتع المرأة المتزوجة بما يتمتع به زوجها من حرية جنسية، ولكن غالباً ما كان يحصل وبإطراد أن يكون للزوجة المهملة من عشيرها الشرعي، وفي مأمن من السرية، إنما بموافقة الزوج الحريص على الاحتفاظ بها وببائنتها، علاقات غرامية تشكل شكلاً من أشكال الزواج في قلب الزواج. أما في قصور الأشراف المزينة بالتحف الفنية الإغريقية المرفهة، فقد كانوا حريصين تمام الحرص على احترام الأصول بقدر استسلام العامة دونما وازع من حشمة إلى فجور مطلق العنان. كان الارستقراطيون يرغبون في أن يمتازوا في الظاهر من الجماهير المتهتكة ويفضلوا عليهم. إن ما كان يجري بين الجدران الأربعة لم ينتشر إلا ببطء بفعل ثرات عشاق مقصيين لجؤوا إلى قلم الانتقام. ولكن خلاعة نساء العامة ورجالها، أولئك الذين لا يصونهم أي امتياز كان، كامتياز الولادة أو الشراء، كانت موضوع مناقشات الأشراف المفضلة.

كان الباعث لهذه المجادلات استخدام عبادة ديونيسوس الإغريقية وأعياد باخوس. وكان الاحتفال بهذه الأعياد يتم على أراضي المدن الأتروسكية القديمة خصوصاً، وتميز بتحررها لعدم ارتباطها بتاريخ محدد من جهة وتحولها إلى حفلات ابتهاج يومية من جهة ثانية. كان مريدو باخوس من الرجال والنساء يجتمعون في مجموعات مختلطة تعمل على لم شتات محبي اللذة لمنحهم مسرات نشوة عذبة ومتع العشق اللذيذة، وكان عباد ديونيسوس - باخوس ورفيقه الدائم برياب يتجامعون ضارين عرض الحائط بالروابط الزوجية وبالحب دونما اكتراث بالمشاهدين، لا يخضعون إلا للمتعة آنية وهناءة جسدية. لقد كان من الضروري أن يستنكر أحد الفتية الرومان من المشاركين في إحدى هذه العريبات، الطابع اللاأخلاقي واللاروماني لهذه «التصرفات الليلية» في أثناء هذه الأعياد ليستثير اهتمام السلطات بالباخوسيات (حفلات سكر صاحبة نسبة إلى باخوس) المنافية «للأخلاق» والمفسدة لها، يروي تيت ليف كيف كان يجري الاحتفال «بطقوس العريبة الأتروسكية»: «إن إغريقياً مجهول المنشأ قدم إلى اتروريا، كان رجلاً عديم الخبرة في ضروب الفن المتنوعة التي أدخلها هذا الشعب المثقف لتربية الجسد وتهذيب الروح، ولكنه كان كاهناً وعرافاً من الطبقة الدنيا، وهو لم يكن يمت بصلة البتة إلى أولئك الذين يمارسون عبادة جماهيرية، ويجاهرون على الملأ بإيمانهم ومذهبهم، ويفيدون من زلاتهم لاستمالة أرواحهم، لا.. بل كان معلماً في العبادات الليلية السرية، وكان الأمر يتعلق بتعليم لم يعتقه في البداية إلا القلة القليلة من الناس، ثم أخذ يتسع وينتشر بين الرجال والنساء على السواء. وكانت هذه العبادة تمزج بين طقوس خدمة الآلهة والتصوف والإفراط في الأكل والشرب بغية الفوز بالفورة الوفيرة من المريدين. وعندما تلعب الخمرة في العقول وتشيع الدفء في القلوب، وعندما يمحي بفعل الليل واختلاط النساء والرجال والبالغين والفتية الرقيق الحواس، كل شعور بالحجل، يستسلم الجميع لكل ضروب الجمون والتهتك. فكان كل واحد منهم ينال كفايته من المتع التي كانت تستشيرها

ميوله.. وينتج عن ذلك كثير من شهادات الزور، والتحريفات، والطباع الفاسدة، ووصمات العار، والوصايا، والوشايات، وتسميم الأحياء، وجرائم القتل حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، دون التمكن من العثور على جثث الضحايا لإيداعها في لحودها اللائقة، فغالباً ما كان يلجأ المجرمون الصفيقون إلى العنف إضافة إلى الخديعة، بيد أن أحداً من المحتفلين لم يلاحظ ذلك، لأن الصياح (صياح الجماهير المحتشدة) وصخب الطبول وضجيج الصنوج كان يغطي على نداءات الاستغاثة التي كانت تطلقها الضحايا البشرية المغتصبة أو المغدورة، هذا المرض الخبيث جاء مثل وباء مُعد من اتروريا فاكتسح روما وما عليها، في البدء كان خفياً، ذلك لأن امتداد المدينة واتساعها كانا يوفران المكان وإمكانية استئراء هذه الشرور». واحتفظنا أيضاً بشهادة أحد الشهود الذي كشف لنا عن أعياد باخوس هذه: «... كان الرجال ممن استولت عليهم نوبات الجنون فارتعدت فرائصهم يتكهنون بالمستقبل، وكانت النساء المتزوجات، وقد ارتدين لباس كاهنات باخوس، وأسدن شعورهن، يهرعن نحو التير. بمشاعلهن المشتعلة يغمرنها في الماء ليخرجنها متقدة على الدوام لأنها مطلية بالجير والكبريت؛ وكانوا يربطون الرجال مع الخنزيرات ويرمون بهم على مرأى الحضور في مغارات خفية، ثم يزعمون لاحقاً بأن الآلهة احتظفتهم، مع أنهم، في الحقيقة، من المرادين الذين رفضوا الارتباط بقسم، والمشاركة في بعض ما يرتكب من فظائع، أو مكابدة بعض العنف. وكان في عداد هؤلاء جمع غفير، يضم في صفوفه أيضاً رجالاً ونساء بارزين».

أصدر مجلس الشيوخ قانوناً يحظر أعياد باخوس تحت طائلة أقسى العقوبات وأشدّها «على كل مواطن روماني ألا يخالط أو ينضم إلى مريدي باخوس، وعلى كل رجل ألا يكون من كهنتهم، وعلى الرجل أو المرأة ألا يقودانهم أو يوجهانهم، وينبغي ألا يكون لهم صندوق مشترك ولا موظف.. ويمنع الاحتفال بالعيد سراً.. وينبغي ألا يحتفل في كل عيد أكثر من خمسة

أشخاص، على ألا يتجاوز عدد الرجال رجلين وعدد النسوة ثلاث نساء.. ولكن سرعان ما ألغيت أعياد باخوس في غضون عشرة أيام بعيد صدور هذا القرار». وقد وضع القانون المنقوش على البرونز حداً لطقوس العريضة التي كانت تنظم في ضواحي روما، ولكنه لم يمنع المشاركين من الالتقاء في مجموعات قليلة العدد، وهناك ثمة مظاهرات تشهد على ذلك بما تحويه من تصاوير تمثل اجتماعاتهم المكرسة للمتعة الشهوانية.. ولكنهم، على الأقل، لبوا متطلبات «الخلق الروماني» الذي أعلنته روما أمام أنظار العالم بوصفه أساس قوتها الراسخ والمكين، لقد صدر حظر «الحريات الديونيسية» عن مجلس الشيوخ بالإجماع على الرغم من ولع الأغلبية العظمى من الشباب في مجلس الشيوخ بكل ما كان يقد إلههم من اليونان، حتى أنهم كانوا يلقبونها بـ«الأغارقة الصغار». وكان الأشراف المتحدرون من الأسر الثرية والذين أثروا للغاية بما غنموه في الحرب، يعيشون في قصورهم وداراتهم حياة يسر واستقلال... وهامهم أولاء: ليفيوس وميتلوس وكلاوديوس وكورنيليوس يرفضون مشاركة الشعب السوقي ملاهيه وتساليه، فعرفوا كيف يجيزون لأنفسهم إداة مالا يروق لهم، وكيف يمتنون سلوك العامة الفظ ويعرون فحورهم؛ وهم إذا ما اقتدوا به استطاعوا التميز من حديثي النعمة، أولئك الذين يولون المآذب الفاخرة، ويقدمون لضيوفهم ما اشتره من أطياب غالية الثمن على أطباق من ذهب كيلا يساور أحدهم الشك في حداثة ما ينعمون به من رخاء. إن عملاً فنياً حقيقياً في نظر هؤلاء الارستقراطيين يفوق في قيمته عشرات التماثيل البدائية الناقصة التي اختارها الأثرياء الجدد لتذخر بها بيوتهم وحداثتهم. حياة جميلة وخيرة، ذلك هو الحلم الذي يراود أثيري السعادة هؤلاء «المولودين في ثياب القياصرة»، إنها حياة تماثل الـ«كالوغاتون» عند الإغريق، أولئك الذين يحتذون حذوهم، فهم لم يكونوا ديمقراطيين بالمعنى الإغريقي للكلمة، ولكنهم احتما بالشعب، ومنحوا العامة ما كانوا يعتقدون أنها تستحقه. ونظموا الألعاب وفق عادات كل زمان،

وأسهموا بأموالهم الخاصة في تحسين مشاهد المنافسات الرياضية وإثرائها، وبذلوا المستطاع لينعم مئات الألوف من الرومان بمسرات الحياة، أما هم فقد رافت لهم حياة العزلة، حتى لكأنهم قادة يتخذون قراراتهم على ضوء أخبار مرؤوسيههم، وما يرسلونه لهم من تقارير، ويستقون المعلومات من أمانني عامة الشعب ومن شكواهم، ومن مدراء أعمالهم والقيمين على أموالهم من الزبائن المتزددين على ملاهيههم، لقد وضع المواطنون الرومان أنفسهم ومعلماء إرادتهم تحت حمايتهم وسلطتهم، ومن هذا الواقع خرجوا بقراراتهم لتسيير شؤونهم الخاصة منها والعامة.

إن ما يفصل بين الأشراف والطبقات الشعبية كافة يتجهز وضع الأشراف الاجتماعية المتفوق، إنه الوضع الروحي. فلم يكونوا تواقين ولا محتاجين للاختلاط بعامة الشعب، بل كانوا، على الطريقة القرطاجية، يحولون ملكياتهم الشاسعة إلى عزبات (latifundia) ويحصلون من أراضيهم، وقد غدت منتجعات خصبة، أموالاً طائلة لا يملكون القدرة على تبذيرها، وازدادت أعداد الماشية وازداد معها العبيد من الجنسين القائمين على رعايتها أيضاً. فالأسواق الرومانية - وفيها كان بيع الحبوب المحلية لا يدر ربحاً مادام القمح المستورد أرخص منها بأربع مرات - أمنت، بالمقابل، منافذ ملائمة لتربية الماشية في العزبات.

رأى كبار الملاك انه لا يليق بهم أن ينخرطوا في التجارة، وأنه من المشين أيضاً أن يساهموا في تجهيز الكتائب المسلحة باللباس والمؤن أو أن يستثمروا المناجم والأملاك الريفية في الأراضي المستولى عليها حديثاً. فتخلوا عن وسائل الإثراء تلك وتركوها لزبائنهم أو المقربين منهم، ليكسب هؤلاء الثروات الطائلة.. ولكي يُسمح من ثم لأولئك المحظوظين من حديثي النعمة بأن يطلق عليهم «equites» (الفرسان). وبذلك يكونون قد ورثوا لقباً كان يخص في الماضي أناساً ميسورين قاموا بالتزاماتهم العسكرية على ظهور جيادهم الخاصة.

والطبقة التي شكلها فرسان المال هؤلاء لم يكن لها في البداية امتياز يذكر، والطبقة التي شكلها فرسان المال هؤلاء لم يكن لها في البداية امتياز يذكر، ولكنها، بفضل الشعبية التي اكتسبتها بأثمان من ذهب، غدت القوة الثالثة، واحتلت مكانها بين الأشراف وعامة الشعب.

وأسهمت الأموال التي كان يبذلها الفرسان الفخورون بإبراز ثرائهم في رفع سوية حياة الرومان المتوسطة. كما ان الفرسان وذويهم لم يكونوا ليشعروا قط بضيق الأشراف الفطري من الاختلاط بالشعب، أو يتباهوا بصفاقة بنمط حياتهم ومستواها. فأقاموا للجماهير حفلات المرح والابتهاج ليفوزوا بحبهم ويحلوا محل الأشراف الذين يأبون أن يقارنوا أنفسهم بهم. فراحوا يقلدون تصرفات هؤلاء «الأدعياء المقوتين» ويسلكون سلوكهم فاقتنوا مثلهم المتعلمين من العبيد الإغريق: فلاسفة لتربية أبنائهم وبناتهم، وطباخين لإعداد مآدبهم، وذواقين لاختيار نبيذهم، وخبراء التجميل للعناية بأجسادهم، ودونما اعتبار للتكاليف مهما بلغت أسسوا المدارس لتعليم اللياقة، وفيها يعلم المثقفون الذين اشتروهم من اليونان — كما يشترون التماثيل وتحف الزينة — الكتابة والقراءة على الطريقة اليونانية.

يتطلب نمط الحياة ليس فقط أن نعيشه بل أن نحبه على الطريقة اليونانية أيضاً... ولكن الزوجات الرومانيات لم يتنازلن لمناخي اللذة من الجنسين لاعتن مضجعهم ولا عن مكانهن في المآدب، بل كن يدافعن عن حقوقهن الزوجية ويطالبن أزواجهن بتأدية واجباتهم موضوع الخلاف، وإلا فسوف يسعين للبحث عن محل محلهم.

وقد حال تصميمهن على حرمان الرجال من كل امتياز جنسي دون ظهور الـ«Meretrices» وغلبتهن كما كان الحال في اليونان بظهور الهيتاير (المومسات)، فهم لا يملكون البتة ما يقدمونه للأرستقراطيين إلا وكان هؤلاء قد امتلكوه سابقاً.



امرأة رومانية من المجتمع الراقي (ثيابها من الكتاب والحرير)
وتدل على مكانة زوجها ومقامه.

وهم لم يستطيعوا ولفترة طويلة، ملء الفراغ وإحراز السبق بسبب أسلوب الحياة الهيلينية التي اكتشفها الأشراف وجلبوها على الرغم من قصر الفترة الزمنية نسبياً... فكان على أبناء الفرسان وبناتهم أن يبذلوا الكثير من الجهد لتحصيل ما كان يملكه بالولادة أبناء عائلات أعضاء مجلس الشيوخ المقتردة: الثقافة الروحية النبيلة التي سيكون لها في سياسة روما وأخلاقها التأثير الحاسم. لقد غزت الفلسفة الإغريقية (الهلينية)، قبل الحرب البونية، حلقات أرفع الطبقات الرومانية

النبيلة المغلقة، لإدراك هذه الطبقات أهمية دور علوم العالم وعلى الخصوص علوم الإنسان في الحكم. وأكثر ما أدهش الأشراف وأسَرَ فضولهم للمعرفة وللحديد هو مبادئ زينون وتلامذته. وكانوا يدعونهم بالرواقيين، والكلمة مستقاة من الاسم Stoa poikile (الصالة المتعددة الألوان) الأثينية، وهو بناء عام مزين بالرسوم الجدارية، وفيه كانوا يعلمون. انتشرت الرواقية، بعد الحرب البونية، انتشار النار في الهشيم. وكان حري للفكرة القائلة: «التصرف بورع على هدي من العقل الأصلي» لترسيخ السلام والوثام على الأرض، أن تروق للأشراف الذين أسسوا مملكة ليتمكنوا من إدارة شؤونها بسهولة أكبر باسم «المواطنة العالمية» فليؤلف الناس جميعاً مجتمعاً إنسانياً عظيماً، دوغما تمييز لأصلهم أو دولتهم، وهم سواء، إن كانوا يونانيين أو قرطاجيين، أحراراً أم عبيداً، ذكوراً أم إناثاً.

هذه الأطروحة فرضت نفسها ولكنها بقيت نظرية محضة.. إن الممارسة العملية والاحتكاك مع متطلبات السياسة المباشرة، والصراع على السلطة المتجدد على الدوام كبحت جماح المشاعر الإنسانية، ومع ذلك فإن ما كانت تجسده الرواقية من تحرر ديني يحرر الإنسان من أوهامه وخيبات أمله قد نال من نفوذ النبلاء وسلطانهم. وتلك هي، بالتمام والكمال، ما كانت عليه حال الأشراف المولعين بالفلسفة اليونانية، فبدافع من حرصهم على استمرار «خوف العامة من الآلهة، أساس الاستقرار السياسي ورسوخه» كرسوا للآلهة الجديدة التي كانت عرضة لكثير من الشكوك والسخرية، معابد جديدة وفخمة. وكان كاهن روما الأكبر المختار من بين صفوف مجلس الشيوخ يدير شؤون الديانة وفق المبدأ الذي حدده المؤرخ الإغريقي بوليبي: «وبما أن الشعب يحركه عقل طائش وسطحي، وينزع إلى أهواء غير مشروعة، ويستسلم لسورات غضب غير معقولة، توجب على السلطة أن تعتمد على خوف الشعب وهلعه من العالم الآخر المجهول، وعلى صور مروعة مثيلة لترويضه».

وسعى مجلس الشيوخ لحماية الديانة الرومانية وطقوسها بكل ثمن، ولكن الشيوخ لم يدعموا الديانة إلا بوصفها معقل قوتهم، ولقد أنكبوا هم أنفسهم على التأمّلات الفلسفية تلبية لمتطلبات الفكر أو لتبرير سياستهم، وغدوا في أغليبيتهم من أنصار الأفكار الأبيقورية. وكان أبيقور قد قال: «حياة اللذة غير ممكنة بدون حياة خيرةً وفطنةً وعادلة، وحياة الخير والفطنة والعدل غير ممكنة من دون حياة اللذة». وفي دائرة الفطنة واللذة المغلقة هذه كانت تجري حياة الأشراف الذين يوجهون أقدار روما ومصائرها.. فازدادوا التحاماً بالفلسفة الأبيقورية ماداموا بذلك يؤكدون تفوقهم على الفرسان وعلى العامة المحترقة، فينظرون إليهم باستخفاف. وسعوا جاهدين للعيش وفق تعاليم أبيقور: «عندما نقول إن اللذة هي هدفنا الأسمى وغايتنا القصوى، لا نقصد الكلام عن لذة الفساق والماجنين، ولا عن تلك اللذات التي لا يجني المرء منها إلا المتع الرخيصة المتبدلة، ولا نقصد العلاقات الجنسية مع النساء أو العلمان، ولا نقصد بالطبع تلك المسرة التي تمنحنا إياه مائدة عامرة، إن ما يجعل من الحياة متعة حقيقية هي البصيرة الفطنة، فهي وحدها تشكل «اللذة» الحقة التي يتوجب على كل منا أن يكرس لها القلب والعقل معاً. وغالباً ما تكون البصيرة الفطنة حجة الأخلاق المنحلة التي اكتسحت، مع تدفق المواطنين الجدد إلى روما، طبقات الشعب كافة. وازداد النهم إلى اللهو حدة مع ارتفاع مستوى المعيشة. فلم يعد الرومانيون يرضون البتة بالمنافسات الرياضية أو بالصراعات العامة التي تنظمها الدولة على نفقتها بدعم من الأثرياء، كانوا يتطلعون إلى الجديد، في التسالي وفي الأحاسيس، ليسعدوا بها في كل يوم وليس إبان الاحتفالات فقط».

ولم يكن مسرح الألعاب البهلوانية (حلبة السيرك العامة) بكاف لإرضاء فضول النظارة، فسارع المهرة من التجار وأقاموا أكواخاً خشبية في ساحات المدينة ذات المباني الرائعة على الدوام تلبية لفضول العامة، فصار بمكنة المرء، لقاء مبلغ من المال، أن ينظر بإعجاب إلى المشعوذين من الجنسين، يمشي الواحد منهم

باتجاه الآخر، وقد أفلتا من قوانين الجاذبية، ليلتقيا في عناق رقيق. وكنا نرى رجالاً ونساء مرحين في أقباص أو يلقي بهم دون مقاومة إلى الوحوش الكاسرة، ليلفظوا أنفاسهم بين الأنياب في بحر من الدماء. كانت المشاهد القاسية ممنوعة، ولكن الحظر لم يحترم قط، فالضحايا لم يكونوا إلا من الرقيق، وإذا ما طلب إليهم تقديم تقرير عما جرى أعلن مدراء الأكواخ ان البائسين قد تصرفوا من تلقاء أنفسهم ودخلوا الأقباص جراء تهورهم المؤسف مما تسبب في نهايتهم التعيسة هذه. فإذا ما تجاوزت أرباح الدخول ثمن شراء العبيد، عُدد موتهم صفقة رابحة وتكون الحياة الإنسانية حينئذ رخيصة الثمن. وكان كل انتصار للجيش يزود المدينة ومختلف الأصقاع بالبضائع الحية الجديدة التي يجب أن تدر أرباحاً. وقد أتاحت أثمان العبيد المنخفضة للمواطنين، حتى لأولئك الذين لا موارد لهم، أن يعفوا أنفسهم من جميع الأعمال القاسية. ولكن السلطات كانت تغض النظر عن الكثير من التجاوزات، رغبة منها في صرف أفكار هذه الحشود العاطلة عن العمل أثناء هذه الملاهي الجديدة، ولتهدة عقولها الطائشة وأهوائها ونزواتها غير المسموح بها وسورات غضبها المخالفة للصواب. فكان من الضروري تلهية الشعب بأي ثمن كيلا يثور، مما سمح بتقديم العروض المسرحية. ولكن السماح بتقديم العروض لم يأت إلا كرهاً، ومع ذلك فإن هذا السماح جاء استجابة لما نذر أعضاء مجلس الشيوخ على أنفسهم وقد هيمنت عليهم الروح الإغريقية: فلماذا لا تشارك العامة أيضاً بالمهارات الوافدة من اليونان إلى روما؟ فليس بالإمكان أن ينتج عن ذلك خطر شعبي عام مادامت عروض المسرحيات الهجائية محظورة وتحت طائلة الموت وفق قانون الألواح الإثني عشر. ذلك ان الطعن الصفيق بكبار الشخصيات والانتقادات التي كان يقذفها أريستوفان في وجه الشعب الأثيني من خلال ملامه لا يمكن أن تتكرر في روما.

وهناك ما ينسوف على ألف مسرحية إغريقية تافهة المحتوى، فهي لا تنطرق إلا إلى موضوع الحب. وهو الموضوع الذي يروق للرجال وللنساء على

السواء، ويقبل للتعديل والتنويع إلى ما لا نهاية كي يروق للمشاهدين دون ملل ولا كلل. كان للنصوص المسرحية التي تدور حول مواضيع الحب النجاح المبين. وعلى العكس من ذلك فإن محاورات الأرسطراطيين في مؤالفة التراجيديا الإغريقية أو ترجمتها لتقدمها إلى العامة في الاحتفالات الدينية أو الجنائزية الرسمية، كانت عرضة للإخفاق على الدوام، ذلك لأن العامة لم تدرك قط تحويرات الميتولوجيا الإغريقية المتكلفة هذه، ولم تهتم البتة بحدث مأساوي يليقه أشخاص متكلفون بأشعار متصنعة. صحيح أن اللغة التي كانوا ينظمون بها لغة لاتينية ولكن الكلمات كانت جزيلة وسامية تنفر منها الأذن التي اعتادت اللغة الحية والمباشرة. كما ان الحكيم الوطنية المثيرة للشجون التي كان كواتوس انيوس ينثرها في مآثره البطولية وفي تراجيدياته، لم تترك في الجمهور انطباعاً يذكر، ولم تحرك فيه ساكناً. فكانت العبارات مثل: «فعلى هذه الأخلاق العتيدة وهؤلاء الرجال تأسست الدولة الرومانية» لا تعني لهم شيئاً. بل كانوا يقدرّون الأخلاق الجديدة والرجال الذين يعملون على نشرها.

وحده تيتوس ماكايوس بلاوتوس، الذي أسمىناه بلاوته، حظي عند الرومان بنجاح مستديم. كان اسمه يعني تيتوس، المزاح ذي القدمين المسحواين، ترى هل لقبه ماكايوس يعود إلى شكل قدميه المثير للضحك؟ إنا نجهد ذلك! وفي كل حال كان مفخرة لقبه بلاوتوس. كان مزاحاً حقاً، ومهرجاً جماهيرياً، يختار ملاهيه الإغريقية فيكيفها لتناسب والذوق الروماني، ويكملها بنصوص صفيقة ليسلي بها مشاهديه. وفي ثياب غريبة كان يقدم أحداثاً لا تجري في روما، ولكن من الممكن لها أن تجري فيها، فكانت تبدو لوحات حية مأخوذة من الحياة اليومية. ولكنه في تغييره لمكان الأحداث بهذه الطريقة تجنب كل اعتراض ممكن من السلطات. فهو لم ينتقد «الأخلاق الرومانية» إن هو أظهر كيف كان ينتهي الزناة الإغريق حقاً، أو سخر من عدم استقامة التجار الإغريق. ففسي كل مكان كنا نرى عشاقاً متحابين مختلفون ويتصالحون، ولم يكن العبيد الأكثر حنكة

ودهاء وفطنة من أسيادهم، بنادرين في روما. ولكن أن يقدم عبيد كهؤلاء دروساً لأسيادهم كان أمراً مهيناً ومزعجاً، لا في اليونان بل في روما، إن الكرامة الرومانية المكونة من حب الذات وحصافة الرأي لم تكن لتستاء من أن ترى الإغريق يعيشون حياة فسق وفجور ويتبادلون كلاماً بذيثاً، ذلك ان الرومان أنفسهم كانوا يعيشون حقاً حياة فجور ويتكلمون كلاماً فاحشاً، لقد كانوا يتكلمون ويتصرفون كما كان بلاوتوس يحمل ممثليه على التصرف والكلام. لكن الرومان لا يحبون أن يروا أنفسهم في المرأة التي يقدمها لهم مسليهم، بل كانوا يفضلون أن يتعرفوا من خلالها على جيرانهم. ومع ذلك كان المشاهدون يرون ويسمعون ما لم يعيشوه هم أنفسهم، ولكن كان بمسئطاعهم أن يعيشوه ويرغبوا فيه. وكان ذلك يستحث المخيلة ويجرضها، فكانوا يضربون عصا الترحال، وهم جلوس، إلى بلاد الأحلام وإلى مناطق عرفوها بالسمع والقول. وكانوا يعاشرون، بالخيال، أناساً مثيرين للاهتمام: القوادات، والفتيات الطائشات والسريعات التأثر لا بالمال فقط - مثل نزيلات بيوت الدعارة - بل بالحب أيضاً، والآباء الشريرين الذين يبيعون أبناءهم، والآباء الشرفاء الذين لا يألون جهداً لتأمين سعادة أبنائهم، والعجائز الراغيبين في التكفير عما ارتكبهوه في شبابهم من آثام، والمسنين البخلاء المحزونين لعجزهم عن جلب المال من قلامات أظفارهم ومن عزيز دموعهم. كان الممثلون يعرضون بالكلمة والحركة دقائق الطبيعة الإنسانية بكل تفاصيلها. ولم يكن الممثلون المتكثرون، الذين تنازلوا عن شخصياتهم كلياً ليتلبسوا أدوار شخصيات الملهاة؛ بمنأى عن عيون القانون، فما أن يصير المواطن ممثلاً حتى يفقد حقوقه المدنية، كما أن العرف المتبع يقضي بتأهيل العبيد هذه المهنة الجديدة. وكان يحظر على النساء، حتى المستعبدات منهن، الظهور على المسرح، فالممثلون الرجال هم الذين يقومون بأدوار النساء أيضاً، فكانوا يتخضبون كما النساء، ويعتمرون الشعور المستعارة ويقلدون مشية الجنس اللطيف وسلوكهن. وكان ثمة مزحة شائعة وهي ان الممثل المتكرر في شكل امرأة إذا ما فقد ثدييه، ولم يفلح

مهما بذل في إعادتهما إلى مكانهما، كان يتعرى إلى درجة يبدد فيها كل الشكوك حول رجولته، وكان من المقبول في عداد اللعبة (التمثيل) كل ما كان يثير ضحك الجمهور شريطة ألا تظهر الخلاعة (أو كلام الخنى) وكأنها مدبرة بل أن تجيء صدفة ومن دون قصد، وكان مسموحاً بكل التلميحات الشهوانية شريطة أن تحدث في إطار المسرح (proscenium - مسرح بشكل نصف دائرة، وهو جزء من الأوركسترا حيث يوجد خلفها مكان الحدث - scaena)، وكانت الممارسة الجنسية محظورة على الممثلين.

لم يكن في مسرح بلاوتوس أمكنة يجلس عليها المشاهدون، فكان أولئك الذين لا يرغبون في مشاهدة المسرح وقوفاً يجلبون معهم ما يسهل طيه أو يجلسون القرفصاء. صحيح أن الأمر كان غير مريح، لكن بلاوتوس كان يحرص على ألا يدوم هذا الوضع المزعج طويلاً، ذلك أنه وزع الملاهي اليونانية التي كيفها لتلائم الجمهور الروماني في أحداث أي فصول، مما سمح للجمهور بالتلهي فيما بين الفصول والترويح عن النفس في الأكواخ المجاورة، من دون أن يفقد فضوله في العودة إلى المسرح واحتلال مكانه فيه. وكان بلاوتوس، للحفاظ على اهتمام الجمهور، يعمل على شرح حبكة المسرحية المزمع تمثيلها، أو في الأقل، شرح خطوطها العريضة، بوساطة الناطق بلسان الحال. إنها التوطئة. وهي تتضمن أيضاً توجيه اللائمة إلى الجمهور لسوء مظهره، وحض النسوة المشاهدات على الامتناع عن الثرثرة أثناء العرض، ودعوتهن لترك أطفالهن في البيوت كيلا يعكروا صفو التمثيل بصراخهم. وفي الختام كان المتحدث الرسمي يدعو المشاهدين جميعاً للتصفيق بعبارات غدت لاحقاً أمثالاً سائرة: «numc plaudite omnes»، فإن لم يصفق الجمهور على الرغم من دعوته وحضه، تغير البرنامج، وكان لابد للحاضرين من أن يعربوا عن استحسانهم وسرورهم بجلاء صاحب، وأن يعربوا في الضحك لكي يطفح الصندوق بالمال. وكان بلاوتوس يعلم: «من يضحك يدفع».

كان للمسرحيتين اللتين أخرجهما المزيح ذو القدمين المسحاورين أثير مستديم في الأخلاق الرومانية: أمفيتريون (amphitryon) والمحارب المتعنز (le guerrier fanfaron).

المسرحية الأولى (أمفيتريون) كانت عبارة عن ترجمة معدلة لـ«الليلة الثلاثية»، التي ينجب فيها زيوس، العاشق لألكمين، هرقل. كان زيوس يدعى في روما جوبيتر، ورسول الآلهة هرمس يسمى ميركور. وكان ميركور Mercure يمثل دور المتحدث الرسمي ويقدم التوطئة. إن إله التجار هذا كان يدعو الجمهور الكريم إلى «الإصغاء للمشهد بصمت» وإلى «الحكم عليه بكل إنصاف». كان يستحضر نزوات أبيه وغزوات عشقه. «فها هو الآن عاشق لألكمين خفية عن زوجها أمفيتريون، فظفر بها وغشيها، وها هي الآن تحمل ثمرة صنيعه. واعلموا جيداً: إنها تحمل حملاً مضاعفاً، نصفه جاء من زوجها، ونصفه الآخر من جوبيتر العظيم. إن أبي في البيت إلى جانبها، لذلك فقد امتدت هذه الليلة طويلاً لكي يتلهى بهذه المرأة على هواه، ولكنه تظاهر بكونه أمفيتريون...» ولكي يدرك الجمهور الموقف ويفهمه، كان ميركور يوضح: «..... الآن شفى أبي غلته هناك، إنه بين أحضان تلك التي يصبو إليها ويتوق.» وتختتم التوطئة بالكلمات التالية: «... انتبهوا! شاهدوا كيف يقوم جوبيتر وميركور بالتمثيل، إن ذلك يستحق العناء.» كان جوبيتر الجليل الحصين، «روح العالم» يظهر على المسرح تحت شكل إنساني بوساطة ممثل، وقد غير هذا الابتكار مفاهيم الرومان الميتولوجية. ذلك ان المسرح قد ساعد على استقدام آلهة اليونان إلى معابد روما دون أن يطرأ على الشعائر الدينية أي تعديل. وعليه فإن الرومان لم يتورعوا قط عن ارتكاب الزنا والفجور مع النساء والغلماء مادام هذا الجليل (جوبيتر) مثلاً.

وهكذا فإن مغامرات الأولمب الشهوانية لم تقدم مواضيع للمسرح فحسب، بل قدمت شكلاً من أشكال الميتولوجيا الجديدة أيضاً.

وقد أضفى الكهنة الرومان على آلهتهم تقلب آلهة الإغريق وشهوانيتهم. وراحت فيلوس تقرب أكثر فأكثر من أفروديت، واستساغت نساء روما هذا التحول وقدرته حق قدره، وباتت كل خلاعة، من الآن فصاعداً، جائزة ومسموح بها.

أما ملهاة «miles gloriosus» التي كان بطلها ضابطاً، فإنها تقدم شخصيات مماثلة لتلك الشخصيات المألوفة لدى الرومان، والتي كانت تزحم باطراد الشوارع والمقاهي؛ منهم أولئك الضباط الذين عادوا بعد انتهاء الحملات الحربية ضد قرطاجة واليونان. وفيها (الملهاة) بدا قصد بلاوتوس واضحاً منذ بداية التوطئة التي يتعرض خلالها أحد العبيد إلى وصف طباع سيده. كان بلاوتوس يرغب في السخرية من المتعترين المتبحرين الذين يطبعون روما بطابعهم، وكان يود كشف القناع عنهم وتعريتهم على الملأ، ومن الطبيعي أنه لا يستطيع أن يجعل من روما مكاناً للحدث، فأحل محلها اليونان، مع أن الرجل الذي يصوره العبد كان وجهاً مألوفاً ويعرفه الرومان جيداً. «إن الضابط، سيدي، الذي جاء لتوه من السوق، ليس إلا مجرد مغرور صفيق، قوي وجريء، لا يتراجع أمام الحث والزنى. يزعم أن النساء يهرولن وراءه، ولكن النساء، أينما حل، يهربن مبتعدات عنه ساخرات. وحدثن العاهرات يقدمن له شفاهن».

الضابط الفشار خادع ومخدوع ومغشوش... وهكذا فإن الشاعر يدعو المشاهدين والمشاهدات كيلا ينخدعوا بدورهم. يمثل هؤلاء الضباط والجنود المتغطرفين. فليس كل من قاتل في سبيل روما يبطل، وليس جميع أولئك الذين يسيرون خلف القادة الظافرين المحمولين على الأكتاف وصولاً إلى معبد جوبيتر، بمستحقين آيات التبجيل هذه. إن جلهم متحنون للفرص ومستغلون، وجناب رعيديون ينسبون إلى أنفسهم مآثر لم ينجزوها، إنهم خيلاء همهم الوحيد تحصيل أكبر المغام، وملء بطونهم، والتغريير بالنساء الساذجات السريعات التصديق.

لم يستأ الرومان من هذا الساحر ومن مزاجه الثقيل: إن للجمهور الحرية في أن يأخذ اللعبة (التمثيل) على محمل الجد، أو أن يقبلها بابتسامة مشجعة ومتواظفة، لم تزود العامة الفيالق قط بما كانت تحتاجه من جنود وعتاد، بل كان أفرادها يتهبون من الخدمة العسكرية، كل حسب مقدرته. وكانت أصواتهم في المجلس الشعبي حاسمة على الدوام لولا إمكانية شرائهم.

كان كل شيء في روما قابلاً للشراء، وإن الرغبة في اقتسام رغد العيش والرفاه العام، أو على الأقل تذوق فضلات موائد الأثرياء، قد ساعد في تحول العادات والتقاليد. ترى إلى أي حد وإلى أي مستوى بلغت البجوحة العامة؟ إن الوثائق لا تبين عن شيء، لكن ما تحتفظ به من نبذ القصص تصف لنا رخاء الأغنياء المتعاطم وترفهم، وعلى الخصوص فيما يتعلق بتجهيزات سكناهم. كانت المفروشات مصنوعة من الأخشاب النادرة ومزينة بترصيعات من العاج أو الفضة أو الذهب، والسجاد المجلوب من بابل يغطي البلاط، وأغطية الأسرة من أرق الأقمشة المصرية وأنعمها، وعلى الموائد المزينة بالعاج تصطف ألد الأطعمة المشتراة من التجار بأعلى الأسعار... ذلك ان المراكب كانت تجوب أبعد البحار لتجلب للزبائن الرومان أغرب الأطياب الأجنبية.. وبلغت حفلات الشرب والإفراط في الأكل والشرب حد دفع مجلس الشيوخ واضطره إلى استصدار قوانين ضد التبذير والإسراف في الملابس والمآكل. إلا أن هذه المحاولات المكرسة لكبح الإسراف الذي يزداد فحشاً آلت إلى الفشل، ذلك لأن الأشراف قد انضموا إلى الفرسان والمواطنين الذين كانوا يطالبون باقتسام المسرات. وأقفلت الدائرة من جديد: في الماضي كان الفرسان (مواطنو الدرجة الثانية في روما - المترجم) هم الذين يقلدون أسلوب حياة الأشراف، أما الآن فإن الأشراف هم الذين يقلدون الفرسان.

وتصامم الشيوخ عن مواعظ كاتو الذي كان يحرض عبثاً عقولهم الخموله ويصرخ في أرجاء المجلس: «من الصعب التوجه بالكلام إلى بطن لا آذان له».

منذ ان اتهم كاتو أحد المواطنين الرومان البارزين بالتهتك وسوء الأدب لأنه قبل شفتي زوجته على الملأ، ومنذ أن أخذ على عاتقه ألا ينخرط في علاقاته الزوجية (مع زوجته) إلا أثناء العواصف والزوابع، امتنع الناس عن أخذ هذا الرقيب على الأخلاق على محمل الجد. وعلى العكس من ذلك فإن الإثباتات السياسية لقيت آذاناً صاغية: لا بد من تدمير قرطاجة التي استعادت ثراءها في العقود التي تلت هزيمة هانيبال. وبعد حصار بري وبحري دام ثلاث سنوات، وعلى الرغم من مقاومة القرطاجيين البطولية، هزمت المدينة وأحرقت. أما الأراضي المحيطة بها فقد دكت بالمحاريث وأشبعت بالملح لتبقى جدياً قاحلة إلى آخر الزمان. أما داخل البلاد، حيث طورت قرطاجة الزراعة، فكانت مثلاً، فقد آلت إلى أصحاب أكبر العروض من الأثرياء الرومان المضارين، كما آلت إليهم تجارتها.

أثرت الحرب البونية الثالثة هذه روما إلى حد كبير، لقد كانت الأراضي القرطاجية قائمة على الإقليم الإفريقي. وفي السنة نفسها، وجه الشيوخ أسطولهم وعساكرهم لمحاربة اليونان، ووضعوا حداً للموضع المضطرب الذي ما برح قابلاً للانفجار على الرغم من إخضاع مقدونية، واعتبرت مدينة كورنث مصدراً للاضطرابات والقلق، فدمرها الرومان عن بكرة أبيها، وانتقلت جميع كنوزها الفنية إلى روما وتحول مواطنوها إلى عبيد. واقتنت بيوت الدعارة الرومانية الألوفاة المؤلفة من الهيتاير (المومسات) اللواتي كن مندورات لعبادة أفروديت في معابدها، واللاتي جعلن من المدينة مركزاً من مراكز الحب الذائعة الصيت. وازداد الطلب عليهن، وكان لا بد لمدراء المواخير من أن يلبوا حاجات زبائنهم.

أعلن بوليب راضياً (وهو مؤرخ إغريقي سلم إلى روما بوصفه رهينة ثم صار رومانياً): «أن تغزو العالم وتستولي عليه شيء، وأن تسيطر عليه على الدوام وتحافظ عليه باطمئنان وسلام شيء آخر». وهذا يعني أن على الرومان، من الآن فصاعداً، أن يحموا حدودهم التي تزداد اتساعاً، وأن يتصدوا لغارات البرابرة القادمة من الشمال والغرب، وأن يرسخوا على الخصوص النظام الداخلي ويصونوه.

إن استيراد العبيد إلى روما وشبه الجزيرة بلغ حداً من الاتساع والتوسع حتى كادت تكون جميع الأعمال منفذة بأيدي مستعبدة، وكانت العزبات التي يزرعها العبيد في الأقاليم المستولى عليها تقدم الحبوب؛ وكانت أملاك الأشراف الشاسعة على الأرض الإيطالية توفر الماشية للأسواق. كما أن ورشات العمل والمشاريع التجارية في المدن كان يديرها الكثير من العبيد والقليل من الأحرار، حتى إن الأشغال العامة كافة كان العبيد هم الذين ينجزونها. إن الألوف المؤلفة من الرجال الأحرار، الذين منحوا المواطنة الرومانية لقتالهم في الفيالق الرومانية إبان حروب ظافرة، وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل، فراحوا يتوافدون إلى روما لتزداد فيها أعداد العامة العاطلة عن العمل وهي لا تملك إلا حق التصويت للمجلس الشعبي فتبيع أصواتها لتأمين أسباب عيشها.

كان العبيد من الجنسين العاملين في بيوت الرومان الأثرياء يطعمون بشكل أفضل، ويعيشون حياة رحية لم تتوفر للأغلبية العظمى من العامة. صحيح أنهم كانوا خاضعين لأهواء ساداتهم من الرجال والنساء ومن دون حماية، بيد أن المعاشرة اليومية وفرت لهم فرصة المطالبة بإعتاقهم والحصول على ذلك بعد وفاة مالِكهم في أغلب الأحيان وذلك بإجراء إيصائي مكافأة لهم على خدماتهم وإخلاصهم، وكانوا يأملون لأولادهم، المولودين من زيجات عقدوها فيما بينهم وتغاضى عنها ساداتهم، مستقبلاً أفضل. وفي مقابل ذلك كان العبيد المستخدمين في العربات والمناجم يخضعون لتعسف الرقباء اللامحدود. لقد كانوا (الرقباء) يستحثون حميتهم على العمل بلسعات السياط، وينقصون طعامهم فلا يقدمون لهم إلا مما لا غنى عنه. وكانوا يعزلون النساء عن الرجال ليلاً ليضطروهم للتزواج في أوقات مناسبة تتم تحت رقابة مكلفين لا يعرفون الرحمة، وهكذا يكون البديل (العبد) مضموناً. إن اختيار الشركاء من الجنسين في هذا الإخصاب الإلزامي كان يتم وفق معايير «المرين» الذين كانوا ينتقون ما يوكل إليهم من عبيد عن علم ودراية، فيتصرفون بهم كما كانوا يتصرفون مع الأبقار والثيران أو

مع الأفراس والفحول من الخيول. إن كل عصيان أو حتى مقاومة في هذا الشأن، وكل مظهر من مظاهر الإيثار كان يعد خروجاً عن الطاعة، وعقوبة ذلك كانت شديدة القسوة، لكن الحكم بالموت ظل نادراً، لأن لكل عبد قيمة تجارية، والرقباء مسؤولون أمام موكلهم ومن واجبه العمل على زيادة ملكياتهم. وغالباً ما كان العبيد يلجؤون وبإطراد، بعد أن يشعروا من هذه الحياة التي لا يمكن تحملها، إلى الدفاع المشروع، فقتلوا عدداً من الرقباء المتوحشين، وشكل الآبقون عصابات مسلحة تحوم حول الأرياف والمدن فتقتل وتنهب، مما دعا سلطات المدن إلى قمع الثورات المحلية بالقتل والذبح. ولكن عندما بلغ عدد التمرددين في صقلية وحدها سبعين ألفاً من العبيد، كان لابد من توجيه الفيالق لإخماد الثورة، فأعدوا المراقبين إلى أعمالهم، وقتلوا رؤساء الحركة ومدبريها.

جزع سكان روما من ثورات العبيد هذه، وراحوا يتناقلون أخبارها بلا انقطاع. ودبت الحمية، جراء ذلك، بأحد الشبان الأرستقراطيين، لا من أجل أن ينافح عن قضية العبيد، بل التماساً لإنسانية روما ليحيي من خلالها طبقة الفلاحين وحقوقهم، ويوفر الوظائف للمواطنين الرومان.

كانت أم الشاب تيريوس سيمبوريوس غراكوس (جراكوس) هذا هي كورنيليا ابنة العجوز سيبو الذي لقب، جراء انتصاراته في الحرب البونية الثانية، بالإفريقي الأجدد، وشبت كورنيليا وترعرعت في دارة آل كورنيليوس حيث يسود الميل إلى الفكر اليوناني؛ وترملت في زهرة شبابها، وصنعت من أبنائها رجال فكر متحرر نذرتهم لخدمة الوطن. ويروي بلوتارك أن ملك مصر أراد أن يتزوجها، ولكن كورنيليا أبت إلا أن تعمل للجمهورية، فرفضت التاج الذي قدم لها، وأرادت أن تنهج نهجاً جديداً، بوصفها رومانية ومن أرومة عريقة، ولكنها لا تستطيع أن تقوم بذلك إلا من خلال بنيتها لأنها امرأة. وانتخب تيريوس سيمبوريوس غراكوس تريبوناً (زعيم شعبي ومحام مدافع عنهم) من قبل مجلس الشعب ليكون قادراً على طرح القانون الزراعي القديم على المجلس.

موضع التنفيذ. وعليه يجب أن تعود الأراضي التي تحتلها العزبات إلى الدولة لتعطى بإيجار حكري (حكر طويل الأمد وبأجرة سنوية ثابتة) إلى مواطنين الرومان، وإن الخطاب الذي ألقاه تيريوس، دفاعاً عن القانون المشروع، يقدم لنا لوحة عن الأخلاق والطباع التي تنير لنا حال ذلك الزمان: «إن لحيوانات الأرض جحورها ولطير الهواء أو كارهها ومخابئها، أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فلا يستمتعون فيها إلا بالضوء والهواء. إن قواد الجيش ينادون جنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن قبور آبائهم وأضرحتهم، ولكن نداءهم هذا سخيف باطل، إذ ليس في وسعك أن تدلهم على مذبح لآبائهم يقربون فيه لآلتهم، وليس للفقراء مقابر لأسلافهم. إنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة والترف، ويقال لكم: إنكم سادة العالم، ولكنكم لا تجتهدون في هذا العالم موضعاً لقدم، في وسعكم أن تقولوا إنه ملك لكم» واغتيل من كان يتحدث على هذا المنوال بيد أحد المشايخين للملكي العزبات. فأخذ أخوه كايوس سمبوريوس غراكوس على نفسه أن يستمر في النضال دفاعاً عن العامة، وفاز بقانون الحبوب «*lex frumentaria*» فأمن لكل عائلة رومانية حصة شهرية تعادل ثلاثة أثمان القنطار (١٠٠ كغ) تقريباً، وبسعر أقل من السعر الجاري بمرتين. ولكنه قلل من مقدار مجلس الشيوخ ومن سلطانه وببالغ في تقدير وطنية منتخبيه الرومان الذين لم يقدرُوا قط رغبته في أن يمنح جميع رجال اللاتيوم الأحرار المواطنة الكاملة، وإلى البقية الباقية من رجال شبه الجزيرة الأحرار مواطنة منقوصة، والعامة التي كانت ترفض رفضاً باتاً أن ترى تناقص قيمة أصواتها الانتخابية لن تنتخب كايوس أبداً، فلما عاد من قرطاجنة وجد دروسس قد كسب قلوب الشعب، وبنازعه الزعامة عند كل خطوة يخطوها. وشرح كايوس نفسه لاختياره ترييوناً مرة ثالثة ولكنه أخفق، وقال أصدقاؤه إنه انتخب ولكن أصوات الناخبين قد تناولها الغش والتزوير، غير أنه نصح أتباعه بألا يلجؤوا إلى وسائل العنف، واعتزل السياسة وفضل عليها الحياة الخاصة. أشار

مجلس الشيوخ في العام الثاني أن تجلو روما عن المستعمرة المنشأة في قرطاجنة، وفسرت الأحزاب جميعها هذا الاقتراح - سراً أو جهراً - بأنه مقدمة لحرب يشنها المجلس على قوانين غراكس لإلغائها.. وجاء بعض أنصار غراكس إلى الجمعية مسلحين، وقتل أحدهم، رجلاً من المحافظين همّ بالقبض على كايوس. فما كان من أعضاء المجلس إلا أن خرجوا في اليوم التالي وهم على استعداد تام للقتال، ومع كل منهم عبدان مسلحان، وهاجموا أنصار غراكس المتحصنين فوق تل الأفتين، وبذل كايوس قصارى جهده لتسكين الفتنة، فلما عجز عن ذلك ولى هارباً وعبر التير، ولما لحق به أعداؤه أمر خادمه أن يقتله، وصدع الخادم بالأمر ثم قتل نفسه. وقطع أحد أصدقاء كايوس رأس صديقه، وحشاها بالرصاص المصهور، وحملها إلى مجلس الشيوخ، وكان المجلس قد أعلن أنه سيكافئ من يأتيه بهذا الرأس بما يساوي وزنه ذهباً، ولما أقيت جثته وجثت أتباعه في نهر التير لم يحتج على هذا العمل غوغاء المدينة الذين كان يعمل لخيرهم، ذلك ان هؤلاء الغوغاء كانوا وقتئذ في شغل عن هذا الاحتجاج بنهب بيته، وقد أعلن مجلس الشيوخ عن إدانة كايوس وتجريمه بوصفه خارجاً على القانون، وحرّم على كورنيليا الأم أن ترتدي ثياب الحداد حزناً على ولدها. كان الحظر يخالف العادات المتبعة، ولكن كان لابد للنساء، وقد خيّر هذه الأمثلة المروعة، من أن يحترسن ويمتنعن عن حشر أنوفهن في شؤون الدولة مستقبلاً، فلقد خلقن للحب.

احتفى مجلس الشيوخ بنهاية آل غراكس بمظاهر النصر. وبدا ثراء أصحاب العزبات راسخاً ومؤكداً، فراحوا يستخدمون الفائص من أموالهم لتجميل المدينة وتزيين قصورهم. وحلت الألواح الرخامية محل الجدران القرميذية، وزينت الجدران زخارف من الذهب والفضة والأقمشة الثمينة المحلوبة من أقاليم آسيا الجديدة، وتخلّى كثير من الأشراف ممن ظلوا يعيشون حياة متواضعة عن اعتدالهم وتحفظهم، وراحوا هم أيضاً يولمّون الولائم الفاخرة وينفقون المبالغ الطائلة، ليقدموا للشعب المآذب ويعرضوا له ما يسليه من الألعاب البهلوانية،

فاقتربوا بذلك من طبقة الفرسان متأثرين باعتبارات سياسية. فلم يكن للفرسان أن يرتقوا بأذواقهم ويسموا بها في يوم من الأيام، بل كان للأشراف، على العكس من ذلك، أن ينجروا وراء العادات الوضيعة، فمن كان مفرطاً في إسرافه، وشارك في بذخه حلقات يزداد أفرادها بإطراد صار نفوذه أوسع، وكلما ازداد النفوذ ازدادت الأموال. كانت الحياة السياسية والاجتماعية في روما تدور دائرتها في هذا المحيط الفاسد، باستثناء المطلعين النابهين الذين كانوا يرون بقلق وتوجس صورة مستقبل روما. فإلى متى سيكتفي الشعب بالصدقات ويرضى بها؟ كتب أحد المعاصرين: «قدر فقراء الامبراطورية الذي لا يحول ولا يزول..» كانت الحرب الأهلية تندر بالإندلاع وكأنها أمر واقع لا محالة، في حين كانت الفيالق تحارب الغاليين في وادي نهر الرون لتؤمن لرجال المال استثماراتهم للغابات الخصبة، وللكتلين في إيليريا أن يهبوا رجال المال هؤلاء الوفرة الوفيرة مما تجود به مناطق السافا والدرافا من الملح والحديد.

نمى إلى روما أسماء شعوب جديدة وغريبة: السيميريون والتويتون، وهم من «البرابرة» الذين كانوا يصلون ويجولون في شرق الامبراطورية وغربها وعلى طول حدودها الشمالية، ويهزمون في جولاتهم وغاراتهم الفيالق الرومانية. فمن هم هؤلاء الرجال الوافدون من المجهول، ومن مناطق غير مرتادة، فيبيدون جيوشاً منكرة ومكابدة؟... دب الذعر في قلوب الناس من هؤلاء المتوحشين ومن نسائهم أيضاً. «وكان يصحب نساءهم اللائي يتبعنهم للقتال كاهنات بصيرات يرحمن بالغيب، وكان هؤلاء الكاهنات شعور رمادية وملابس بيضاء وجلابيب من قماش تثبت على الأكتاف بمشابك، ويتمنطقن بسيور من البرونز، ويمشين حافيات الأقدام.. وفي خلال المعارك كانت نساء السيميريين يقرعن جلوداً مشدودة على تروس من خيزران العربات فترسل ضجيجاً مخيفاً ومروعاً...» أما التويتون الذين كانوا يتقدمونهم في وادي نهر الرون فقد كانوا أشد هولاً. وإليكم ما قاله عنهم بلوتارك: «وكان كل من

حاول مجابتههم فريسة سائغة لهم، إن العديد من الجيوش الرومانية ومن قادة روما ممن ذهبوا للدفاع عن الأراضي الغالية فيما وراء الألب قد اندحروا ولحق بهم العار. وما ان هزموا من الجيوش ما هزموا، وكسبوا من الغنائم ما كسبوا حتى عزموا على ألا يستقروا في مكان محدد أياً كان هذا المكان، ولذلك فإنهم لم يدمروا روما ولم يخرّبوا إيطاليا».

كانت روما مهددة. وكانت المدينة ترتعد في كل مرة ينمو إليها خبر ينذر بالخطر. فتوزع السكان في فريقين: فريق الأوبتيمات ويشكلون قسماً من النخبة المختارة، ويعارضون من حيث المبدأ كل محاولة للإصلاح لم تصدر عن مجلس الشيوخ؛ وفريق البوبولار الذين كانوا يطعنون بامتيازات الولادة غير المشروطة ويطالبون بنصيب أوسع من الصلاحيات في مجلس الشعب، وتوزيع الأراضي على الفقراء والمحاربين القدماء. وكان المعسكران يتنازعان على السلطة بكل الوسائل المتخيلة، فعجل هذا الصراع في انحلال الأخلاق. وكان كل حزب يستخدم ماله من وسائل فاعلة ومؤثرة لشراء أصوات العامة، كما ان مبادئ العقيدة السياسية والاستقامة البشرية قد تدنت، فلا اعتبار إلا للمال، ولما لهذا المال من قدرة على الشراء. إن الاتجار بالسياسة بلغ من الحجم حداً أدى إلى إحداث وظائف جديدة مدرة جداً متخصصة في الدعاية الانتخابية وشراء أصوات الناخبين. إن ذلك الذي يرى الناخبين فرادى وكيس نقوده بيده. ويسخو بدراهمه ويوزعها عليهم، هو وحده القادر على أن يأمل بالحصول على المنصب الذي يتطلع إليه، أما ذلك الذي لا يجب أن يلعب بنفسه بدراهمه الرنانة فقد كان يكلف خبيراً بالانتخابات. وكان الأشراف والفرسان يستدعون هؤلاء الخبراء ليدفعوا لهم مقدماً لانتخاب المرشح الذي يدعمونه.

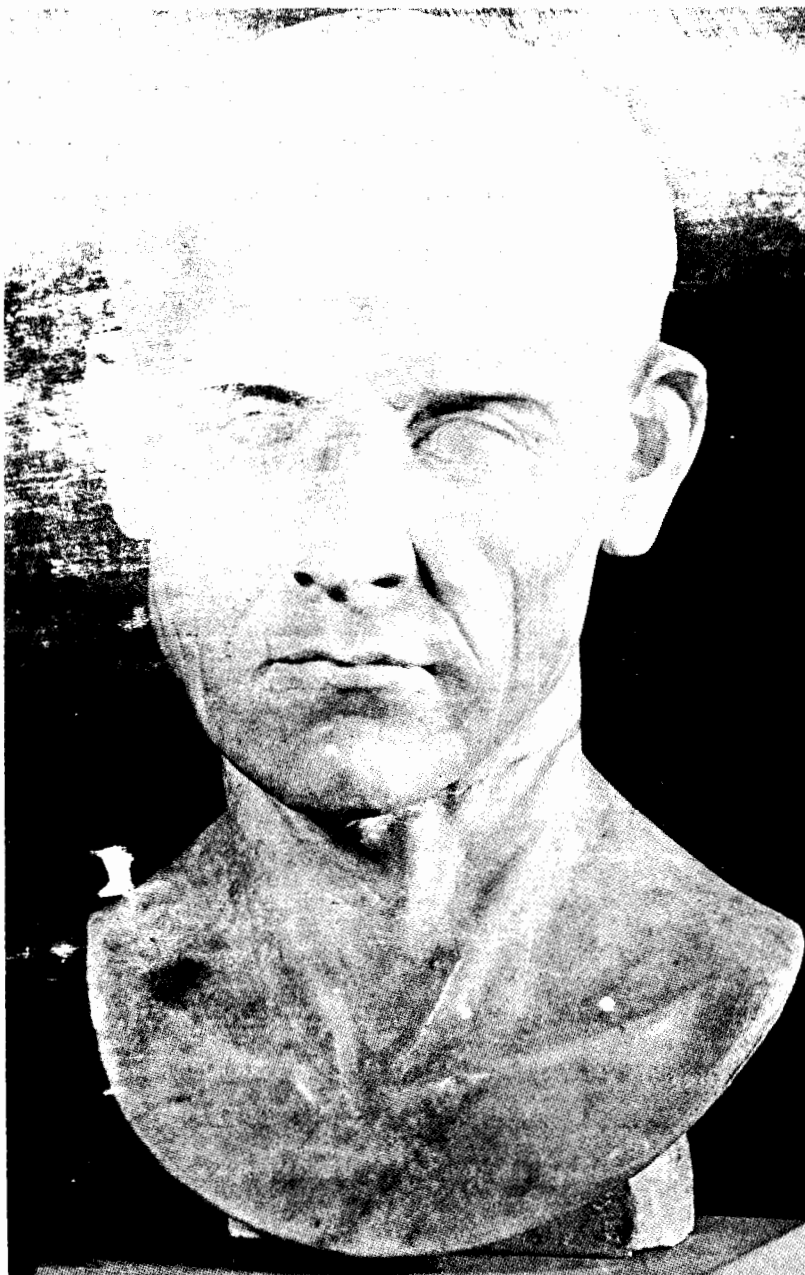
إن الروايات المتوفرة لدينا لا تشير إلا بطرف خفي إلى تفشي الفساد في جميع الأوساط، وتبعات هذه الدسائس وعواقبها الأخلاقية على عقول الجماهير. نحن نعلم ان المقاهي وبيوت الدعارة قد ازداد عددها، وان ألعاب السيرك والحلبة

قد اغتنت بضروب متعددة من الألعاب الجديدة. ولكن جميع علاقات الحرب التي سبقت ارتقاء قيصر، على الرغم من شموليتها، لم تتضمن إلا القليل من الإشارات حول حياة العامة. بيد أننا نعرف ان العامة كانت ضحية المغامرات السياسية والعسكرية التي توجه مصائرهما، وتعد وسيلة، إضافة إلى العادات المأخوذ بها، لإرضاء أطماع الساسة والعسكريين الجارفة. وهاهو كايوس ماريوس، ابن أحد الفلاحين الذين يدينون للبوبيلار بارتقائهم الاجتماعي، قد اشتهر بتميزه في رئاسة الفيالق وإدارة الحروب. وقد لقبه جنوده بعد انتصاراته المظفرة على السيميريين والتيتوتون بالأمراطور «imperator» ولكنه لم يكن من أولئك الذين يحترفون السياسة، مما اضطره إلى تسليم زمام السلطة إلى رجل من النخبة المختارة «optimates» وهو لوكيوس كورنيليوس صيلا، الذي كان يحمل اللقب فيليكس «felix» (السعيد)، ولم يأت هذا اللقب لنجاحاته فحسب، بل لأنه كان يعرف كيف يتمتع بالحياة أيضاً، وقد أحاد ساللوسته في وصفه وتعريفه: «كان يعيش عيشة البذخ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته، إذا استثنينا من ذلك التعميم أنه كان في وسعه أن يجعل سلوكه مع زوجته أشرف مما كان» كان صيلا رجلاً فذاً في منشئه، وأخلاقه، ومصيره، فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف، كما أصبح ابنا غراكس ودروسس وقيصر وهم من الأشراف زعماء الطبقة الفقيرة. وتأر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً، وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه في تلبية شهواته، فأطلق لها العنان ولم يتقيد فيها بعرف، ولم يؤنبه على إسرافه فيها ضمير. وكان دميم الخلق له عينان زرقاوان براقتان في وجه أبيض تلتطخه بقع شديدة الحمرة - كأنه توت منشور عليه دقيق - لكن هذه الملامح كانت تخفي وراءها تعليماً راقياً، كان يتقن الآداب اليونانية والرومانية، وكان مولعاً بجمع روائع الفن دقيقاً في اختيارها... وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً. وصديقاً كريماً، يدمن الخمر، ويشتهي النساء، ويولع بالحرب، ويطرب للغناء، وسلك الرجل طريقه إلى المجد سلوكاً سريعاً، وخاصة في الجيش وسيلته الموقفة إلى

أغراضه. «كان همه الوحيد ألا يسمح لكائن من كان أن يفوقه في حكمته وشجاعته». ولم يكن يؤمن بآلهة الرومان، ولكنه يؤمن بالخرافات، ومما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب، وإن الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد. تزوج صيلا خمس مرات وطلق مرات أربع. واتهم باستسلامه لنزوات زوجته الأولى التي كانت تحلو في عينيه. ولم يكن ليتورع عن انتهاك حرمة أية امرأة، حتى لو كانت زوجة لصديق أو لعدو. واستغل إلى أقصى الحدود ودونما رادع وضعه كطاغية كان قد دفع مجلس الشيوخ للإقرار بها. فحكم بالموت على أعدائه السياسيين من الفرسان والشيوخ، وزين الفوروم (الساحة العامة) برؤوسهم.

وقد ترك لنا بلوتارك وصفاً للذعر والهلع اللذين سادا عهده: «... وكان الأزواج يذبحون بين أحضان زوجاتهم، والأبناء في حجور أمهاتهم...» وباختصار فقد استمتع صيلا السعيد بكل لذة، واستحوذ على كل سلطة، وعاش عيشة لا يساوره فيها حزن ولا ندم، واستكمل متعته بالحظايا، ولما يبلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بجراج في القولون بلغ من شدته «إن اللحم النتن استحال دوداً، وبلغ من الكثرة حداً كان لا بد معه من استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله، ولكن الدود أخذ يزداد ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه وحماماته وأنيته فحسب، بل تلوث به أيضاً طعامه معه» على حد قول بلوتارك، ومات صيلا على أثر نزيف في الأمعاء، ولم يكذ يقضي في عزله عاماً واحداً، ولم يفته أن يملي قبريته قبل وفاته: «لم يخدمني صديق قط، ولم يسئ إلي عدو أبداً، إلا جزيت الأول على خدمته والثاني على إساءته الجزاء الأوفى».

واستولى على السلطة بعد نزاع حاد إثنان من الأثريين عند صيلا: كينوس بومبيوس (pompée) وماركوس ليكيوس كراسوس. وكان الرجلان على طرفي نقيض. كان بومبي، وهو ابن أحد الفرسان، من عائلة واسعة الثراء، لكنه لم يكن ممن يخفلون بالمال، وقد بز أقرانه، وهو قائد تحت إمرة صيلا، وذاع صيته ولما يبلغ الثلاثين عاماً بعد، وراح يعمل للحفاظ على مكانته هذه.

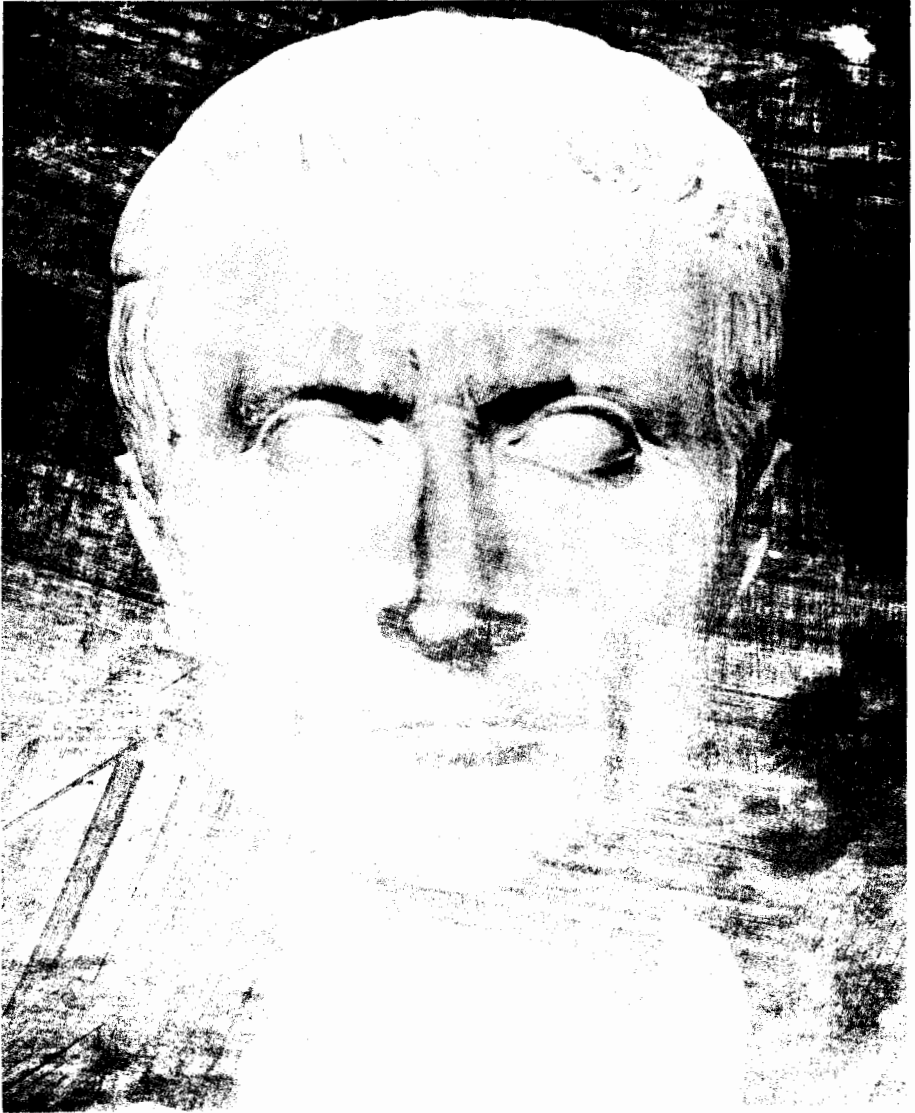


تمثال نصفي لصيلا، البندقية

أما كراسوس فقد كان من أوسع أثرياء الرومان ثراء. وهو لم يحصل على هذه الثروة بالوراثة، بل كان يدين بها إلى صيلا وإلى مبادراته الخاصة. في البداية سهل له صيلا امتلاك مناجم من أملاك الدولة بأسعار زهيدة، وساعده على شراء عزبات موضوعة تحت الحراسة القضائية، وتعود إلى المحكوم عليهم بالإعدام، بأسعار بخسة، وجملة القول إن كراسوس جمع أمواله من رئيسه دون غيره وبطريقة لم يسبق لها مثيل. فقد استحدث في روما فرقة للدفاع ضد أخطار الحريق: فما ان يشب الحريق حتى يهرع عبيده إلى مكان الكارثة ليعرضوا على أصحاب البيوت التي تلتهمها النيران شراءها بأسعار أدنى كثيراً من قيمتها، فإن وافق أصحابها على بيعها، أطفأ العبيد الحريق، وإن أبوا تركوا البيوت طعمة للنيران ليشتريها كراسوس أرضاً خراباً، فغدا جراء ذلك مالكا للمئات من البيوت التي كان يؤجرها.

اشتهر كراسوس بين صحبه بوصفه الرجل النبيل، فهم لم يأخذوا عليه قسوته، ولم يحملوا عليه لوحشيته، ذلك لأن احتقار الحياة الإنسانية كان أمراً عاماً وشاملاً، حتى إن أحداً لم تتحرك مشاعره عندما أخذ كراسوس ثورة العبيد التي قادها سبارتاكوس بأن قذف لمجابهتهم أربعين ألفاً من الجنود، فقتل ما قتل، وصلب على درب «appienne» آيين ستة آلاف من العبيد الأسرى، تاركاً جثتهم لشهور عدة نهباً للنتن والتفسخ على مرأى من الناس جميعاً، ليثني العبيد عن كل شكل من أشكال التمرد ودونما عودة.

كان كراسوس شديد الولع بالسلطة كولعه بالثراء، وكان يروق له أن يقرض المال إلى الساسة ورجال الدولة ممن يود شراءهم، ولم يكن يطالب بفوائد عليها، ولكنه كان يحتفظ لنفسه بحق الإعلان عن القروض وكشفها ساعة يشاء. وهكذا استطاع أن يحكم سيطرته عليهم، ناهيك أن كايوس يوليوس قيصر كان واحداً من مديونيّه.



رأس رجل (قرن ١٠٠ و ١١٠ م) (٤٤٤ م)

لم يكن المنافس لوكيوس ليكيونيوس لوكولوس، وهو من أثرى الأثرياء، ومن الطامحين إلى مراتب الشرف مثل بومبي، ولا من المتعطشين إلى السلطة مثل كراسوس. لم يطمح لوكولوس إلى منصب أياً كان هذا المنصب، ولا إلى مقام رفيع. عندما ساق جنوده، وهو قنصل، إلى النصر في حرب له في آسيا الصغرى كانت مثمرة وظاهرة، فهو لم يثته إلا شيئاً واحداً: أن يعيش حياته متمتعاً بها قدر المستطاع. فبنى لنفسه قصرًا فاخرًا في روما، ومقرات إقامة صيفية ممتعة، حتى إن الحدائق التي أمر بتصميمها ورسمها، ليتنزه بين أشجارها ويستفيء ظلها وينتسم عير أرهاها على امتداد فصول السنة كلها، غدت نماذج سار من مواها الرومان الأشراف في جميع الحدائق التي تحف بقصورهم. كما أن اللوائم التي كان يقدمها لوكولوس قد بلغت من الشهرة حدًا جعلت من اسمه رمزاً لنهم، فبلغ أعلى درجة من درجات التفنن بالطعام. كان يقدم لضيوفه مأكلاً المختارة الفاخرة، ويحرص على أن تنسجم زينة المكان تمام الإنسجام مع هذه المنذات، كما كان يولم لضيوفه في قاعات يختلف إعدادها باختلاف درجات الوجبات. وكان يتهلل فرحاً عندما يدهش ضيوفه بطعام لم يسبق لهم أن رأوه أو يتوقد، وإذا ما قدم لهم طيوراً مغردة، مشوية أو مطهية على البخار، تألفت أوركسترا المائدة مما يشبهها، فتطرب أسمع الضيوف وتشنف آذانهم بمقطع موسيقي سريع يردد تغريدها. وكان المنشدون الموسيقيون يرفهون عن الضيوف بطرق مختلفة. وكان يجلو للوكولوس أن يهب مضيفه عبداً من الجنسين طاب لهم إنشاؤهم وغناؤهم، وقد أبى أن يستأثر لنفسه بما تجود به الحياة من متع، فرغب في أن يهب الآخرين بعض ما عنده، ويعلمهم طيب العيش، فلم يرفه عن ضيوفه بصراع المجالدين حسب ما كانت تقتضيه العادة غالباً في روما، بل كان، وهو المرید لأبيقور، يعمت إراقة الدماء، ويأبى استحضر الموت وهو على علم بأن الموت سيدركه ذات يوم من دون دعوة. ولم تشهد قصوره ولا داراته (villas) قط قصفاً أو عربدة، فلم يكن ضيوفه أثناء اللوائم ينظفون

أيديهم البليلة والمتسخة بالطعام يشعور الخدم المعطرة الذين كانوا يتسارعون حولهم وهم عرايا. فتلك كانت عادة الأغنياء من حديثي النعمة. كان لوكولوس يكره أن يعكر صفو مسرات قصره فجور جنسي مثل ما كان شائعاً في روما. فما كان لكل ضروب الصفاقة أو السوقية أن تروق لنبي مباحج الحياة الخالصة هذا.

كان الأشراف والفرسان المتزاحمون على مسرات العيش والساعون إلى بزّ أقرانهم، يتنافسون في امتلاك التحف النادرة وجلب الأطعمة الفاخرة، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار. فكانت العائدات الضخمة المتوارثة لا تكفي البتة لتغطية نفقات أهل البيت الفاحشة والمتزايدة على الدوام. لقد كان على من يرغب في الظهور وفي الانتساب إلى حلقات السادة أو تلك التي تطمح إليها، أن يلجأ إلى موارد تعود عليه بثروات طائلة. وكان من الجائز له أن يستدين عليه يستطيع الحصول على منصب في إدارة أحد الأقاليم، وذلك لأن صفة الوالي أو الوالي المفوض في أحد الأقاليم المستولى عليها أو تلك التي سيتم الاستيلاء عليها، تضمن لصاحبها موارد ضخمة. وكان بمقدور من يشغل مهمة اختيار جباة الضرائب الجدد أو تجديد العقود القديمة أن يضمن لنفسه نصيباً كبيراً من العائدات.

وكان ما يدفعه المستكرون في انتقال الأملاك الريفية أو المناجم وراثياً، يزيد كثيراً على الإيجار التعاقدية الزهيد. إن تجارة ما جاء به الجند من عبيد بالدم والعرق كانت مدرة للربح إلى حد دفع كبار الموظفين إلى إحاطة أنفسهم على الدوام بمجموعة من الخبراء القادرين على فحص البضاعة البشرية وتقدير قيمتها. فكانت أسعار العبيد من الجنسين ممن وهبوا مزايا خاصة مرتفعة للغاية، وازدادت الحاجة إليهم، لا نقصد الحاجة إلى اليد العاملة الرخيصة التي كانت متوفرة بكثرة، بل الحاجة إليهم رجالاً ونساء أرقاء بمقدور سيدهم استخدامهم وإنهاكهم واستغلالهم كيفما يشاء.

إن صيانة بسيطة للقصور الرومانية التي تعظم عددها واستكمل تجهيزها بتدفئة مركزية أرضية، كانت تتطلب اختصاصيين يزداد عددهم بإطراد، ناهيك عن متطلبات الدارات القائمة على شواطئ البحر وفي الجبال التي كان يتوجب على المرء امتلاكها إذا ما أراد أن يفرد لنفسه مكاناً بين علية القوم. كان تزايد العيب الطبيعي لا يكفي، ولم يكن جماع أجمل الرقيقات مع أقوى الأرقاء يفضي على الدوام إلى النتيجة المرجوة، ذلك لأنه كان من المتعذر منع المراقبين أو أبناء البيت من إحصاب النساء من الرقيق، فليس في استسلام المرء لغرائزه دونما قيد ما يعيب أو يشين. وكان الفتيان من أسر الأشراف أو الفرسان الأثرياء لا يتقيدون بأي إكراه إذا ما تعلق الأمر بالتمتع بالحياة بطريقة أو بأخرى. وكان من المؤلف الشائع في روما أن يتبنى المرء في حياته الجنسية حرية الأخلاق الإغريقية، وفي العناية الجسدية تفنن سكان آسيا الصغرى في تليين الجسد وتطريته. ولم يجعل الرومان من ميولهم إلى اللوطة ومن الملذات التي يحضون عليها سراً خفياً، بل كان النخبة منهم يظهرهم للعيان، دونما حياء أو تحفظ، ميولهم للرجال أو المراهقين، وولعهم بالذهاب إلى مواعيد الغرام وهم يرتدون ملابس نسائية، ويتطيّبون كما تطيب النساء، ويتفاخرون بكونهم ماهرين في الحب ومحنكين في الهوى حنكة مومسات اليونان ومهارتهن. أما المناصرون للحب الشاذ (اللوطة)، والمقتنعون به، فكانوا يرفضون الزواج ولا يرغبون في النساء لأنهم يرون أنفسهم رجالاً ونساء في آن واحد، وراحوا يزينون أماكن إقامتهم بتمائيل هيرمافروديت (هرمس + أفروديت = خنثى) ويمتدحون ثنائية الجنس بوصفها جوهر الكمال الإنساني.

ومن كان ينتسب إلى عائلة الأشراف أو الفرسان وليس في حوزته دارة، اشتراها بماله أو انتقلت إليه بالوراثة، يستطيع دعوة أقرانه من الضيوف المتطلبين إليها، كان عليه، إذا ما رغب في الظهور في المجتمع، أن يستسلم لنزوات ضيوفه الأجاويد، أو أن يقترض ويستدين ليستطيع أن يظهر للعيان بذخاً يرقى به إلى

علية القوم. وقد وجد أبناء مجلس الشيوخ والفرسان أنفسهم أمام هذا المأزق، وقد حرموا من حياتهم وممتلكاتهم في ظل سنوات الرعب التي حكم فيها صيلا، ومعهم أيضاً الفتية من الطامعين الذين لا يملكون من الثروة ما يكفي لإدارة منزل لائق، لأن ذلك يستلزم إعالة الفراشين (خدام الغرف) من الجنسين، والطباخين، والراقصين، والمجالدين، إضافة إلى العبيد الاعتياديين من الجنسين للأعمال المنزلية. وكان العبيد من النبلاء، وقد صاروا فقراء، يؤجرون خدماتهم للغير، وعندما كانوا أحراراً يتفخرون بأسماء الأشراف الذائعة الصيت لكونهم يدخلون في عداد أهل البيت، في حين لا بد بعضهم الآخر بالزواج ليتمكنوا ببائعات نسائهم من تأسيس منزل يليق بمولدهم، أما القلة القليلة منهم فقط تطوعوا في الجيش ضباطاً يقاتلون في الشرق الأدنى.

كان كايوس يوليوس قيصر أحد هؤلاء النبلاء. وكان، وهو الذي سيغدو من أوسع رجال عصره مقدرة واقتداراً، ينتهز كل فرصة سانحة لكي ينحو من عار الفقر، ويعيش حياة مطلقة العنان يرى فيها امتيازاً يستوجه منبته، إذ كان يدعي بأنه من سلالة يوليوس اسكانيوس بن اينياس، أي أنه حفيد فينوس وابن حفيد الإله جوبيتر. وقد أقر بنسبة جميع أولئك الذين كانوا يؤمنون بالأسطورة القديمة. أما بالنسبة له فإن حادثته لم تكن لتسوغ له على الإطلاق ان يخال نفسه أثيراً عند جوبيتر، وربما كانت فينوس مؤاتية له أكثر. ومع ذلك فإن هذه النعمة (نعمة فينوس) قد اتسعت لينعم بها الكثير من الفتيان المتوافدين إلى حي بيوت الدعارة حيث يقوم منزل آل يوليوس.

لم يكن هذا البيت يشبهه، لا من قريب ولا من بعيد، بيوت آبائهم الأغنياء من الأشراف. وكانت إحدى عمات قيصر قد تزوجت ماريوس، ولكن أبا قيصر هذا لم يخرج من زواجه بأي مغنم كان. ربما لأن هذا الشريف المعجب بنبالته لم يتقبل من ابن فلاح. ويخبرنا سويتون ان قيصر في حادثته قد تلقى العلم على يد أحد العبيد الغاليين المتبحرين. وكان متعطشاً للمعرفة ومولعاً بالبيان

والآداب. ومن المرجح أنه قد أحس بخيبة أمله عندما اضطر إلى استبدال قلمه بالسيف ليتطوع في السلك العسكري امتثالاً لتقاليد أسرته. فأرسل إلى آسيا ولما يزل حدثاً بعد، وعين مرافقاً لأحد كبار القادة ليكون ضابط ارتباط لنيكوميد ملك بيثينيا.

ولما عاد قيصر إلى روما ولما يبلغ السادسة عشرة من عمره بعد، قيل عنه أنه كان رفيق متعة الملك، وهكذا فإن «زهرة حفيد فيلوس قد تلوثت في بيثينيا» وطاردت هذه النائم قيصر حتى وفاته. وعمول بوصفه باثيوس الملك نيكوميد (باثيوس = الرجل الذي يستسلم لنزوات الرجال فيعاملوه معاملتهم للمرأة). حتى ان أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وقد رغب في التعبير صراحة عن احتقاره لقيصر، وصفه بأنه «قائما السرير الملكي». وما انفك جنود سلاحه المنتصرون يسخرون من ماضيه المريب على الرغم من إخضاع قيصر للغالين ومن عودته ظاهراً: «أخضع قيصر الغالين، ونيكوميد أخضع قيصر، وهاهو قيصر يتهيج لأن الغالين تحته، ولكن نيكوميد غير سعيد لكون قيصر تحته» وبقيت سمعته بوصفه رجلاً متيماً بالجنسين ملازمة له حتى بعد زيجاته الثلاث، على الرغم من الكثرة الكثيرة من علاقاته الغرامية الناجحة وغير الناجحة مع أكثر النساء الرومانيات فتنة ونفوذاً. فكانوا يدعونه جهاراً وعلى الملأ «omnium mulierum uir et omnium virorum mulier» (رجل كل النساء وامرأة كل الرجال). وبقي قيصر عاجزاً حيال هذه الإهانات الموجهة إلى شرفه الشخصي وسط مزاحمات توجب عليه مجابهة خصومه والذود عن نفسه حتى مماته، لكنه لم يرد قط على هذه التجريحات التي كانت تستهدف سلوكه الجنسي، ولم يمنع البتة جنوده من التعامل معه بوصفه «الزاني الأصلع» (mœchus calvus) لأنه كان يتلهى بالنساء الغاليات في المدن المقهورة. إنه الرجل المولع بالمتعة الذي لا يرفض شيئاً، فإن هو تألم إذا ما شككوا بشرفه كزوج، تظاهر بازدراجه هذه الامتهانات، وهذا ما أظهره موقفه في إحدى الدعاوي أثناء استدعائه للإدلاء بشهادته.

وهكذا وجد قيصر نفسه في المرحلة الأولى من مراحل مسيرته المدروسة بدقة.. وراح يقترّب من السيادة المطلقة. طلق زوجته الأولى، وترمل من زواجه الثاني، ولاعتبارات سياسية تزوج في زفاف ثالث بومييا حفيذة صيلا، وسدد بما غنم من حملاته العسكرية ديونه المتراكمة جراء زيجتيه الأولى والثانية، ولكنه مالبت أن استدان مرة أخرى أموالاً طائلة من حامية كراسوس، مما سمح له بأن يصير مشرفاً يدير شؤون الأبنية والألعاب العامة، وتلك لعمري الوسيلة المثلى للفوز بشعبية تسمح له بتحقيق طموحاته السياسية. وبوصفه حفيداً للماريوس الذي يحتفي بذكراه دورياً، تمتع قيصر بحظوة العامة، لكن زواجه ببومييا قربه من جماعة الأخيار، وأهله ليصير الحير الأعظم، رئيس كهنة روما. ومن حكمه لاسبانيا حصل هذا المشيع بالآمال، على المجد، وجنى من المال ما يكفي لسداد ما كان قد استدانه من كراسوس حاميه. وتنازل تواضعاً عن استعراضاته العسكرية احتفاءً بانتصاراته في اسبانيا كيلا يستثير غيرة دائنه كراسوس وبومبي المغرور. ولكنه سرعان ما وجد نفسه متورطاً في فضيحة تهدد شعبيته التي لا يمكنه الاستغناء عنها لتحقيق طموحاته القنصلية.

في قصر قيصر، مكان إقامة الحير الأعظم المجل، كان يجري الاحتفال بالعيد السنوي للإلهة بونا ديا (Bona Dea) تلك الإلهة الطيبة التي تسهر على خصوبة القطعان والحقول. وكان العرف يقضي ألا يحضر الاحتفال ويشارك فيه إلا النساء دون غيرهن. ولكن عشيق بومييا زوجة قيصر، بوبليوس كلوديوس بولخير الجميل تسلل إلى القصر بزى امرأة وشارك في الاحتفال ثم افتضح سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الآلهة وأسرارها. وبما ان قيصر كان يسعى لكسب أصوات العامة، حتى انه غير طبقته بعد أن تبناه أحد العوام لكي ينتخبه الشعب تريبوناً (حاكم عسكري برتبة قنصل أو زعيم شعبي محام عن الشعب)، وهكذا تخلى قيصر عن اسمه الارستقراطي بيد أنه لم يفقد جراء ذلك غطرسته الصفيقة لأنها كانت تعد من آداب محيطه، وهو لم يأبه لاتهامه بأن له

علاقات غرامية مع أخته الكبرى كلوديا، وأنه قد أغوى أخته الصغرى قبل زواجها بلوكولوس، ذلك لأن تلك المآخذ لا تتعلق إلا بحياته الشخصية، ولكن هاهو الآن متهم بإهانة الآلهة وإدانته منوطة بشهادة الحر الأكبر، والحر الأعظم هو قيصر بالطبع: الزوج المخدوع. وحينما أعلن قيصر في المحكمة بأنه لا يملك أي شكوى يرفعها ضد كلوديوس، وجه إليه محامي الإتهام سؤالاً مريباً: لماذا انفصلت عن زوجتك بومبيا إذن؟ فأجابه قيصر بوقار لا يجارى: «لأن على زوجة قيصر أن تكون بعيدة عن الشبهات وألا تشوبها أية شائبة حتى لو كانت النميمة». وأطلق سراح كلوديوس بعد تبرئته. وزعموا أن القضاة قد أفسدهم كراكوس الذي كان يحتاج لتحقيق أغراضه إلى شعبية كلوديوس وتقدير قيصر الذي اشتراه كراسوس بذهبه: لقد كان كراسوس بحاجة إلى دعم العامة ليتغلب على بومبي. فمن يختار ياترى كلوديوس أو قيصر؟ واختار قيصر وعقد معه ومع بومبي معاهدة الحكومة الثلاثية التي تقضي: «مقاومة كل تشريع لا يرضى به أي واحد منهم»، واتفق بومبي أن يساعد قيصر في انتخابه فنصلاً، كما تعهد قيصر، إذا ما اختير لهذا المنصب، أن ينفذ الاقتراحات التي عرضها بومبي ورفضها مجلس الشيوخ، عندئذ تيقن قيصر من انتخابه فنصلاً ومن تفويضه إدارة بلاد الغال لخمس سنوات. ولكن قيصر قبل ممارسته لمهامه حاكماً وشروعاً في غزو الغال، تدبر أمره بأن جعل خلفاً له في القنصلية صديقه كالبورنيوس بيسو، واتخذ زوجة له ابنة كالبورنيوس نفسه واسمها كالبورنيا. كان هذا الزواج يلي اعتبارات الأغلبية العظمى من زيجات ذلك الزمان: الطمع بالمال أو السلطة. فلم تكن الكلمة في الزواج للحب أو للعاطفة بل كانت أولاً وأخيراً للمال وللسياسة، لأن تلك الزيجات كانت تربط ما بين الأصهار والأعمام (جمع حم) وليس بين الأزواج والزوجات. وعليه فإن النساء المكروهات على الاستسلام إلى مثل هذه الزيجات والتسليم بها نادراً ما كن يلتزم بالقيام بواجباتهن الزوجية في الفراش.

وكذلك فإن أزواجهن لم يسهروا عليهن بدافع الغيرة، ولم يضعوا العراقيل أمام نزواتهن ومغامراتهن العاطفية خارج بيت الزوجية. كان يكفي الحفاظ على المظاهر كيلا يكون الأزواج محطاً لسخرية الآخرين.... فكان بمقدور النساء أن يسرحن ويمرحن مع عشاقهن كما يخلو هن شريطة أن يتجنبن الفضيحة أياً كان شكلها. وكان العرف يقضي ان بمقدور الرجال الراغبين في تحسين أوضاعهم السياسية أو الاقتصادية، وفي كل وقت، أن يعدوا أنفسهم «مطلقين بفضل رسالة مسبقة تؤكد رغبتهم في الطلاق» وبذلك أجهز هذا العرف على ما بقي في الزواج من قيمة، وترددت النساء المطلقات في الزواج ثانية، وآثرن الاستمتاع بما منحهن الطلاق من حريات بعد أن آلت إليهن حرية التصرف بيائنتهن، وصار بمقدورهن من الآن فصاعداً تلبية الدعوات وحضور المآدب، والتطواف بحرية في الشوارع من دون رقيب مرافق، والتزدد إلى المسارح، واستقبال عشاقهن في بيوتهن علانية. تقبل الرجال بطيبة خاطر هذه الانتهاكات للمعايير التقليدية. وطالبت كلوديا، أخت كلوديوس الجميل، أن يقر للنساء بهذه الحقوق جميعها. صحيح أنها لم تطالب بالمساواة في الحقوق السياسية، ولكنها كانت ترغب في أن تكون النساء داخل الأسرة شريكات يتمتعن باستقلالهن التام، وان يكن قدرات على العيش وعلى الحب كما يخلو هن، وان يطلقن كما يطلق الرجال وفق هواهن. كانت كلوديا بوصفها امرأة، لا تملك أن تتقدم بمشروع قانون، ولكنها كانت تتصرف لتكون مثلاً تحذيه الأخريات. وكانت ترى أن من المشين والمضحك أن يتناول الرجال طعامهم مضطجعين في حين تبقى النساء جالسات، فأحضرت إلى منزلها أسيرةً مشابهة ووزعتها في غرفة الطعام ليستريح عليها ضيوفها من الجنسين، ولم تكن لترضى أن يتوجه إليها أحد الأصدقاء بالكلام خلصة، بل كانت تنادي من يروق لها إذا ما رغبت في ذلك، ولم تغض الطرف امتثالاً لما تمليه اللياقة والأخلاق الحميدة، بل كانت ترنو إلى وجوه محدثيها،

وكانت لا ترى غضاضة في الترحيب باصدقائها وتقبيلهم على الملاء، وأن تتحدث معهم بألفة. وراحت تنظم حفلات هو «حيث تذخر الموائد بأنواع الطعام وتطفح الأقدام بالشراب». حفلات لا تختلف في بذخها وعظمتها عن حفلات القصف والشراب التي يديرها نظراؤها من الجنس الآخر. وكانت تعرض في حفلاتها هذه الراقصين والراقصات والحيوانات النادرة وتقريباً في أغلب الأحيان هدية لضيوفها.

كانت كلوديا، مثل لو كوللوس لا تعرض لضيوفها في هذه الحفلات على الإطلاق اقتتال المجالدين الدامي، لأنها هي أيضاً كانت تمقت العنف وتحرص على امتاع مدعويها وامتاع نفسها، فكانت واحدة من العديد من النساء الرومانيات اللاتي استهواهن الاقتداء بتهتك الرجال وفجورهم، فخلعن العذار، وارتلدين البراقع الشفافة، وأعلن صراحة عن غرامياتهن التي لا تخصي، وكلوديا هذه لم تكن الوحيدة بين النساء في اعتزازها بتحصيلها للثقافة كما الرجال،



مثال نصفي لشيرون
(١٠٦ - ٤٣ ق.م)

وعليه فإنها لا تستحق وكلوديا، مثلها مثل الكثيرات من بنات جنسها، كانت تطمح إلى التغلب على الأحكام المسبقة التي تعزو إلى الرجال تفوقاً طبيعياً على النساء. أضف إلى ذلك أننا لا نعرف منها أي شيء بخصوص تورطها في الدعوى التي يتهمها فيها شيرون رجل القانون والدولة العظيم بارتكاب المحارم والقتل،

ولا نعرف منها ما إذا كانت قد قطعت علاقتها مع أحد عشاقها، وهو الشاعر كايوس فاليريوس كاتولوس.

فقد أعلن شيشرون في المحكمة أنه ليس «عدواً للنساء، وعليه فإنه ليس بالطبع عدواً لامرأة هي صديقة لكل الرجال»، ولكنه اتهمها بوصفها مثلاً لتتهتك النساء الرومانيات وفساد أخلاقهن وحكم بإدانتها. أما كاتولوس فهو على العكس من شيشرون، لم يطلب من الحكام معاقبة الخائنة، ولكنه راح، وقد أضناه اليأس لهجرها له، يلحن كلوديا في أشعاره منتحلاً لها اسماً آخر هو لزيبا (Lesbia)، ومن أوجاع قلبه رسم لنا لوحة ثمينة عن الأخلاق.

وخلاصة القول إن كلوديا هذه كانت من أشهر النساء اللاتي أكملن ما في أزواجهن من نقص بالقيام بطائفة من أعمال الفروسية والشهامة، وقد تملكتهما نزعة قوية للدفاع عن حقوق النساء، وهزت مشاعر الجيل القديم بسيرها بعد زواجها مع أصدقائها الرجال دون أن يكون معها محرم. وكان زوجها يتعمد الغياب في أثناء ولائمتها، ويصف شيشرون - وهو الرجل الذي لا يوثق بوصفه - «حبها، وزناها، وعهرها، وأغانيها؛ وما كانت تقيمه من حفلات موسيقية وولائم الطعام، ومقاصف الشراب، وكانت في الحق امرأة ماهرة إذا ذلت في ظرف وكياسة، يعجز الإنسان عن أن يزل معها»، ولكنها أخطأت في الاستخفاف بأنانية الرجال. لقد كان كل واحد من عشاقها يجب أن يستأثر بها حتى تفتّر شهوته، كما كان كل واحد منهم يصبح عدوها الألد حين تتخذ لها صديقاً غيره. ومن أجل ذلك لطخها كاتولوس بالنكات البذيئة، وذكرها كاليوس في حديث له عن الذي تبتاع به أفقر العاهرات.

أما كاتولوس فإنه يتحدر من أسرة الفرسان. وقد جاء إلى روما قادماً من فيرونا موطنه الأصلي، ليحرب فيها حظه، فكتب قصائد نجد فيها ما في الحياة الرومانية من مفارقات: الضجر من متع الأثرياء، وشقاء الفقراء، وعواطف العشاق

المخلصين الرقيقة، وإظهار ما في قصور الأرستقراطيين من بذخ وترف، وملاهي الفتيات المشوهة: كان كاتوللوس يشعر بنفسه وكأنه في بيته في أوساط مختلف الطبقات الاجتماعية، ومع ذلك كان غريباً عنها. وما من شك في أنه كان على جانب كبير من الثراء، ولكن الصورة التي نستطيع أن نرسمها له من قصائده هي صورة الرجل المهذب الذي لا يهتم بكسب العيش، ولكنه يتمتع نفسه بطيبات الدنيا من غير حساب في صحبة أمثاله المترفين في عاصمة الدولة، فكان هو وصحبه من الشعراء قد ملوا الأدب القديم وألفاظه الطنانة المزوقة، وتاقت نفوسهم لأن يغنوا عواطف الشبان في أوزان جديدة غنائية في لفظ عذب رقيق. ولم يكونوا راضين عن المبادئ الأخلاقية القديمة ومن تقاليد السلف، وكانوا ينادون بقدسية الغرائز وبراءة الشهوات وعظمة التهلك والانغماس في الملذات. ولم يكونوا هم وكاتوللوس أسوأ من غيرهم من الأدباء الشبان الذين كانوا يعيشون في ذلك الجيل وفي الجيل الذي يليه: من هوراس وأوفيد وتيبولوس وبروبريتوس بل ومن فرجيل الخجول في أيام شبابه، أولئك الذين جعلوا الشعر يدور حول كل امرأة متزوجة أو غير متزوجة، تقدم لربات شعرهم حباً سهلاً عابراً.

وكانت كلوديا - وقد تحدثنا عنها - أرشق فتاة في هذه الفئة، وهي التي سماها كاتوللوس باسم لوبيا إحياء لذكرى سافو التي كان يترجم قصائدها أحياناً، ويحاكيها كثيراً، ويجبها دائماً. ولما جاء كاتوللوس إلى روما في الثانية والعشرين من عمره اتخذها صديقة له، وقد سحرت لبه ساعة وضعت «قدمها البراقة على عتبة داره التي أبلتها أعقاب الناس من قبل، وكان يدعوها إلهته المتألقة ذات الخطوة الرشيقة». ولا عجب في أن تفتته خطاها، فإن مشية المرأة قد تكفي وحدها لتفتن الرجل كما يفتنه صوتها. وقد عطف عليه فرضيت أن يكون من بين عابديها. ولم يكن في وسع الشاعر الهائم بها أن يضارع في غير ميدان الشعر مواهب منافسيه فوضع تحت قدميها أجمل ما في اللغة اللاتينية من القصائد الغنائية، فكتب في الطائر الذي كانت تضمه إلى صدرها أبياتاً تعد من خير ما كُتب في وصف الغيرة:

أيها الطائر يابهجة حبيبي
التي تلعب معك وتضمك إلى صدرها
والتي تمد لك سبابتها إذا طلبتها،
وتفر بك بأن تعضها عضه قوية
لست أدري أية دعابة لطيفة يلذ لحبيبي الرضاء
أن تداعب بها أمنيقي
ونسي الشاعر كل شيء إلا حبه إياها وافتتانه بها:
أي لزيباي حبيبي هيا بنا نعيش،
ولا تلق بالآ إلى شيء مما ينطق به العجائز القساء
ونراه حقيراً غير جدير بالاعتبار.
وقد تغرب الشموس ثم تعود؛
أما نحن فإذا غربت الشمس القصيرة الأجل
غلب علينا السبات الطويل في ليلنا الأبدي
ألا فأعطني ألف قبلة ثم مائة
ثم ألفاً أخرى، ثم مائة ثانية
ثم ألفاً بعدها، ثم مائة
حتى إذا بلغت القبلات آلافاً مؤلفة
تعمدنا الخطأ في العد والحساب لكيلا نعرف نحن عديدها
أو تحسدنا عليه نفس حقيرة
إن عرفت عدد قبلاتنا الكثيرة.

ولسنا نعرف كم من الوقت دامت هذه النشوة؛ وأكبر الظن أنها قد ملّت آلافة المؤلفة، فرأت أن تروح عن نفسها بعد أن خانت زوجها من أجله بأن تستبدل به عاشقاً غيره. واتسعت وفتتد دائرة عشاقها حتى خالها كاتوللوس في نوبة من نوبات الجنون «تعانق ثلاثة آلاف زان مرة واحدة» وأبغضها في الوقت الذي كانت فيه نار الحب تلتهم فؤاده وأبى أن يستمع إلى ما كانت تحدّثه به من وفاء وإخلاص، وصور لنا هذا الإباء بالصورة المأثورة عن كيتس:

«إن الألفاظ التي تفوه بها المرأة للمحب الواله الجائع،

يجب إن تنقش على صفحة الرياح السافية،

وتحفر على مجاري الماء الدافقة»

- قصة الحضارة -

ولكن حبه لها تحول إلى كراهية، عندها راح يكتب: «هذه اللزيبا، التي أحبها كاتوللوس أكثر من حبه لنفسه وأهله، تلازم مفترق الطرقات والأزقة وتعاشر دونما حياة أبناء ريموس الأجاويد» واتفق مع عشيق آخر هجرته كلوديا ليعلن قائلاً: «إنها عاهرة بائسة، يمكن لأي كان أن يلهو بها بدريهمات معدودات. ولكنه كان يعزف صراحة وبدون تكلف أو وازع من نخجل بأنه هو نفسه كانت له علاقات جنسية مع العهرة من الرجال «يلوطهم ويلوطونه».

إن فحش مُسارات كاتوللوس التي تدور حول أحلامه، وفجوره الجنسي لا تتفق مع كنياته اللبقة التي تلتها، ولكن كان يروق للرومان أن يعبروا عن أنفسهم بهذه الطريقة، وفي هذا الصدد أعلن شيشرون: ما من كلام فاحش أو منكر وغير أخلاقي، فإذا كان الكلام مشيناً، فالسبب في ذلك بالضرورة إما في الشيء وإما في الكلمة، وليس ثمة احتمال آخر. لأنه إذا كان ذلك الذي أشارت إليه الكلمة غير أخلاقي، فإن الكلمة التي أشارت إليه لا يمكن أن تكون غير أخلاقية» ومع ذلك أضاف قائلاً: «أما بالنسبة لي، فإنني سألزم

الأتروسك والرومان

نفسى بلائق كلام أفلاطون، وقد جعلت من ذلك نسي». أما كاتولوس فقد كان يسره أن يستخدم عبارات فاضحة. كتابه الذي ألفه في أثينا يثور ويعري. إن ابن الفارس هذا الذي يشمل ويعريه مع فتنة مسيحية تروي للإحلاق المنحلة، ويقتفي مهرولاً آثار السارقين والنشائين. ويتفرد بوضع أسطورة جديدة. تلك الروائع التي لا يعرف مصدرها: «الخطم أو المؤخرة»، كان في الوقت نفسه صديقاً لرجال من عليّة القوم. يسميهم مع ذلك «الزناة، الشبهين، مقامرین». كان لكاتولوس علاقات مع قيصر الذي كان ضيفاً لبيت أبيه. وفي أشعاره تحدث عن قيصر وكلوديا، تحت اسم من اختراعه.

كان يدعو «رومولوس القواد». وهو يشير بطرف خفي إلى زواج بومبي بيوليا بنت قيصر وينعتهما بـ«الصهر وحميه السافلين» وهكذا كان كاتولوس يعري بمرارة قادة روما وينتقدهم دونما رحمة. والعامّة بدورها لم تكن أرحم منه في حكمها عندهم على الرغم من أنها كانت طرفاً في المسؤولية وفي منافسات والأطماع إذ كانت ترتشي وتبيع أصواتها المرشحي المجلس الشعبي.

كان العامّة يزنون ويحتشون (أكلون بنهم) ويلهون، مثلهم مثل الأشراف والفرسان الذين كانوا يقدمون لهم الخبز والنعمة. وكانت نساء العوام يسلكن سلوك نساء الأرستقراطيات ويسعين للتحرر من وصاية أزواجهن وأسرهن بأي ثمن. كان الجميع يرغب في التمتع بالحياة ويتهب من المستقبل.

قلقل تسارع الأحداث كل أشكال الإيمان بالسلطة أياً كانت، فقد مات كراسوس في حملة له في سورية. وللتعبير عن احتقارهم، صب أعداؤه في فم أثنى الأثرياء ذهباً مصهوراً. وبومبي الذي لم يعد صهراً لقيصر، بعد وفاة يوليا أثناء الوضع، رفض الزواج بأوكتافيا حفيدة قيصر، ورفض أن يصير حماحميه الأسبق بإعطاء قيصر إحدى بناته. كان بومبي يتطلع إلى الاستئثار بالسلطة، ولما هزمه قيصر إثر معارك دامية، لجأ إلى الإسكندرية حيث قتله أحد المصريين بطعنة

من خنجره، وعند وصول قيصر قدم له القاتل رأس بومبي، فبكى ميتة عدوه اللدود المروعة، لكن حداده انتهى على الأثر.

أخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس تسير بسرعة في طريق الاضمحلال، وعجز ملوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعي أو حريتها القومية، وأخذ مجلس الشيوخ الروماني يقوي فيها سلطانه ويملي عليها إرادته، بل إنه أقام حامية في الإسكندرية. وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادي عشر الذي أحلسه بومبي وجابليوس على العرش إلى ابنه بطليموس الثاني عشر وابنته كليوباترا.

كانت كليوباترا من أصل يوناني مقدوني، وأكبر الظن أنها كانت أقرب إلى الشقرة منها إلى السمرة، ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق المعتدل، وخفة روحها، وتنوع ثقافتها، ودماثة خلقها، وحسن صوتها، مضافة إلى مقامها الملكي قد جعلتها فتنة لكل من رآها تسلبه لبه وإن كان قائداً رومانياً. وكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية، ويقال إنها ألقت رسالة في مستحضرات التجميل، وأخرى في المقاييس والأوزان والنقود المصرية، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر وجذاب، وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية، ووحشية عنيفة تصب على أعدائها العذاب والموت صياً، ومطامع سياسية بعيدة، تحلم ببناء امبراطورية واسعة، ولا تحترم في سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً إلا قانون النجاح. ولو أنها لم تجر في عروقها دم البطالمة المتأخرين الداغرين لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط.

استاء قيصر حين عرف أن بوثينس نفى كليوباترا، ونصب نفسه نائباً عن بطليموس الشاب يحكم البلاد باسمه، ولذلك أرسل إليها سراً، وجاءته سراً وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها في فراش حمله تابعها إلى سكن

قيصر، وذهل القائد الروماني حين رآها، وأسرت شجاعته وسرعة بديهتها، وهو الذي لم يدع انتصاراته في ميدان القتال تربي على انتصاراته في ميادين الحب، وصار الزاني (قيصر) - وقد غدا أصلاً كلياً - عشيق الشابة الفاتنة ملكة مصر. واستخدم انتصاره في الحب في تحقيق مآربه السياسية، فلم يكن ليرضى بأن يستسلم لأيام طوال للملاذ السكر والعريضة مع كليوباترا، وأن يسير بصحبتها في قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصل إلى بلاد الحبشة، لو لم يرسخ هيمنة روما وهيمنته على مملكة الملكة الفاتنة.

كرس قيصر لجميلته تسعة أشهر ببياضها وسوادها، والملكة بدورها أنجبت له قيصريون؛ واعترف بأبوته له. ترى هل كان قيصر يترث في إقامته لينعم بما كانت تقدمه له كليوباترا من متع الحب ولذائذه؟ أو أنه كان يكسب الوقت متظاهراً باللهو والعريضة بغية معرفة ما كان يجري في روما أثناء غيابه وعلى الخصوص معرفة المكان الذي سيجتمع أعداءه، ابن بومبي وأنصاره، ليوجه إليهم في الوقت المناسب طعنته النجلاء؟

فارق قيصر كليوباترا لأيام معدودات، ليشن حرباً على شمال آسيا الصغرى. وبعث من ميدان القتال إلى صديق له بهذا الخبر القصير البليغ: «جئت، ورأيت، وهزمت» ثم اصطحب معه كليوباترا وقيصريون وعاد إلى روما. واحتراماً لأداب السلوك وامتثالاً لها أقام في القصر الذي صانته أثناء غيابه زوجته كالبورنيا. أما الأرسقراطيون الذين كانوا يكونون له الضغينة جراء كل ما كان يفعله، فقد حقدوا عليه لنفقاته الباهظة وتبذيره في إقامة كليوباترا المترفة وملازمته لها. وسرت الإشاعات المغرضة، وزعموا أن القائد المنتصر يطمح، لتويجاً لسيرته، إلى التاج الملكي، ويتوق إلى السيطرة على الإسكندرية؛ إن كتب له النصر وقضى على أصدقاء بومبي الذين جمعوا عساكرهم في شمال أفريقيا وتحالفوا مع ملك نوميديا.

وارتفع الهمس وازداد التذمر أكثر من ذي قبل، عندما هزم قيصر حزب بومبي في أفريقيا، وندى عودته إلى روما اختاره أعضاء مجلس الشيوخ الخائفون على حيواتهم وأملآكهم حاكماً بأمره مدة عشر سنوات. وإلى العامة التي روعها مشهد فيالقه أقاد استعراضاً عسكرياً فاق بأبهته وعظمته كل ما سبقه من استعراضات.

بز قيصر (ناظر الأبنية والملاعب والتموين) منذ حدائته كل منافسيه الطامحين مثله إلى كسب ودّ الشعب بما قدمه لهم من ألعاب خلابة، وهو لم يتردد في تكديس الديون على كاهله ليقدم للعامة صراعاً يدور بين ألف مجالد وأربعمائة من السباع الضارية، في حين لم يكن بمكنة منافسيه حشد أقل من ربع هذا العدد. وها هو الآن يدعو العوام إلى مأدبة تضم اثنين وعشرين ألفاً من المدعووين، وينظم معركة بحرية (naumachia) تدور في مياه بحيرة اصطناعية أحدثت لهذا الغرض وحده، وفيها يتواجه عشرة آلاف من الرجال المحاربين.. لكن هذه المسرات لم تغير، كما كان يتمنى قيصر، حالة العوام الفكرية، أولئك الذين أفقرتهم الحروب الأهلية، كما أن الشيوخ لم يشعروا نحوه بأي شكل من أشكال الامتنان على الرغم من امتناعه عن الثأر من أعدائه الارستقراطيين. وراح مجلس الشيوخ يتملقه، فيحبوه بكل ما يستطيع من ألقاب التعظيم، ولعله كان يرمي بذلك إلى إشاعة الكراهية في قلوب الشعب الذي كان يبغض الملكية ولا يطبق حتى اسم الملك... وأجاز له المجلس أن يتوج رأسه بإكليل الغار الذي كان يوارى به صلعته، وان يحمل حتى في وقت السلم رمز سلطات الامبراطور. وبفضل هذه السلطات كان يسيطر على خزائن المال، كما كان منصب الخير الأعظم يمكنه من السيطرة على الشؤون الدينية في البلاد، وكان له، بوصفه قنصلاً، أن يقترح القوانين التي يريد، وبوصفه تربيوناً كانت ذاته مصونة لا تمس، وبوصفه رقيباً كان له أن يعين مايشاء من أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم.

وبقي قيصر واثقاً مطمئناً، لقد كانت السلطة طوع بنانه، وحرية التصرف التي يتمتع بها تتيح له أن يبني في سنوات معدودات نظاماً جديداً في السياسة

والاجتماع، فلم تعد روما، منذ الآن، حاضرة بسيطة، بل أصبحت امبراطورية تشيّد مدنها وفق أنموذج العاصمة. وتمثل الأخلاق بمختلف ضروبها أخلاق العاصمة الأم؛ ففي البوتقة الرومانية تنصهر عادات الشعوب وتقاليدها على اختلافها في امبراطورية واحدة ومتجانسة فرض عليها قيصر السلام الروماني. وقد لخص قيصر قبيل اغتياله ما كان يرجوه ويتوق إليه في هذه العبارات الثلاث: «الهدوء في إيطاليا! والسلام في الأقاليم! والحماية للامبراطورية!»

كان ماركوس بروتوس، أحد قتلة قيصر، حسب ما يرويهِ المؤرخ أبيان: «ابنه، لأن قيصر، في الفترة التي ولد فيها بروتوس، كان على علاقة حميمة مع أمه سرفيليا...» ويروي ان قيصر أعطى سرفيليا جوهرة بقيمة عزبة (latifundium). وكتب بروتوس إلى أحد أصدقائه: «لم يتحمل آباؤنا مستبداً طاغية أبياً كان، حتى لو كان هذا المستبد أباهم نفسه» ترى هل كان بروتوس يخضع لبواعث شخصية باشتراكه في التآمر ضد قيصر؟ أم انه كان يتقاسم مخاوف الآخرين من الاشراف الذين كانوا يخشون فقدان امتيازاتهم فنقموا، وهم الجمهوريون شعوراً، على الترقية التي منحها الشيوخ للحاكم بأمره مدى الحياة، وعلى ما يتمتع به من مراتب إلهية، وعلى توقعه إلى تنويع نفسه ملكاً؟ وعليه فإن الذين جردوا مما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تستل سخائمهم بالعمو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان، وليس عفوك عمن عفا عنك بأقل صعوبة من عفوك عمن أذيته. ومصداق هذا أن الأشراف في مجلس الشيوخ الذي لم يكن يجروء على رفض المقترحات التي عرضها عليه قيصر أخذوا يترمون وينددون بالقضاء على الحرية، وعز عليهم أن يقرروا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم. وقد روعهم وجود كليوباترا وقيصريون في روما. نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته وإنما كانا يتبادلان المحبة في الظاهر، ولكن منذ الذي يعرف - ومنذ الذي تطاوعه نفسه على ألا يذيع - ما كان يحدث في أثناء زيارته الكثيرة للملكة العظيمة الجميلة؟ وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكاً، وان يتزوج

كليوباترا، وان ينقل العاصمة إلى بلاد الشرق. ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكايبوتول بجوار تماثيل ملوك روما الأقدمين؟ ألم تطبع صورته على النقود الرومانية؟ ألم يلبس جلايب أرجوانية من اللون الذي يحتفظ به عادة للملوك؟ لقد جاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد عاري الجسد إلا من جلود الماعز التي كان يلبسها الكهنة في ذلك العهد ثملاً من كثرة ما احتسى من الخمر، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكي على رأس قيصر؛ ورفضه قيصر في المرات الثلاث، ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض ان الجماهير قد أبدت غضبها من هذا العمل وإن أيدته همساً؟

كان المتآمرون في حاجة إلى بروتوس ليكون هو رافع لواء المؤامرة، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظمهم استمساكاً بالفضيلة، ولأنه كان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة في أفواه الرومان، يقولون عنه انه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتوس. كان هذا الشاب الحساس يحمر وجهه خجلاً حين يرى تماثيل بروتوس الأكبر يحمل أمثال هذه العبارات: «أي بروتوس! هل مت؟ وإلا فإن آباءك براء منك»... وتأثر بروتوس بهذا كله، واستسلم، وأخذ المتآمرون بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم.. ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه هجم «دعاة الحرية» من فورهم عليه. ويقول سيوتونيوس: «لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم عليه بروتوس قال باللغة اليونانية «حتى أنت يا ولدي» ويقول ابيان إن قيصر حين طعنه بروتوس امتنع عن كل مقاومة، وغطى وجهه ورأسه بثوبه، واستسلم للضربات، وسقط عند تمثال بومي»، وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغبات أكمل إنسان أنجبتة الأيام الخالية «إنها الميتة المفاجئة».

كان ماركوس انطونيوس المنفذ لوصية قيصر، فخلفه في التمتع بمفاتيح كليوباترا، وقفل عائداً بها إلى الاسكندرية، ولكنه لن يستطيع الانغماس في هذا الحب المشؤوم الذي سيتسبب في ضياعه إلا بعد حصوله على قسم من إرث

قيصر؛ ذلك لأن القتل في نزعه الأخير قد تبنى كايوس أوكتافيوس واختاره وريثاً أصيلاً. وقد أثار الوصية حنق أنطونيوس ولكنه لم يجرؤ على المقامرة بشعبيته إن هو انتهك الوصية أو استخف بها. أضف إلى ذلك أنه كان مهتكاً محباً للمتعة، ولا يملك التضحية بمسرات الحياة في سبيل طموحه السياسي، ومن بين هذه المسرات تلك التي كان يوفرها له أحد أجنحة قصره (قصر بومبي المصادر) جناح الحریم الزاخر بالغللمان والفتيات، ومعهم كان بمسطاقه إرواء شهواته كما يحلو له. ولكن انطونيوس لم يرغب في التخلي عن أي شيء فطالب بامتلاك كل شيء، لكنه سلم رغماً عنه بالوصية، وتنازل عن حقوقه في الميراث لأوكتافيوس الشاب ذي الثمانية عشر ربيعاً الذي سيدعى من الآن فصاعداً كايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس، بيد أنه لا يريد أن يُسلم قياده للـ«فتى» الذي كان يعزم على اتخاذ التدابير اللازمة ضد قتلة قيصر، فكان لابد من نشوب معركة بين الوريثين ولا مندوحة عن هزيمة انطونيوس ليتفق مع أوكتافيانوس ويؤلف معه ومع لبيدوس، رئيس خيالة قيصر الأسبق، ائتلافاً حكومياً ثلاثياً.

كان القادة الثلاثة بحاجة للمال، فنفوا أعداء قيصر، وصادروا عزبات ثلاثة آلاف من الشيوخ، وأموال ألفين من الفرسان، واحتفى العديد من المحكوم عليهم بلا محاكمة حفاظاً على حياتهم. وتجاوز أوكتافيانوس ولبيدوس كل المقاييس في تعطشهم للثأر. وجمع قتلة قيصر فرقاءهم تحت قيادة آل فيليب. وتقاسم الحكام الثلاثة الامبراطورية الرومانية، فكانت افريقيا من نصيب لبيدوس، وروما والأقاليم الغربية من نصيب أوكتافيانوس، ومصر واليونان والشرق من نصيب أنطونيوس. وفي ايفيزيا استقبل انطونيوس، بوصفه تجسيدا للإله ديونيزوس، ورحبت به نساء المدينة متنكرات في ثياب كاهنات باخوس وشبه عاريات، ومن هناك أوفد رسله إلى كليوباترا.

استسلم انطونيوس للشبهوات الجنسية استسلاماً أفقده احترام رعاياه لسلطته. فقد أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات، والمهرجين

والصخابين، واتخذ له زوجات ومحظيات كلما لاحت له امرأة وأعجبته. وكان قد أرسل الرسل إلى كليوباترا يدعوها للمثول بين يديه في طرسوس لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود. وجاءت كليوباترا، ولكنها جاءت في الوقت الذي اختارته وعلى الطريقة التي اختارها. فبينما كان أنطونيوس جالساً على عرش في السوق العامة، ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به، ثم يقضي لها أو عليها - ركبت هي نهر سندس في قارب ذي أشرعة أرجوانية، وسكان مذهب، ومجاديف من فضة، تضرب الماء على أنغام الناي والمزمار والقيثارة. وكانت وصيفاتها من بحارة القارب، ولكن في ذي حور البحار وربات الجمال. أما هي فقد تزينت بزى الزهرة (فينوس)، ورقدت تحت سرادق من قماش موسى بالذهب.

ولما انتشر بين أهل طرسوس نبأ هذا المنظر الفتان أقبلوا على شاطئ النهر زرافات ووحداناً، وتركوا أنطونيوس وحده جالساً على عرشه، ودعته كليوباترا إلى العشاء معها في قاربها، فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة، فأولت وليمة فاخرة، وقدمت لهم فيها أشهى الطعام والشراب، وأفسدت القواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات. وكان أنطونيوس قد أوشك أن يقع في حبها وهي لا تزال فتاة حين شاهدها في الاسكندرية، فلما أبصرها في تلك اللحظة وهي في التاسعة والعشرين من عمرها رآها قد اكتملت مفاتها، وبدأ حديثه معها يلومها على ما فعلت؛ واحتتمه بأن أهدى إليها فينيقية، وسوريا الوسطى و... كافأته هي بما يشتهي، ودعته إلى الاسكندرية، فأجاب الدعوة، وقضى في تلك المدينة شتاء بعيداً عن الهموم والأكدار يعب حب الملكة عباً، ويستمتع إلى المحاضرات في المتحف، ناسياً أن له امبراطورية في حاجة إلى من يحكمها. أما هي فلم تكن أسيرة حبه. بل كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها روما الشرهة القوية، وان السبيل الوحيدة لنجاة بلادها وعرشها هي أن تتزوج بسيد روما. ولقد حاولت من قبل أن تفعل هذا بقيصر، وهي تحاول الآن أن

تفعله بأنطونيوس، ولم يكن له هو سياسة غير سياسة مصر. فمال إلى تحقيق الحلم القديم، وهو توحيد روما ومصر، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق القتان الجميل. وبينما كان أنطونيوس يلهو ويلعب في الإسكندرية، كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيو يأتوران بأوكتافيان ليسقطاه وينتزعاً سلطانه على روما.. وماتت فلفيا من شدة مرضها، وعدم تحقيق مطامعها، وحزنها على إهمال أنطونيوس لها، وعفا أوكتافيان عن لوسيو لعله بذلك يحتفظ بالسلام بينه وبين أنطونيوس، ولكن أنطونيوس عبر البحر وحاصر جيوش أوكتافيان. وكان الجيشان أكثر حكمة من قائديهما فامتنع كل منهما عن قتال الآخر، واضطراهما إلى أن يسويا ما بينهما من نزاع تسوية سلمية. وتعهد أنطونيوس أن يكون حسن السلوك، فزوجه أوكتافيان أخته أوكتافيا اللطيفة الطاهرة.

ولم تدم تلك الفترة طويلاً، ذلك لأن أنطونيوس كان في حاجة إلى المال مستعجلة لتحقيق مراميه الطموحة، ووحدها كليوباترا كانت القادرة على تلبية احتياجاته. وبعث لقاؤهما هوأهما القديم مرة أخرى، فتزوج أنطونيوس ملكة مصر، وأرسل إلى أوكتافيا رسالة طلاق بعد أن عزم على الانفراد بإدارة دفة حكم الامبراطورية أسوة بقيصر.

وبعد توطيد حكمه في شرق الامبراطورية، سعى إلى تقويض ما كان يتمتع به أوكتافيانوس في غرب الامبراطورية، مستخدماً في سبيل ذلك براعته في المناورة، فأعلن لمجلس الشيوخ جهاراً بأنه على استعداد طوعي للانسحاب من الحياة العامة إن تنازل أوكتافيانوس بدوره عن السلطة طواعية، فتلك، برأيه، هي الوسيلة الوحيدة لاستصلاح شكل الدولة الجمهوري الذي عمل التاريخ على ترسيخه وعملت الحروب الأهلية غالباً وتكراراً على زعزعته وتقويضه. ورداً أوكتافيانوس على الرسالة رداً صاعقاً، وتخلص من وضعه الحرج هذا بأن قرأ على المجلس ما ادعى انه وصية لأنطونيوس انتزعها قسراً من عذارى فستيا، وفيها يوصي انطونيوس بأن يكون ولداه من كليوباترا ورثيه دون غيرهما، ويأمر بأن

يدفن إلى جانب الملكة في الاسكندرية. وكانت الفقرة الأخيرة من هذه الوصية حاسمة في نظر المجلس بقدر ما كان يجب أن تكون مثيرة للارتياح في صحتها، ولكنها أقتعت مجلس الشيوخ وأقتعت إيطاليا ان كليوباترا تستخدم أنطونيوس في خططها التي تبغي بواسطتها الاستيلاء على الامبراطورية. ولجأ اكتافيانوس إلى الأساليب الخداعة التي هي من أخص خصائصه، فأعلن الحرب على كليوباترا لا على أنطونيوس، ليجعلها بذلك كفاحاً مقدساً في سبيل استقلال إيطاليا.

أبحر أسطول أنطونيوس وكليوباترا إلى البحر الأيوني، وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية، ولم يكن أسطول بهذه القوة قد ظهر على متن البحر من قبل، وكان يسانده جيش مؤلف من ثلثمائة ألف من المشاة، واثنى عشر ألفاً من الفرسان.. وعبر أوكتافيانوس البحر بأربعمائة سفينة وثمانين ألف جندي من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان... والتحم الجيشان والأسطولان في معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ: وبرهن أغريبا على أنه أبرع من أعدائه في وضع الخطط، وكانت سفنه الخفيفة أسهل وأخف حركة من سفائن انطونيوس الضخمة ذات الأبراج العالية. وقد أحرقت النار هذه السفن إذ ألقي عليها بحجارة أوكتافيانوس مشاعل متقدة..

ورأى أنطونيوس ان الدائرة قد دارت عليه، فأشار إلى كليوباترا أن تنفذ خطة الانسحاب، فوجهت ما بقي من أسطولها نحو الجنوب، وانتظرت قدوم أنطونيوس. ولما عجز عن إنقاذ سفينته، غادرها وركب قارباً أقله إلى كليوباترا، وأدرك أنه خسر كل شيء حتى الشرف. أما أوكتافيانوس، وقد دعم هذا النصر وضعه السياسي، فعمل على إعادة عادة أسلاف روما القديمة إلى سابق عهدها.

وكتب الحاكم المهزوم إلى أوكتافيانوس مرة أخرى يذكره بصدقاتهما الماضية وبكل المرح الطائش الذي اشتركا فيه أيام الصبا، وقال إنه يرضى بأن يقتل نفسه إذا عفا هو عن كليوباترا، ولم يرد عليه أوكتافيانوس في هذه المرة

أيضاً. فطعن نفسه طعنة قضت على حياته، وأدركت كليوباترا أنها أخفقت هي أيضاً في الاحتفاظ على الأقل بمصر لواحد من ابنائها، فانتحرت بأن وضعت على صدرها صلاً ساماً. وحرص أوكتافيانوس، وهو الروماني الأصيل الذي يرى في تحقيق أماني العاشقين الأخيرة أمراً مقدساً، على أن تدفن كليوباترا إلى جوار انطونيوس. ولكنه، حيطة واحتراساً قتل قيصريون بن قيصر على الرغم من أن قيصر كان عمه الأكبر وأباه بالتبني، وقتل معه ابن انطونيوس البكر، فليس بمقدوره أن يعفو عن ورثي الماضي الخطيرين، وهو المتطلع إلى أن يكون الوصي الأوحده على روما المستقبل بدون منازع، ذلك المستقبل الذي وضع قيصر أسسه.

إن أوكتافيانوس، هذا النحيل، والشاحب، والعليل الذي لم يتغلب قط على ما فيه من خجل فطري، لم يكن يطالب بمراتب الشرف ولم يرد في يوم من الأيام لقب الحاكم بأمره (ديكتاتور)، إن كل ما كان يريده هو أن يخلع عليه الشيوخ السلطات التي جعلته ملكاً في كل شيء ماعدا الاسم وحده، وسماه مجلس الشيوخ *princeps senatu* (الأول في ثبت أعضاء مجلس الشيوخ — والزعيم)، واكتفى بهذا التعيين، وتخلّى رسمياً عن كل منصب ماعداه، ولحملة على العودة عن تخليه هذا، توسل المجلس إليه ملتصماً بقاءه هادياً للدولة ومصرفاً لشؤونها، ومنحه لقب أوغسطس اعترافاً من الأعضاء بإسهاماته في ازدهار الامبراطورية، وهذا اللقب المقدس مشتق من الفعل «*augere*» (زاد)؛ هو لقب يخص آلهة الطبيعة التي تعزز، بموهبة الخلق عندها، نماء الخيرات وازدهارها. وبدوره أضفى كايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس على اللقبين، الزعيم وأغسطس، بهاء مستديماً، واستطاع بفضل مزاياه كرجل دولة، وتبصره تنظيم الامبراطورية، وأحل النظام فيها، وبواسطة كريم رعايته الأثيرة للآداب والفنون استخدم الامبراطور قيصر أوغسطس (وهو الاسم الذي أطلقه على نفسه *l'imperator Cesar Auguste*)، الشعراء والمتساهلين من المؤرخين المكلفين، لينشروا الفكرة القائلة: ليست عظمة روما إلا تلبية لرغبة الآلهة، ولا سبيل إلى

ترسيخ هذه العظمة إلا بإحياء العقيدة الرومانية التي كان أوغسطس يربها ويشجعها. وقد نجح الشعراء والمؤرخون تمام النجاح في عرض الأمور على هذا المنوال، فانقلت هذه الفكرة إلى الخلف بوصفها حقيقة لا ترد. وألف فرجيل الإنيادة تمجيداً لأصل قيصر الإلهي، وكتب تيت - ليف تاريخ روما، وردد هوراس في قصائده الغنائية «من الجميل أن نموت في سبيل الوطن» على الرغم من فراره من المعركة الوحيدة التي شارك فيها.

حتى أوفيد الذي كان يروق له إنعاش قصائده في العشق بوجود الآلهة والإلهات لم يتريب في أن يعلن: «إن من أسباب الراحة للإنسان أن تكون هناك آلهة وان نعتقد بوجودها».

نجح أوكتافيانوس فيما أخفق فيه قيصر لأنه كان أكثر من قيصر صبراً، وأوسع منه حيلة، ولأنه كان يفهم فن الألفاظ والأشكال، ويرضى أن يسير سيراً وثيداً حذراً في المواقف التي اضطر فيها عمه العظيم لضيق وقته أن يخرج على التقاليد المرعية، ويحدث في نصف عام من حياته من التغييرات ما يتطلب جيلاً كاملاً. وفوق هذا فقد كان المال موفوراً لدى أوكتافيانوس.

وبينما كانت هذه الأموال الطائلة تتسرب من يديه كان هذا الأميراطور المتواضع يعيش عيشة بسيطة خالية من مظاهر العظمة، ويتجنب ترف النبلاء، ومتع المنصب وأبهته، يرتدي الأثواب التي تنسجها له النساء في بيته، وينام على الدوام في حجرة صغيرة في الدار... وكانت متعته الوحيدة أن يفر من الشؤون العامة بركوب زورق تدفعه الرياح دفعاً بطيئاً على طول ساحل كميانا.

لم يكن أوغسطس (أوكتافيانوس)، وهو حفيد رجل مصري، يخالجه أدنى شك في أن خير سياسة اقتصادية هي السياسة التي تجمع بين الحرية والأمان. ومن أجل ذلك وفر الحماية لجميع طبقات الأمة بسن القوانين، وبالذقة في تطبيقها، ووضع في الطرق العامة حراسة قوية، واقترض ملاك الأراضي المال من غير فائدة؛ وهذا نائرة الفقراء بما وزعه عليهم من قمح للدولة، وبالقرعة والهدايا في بعض

الأحيان. أما فيما عدا هذا فقد ترك للمشروعات الخاصة، والإنتاج، والتبادل، حرية أوسع مما كان لها من قبل، على أن الأعمال التي تديرها الدولة كانت مع هذه الحرية كثيرة متنوعة إلى حد لم تبلغه من قبل.

لقد أشقى أوغسطس نفسه إذ حاول أن يصلح قلوب الناس ويسعدهم معاً، وكان ذلك تطاولاً منه لم تغفره له روما أبداً، ذلك أن إصلاح الأخلاق أشق أعمال الحكام وأكثرها دقة وخطورة، وقل من الحكام من جرؤ على محاولته، وقد تركه أكثرهم للمنافقين أو القديسين.

كان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبئاً ثقيلاً على آبائهم أو لعباً يتسلون بها على أحسن تقدير، بعد أن كانوا مصدر ربح لهم. واشتدت رغبة النساء في التحمل واجتذاب الأموال بعد أن كن يرين أن خير زينة لهن هي إنجاب الأبناء. وقصارى القول أن الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت بحافية لحاجات العنصر الروماني الأصيل. ومما زاد الطين بلة أن السعي وراء الهبات والوصايا أضحي وقتئذ أكثر الأعمال ربحاً في إيطاليا. فقد كان الرجال الذين لا أبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوت من لهم أبناء، يستقبلون فيها ويطعمون، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة، حتى أصبحت سبباً آخر من أسباب العقم. يضاف إلى هذا أن طول سني الخدمة العسكرية حال بين كثيرين من الشبان وبين الزواج في أكثر سني العمر صلاحية له. وامتنع كثيرون من الرومان عن الزواج بتاتاً، وفضلوا الاتصال بالعاشرات أو اتخاذ السراري والعشيقات حتى على تعدد الزوجات. ويلوح أن الكثرة العظمى من المتزوجين عمدت إلى تحديد عدد أفراد أبنائها باللجوء إلى إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل.

أصدر أوغسطس طائفة من القوانين - أو لعله حمل الجمعية على إصدارها - تهدف كلها إلى تقويم الأخلاق، وتشجيع الزواج، والوفاء بين الأزواج. والأبوة الصالحة، والحياة البسيطة، والعودة بها إلى السنن القديمة. وحرّمت هذه القوانين على المراهقين والمراهقات أن يحضروا دور اللهو العامة إلا في صحبة الكبار من أقاربهم، ومنع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية، وكان من أهم هذه القوانين القانون الخاص بالعفة ومنع الزنى.

وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة في التاريخ الروماني تحت حماية الدولة بعد أن كان متروكاً لسلطة الآباء في أسرهم. واحتفظ الأب بحقه في قتل ابنته الزانية هي وشريكها ساعة أن يضبطهما متلبسين بهذه الجريمة، وأجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه في منزله، أما زوجته فلم يكن له أن يقتلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء في بيته هو. وكان يطلب إلى الزوج الذي يكشف عن خيانة زوجته أن يأتي بها إلى المحكمة في خلال ستين يوماً من هذا الكشف، فإذا لم يفعل هذا كان يطلب إلى والد الزوجة أن يقوم بهذا العمل؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأي مواطن أن يتهمها. وكان عقاب المرأة الزانية أن تنفى من البلاد طوال حياتها، وأن تجرد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها، وان يحرم عليها الزواج مرة أخرى. وقد قررت هذه العقوبات نفسها على الزوج الذي يتغاضى عن زوجته الزانية. غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنى، فقد كان له أن يتصل بالعاهرات الرسميات المسجلات دون أن يعاقبه القانون، ولم يكن هذا القانون يطبق إلا على المواطنين الرومان.

بيد ان إحياء الديانة، وتشيد المعابد الجديدة الفاخرة لآلهة روما، وبعث الشعائر القديمة بصورة رسمية، لم تكن بكافية لمعالجة ما جرته الحروب الأهلية وصراعاتها على الأخلاق من فوضى، لقد وطد أوغسطس سلطانه المطلق على روما بالحسن، ولكن دوغما ضعف أو وهن، ودون أن يحس القوانين الجمهوريّة

الأساسية، وكان الخلق يمتدحون إدارته لشؤون روما كما يدير الأب شؤون أسرته، ويوصفه أباً للوطن راح يعمل على إعادة النظام إلى حياة المواطنين الزوجية إلى سابق عهده بعد أن تقوض هذا النظام بصورة لا سابق لها.

تكاد مآسي أغسطس وهزائمه كلها أن تكون في داخل بيته وأول ما نذكره من هذه المآسي أنه لم يرزق من زوجاته الثلاث إلا طفلة واحدة. ولا شك في أن جمال ابنته يوليا وخفة روحها قد متعاه بالكثير من أوقات السعادة في أيام طفولتها. ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها أقنع أكتافيا بأن تسمح بطلاق ابنها مارسلس من زوجته، وأغرى الشاب بأن يتزوج يوليا، ولكن مارسلس توفي بعد سنتين من هذا الزواج؛ وبعد أن حزنت عليه يوليا حزناً قصير الأجل شرعت تستمتع بحرية طالما تاقت نفسها إليها. غير أن الامبراطور الشديد الولع بعقد عقود الزواج لم يلبث أن حمل أغريبا على كره منه على أن يطلق زوجته ويقترن بالأرملة المرحه، راجياً أن يثمر هذا الزواج حفيداً له يرثه بعد وفاته. وكانت يوليا وقتئذ في الثامنة عشرة من عمرها، أما أغريبا فكان في الثانية والأربعين، ولكنه كان رجلاً صالحاً عظيماً وكان له من الثروة ما يجيب الناس فيه. وقد جعلت يوليا بيته في المدينة ندوة للمرح والفكاهة، وأضححت هي روح الشباب المرح في العاصمة. وانطلقت الألسن تتهم يوليا بخيانة زوجها الجديد وتعزو إليها جواباً غير معقول عن سؤال غير معقول كذلك، فقد قيل إنها سئلت لم كان ابناؤها الخمسة الذين ولدتهم لأغريبا مشابهين له فأجابت: «إني لا أقبل ركباً قط إلا إذا كانت السفينة قد امتلأت.. ولما مات أغريبا عقد أغسطس آماله على ولدي يوليا الأكبرين وغمرهما بحبه، وعني بتربيتهما. وأضححت يوليا أرملة مرة أخرى، وكانت أبيع جمالاً وأكثر ثراء من ذي قبل، فاندفعت مستهتره في كثير من مغامرات العصور التي فيها ألسنة أهل روما وجعلتها موضع تندرهم وهوهم، وأراد أغسطس أن يقطع ألسنة السوء عن الولوغ في عرضه ولعله أراد أيضاً أن يزيل ما بين زوجته وابنته من شقاق فزوجها مرة ثالثة، فأرغم

تبير يوس ابن ليفيا على أن يطلق زوجته الحامل وأن يتزوج يوليا التي لم تكن أقل منه كرهاً لهذا الزواج. وبذل هذا الشاب - وكان من الطراز الروماني القديم - غاية جهده لكي يكون زوجاً صالحاً، ولكن يوليا لم تلبث أن امتنعت عن بذل أي جهد للتوفيق بين حياتها الأبيقورية وحياته الرواقية، وعادت إلى مغامرات الحب الخفية، وصير تبير يوس على هذه الفضائح وكظم غيظه إلى حين، وكان القانون الخاص بالزانيات يطلب إلى زوج الزانية أن يشكوها إلى المحاكم، ولكن تبير يوس عصى هذا القانون لكي يرد الأذى عن واضعه، ولعله أراد بذلك أيضاً أن يرد الأذى عن نفسه.. وخلا الجو ليوليا، وكان لها من الحرية ما لم تستمتع به قط من قبل فأخذت تنتقل من عشيق إلى عشيق حتى كان قصف عشاقها ومرحهم يملآن السوق العامة صباحاً وضجيجاً طوال الليل، وقاسى أوغسطس وقتئذ. وهو شيخ محطم في الستين من عمره، كل ما يقاسيه أب وحاكم يشهد بعينيه انهيار أسرته وشرفه وشرائعه. وكانت القوانين تحتم على أبي الزانية أن يتهمها بالزنى علناً إذا لم يقيم زوجها بهذا الاتهام. وقد عرضت عليه أدلة قاطعة على سوء سلوكها، ولما أعلن أصدقاء تبير يوس أنهم سيتولون هم اتهام يوليا أمام المحاكم إذا لم يتهمها أوغسطس، قرر أن يسبقهم، فأصدر قراراً بنفي ابنته إلى جزيرة بنديريا، وهي صحرة جرداء بالقرب من شاطئ كمانيا، في الوقت الذي بلغ فيه مرحها وفسادها ذروتها، وأرغم أحد عشاقها وهو ابن من أبناء أنطونيوس أن ينتحز، ونفى عدداً آخر من العشاق خارج البلاد، وقتلت فوبي إحدى «معتوقات يوليا نفسها شنيقاً مفضلة ذلك على الشهادة عليها»، ولما سمع الوالد المنكوب بهذا النبأ قال: «وددت لو أنني كنت والد فوبي ولا أكون والد يوليا».

وما من شك في أن أوغسطس كان يتحسر إذا ما عاد بذاكرته إلى تلك الأيام الجميلة، حين كان قلبه يفيض بالسعادة إذ رأى يوليا وأغريبا من حوله، أو شاهد أحفاده يرحون ويلعبون في أرض قصره. وها هو ذا يرى يوليا أخرى ابنة ابنته قد شبت عن الطوق وأخذت تسير سيرة أمها، كأنها أخذت على نفسها أن

توضح للناس جميع ما ورد في أشعار صديقها أوفيد من أفانين العشق. ولما جاءت أوغسطس الأدلة القاطعة على أنها زانية نفاها ونفى أوفيد في الوقت نفسه، وبروز أن الأمبراطور اليائس الضعيف قال وقتئذ: «ياليتني لم أتزوج قط، أو ياليتني مست دون أن يكون لي ولد!» وقد فكر في بعض الأحيان أن يميت نفسه جوعاً.

ووافته المنية وهو هادئ ساكن، وكان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره، وقال لأصدقائه الذين التفوا حوله وهو على فراش الموت تلك الكلمات التي طالما احتتمت بها الملهة الرومانية: «والآن قد أتقتت تمثيل دوري، فصنمكم بأيديكم وأخرجوني من المسرح بتصفيقكم»، ثم عانق زوجته وقال: «تذكرني عشرتنا الطويلة ياليفيا. الوداع!».

كان أوفيد (بوبليوس أوفيدوس ناسو) أحد أثري حفيده أوغسطس المأخوذة بكل أنواع متع الحياة ومسراتها، وكان أبوه وهو من أصحاب الأقطاب الأثرياء، قد أرسله إلى روما للدخول في سلك القضاء، فغدا الشاعر اللعوب المنتهك، وها هو في قصائده الأولى «الغزليات» يغزو قلوب العذارى الرومانيات، العاشقات، ويسيطر على عقول الرومان بتلقيه لهم فن الحب. والغزليات فصائد تدور حول حب أوفيد لامرأة اسمها كورينا، فكان يعلمها، ويمتدحها، ويتشاجر معها ليصالحها بعد كل شجار بأعذب العبارات وأرقها. وكان يخدعها وهي بدورها تخدعه، ولكن ماهم؟ فكلاهما اختير الحياة واكتسب تجاريف جديدة تزيد في رونق حبهما وجماله في كل مرة يلتقيان فيها من جديد. فمن هي يا ترى تلك المرأة كورينا التي أقسم أوفيد وهو في مضجع زوجها «وفاء أبدي في الزنى؟»، وعلى هذا السؤال أجاب أوفيد في واحدة من قصائده: «لا تستحني على الحب امرأة بعينها..» كان أوفيد يحب كل النساء: «ليس الذي يثير عاطفتي الجمال الثابت؛ بل إن ثمة مائة سبب تحفظ لي حيي، فإذا رأيت فتاة جميلة ذات عيني ناعستين مطرقتين إلى حجرهما اشتعلت نار الحب في قلبي، وأسررتني بسذاجتها، وإذا رأيت فتاة خليعة، اخترقت سهام لحاظها قلبي، لأنها نبست

قروية ساذجة، ولأنها تقوي أمني في أن أضمرها إلى صدري على فراشي الوثير، وإذا تمنعت وتظاهرت بالعناد والصلابة حكمتُ بأنها ستخضع لي لا محالة، ولكنها تمنع في خداعها. وإذا كانت عالمة ضليعة بما في الكتب استهوتني بشمائلها النادرة.. وتخطر إحداهن الهوينا فأحبها لحسن خطاها، وتخطو أخرى بقوة، ولكنها ترق إذا طاف بها طائف الحب.. وإذا غنت بصوت شجي.. خطفت منها القبلات في أثناء غنائها، وإذا عزفت أخرى بأناملها الرشيقة على الأوتار الشاكية - فمنذا الذي لا يقع في حب هاتين اليدين الماهرتين؟ وهذه تأسرنى بحركاتها، فهي إذا ما حركت يديها في اتزان وانسجام أو تفننت في ثني خصرها الرقيق، تذكي النار في قلبي الذي تلتهب فيه نيران الحب لأقل الأسباب.. ضع هيبوليت (*) (هيبوليتوس) في مكاني يصبح بريابوس (برياب)!. .. إنني لتفتنني الطويلة والقصيرة على السواء، فكلتاهما تضرم النار في قلبي.. وإنني لأتقدم إليهما ضارعاً متوسلاً أن تسجيا لحيي».

وكان أوفيد يعتذر عن عدم التغيي بمجد الحرب، وقال إن كيوييد جاءه واختلس قدماً من شعره وتركه أعرجاً. ويعلم أوفيد كورينا كيف تتحدث إليه بالإشارات وهي مضطجة على فراش زوجها، ويؤكد لها أنه سيبطل وفيأ لها أبد الدهر، وأنه لن يزني بغيرها أبداً: «فلمست زير نساء يتنقل من هذه إلى تلك ويجب مائة امرأة في وقت واحد». ثم يحظى بها آخر الأمر ويكتب قصيدة ابتهاجاً بنصره، ويثني فيها عليها لطول صدها عنه، وينصحها بأن تعود إلى هذا الصد من حين إلى حين، حتى يدوم حبه لها إلى أبد الدهر. ثم يخاصمها ويضربها، ويندم على فعلته، ويجزن ويجن بحبها أكثر من ذي قبل، ويفعل ما يفعله روميو فيتوسل إلى الليل أن يطول وإلى الفجر ألا يطلع، ويرجو أن تهب ريح مواتية فتحطم قطب عربة الفجر. وكان أوفيد يسمي روما «مدينة فينوس»

(*) هيبوليتوس مثال العفة وبريابوس مثال للدعارة. - المترجم..

وقال فيها: «مدينة غنية بالفتيات غنى البحر بالأسماك والغابة بالطيور»، فأين وكيف كان يغوي هؤلاء الفتيات الرومانيات الفاتنات؟

هذا ما كان يلقنه للرجال في أشعار ديوانه (فن الحب)، ويدعوهم للسعي وراء النساء «تحت شرفات المسارح، وفي المعابد والساحات العامة، حيث يتردد الحب» فبالقرب من معبد فينوس في إطار المسرح حيث يعرضون خطف السابينات، يهمس أحد الخاطفين في أذن عروسه الفريسة:

«لم تطمسين سحر عينيك بالدمع»^(١)

وأنا لن أتجاوز ما فعل أبوك بأملك!»

والعاشق الجسور يعلم أنه سيجد في السيرك الفرصة المؤاتية للشروع في حديث مع إحدى الجميلات، وإذا ما تدلى ثوبها على الأرض، بادر واثباً ليرفعه بيديه الخادقتين، وإذا ما لمح ذرة غبار تهبط على ثوبها فوق الفخذ، دفعها برفق بأنامله: «إن معروفاً مهما قل شأنه يسعد النفوس الرهيفة»، وان وليمة تشارك فيها من تحب تقرب بينكما بصورة لا تصدق. «الحب مخبوء في الخمر»

«وما أكثر ما تتيح الولائم من فرص،

ترتشفون فيها إلى جوار النبيذ نشوة أخرى

ورب الهوى المتألق البشرية،

بذراعيه الناعمين يحوط قرني باخوس معانقاً،

ثملاً يستلقي في المأدبة

وعندما يغمر النبيذ أجنحة كيوييد العطشى،

(١) جل أشعار أوفيد استقيتها من كتابه «فن الهوى»، ترجمة الدكتور ثروت عكاشة الرائعة. -

يدعن أسيراً وينوء جسمه عاجزاً لا يبرح
ثم ما يلبث أن ينفض جناحيه ينضو عنهما الليل
فتتطاير قطرات تلمس الصدور
وتنفذ إلى القلوب وكأنها سهامه
البييد يهب الشجاعة، ويؤجج في الرجال لواعج العاطفة المشبوبة
ينتحر اهم غريقاً في بحر من هم، ويطل الضحك.
حتى المعدم منا، تشرق روحه... ينبض فرحاً،
المحسر الحزن عنه وانبسط جبينه.
فإله الخمر يجلو ما يجبي معاقرها ويحل لسان الثمل،
فيثرت في صراحة، ما أندرها في هذا العصر
لحظتها تستلب الأنثى لبّ الذكر،
فينوس في كأس الخمر نار تتوهج في نار
وحذار أن يستهويك خداة المصباح الخافت ساعة تشمل»
والرجل الائق من نفسه قادر على أن يوقع في شراكه المرأة التي يشتهي،
ذلك لأن اللذات المختلصة تروق للنساء كما للرجال، «فإن نحن اتفقنا على
الامتناع عن استعطافهن، جئن إلينا ضارعات».

«المرأة مهما تتأبى صيد يقتنص

انصب شركك تظفر

فلقد يسكن تغريد الطير في الربيع

وينقطع صرير الجندب في الصيف

ويعدو كلب الصيد فراراً من الأرنب البري

قبلما تنجح المرأة في صد عاشق يجيد الغزل.
حتى من تحالها تتمنع، يمكن أن ترضخ
وكما ان الحب المختلس للرجل لذة، فهو كذلك للمرأة لذة
يخفق الرجل عن إخفاء مشاعره، بينما تفضله المرأة في إخفاء رغبتها.
آه، لو أمكننا أن نتماسك، نكيح أنفسنا
ألا نبدأ بالإقدام ولا نسعى للمرأة نتوسل
إذن لانقلب الحال وتوسلت المرأة»
كان أوفيد يستقي امثولاته من عالم الحيوان.
«لو أننا نتأمل دروس الكون، لسمعنا في المرج الناعم
خوار البقرة يدعو الثور
وصهيل الفرس تنادي الجواد ذا الحوافر الصلدة
الشهوة فينا أدنى، إن قيست بسعار المرأة»
ولسوف يتنبه العاشق النبيه ويحذر من الإمعان في إظهار رغبته للآخرين،
ومن الحصافة أن يستخدم واحدة من الرقيق وسيطاً أو أن يكتب رسائل عشقه،
فإن النساء كافة يسعدن بقراءة رسائل حب تلقينها سراً..
«أي شباب روما،
عليكم بفنون القول الرفيعة
لا تقصروها على موكليكم المتوجسين خيفة
فما تقل المرأة استسلاماً لسحر البلاغة
عن القاضي الصارم أو..
ولكن احذر الإغراق في بلاغتك أو الإسراف في فصاحتك

ومن غير الأحق يفرغ حديثاً طناناً في أذن حبيته الرقيقة
كم من رسالة تنبض بالحماسة الجياشة أورثت النفور!
فليوح أسلوبك بالثقة والبساطة
ولنتق من الألفاظ المألوفة أعذبها
لتجعلها تحس صوتك عند قراءتها»

وكان لا يروق لأوفيد أن يصف طريقة الشروع في علاقة غرامية، وإنما
كان يسدي النصيحة للعشاق ليلبغوا بهذه العلاقة حسن الختام. وهو على ثقة بما
تبتكره مخيلتهم في اختيار الطريقة التي يلهون بها ويعشقون، وعلى ثقة أيضاً أن
كل إنسان يعشق على طريقته، ولكن لا بد للرجل من أن يصون ذاته ويعتني
بنفسه، فعليه أن يكون نظيفاً، ويُستحسن أن تلوحه الشمس وتسفحه (لون بني
مشرب بحمرة)

«عار أن تبقى بشرة الملاح بيضاء
الملاح الحق من يلوح بشرته وهج الشمس وملح البحر،
والفلاح الكادح وسط عراء الحقل لا تبقى بشرته بيضاء،
بينما يفلح الأرض بمحراثه المقدس ومسحاته الثقيلة
والرياضي الطامح في أن يتوج هامته إكليل غار الربة بالاس،
يحرص على ألا يبدو البياض على جسده»

وعلى العاشق أن يرتدي حلة رومانية نظيفة، ويتعل حذاءين يتطابقان مع
قدميه بانسجام، وان يكون سليم الأسنان، وأوفيد لا ييخل بإسداء النصح
لتلامذته في فن الحب:

«ولا حاجة بك أن تصفف شعرك بالمكواة
ولا أن ترقق سيقانك بمحجر الخفاف

دع هذا للخصيان المتفنين لربتهم كويبي
يانشادهم المحموم الفريجي النغمات
فالأحرى بالرجل ألا يغالي في زينته
فقدماً غزا ثيسوس قلب أريادني ابنة مينوس
دون أن تزين دبابيس الشعر فوديه
ولتكن عباءة التوجا مناسبة لقدك
وثوبك خالياً من الشوائب
وأربطة نعلك مشدودة
ولتجل صفرة أسنانك حتى تتألق
واختر لقدمك حذاء لا تفرق فيه ولا تضل
ولا تسلم شعرك الجعد وذقنك المهوشة ليد حلاق حامل
قلم أظافرك البارزة، وأطرح عنها القذى،
وانزع الشعيرات المطللة من تجويف أنفك
ناشدتك الرفق بالناس من بخر يفوح به فمك
ولا تحاك برائحتك عطن القطيع وراعيه يشب في خياشيم الناس
واترك ماعدا ذلك من ضروب الزينة والتأنق للغانيات،
وللذكور المتيمين يارضاء شهوات نظرائهم».

بيد أن متطياً مزهواً بنفسه ويتصنع الظرف لا يروق للنساء الرومانيات:
«دع عنك هذه الكماليات العقيمة للفتيات الرخيصات... وأوفيد الذي يزعم
بأنه «أستاذ الحب»، والذي لا يعير منشورات أوغسطس الصارمة أي اعتبار،
كان يلقن النساء أيضاً متع الحب وسعادته، ولكن تعاليمه لا تتعلق باقتزان

الأزواج العفيف، وإنما تتعلق بتلك المتع العابرة التي تتوفر للجنسين». فعلى النساء ألا يتجردن من أسلحتهن أمام غزو الذكورة هن:

«إن أكن قد سلّحت الإغريق لغزوكن
فقد أخفيت لكن في جمعتي أسلحة فتاكة
حتى تقودي محارباتك في معركة متكافئة
فيلحقن الهزيمة بمن تحبهم فينوس الحانية بعطفها
بيننا يؤازرهم الصبي الضارب بجناحيه في آفاق العالم
ماكان من العدل أن تقف صبايا عزلاً
في مواجهة رجال مدججين بالسلاح
وكان يليق بكم أيها الرجال مثل هذا النصر الهين
رب أحدكم يقول:
لِمَ تضيف إلى الحياة مزيداً من سم»

ولسوف أبدأ حديثي عن وسائل العناية بالجمال «أنصحكن يابنات العصر: لا تثقلن الأذان بنفيس الجواهر التي يجمعها الهندي الباهت اللون من أعماق الماء الأخضر».

«ولا تخطرن مثقلات بثياب مطرزة بالقصب
ما أنفرننا من أبهة براقه ترفلن فيها لنقع في شراككن
ولكن ما أسلسنا أمام أناقة بريئة تبدون فيها
لا ترسلن شعوركن غير منسقة
فلمسة كف تضيف عليها جمالاً أو تحرمها منه
ولا يذهب بكن الظن، أن هناك أسلوباً فريداً للتجميل»

.....

«فأطيب أنبذة باخوس نتاج الكروم التي تحظى بأجل عناية
فإذا سرحت الطرف في حقل نال الرعاية، لشهدت وفرة محصوله
وإن رعاية الأجساد تمنح ملاحظة المظهر، بينما يذهب الإهمال بالجمال،
حتى لو كنتن في روعة فينوس ربة جبل ايدا».

ولم تكن نصائح أوفيد التي يسخو بها على النساء إلا تعبيراً عما يروق له
هو. فعلى الجميلات كي يرقن له ولأضرابه من الرجال أن يعمن في الاعتناء بما
تميز به أشكالهن من مزايا خاصة «فلتختر كل واحدة منكن ما يناسبها،
ولتلمس في مراتها النصيح»، فلن تحتاج صاحبة الوجه البيضي لغير مفرق بسيط
في شعرها،

«ذلك ما أضفى الحسن على لاوداميا
وصاحبة الوجه المستدير تكتسب جمالاً
بكعكة صغيرة من الشعر فوق الجبين تكشف أذنيها
ولترسل واحدة شعرها على كتفيها
هكذا فعلت يافوبوس بينما تعزف على القيثارة
ولتضفر أخرى جدائل شعرها على نسق ديانا وهي تطارد الوحوش المرتاعة
يليق بهذه الفتاة أن تدع شعرها ينساب طليقاً
وبتلك أن تجس غدائرها المصفورة في عناية
وهذه ينفعها مشط من درع السلحفاة الكيلينية
وتلك تدع شعرها يتموج تموج البحار.»

ولكن على النساء، إذا ما لجأن إلى استخدام مثل هذه المنتجات الجمالية،
أن يستخدمنها بحذق واحتراس، كيلا يكتشف العاشق حيلهن في التستر على ما
أفسدته الطبيعة فيهن:

«فلتبق الخديعة سرّاً دفيناً»

وعلى كل امرأة بالطبع أن تحافظ على نظافة أسنانها وسلامتها.

«ما أغناني عن أن أرشدك إلى الحفاظ على نضاعة أسنانك»

والعناية باستخدام خضاب أبيض لتبدو شاحبة، أو مسحوقاً أحمر..

«ولأنت أعلم كيف تكسين بشرتك بالمساحيق، ففن التجميل قدير

على إكسابها نضارة ساعة يتخاذل الدم في عروقك».

وفي غياب الحاجيين يصلح الحال تزجيج مرسوم بالفحم

«وبالفن أيضاً تزججين حاجبيك الناحلين»، فالرجال نادراً ما يلاحظون

مالا علم لهم به، «ولا تنسي أن تبعدي الرجال عنك ساعة صنعك لجمالك».

كان أوفيد يؤكد مدهماً أن الزواج جدير بالاحترام، وكان يدعو إلى

مراقبة الزوجات بما يتماشى مع الأخلاق والحق والقانون، ولكنه كان في

الوقت نفسه يسدي النصح للنساء ويقدم لهن الوسيلة للتحايل على الرقيب

وإفساد الحراس، أضف إلى ذلك أن بمقدور العشاق، بفضل تنكرهم بزِي

النساء، الالتقاء بصواحيهن في معبد فاونا المخطر على الرجال الدخول إليه. كما

ان الصديقات اللاتي يزورهن عشاقهن تحت رداء من العفة والبراءة يقدمن

مضجعهن لزوارهم وهن راضيات؛ فتتوفر على الدوام المفاتيح العمومية لفتح

الأبواب الموصدة، والأنبذة المخدّرة لتنويم الحراس ومغافلتهم، مع أنه من

الأفضل شراء سكوتهم بالهدايا.

«أوشكت أن أغفل عن تناول الأساليب التي تخدعين بها زوجاً ماكرًا

أو حارساً يقظاً.

فلا بأس أن تخشى العروس زوجها

وان يحرسها هو أدق حراسة
تلك وصايا الشرائع والعدالة والأخلاق
ولكن لا يسوغ للزوج أن يتجسس عليك
هلمي إلي لألقنك أسرار مخادعة الحراس
فستفتين منهم جميعاً ولو انتشروا من حولك بعدد أعين أرْجُس
فكيف لحارسك أن يحول دون تسطير رسائل عشقك
وأنت بعيدة عن نظره في جوف الحمام؟
أو يستطيع أن يمنع خادمة لك من أن تحمل أسرار غرامك
في لوحات تخفيها تحت وشاحها لصنق صدرها الدافئ
أو في جوربها بين باطن القدم وخُفِّها؟
وهي أن حارسك يسد عليك المنافذ كُلِّها
فلتتخذي من ظهر نجبتك لوحات الكتابة
ولتنقشي كلماتك على جسدها كله
وثمة نوع من الكتابة أراه مأموناً يخفي عن العين، هو الكتابة باللبن الطازج،
فإذا ذُرَّ عليه مسحوق الفحم بدا مقروءاً

.....

.....

ما جدوى تبديد الوقت بصياغة نصائح ذائعة مألوفة
بيننا تكفي رشوة صغيرة لشراء ضمير الحارس؟
صديقي، الرشوة تشترى الآلهة والبشر جميعاً

للهدية سحر يكمم أفواه السذج والحكماء على السواء
لكني أنصحك بأن تقدمي لحارسك رشوة تسد فمه طويلاً
وستلقينه بعدها مغمض العينين دوماً
فمن كبا مرة ألف السقوط مرات»

إن كل هذه التعليمات والإرشادات والملاحظات التي يوزعها أوفيد على «الجميلات الممتعات» تشكل تمهيداً للغاية المشتركة التي يتوق إليها الجنسان كلاهما، ألا وهي الاتحاد الجسدي، فعلى جميع النساء الراغبات في خدمة إلهة الحب أن يُتقنَ فن التمتع باللذة الجنسية، وكيفية الذهاب بهذه المتعة نحو الأفضل، فهذا أمر لا غنى عنه.

لكن أوفيد يخجل علينا بأمثلته، مقتصراً على التلميح بالمبدأ كيلا يفزع تلميذاته بفاحش الكلام أو عبارات الواقع القاسية. كان أوفيد يعلم في لبوس شاعر، وهو يعرف أن كل خروج فظ عن الموضوع يفسد الانطلاقة الغنائية ويُفقد الشعر حرارته، فاقصر على الإلماع خلسة إلى أن جميع الأوضاع لا تناسب جميع الأجساد الأنثوية:

«بقي الآن حديث يحرر له وجهي خجلاً
لكن فينوس بدلالها تحفزني ألا أتردد هامساً:
كل ما يبعث الحمرة في الخلود هو أيضاً من جوهر اختصاصي:
فلتعرف كل امرأة جسدها معرفة حقه،
حتى تنتقي أسلوبها وفق مفاته
فليس ثمة أسلوب واحد يناسب الجميع على السواء»

فإذا كان للمرأة وجهاً فاتناً عليها، إذا ما اضطجعت، ان تبرز وجهها، وعلى تلك المرأة القصيرة جداً أن تختار وضع الفارس، أما إذا كانت طويلة الساقين جداً، فمن الملائم لها أن تجثو، وإذا كان لفخذيها نضارة الشباب، وليس في نهديها أي عيب فلتتمدد بعرض السرير، والرجل واقف قبالتها، أما إذا غزتها التجاعيد والتغضضات فلتتخذ وضع الفارس الذي يولي ظهره لعنق الفرس.

وهناك ثمة ألوف مؤلفة من الطرق للتمتع بالحب، لكن أسهل الأوضاع للمرأة وأجمعها هي تلك التي تتمدد فيها المرأة على جنبها الأيمن مستندة باسترخاء.

واعتماداً على تجاربه وخبراته التي تبدو له برهاناً لا يرد، يبدي أوفيد رأيه معلناً أن اللذة لا تكون كاملة إلا إذا تمتع الرجل والمرأة كلاهما وشفى كل واحد منهما غليله. أما إذا اتفق ولم تشعر المرأة بأي شيء فعليها مع ذلك أن تطلق صرخات خفيفة وكان سوررات عاطفية لا مثيل لها بتاحتها.

قدّر هواة الفن الرقيق من كلا الجنسين «فن الحب» لأوفيد، ورأوا فيه احتجاجاً جريئاً ضد قوانين أوغسطس الأخلاقية المتشددة. وأوفيد الذي اعترف به الجميع مرشداً يدعو إلى حياة حرة وهنية، لم يكن ليخشى أيأ كان مادام يتمتع برعاية الجمهور وحمائته، «مادامت شهرتي قد طبقت العالم كله فإنني لا يعنيني قط ما يقوله عني شخص أو شخصان» ولم يكن، وهو يقول هذا، يعرف أن أحد هذين الشخصين الحقيرين هو أوغسطس نفسه، وإن قصائده قد أغضبت الزعيم، وأنه يراها إهانة لحقت بالقوانين اليوليوسية وأنه لن ينسى هذه الإهانة حين تخطر الفضائح الامبراطورية على بال الشاعر الغافل. ورأى الشاعر أنه من المستحيل لأوغسطس أن يعاقبه على ما بثه من أشعار خفيفة في حين يغفر لحفيده وصواحبها مغامراتهن

الفاجرة. ومن ملاحظاته حول المجتمع الروماني، ومن حياته الخاصة، خلص أوفيد إلى أن القوانين عاجزة عن تغيير الأخلاق في روما. لقد كانت روما وستبقى مدينة فينوس.

لم يقنع الأزواج بما كانت توفره لهم بيوت الدعارة من متع مشروعة، ولم تسمح الزوجات للقيود الصارمة أن تكبت رغباتهن في العشق، فالثمرة المحرمة ألد مذاقاً من الثمرة الحلال: لذلك فإن أخلاق الشعب الروماني بقيت على حالها، على الرغم من نفي أوغسطس لحفيدته يوليا الصبية، كما نفى أمها سابقاً، ومن نفيه لشاعر «فن الحب» الذي عاش بقية أيامه على شواطئ البحر الأسود.

وبقدر ما عاش أوغسطس طويلاً، منتقماً لما حل به من خيبات أخلاقية جرأها عليه الأقربون، ومنزلاً بالمنتهكين لحرمة الآداب عقوبات لا ترحم، آثر الأثرياء الرومان من الجنسين أن يعيشوا مغامراتهم العاطفية في مكان آخر بعيداً عن روما. فاعتاد الناس منذ زمن طويل تزجية أشهر الصيف على شواطئ البحر وفي الدارات (villas) ومراكز الاصطياف. وأنشأ الحاذقون من رجال المال فيها مدناً صغيرة على مثال مدينة روما، وقدموا إلى محبي اللهو وتزجية الوقت كل ضروب التسالي المتوفرة في روما وتلك المنوعة فيها.

وكانت بائيس Baies من أكثر الملاذ رواداً، وبومبي من أشهرها، ففي هذه المدينة التي لا تبعد عن البحر كثيراً، وعلى سفح جبل فيزوف، ساحة عامة كساحة روما، ومعابد، وهمامات عمومية، ومطاعم، ومقاه، ونواد للقمار، وبيت للدعارة مطرقة البرونزية على شكل برياب، وفيها أيضاً مسارح تعرض المسرحيات، ومدرجات للمنافسات الرياضية واقتتال المجالدين.

الأتروسك والرومان

وكانت الرسوم الجدارية على جدران الدارات والمنازل الأخرى استنساخاً تصويرياً لفن الحب لأوفيد، بحيث أن دروسه في الحب، وقد تحولت إلى لوحات فنية، توجي إلى الشهوانيين المقيمين في المكان بأرهمف المتع وأشدها تنوعاً. صحيح أن همم اليراكين التي طمرت المدينة قد أتت على كل نسمة حياة في بومبي وخنقتها، لكنها ما برحت تحتفظ للأجيال القادمة بذكرى حية عن «الجب الرفيع».

الفهرس

الجزء الأول: الحضارات الشرقية

- تصدير المترجم للجزء الأول ٩
- الفصل الأول: الإنسان البدائي ١٣
- الفصل الثاني: سكان بلاد الرافدين ٦١
- الفصل الثالث: المصريون ١١٣
- الفصل الرابع: سكان الهند ١٦١
- الفصل الخامس: بنو اسرائيل ٢٢٣

الجزء الثاني: الحضارتان اليونانية والرومانية

- الفصل السادس: الإغريق ٣٧٥
- الفصل السابع: الاتروسك والرومان ٤٨٧



في هذا الكتاب يعرض المؤلف باختصار للعلاقة الوشيحة القائمة ما بين الرجل والمرأة - الذكر والأنثى - عبر مسيرة الإنسان الطويلة المديدة ، منذ نشأته حتى استيطانه إنساناً حضارياً في مدن ذات عالية التطور بعد أن تهيأت أسبابها : الجغرافية والبيولوجية والاقتصادية والبيولوجية والثقافية ... فخرج المؤلف على الإنسان البدائي لينتقل بنا ، بعد ذلك ، إلى بلاد الرافدين و من ثم إلى مصر فالهند و بني اسرائيل و الإغريق و الرومان...متطرقاً إلى الحياة الجنسية في تلك المجتمعات من خلال سياقها التاريخي - الحضاري ، ليشكل مع الأسطورة و الثقافة و البنية الاجتماعية لحمة متماسكة .

" و نحن إذ ندعو القارئ إلى الإلمام بالماضي ، بماضيه خاصة ، إلماماً يشمل أقصى منعرجاته ، فإننا ندعوه في الوقت نفسه إلى أن ينفذ منه إلى اليوم الذي هو فيه .." فالأصالة لاتستخف بالماضي ، و لا تنكر المستقبل ، و هي تتيقظ لغنى اليوم الحاضر .